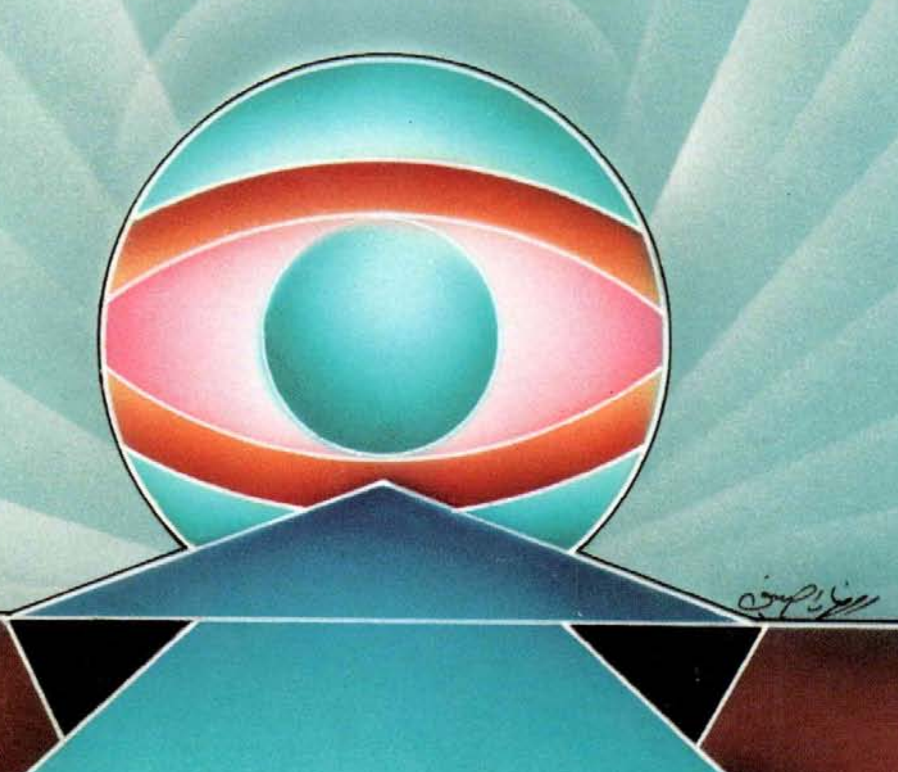
السيد عبد الحسين القزويني

رحلة إلى أعماق النفس



منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠



رحلة

إلى أعماق النفس

رحلة

إلى أعماق النفس

تأليف

السيد عبد المحسن القزويني

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات :

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة .

ملك الاعلمي - ص.ب ٧١٢٠ .

الهاتف : ٨٣٣٤٤٧ - ٨٣٣٤٥٣

PUBLISHED BY

Al Alami Library

BEIRUT - LEBANON
P.O. BOX 7120



ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

المقـدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله رب العـالمين، وصلّى الله على محمـدٍ وآلـه الـطيبيـن الطاهرين .

لا تعـرف الدنيـا مبدأ، أو نـظاماً، يـرعىٰ شؤون الحياة، رعـايـةً شـاملةً دقيقـة، كما يفعـل ذلك الـدين الإسلامي، فهـو يمتاز بـرعايـة الحياة المـادية والمعنـوية، ورعـاية أمـور الدين وأمـور الآخرة، وتتّسِم تعـاليمـه بـالشمـوليـة المـطلقـة، حيث لا تـدع بعـداً من أبعـاد الحيـاة إلاّ وتشملهـا هـذه التعـاليم والمناهج .

يهتم هـذا الدين بحيـاة الإنسان، منـذ انعقاد نـطفتـه، ويـرعـاه جنينـاً، ووليداً، ورضيعاً، وطفـلاً، وَكبيراً. . . . وحتىٰ النهاية، يستوعب دقـائق حياة البشرية، وتفاصيلها، ويعطيه من العناية والإهتمامِ ما لا حدَّ له ولا حصر .

لئن كـانت الأديـان السـائـدة المعـروفـة اليـوم، تهتم ببعض الجـوانب الروحية، وتعرض عن الجوانب المادية في حياة الإنسان. ولئن كانت الأنظمة الوضعية لا يهمّها سوىٰ البعد المادي في حياة الناس، ولا علاقة لهـا بحياتهم المعنوية والروحية .

ولئن كـانت مـوارد الاهتمـام في الأديـان والأنـظمـة تبقىٰ محـدودة، لا تستوعب كل الأبعاد .

فإن الإسلام، يتابع كـل الأبعاد، وكـل الشؤون، ويعنى بحياة الإنسـان بدقة ! ويهمّه كثيراً أن تكون حياةً طيّبةً هانئةً كريمةً، ويهمّه أن يحـظىٰ الإنسان

بسعادة الدنيا والآخرة، ويبلغ الخير في حياته وبعد وفاته .

وشيء آخر، يمتاز به الإسلام، دون المبادىء والأنظمة، يتمثل في النظرة السامية التي ينظر بها للإنسان. يعتبره خليفة الله في الأرض، والعنصر الأكرم في هذا الكون، وكل شيء في الكون مسخَّرٌ لخدمته وسعادته، فهو الخَلقُ الممتاز، والموجود المفضل على سائر الخَلق، شريطة أن يكون مؤمناً صالحاً، خاضعاً لربه سبحانه وتعالى .

ولا يتم ذلك للإنسان إلا بمعرفة نفسه، ومعرفة الوسائل التي يستطيع بها إصلاحها .

إن الإنسان الممتاز، ذلك الذي يمتلك نفسه، ويقوىٰ على زمّها، وكبح جماحها، ليمنعها من الانحدار والسقوط والانتكاس في الجهل والبهيميّة .

إن النفس هي المعيار والمقياس، في سمو الإنسان أو انحطاطه، فإن كان يحمل نفساً مهذبةً طاهرةً مستقيمة، فهو المطلوب. وإن لم يكن كذلك، فهو تافه صغير، لا يختلف عن البهائم في شيء .

إن علم الإنسان مهما كان غزيراً، لا يرفع بمستواه، إلا إذا كانت نفسه عالية، وإن عقله لا ينفعه في شيء إلا إذا كانت نفسه سامية .

قال علي عليه الصّلاة والسلام : **«كلما زاد علم الرجل، زادت عنايته بنفسه، وبذل في رعايتها وإصلاحها جهدَه»**[1] .

وقال عليه السلام : **«بالعقل كمال النفس»**[1] وقال : **«من لم يهذب نفسه لم ينتفع بالعقل»**[1] إن من أهم وظائف الإنسان، في هذه الحياة : البحث عن مكامن نفسه، وخباياها، وخفاياها، والتعرف على مكنوناتها، ليتسنىٰ له معرفتها بدقّة، ويصل بالتالي إلىٰ معرفة الحق والحقيقة .

«دخل رجل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا رسول الله، كيف الطريق إلى معرفة الحق؟ فقال : **معرفة النفس»**[2].

---

(١) غرر الحكم : ٢٤٨، ١٤٨، ٢٩٣ .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ٧٢/٧٠ .

وقال علي ﷺ : **«معرفة النفس أنفع المعارف»**[1] .

وعن الإمام محمد بن علي الباقر ﷺ : **«ولا معرفة كمعرفةِ نفسك»**[2] .

إن النفس البشرية، هي محور الحياة وأُسُّها، في خيرها وشرها، وعليها تبنىٰ قواعد حياة الفرد، ومنها ينطلق الإنسان باتجاه السعادة أو الشقاء .

وقد تكفّل الإسلام وحده، من بين المبادىء والأنظمة، برسم الطرائق، ووضع المناهج القويمة، من خلال القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وأخبار وروايات أئمة الهدىٰ، عليهم الصلاة والسلام؛ لإصلاح النفوس، وتقويمها، وتوجيهها، صوب الصلاح والهداية، وليس على المرء إلّا أن يتابع هذه البرامج، والأساليب النفسية، ويعمل بها ليحقق لنفسه الفوز الأكبر .

قال علي ﷺ : **«نال الفوز الأكبر، من ظفر بمعرفة النفس»**[3] .

وقال ﷺ أيضاً : **«نظر النفس للنفس، العناية بصلاح النفس»**[3] .

وإنني، ومنذ مدةٍ، تراودني فكرة الكتابة والبحث، في موضوع النفس، ودراسة النظريات الإسلامية عن هذا الموضوع، وكذلك الوقوف على النظريات والأفكار في علم النفس الحديث، ومحاولة الجمع بين الفكرتين والمقارنة بينهما في كتاب واحد .

ولقد بذلت بالفعل، في هذا الكتاب، جهداً متواضعاً، للإلمام ببعض الشذرات من علم النفس الإسلامي، ومحاولاته في معالجة الأمراض النفسيَّة، على ضوء آي الذكر الحكيم، والنصوص الشرعية الأُخرىٰ، وكذلك بحثت في بعض محاولات علم النفس الحديث بهذا الصدد، وتطرقت إلى بيان حالات النفس، وتقلباتها، وما تعتريها من الإقبال والإدبار. . . آمل بذلك،

---

(1) غرر الحكم : ٣١٩ .

(2) تحف العقول : ٢٠٨ .

(3) غرر الحكم : ٣٢٢ .

أن أكون قد أدّيتُ بعض الواجب في سبيل إصلاح نفسي، ونفوس الآخرين .

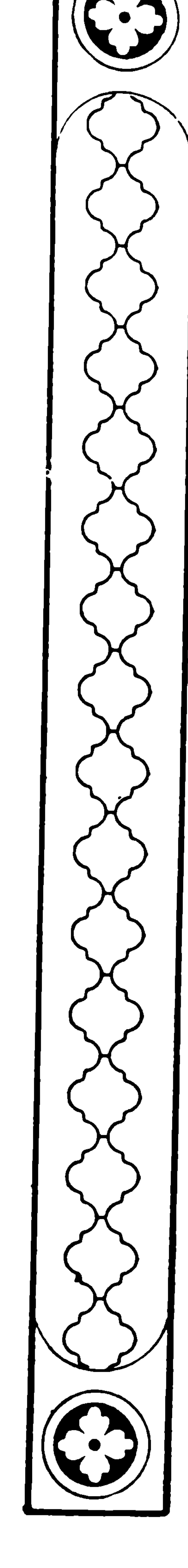
والكتاب، وإن لم يكن يحوي كل القضايا النفسية، إلا أنه يشتمل على فصول مهمّة، قد لا يستغني عنها الفرد في مسيرة حياته .

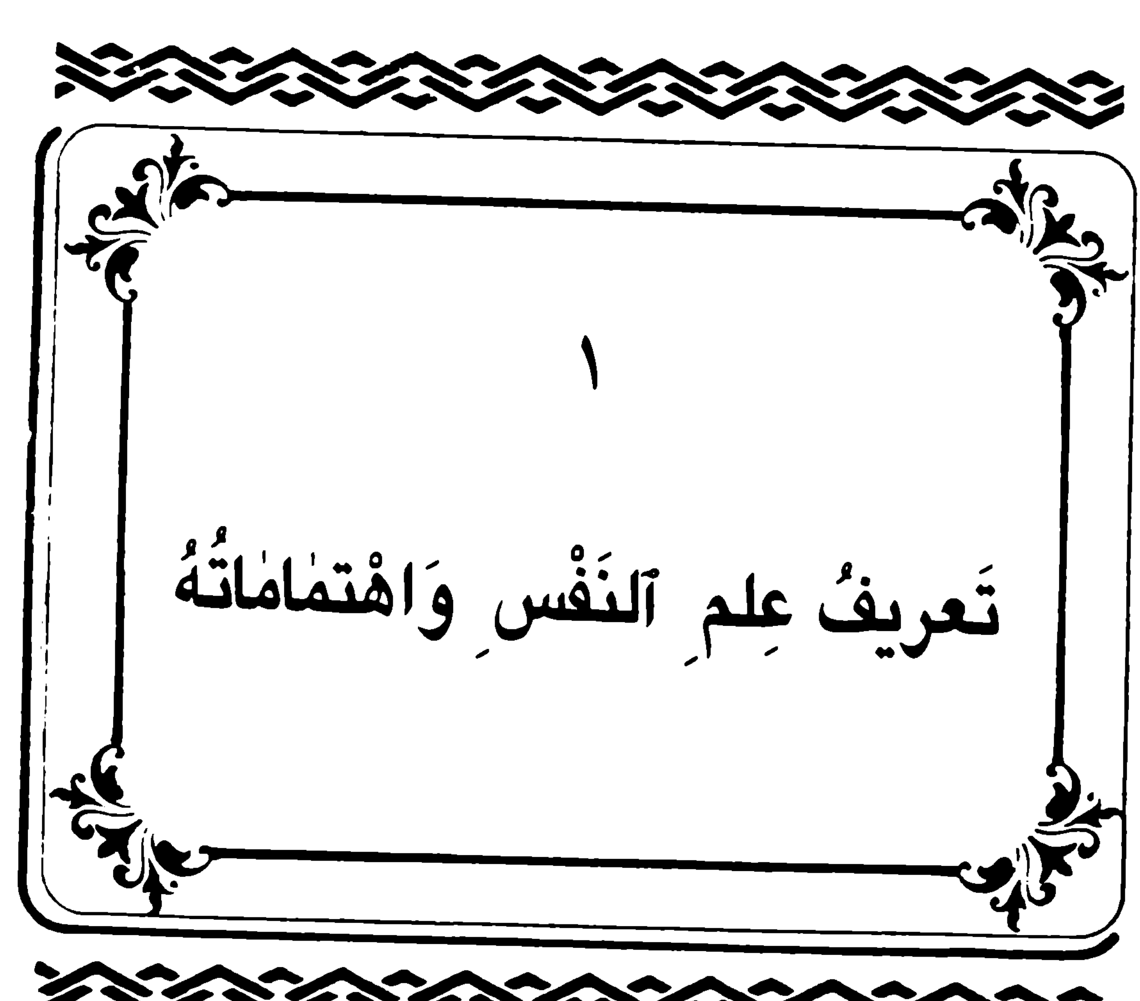
ولقد طعّمتُ الكتاب بالقصص الشيّقة التاريخية، لأن القصّة أقدر على النفاذ إلى النفس قياساً إلى غيرها من الوسائل الأدبية، فهي ترسم خلجات النفس، وتصور السِّمات والأخلاق والعادات بشكل مؤثر فعال، خاصة إذا كانت شريفة الغرض، نبيلة المقصد .

ولما كان الهدف من هذا الكتاب، السعي لتهذيب الطباع، وترقيق النفوس، وإصلاحها، كان لا بدّ من الاستشهاد بالقصص، لأنها ذات شأن رفيع في آداب كل الأمم، وقد وردت القصة في القرآن الكريم، وفي آثار الشعوب جميعاً. . . فأردت أن آخذ نصيبي من القصة في هذا الكتاب لتكون مواضيعُه، ومحتوياته، أقرب للنفس، وأعمق أثراً فيها .

ولقد سبق لي أن ألقيت محتويات هذا الكتاب، على شكل خطابات ومحاضرات رمضانية، في حسينية آل معرفي في الكويت سنة ١٤١٤هج، فقد كنت أخطب هناك كل ليلة من ليالي الشهر الفضيل، فكانت مواضيع هذا الكتاب مادة خطاباتي هناك .

وإنني إذ أشكر الله أن وفقني لإخراج هذا الكتاب، وأداء هذه الخدمة المتواضعة، أتقدم بالشكر أيضاً للاخوة القائمين على هذه الحسينية المباركة، على ما يبذلونه من جهود وطاقات كبيرة، لإقامة المجالس والدروس والمحاضرات، والقيام بتسجيلها صوتاً وصورة، وأسأل الله تعالى لهم الخير، وزيادة العمل الصالح وأن يتقبّل منا جميعاً، بكرمه ومنِّهِ ولطفه، فهو ولي التوفيق وهو المستعان .





١

تَعريفُ عِلمِ ٱلنَفْسِ وَاهْتمامَاتُهُ

سئل (كاتل Cattel) العالم النفسي الأمريكي المشهور : أن يضع تعريفاً لعلم النفس فأجاب بأن «علم النفس هو ما يعنى علماء النفس بدراسته» .

ولقد أراد كاتل بذلك أن ينبه إلى أننا إذا عرفنا موضوعات علم النفس، استطعنا أن نُعرّفَ علمَ النفس تعريفاً دقيقاً .

ولهذا فنحن نحاول أن نستعرض الموضوعات التي يكتنفها هذا العلم، أو التي ترتبط بشكل أو بآخر بهذا العلم، فإن ذلك سيساعدنا ـ لا شك ـ على تكوين فكرة صحيحة عن علم النفس، وسيجعلنا أقدر على وضع تعريف دقيق له .

وليس خافياً طبعاً، على أهل هذا الفن، أنَّ علم النفس يرصد كل نشاطات الإنسان تقريباً، ولا يدع عملية أو حركة أو نشاطاً إلا ويتدخل فيه .

وبعبارة أُخرىٰ : ما من نشاط للإنسان إلا ويكون لنفسه فيه تأثير بالغ، مباشر وغير مباشر .

من هنا تواجهنا تعاريف عديدة لعلم النفس، قد لا نحتاج هنا ذكرها جميعاً .

وقد حُددت اهتمامات هذا العلم، وأغراضه بشكل مفصل، أذكر ـ على سبيل المثال ـ بعضها :

١ ـ يعنى علم النفس بسلوك الكائن الآدمي، في شتى مجالات نشاطه، بيد أن الزاوية التي يشدد عليها في مجالات النشاط تنحصر في العملية التالية: (الاستجابة) حيال (مثير) معين...[١].

٢ ـ إن علم النفس، يعتمد على الاسلوب العلمي في بحوثه.

٣ ـ إن علم النفس، يدرس الظواهر النفسية على حالتها.

٤ ـ إن علم النفس، يبحث في علاقة الفرد بالبيئة التي يعيش فيها.

٥ ـ إن علم النفس، علم إيجابي يعمل على المساهمة في رفع شأن الأفراد والجماعات، وتحسين أساليب السلوك.

٦ ـ إن علم النفس، يدرس حالات الأفراد العاديين، والأفراد الشواذ أيضاً.

٧ ـ إن علم النفس، هو العلم الذي يبحث في دوافع السلوك، ومظاهر الحياة العقلية، الشعورية منها واللاشعورية، دراسة إيجابية موضوعية، تساعد على افساح المجال للقوىٰ والمواهب النفسية، كي تنمو، وتُستَغَل فيما يساعد على حسن التكيف مع البيئة، وما يؤدي إلى تحسين الصحة النفسية للأفراد والجماعات[٢].

هذه هي باختصار بعض أنواع السلوك التي يَهتم علماء النفس بدراستها، وبنظرة سريعة نلقيها على الموضوعات السابقة، يتبين لنا بوضوح، ان علم النفس يعنى بدراسة جميع أنواع السلوك الإنساني في جميع مراحل حياته المختلفة، وهو يحاول أن يستخلص من هذه الدراسة، المبادىء العامة للسلوك الإنساني. إن الإنسان كائن حي، يقوم بأنواع كثيرة من السلوك والنشاط، وتتسم جميع أنواع السلوك الإنساني بصفتين: صفة بدنية وصفة نفسية، ولا يمكن الفصل بينهما، فالتفكير مثلاً ـ وهو يبدو كأنه وظيفة عقلية بحتة، لا يمكن أن يتمّ بدون الاستعانةِ بعملِ الخلايا العصبية في المُخ.

---

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي ص: ١

(٢) علم النفس والحياة للدكتور محمد نجاتي.

ثم إننا حين نفكر، لا بد أن يكون الفكر مصحوباً ببعض الحالات النفسية، كالخوف، والفرح، والحزن، وما شاكل ذلك . . .

إذن أصبح هذا السلوك متكوّناً من حالة جسميّة، وحالة نفسيّة، وحتىٰ بعض السلوك الذي تغلب عليه الناحية البدنية، مثل لعب الكرة، أو السباحة، فإننا لا نستطيع أن نصفها بأنها بدنية بحتة، بل إنها تتضمّن كثيراً من الحالات النفسية الباطنية . . .

وهكذا فكل أنواع السلوك الإنساني، لا بد وأن تكون ذات طابع بدني، وآخر نفسي، ولكن بدرجات متفاوتة، ولا يمكن الفصل بين الحالتين بحال من الأحوال .

وعلم النفس يدرس جميع هذه الأنواع، انه يدرس الأفعال، كما يدرس الأحاسيس، والتخيلات وما يدور في الفكر .

«وإذا أردنا ـ بعد ذلك ـ أن نضع تعريفاً عاماً لعلم النفس لقلنا: انه الدراسة العلمية لسلوك الإنسان، ولتوافقه مع البيئة» .

«ونذكر في تعريفنا (الدراسة العلمية) لنؤكد أهمية تطبيق مناهج البحث العلمي في دراسات علم النفس، ونقصد بالسلوك، جميع أنواع النشاط الذي يصدر عن الإنسان، سواء كان حركاتٍ، أو انفعالاتٍ أو تعلماً، أو تذكراً، أو غير ذلك من أنواع النشاط الإنساني» .

«ونذكر (توافق الإنسان مع البيئة) لأن الإنسان لا يعيش منعزلاً، وإنما يعيش في بيئةٍ معيّنة، طبيعية، واجتماعية، ويصدر سلوك الإنسان أثناء تفاعله مع البيئة، وتوافقه معها»(١) .

من هنا أصبح من الطبيعي أن تتسع أبحاث علم النفس، لتشمل جميع الميادين التي تتصل بالسلوك البشري، وعلى هذا الأساس، برزت فروع كثيرة لعلم النفس، وكان لزاماً على الجميع أن يُلِمَّ ولو بأوليات علم النفس، ليكون في مقدوره تسيير دفة الحياة بشكل أفضل .

---

(١) علم النفس والحياة للدكتور محمد نجاتي .

فالخطيب ـ مثلاً ـ لا بدَّ له من أن يكون ملماً بشيء من القواعد النفسية، ليتعرف على نفسية مستمعيه، والمربّي كذلك، انه أحوج ما يكون إلى علم النفس، ليتسنّىٰ له تقييم نفسيات تلامذته، وكذلك الأم، لو كانت عارفة ببعض أصول علم النفس، لاستطاعت أن تقوم على تربية أولادها، وإدارة زوجها وبيتها بشكل أفضل وهكذا حتى يأتي الدور على الحِرفيّ والصناعيّ. . . وكل طبقات المجتمع .

ومن الميادين التي يخوضها علم النفس، أذكر على سبيل المثال :

١ ـ علم النفس العام :

ويعنى بدراسة المبادىء العامة لسلوك الإنسان، الراشد السويّ، ويستخلص الأسس العامة (النفسية) لجميع الأفراد وبصرف النظر عن الحالات، والمواقف الخاصة التي تختلف من شخص لآخر.

مثلاً : المبادىء العامة للتعليم، بصرف النظر عن المواضيع التي تُدرَّس، أو المواد التي تلقىٰ على الطلاب، أو السن التي يتعلم فيها الطالب، أو الظروف المحيطة بالتعليم، أو الأماكن التي يتم فيها التدريس، بصرف النظر عن كل ذلك، يهتم علم النفس العام بالمبادىء العامة في النفسية البشرية .

٢ ـ علم النفس الفسيولوجي :

ويتولىٰ دراسة الحالات العصبية، ووظائف الجهاز العصبي، محاولاً فهم الرغبات والأحاسيس، أو ما يعبَّر عنه في علم النفس الإسلامي بـ (الغرائز)، وسائر الدوافع .

٣ ـ علم النفس الفارق :

ويحاول هذا العلم، دراسة الفوارق بين الأفراد، والمجموعات، والطوائف، وآثار البيئة، والوراثةِ والمحيط فيها، ويستخدم علماء النفس، المقاييس النفسية المختلفة، والتجارب، لتحديد قوة الذكاء، والقدرات العقلية، وتقدير الفروق بين الأفراد، والجماعات، والسلالات، وبين الذكور

والاناث .

٤ ـ علم نفس الطفل :

ويقوم بدراسة نمو الطفل، والمراحل المختلفة التي تمرُّ بها عملية النمو، والعوامل المؤثرة، ويدرس شخصية الطفل، ويعنى بفهم سلوكه ودوافعه، في مراحل حياته المتفاوتة، مما يجعل الوالدين، أو سائر المربّين، أقدر على تربية الطفل، وتوجيهه .

٥ ـ علم النفس التربوي :

وهو الذي يلاحَظُ به مراحل النمو المختلفة، بحيث يتسنىٰ للمُربّين وضع المناهج الدراسيّة، التي تتناسبُ مع مستويات النمو المختلفة، ويشمل أيضاً الأسس العامة للتعليم، والأجواء التربويّة .

٦ ـ علم النفس الاجتماعي :

وهو يراعي العلاقات بين الطبقات من الناس، وتفاعل الفرد مع الجماعة، والتنشئة الاجتماعية للفرد، وكيفية تأثره بالنظام الاجتماعي، وبالثقافة التي ينشأ عليها، ويدرس هذا العلم سيكولوجية الجماهير، والرأي العام، والدعاية. . . وكثيراً من المشاكل الناشئة عن العلاقات بين الأفراد والجماعات كالتعصب، والمنازعات الطائفية، والطبقية، والثورات، والحروب . . . .

٧ ـ علم النفس الارشادي :

ويتولىٰ مساعدة الأفراد على التوافق في الحياة، وتهيئة الحياة المطمئنة، الخالية من المشاكل النفسية. وربما يصح التعبير عن علم النفس الإسلامي، بعلم النفس الارشادي، فإن التعاليم النفسية الإسلامية تقوم بنفس المهمة، وتؤدي نفس الغرض، وهو توجيه الفرد إلى العيش بسلام واطمئنان .

٨ ـ علم النفس التطبيقي :

إن كثيراً من الفروع التي سبق ذكرها، هي في الواقع، فروع لعلم

النفس التطبيقي، فعلم النفس التربوي ـ مثلاً ـ يقوم بتطبيق مبادىء علم النفس في ميدان التربية، وعلم النفس الصناعي ـ هو الآخر ـ يطبق مبادىء علم النفس في ميدان الصناعة، وهكذا . . .

ولعلم النفس تطبيقات أُخرىٰ كثيرة، لم يشملها هذا العرض الموجز لفروع علم النفس، ولذلك يحسن الاشارة إليها على سبيل الإيجاز والاختصار .

يطبق علم النفس في دراسته مشكلات الاسرة والزواج، للوصول إلى الأسباب التي تؤدي إلى سوء التفاهم، أو القطيعة بين الزوجين، وسبل القضاء على هذه المشاكل، وإزالتها، ليعود التفاهم والاستقرار إلى الحياة الزوجية، وتعود المياه إلى مجاريها .

ويطبق علم النفس أيضاً، في ميدان الخطابة، لتقوية نفس الخطيب، أو المتكلم، ولمعرفة أحاسيس المستمعين، والجماهير، لغرض التأثير الخطابي في نفوسهم، والأجواء النفسية التي يعيشها كلٌ من الخطيب، والمستمع .

ومن ميادين تطبيق علم النفس أيضاً، ميدان التجارة، وخاصة الإعلان التجاري، لدراسة الطرق الناجحة في التأثير على اتجاهات المزاولين لهذه المهنة .

ويطبق علم النفس أيضاً، على الآداب والفنون، لدراسة العوامل النفسية التي تؤثر على الانتاج الفنيّ للأُدباء والفنانين .

ويطبق علم النفس أيضاً، في السياسة لدراسة سلوك الإنسان السياسي، كالعوامل النفسية التي تدفع الناس إلى اعتناق بعض المبادىء السياسية، أو التي تدفعهم إلى تفضيل بعض المرشحين في الانتخابات، أو دراسة نفسية المستبدّين، والطغاة والظالمين، لمعرفة الدوافع والأسباب التي وراء طغيانهم، واستبدادهم، فالسياسي السوي الراشد، لا يمكن بأي حال من الأحوال، أن يطغىٰ ويستبد برأيه، ويعامل الرعية بقسوة وشدّة .

وعلى العموم، فإن علم النفس يمكن ـ في الواقع ـ أن يطبق في كل

ميدان يبذل فيه الإنسان نشاطاً لأنه يدرس أي ناحية من نواحي حياته، وأي ميدان من ميادين نشاطه .

من هنا كان الإقبال على دراسة علم النفس ضرورياً، لأنه مفيد من وجوه عديدة، فالموضوعات التي يدرسها علم النفس، لها علاقة مباشرة ووثيقة بحياتنا، وهو يساعدنا على فهم مشاعرنا أولاً، ثم فهم مشاعر الآخرين، ومعرفة انفعالاتنا، ودوافعنا، وأفكارنا، واتجاهاتنا، وأفعالنا إنه يزيدنا معرفة بأنفسنا .

وتأتي الإرشادات النفسية الدينية، لتؤكد أهمية معرفة النفس، ولتضفي على علم النفس جواً من الروحانية .

قال علي عليه السلام : **«العارف من عرف نفسه، فأعتقها، ونزَّهَهَا عَن كل ما يبعدها»**[1] .

ولعله يريد بكلمة (فاعتقها) تحريرها من قيود الآثام والانحرافات، التي تُثقِل كاهل النفس، وتسبّب لها الحرج والضيق .

ويعتبر الإمام عليه السلام ، جهل الإنسان بنفسه، أعظم الجهل، بل هو جهل بالخالق المتعال أيضاً .

قال عليه السلام : **«أعظم الجهل، جهل الإنسان بنفسه»**[2] .

وقال عليه السلام : **«أفضل العقل، معرفة المرء بنفسه، فمن عرف نفسه عَقِلَ، ومن جهلها ضلَّ»**[3] .

وقال عليه السلام : **«عجبتُ لمن يجهل نفسه، كيف يعرف ربه؟»**[4] .

وقال عليه السلام : **«غاية المعرفةِ ، أن يعرف المرءُ نفسه»**[5] .

وقال عليه السلام : **«كيف يعرف غيره، من يجهل نفسه؟»**[6] .

وقال عليه السلام : **«كفىٰ بالمرء معرفةً، أن يعرف نفسه، وكفىٰ بالمرء جهلاً، أن يجهل نفسه»**[7] .

---

(١) - (٧) الميزان في تفسير القرآن ج ٦ ص ١٧٣ .

وقـال ﷺ : **«من عرف نفسـه، كان لغيـره أعرف، ومن جهـل نفسه، كان بغيره أجهل»**[1].

وقال ﷺ : **«لا تجهل نفسك، فإن الجاهل معرفة نفسه، جاهـل بكل شيء»**[2].

وقال ﷺ : **«أعظم الحكمة معرفة الإنسان نفسه»**[3].

ويعدُّ الإمام ﷺ ، معرفة النفس ضالةً، ينبغي أن ينشدهـا المرء، وإلا تـاه في ظلمـات الحيـاة، ولم يكن بمقـدوره مـواصلة السيـر على الـطريق الصحيح .

قــال ﷺ : **«عجبت لمن يُنشِـدُ ضـالّتَـهُ، وقـد ضـل نفســه فـلا يطلبها»**[4].

ويعتبر معرفة النفس، والإحاطة بمكنوناتها، واسـرارها، وسيلة للوصول إلى غـاية سـامية وفي سبيـل ذلـك، لا بـد للمـرء أن يجـاهـد بعض الشيء، ويعاني في هذا الطريق .

قال ﷺ : **«من عرف نفسه تَجَرَّدَ»**[5].

وقال أيضاً : **«من عرف نفسه جاهدها، ومن جهل نفسه أهملها»**[6].

وقال أيضاً : **«من عرف نفسه، جَلَّ أمرُهُ»**[7].

وقـال ﷺ : **«من عـرف نفســه، فقـد انتهىٰ إلى غـايـة كــل معـرفـةٍ وعلم»**[8].

ويعتبر معرفة النفس بمثابة الإحاطة بكل المعارف والغايات، وهو كذلك بالفعل، لأن الإنسان مهما عظمت معرفته بنفسه، حـاول أن يَسُدَّ الثغـرات في حياته، وأن يصلح ما تعرض للفساد فيها، فهو يستزيد كل يـوم علماً، وديناً، وأخلاقاً، وتنظيماً لشؤونه . . .

قـال ﷺ : **«من لم يعـرف نفســه بَعُـدَ عن سبيــل النجـاة، وخبط في**

(١/٨) الميزان في تفسير القرآن ج ٦ ص ١٧٣ .

الضلال والجهالات» [1].

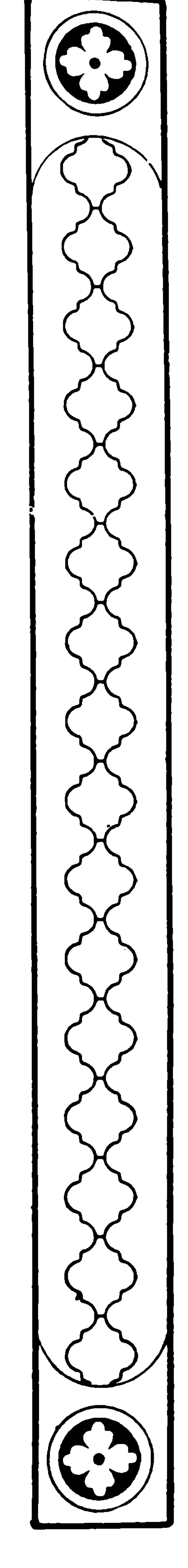
وقال : **«معرفة النفس أنفع المعارف»** [2].

وأخيراً، قال عليه السلام : **«نال الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس»** [3].

ولا يخفىٰ ما في هذه النصوص الشريفة، المروية عن سيدنا ومولانا، أمير المؤمنين عليه السلام ، من دلالة كافية، على أن علم النفس، ومعرفة خفايا وخبايا هذه النفس العظيمة، له أهمية عظيمة بالغة، تجعلنا أكثر اقتداراً على فهم أنفسنا، وفهم الآخرين، وإدراك سلوكنا وسلوك الآخرين ولا شك أن هذه المعرفة، تجعل الناس، أكثر قدرة على التفاهم، والتوافق فيما بينهم، وأقوىٰ على التعامل الصحيح، فيما بين الأفراد .

والمُلاحَظ، أن هذه الروايات والنصوص، كانت كلها تسلط الضوء على أصل معرفة النفس، وأهمية هذه المعرفة، دون تحديد للسبل والوسائل التي تؤدي إلى هذه المعرفة، وسنرىٰ ـ في الصفحات القادمة ـ نماذج من المنهج التفصيلي الواسع، الذي وضعه قادة الإسلام، وأئمة الهدىٰ عليهم السلام ، عن كيفية معرفة النفس، وطرق التوصل لهذه المعرفة، وبيان مواطنها، ومصاديقها .

(١/٣) الميزان في تفسير القرآن ج ٦ ص ١٧٣ .





٢

عِلمُ النَفْسِ الديني

ربمـا يَرِدُ سؤال : هـل يتعرض الـدين لهذه الأبـواب، والفـروع، التي ذكرناها آنفاً، كما يتعرض لها علم النفس الحديث ؟

وهل تَشمُل المباحث النفسية الـدينية، كـل جوانب السلوك الإنسـاني، كما يفعل ذلك علم النفس الحديث ؟

وللجـواب على هذا التسـاؤل، نقـول : إن الجـوانب التي يبحثهـا علم النفس الديني، أوسع بكثير مما يخوض فيه علم النفس الحديث، والمجـالات النفسيـة التي رصـدهـا القـرآن الكـريم، والـرسـول صلى الله عليه وآله وسلم ، وأهـل البيت الكـرام عليهم السلام ، أشمل بكثيـر، من هذه الـزوايا المحـدودة التي يناقشهـا علم النفس الأرضي .

ففي كتاب الله، دعوة صريحة إلى التأمّل والنظر في أعراض، وتأثيرات النفس الإنسانية العجيبة، وما تنطوي عليه من أسرار غريبة .

وثمّة عشرات الآيات الكريمة التي يحويها القرآن الكريم، والتي تتناول النفس الإنسانية، بمختلف جوانبها، وحالاتها، سـويّة وشاذة، خيِّرةً وشـرّيرة، مقبلة ومعرضة، فيسَمّيها تارة : الأمّارة بالسوء، في قوله تعالى : ﴿**وما أُبَرِىءُ نفسي انَّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوء**﴾[1] .

وتارة أُخرىٰ، يعتبرها المُلهَمَة، في قولـه تعالى : ﴿**ونفسٍ ومـا سوّاهـا**

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ٥٣ .

فألهمها فجورها وتقواها﴾ [1] .

ويدعو إلى تزكيتها، وتطهيرها من الشوائب، والأمراض، والزلات النفسيّة، والترصّد لها وتقويمها، على أساس من تعاليم الشرع الحنيف .

قال تعالى : **﴿قد أَفلَحَ من زكّاها، وقد خاب من دَسَّاها﴾** [2] .

وكثيراً ما ينسب الصفات إلى النفس، كالشّح مثلاً : **﴿وأُحضِرتِ الأنفُسُ الشُح﴾** [3] **﴿ومن يوقَ شحَّ نفسه فأُولئك هم المفلحون﴾** [4] .

والحديث في علم النفس الديني، يتميّز بكونِهِ نابعاً من مصدر إلٰهي . . . من الله عز وجلّ، خالق النفس، العليم بأسرارها وخفاياها، **﴿ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلم ما تُوَسْوِسُ بهِ نفسه ونحنُ أقرَبُ إليهِ مِن حَبلِ الوَريد﴾** [5] **﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟﴾** [6] .

والدارس لكتاب الله العزيز، يخرج بنتيجة: انه يحوي التوجيهات الكاملة، والكافية، لإنشاء نظرية نفسية، عجز عنها العلم الحديث، ناهيك عما ورد في الأحاديث، والأخبار، والروايات التي نقلت عن الرسول وآله الأطهار عليهم الصلاة والسلام، وكذلك عن سائر علماء وفلاسفة وحكماء المسلمين، ابتداءً بأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وانتهاءً بالعلماء الدينيين الأفذاذ في مجال النفس، وأعراضها، وحالاتها، وكلما يَمُتُّ إليها بصلة .

ولو حاولنا كمسلمين، أن نصل إلى حقائق النفس، وسبر اغوارها، والغوص في أعماقها، فإننا ـ ولا شك ـ نحوز قصب السبق في هذا المجال. ولاستطعنا الإحاطة الواسعة بعلم النفس وشؤونه، ووضع التفصيلات المتعلقة به موضع الدراسة والاستفادة، ولسوفَ نتقدم ـ لا محالة ـ على غيرنا، ممن

---

(١) سورة الشمس ؛ الآيتان : ٧، ٨ .

(٢) سورة الشمس ؛ الآيتان : ٩، ١٠ .

(٣) سورة النساء ؛ الآية : ١٢٨ .

(٤) سورة الحشر ؛ الآية : ٩، سورة التغابن ؛ الآية : ١٦ .

(٥) سورة قّ ؛ الآية : ١٦ .

(٦) سورة الملك ؛ الآية : ١٤ .

عالجوا هذه النفس بشكل انحرافي، غير قويم .

فغيرنا (كفرويد) مثلاً، يرى الإحساس بالذنب؟ مرضاً، والتوبة نكوصاً، والندم تعقيداً، والصبر على المكاره بروداً، وقمع الشهوات كبتاً له عواقبه الوخيمة، وآثاره السيئة.

بينما يقف الدين الإسلامي الحنيف، على النقيض في كل ذلك تماماً، فيعلمنا أن قمع الشهوات دليل على سلامة النفس وقوتها، وان الإحساس بالذنب علامة صحة، وأنّ التوبة موقف علم، والندمَ موقف علم، تدل جميعها على فطرة سليمةٍ سويّة، ونفس قويّة أدركت الله تعالى، وعرفت أنه مع الحق والعدل .

ولا يرىٰ الدين أن النفس محض فجُور، بل يصفها بأنها قابلة للفجور والتقوىٰ، ولا يرىٰ (فرويد) من الأحلام إلا الجانب الجنسي الحسيّ الشهواني، فالأحلام عنده، كلها (اشباع لرغبات مكبوتة) .

أما القرآن الكريم فيعلمنا: أن هناك نوعين من الأحلام، نوع يُطلق عليه (أضغاث احلام) حيث النفس الأمارة بالسوء وبالشهوات، وهو ما اشتغل (فرويد) بتفسيره .

ثم هناك نوع آخر من الأحلام، وهي الرؤىٰ التي تأتي إلى النفس من الملأ الأعلىٰ، ومثال ذلك الرؤىٰ الصادقة، وسيأتي الحديث عنها في فصل خاص، إن شاء الله .

كذلك (النسيان) ينظر إليه فرويد، على أنه حالة لاشعوريّة، بسبب موضوع مؤلم، أو كبت، بينما ينظر الدين إلى الموضوع، بمنظار مختلف تماماً، فالنسيان ـ تارة ـ يكون نعمة يُنعم الله بها على الإنسان، لكي لا تتحول نفسه إلى مخزن للهموم والأحزان، بل ينساها، ليعيش حياة طبيعية هادئة .

وتارة أُخرىٰ، يكون النسيان، نسياناً لله عز وجل، وآياته، ودلائله، وصفاته سبحانه وتعالى، فهو نقمة، ومصيدة للشيطان، فمن كان ذاكراً لله، قريباً منه، كانت نفسه مستجمعة للقوىٰ، حاضرة جاهزة، لا ينسىٰ شيئاً، ولا يغيب عنه شيء، لأنه في دائرة النور، اما البعد عن الله تعالىٰ فيدخل صاحبه

في دائرة الظلمة، وهؤلاء هم الذين يتخبطون في النسيان .

﴿ولا تكونوا كالذين نَسوا الله فأنساهم انفسهم أُولئك هم الفاسقون﴾[1] .

«ويختلف الدين في موضوع العلاج النفسي، فبينما لا يرىٰ فرويد، إمكانية تبديل النفس جوهراً، لأن النفس تأخذ شكلها في السنوات الخمس الأولىٰ من الطفولة، ولا يبقىٰ للطبيب النفسي دورٌ سوىٰ اخراج المكبوت إلى الوعي . . . يرى الدين إمكانية تبديل النفس وتغيير جوهرها، وإخراجها ـ مثلا ـ من ظلمة البهيمية إلى ذروة الكمال الأخلاقي»[2] وذلك بالمجاهدة مع النفس، ولا تنجح هذه المجاهدة، إلا بطلب العون من الله تعالى، فذروة العلاج النفسي في الإسلام، في ذكر الله سبحانه وتعالى: **﴿ألا بذكرِ الله تَطمئِنُّ القلوبُ﴾** [3].

والنفس مثار البحث، منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، فالفلاسفة القدامىٰ، وعلماء الأخلاق، والتربويّون. . إلى علماء النفس في يومنا هذا، يهمّهُم كثيراً البحث والجدل، في قضايا النفس، لكننا نعتقد اعتقاداً جازماً، أنَّ الإسلام، قام بتحليل النفس وتشريحها ثم تهذيبها، وتقويمها، ثم توجيه الناس إلى إصلاحها توجيهاً كاملاً ومتكاملاً، ودعىٰ إلى الاهتمام بها، كما لم يفعل أي دين أو مبدأ آخر، فالجميع يعتني بجانب من جوانب النفس ويدع جوانب اخرىٰ، بينما الدين الحنيف، احتواها من كل أبعادها، وعالجها معالجة أساسية كليّة .

ولدىٰ النظر إلى مجموعة التعاليم، والمناهج الإسلامية، نجد أن الشرع الإسلامي، بحث في كُنهِ النفس وذاتها، كما يبحث في آثارها، وعوارضها، بخلاف الآخرين الذين اكتفوا بالبحث في بعض اعراضها فحسب .

يقول العلامة السبزواري في منظومته .

---

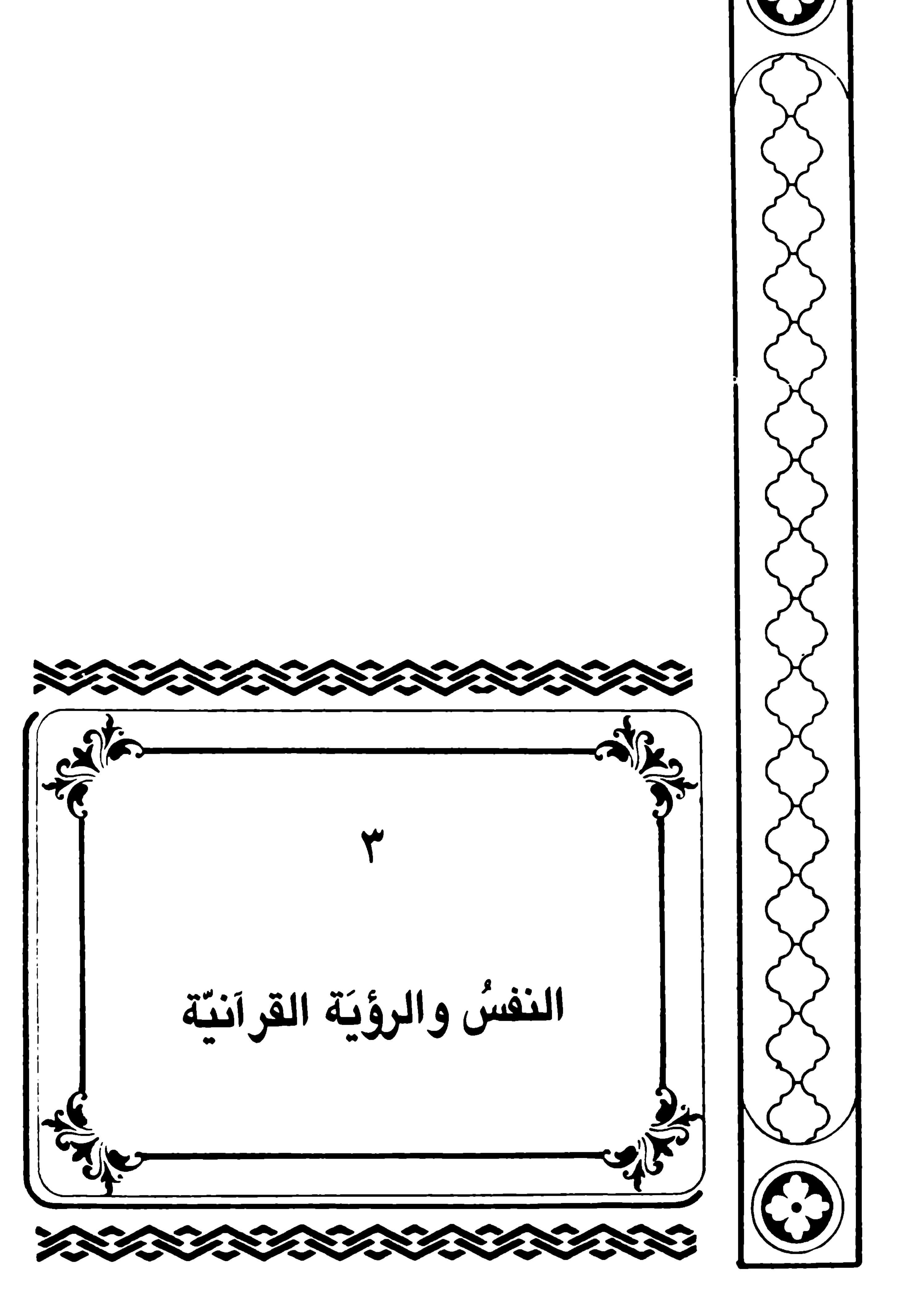
(١) سورة الحشر ؛ الآية : ١٩ .

(٢) التحليل والصحة النفسية : إبراهيم عبد الله والدكتور محمد مصطفىٰ زيدان .

(٣) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

النفس في وحدتها كلُّ القوىٰ   وفعلُها في فعلِها قد انطوىٰ

ومجمل القول : إن علم النفس الديني يتميّز عن غيره ـ فيما يتميز به ـ بسعة أبوابه التي خاضها في علم النفس، ولكن يبقىٰ علينا أن ننهل من هذا المعين العذب، الذي لا ينضب، ونغوص في بحار علوم الإسلام، لاستخراج لآلئه، ودرره الثمينة .



٣

النفسُ والرؤيَة القرآنيّة

﴿ونفسٍ وما سَوّاها فألهَمَها فجورَها وتقواها﴾ .

للنفس في القرآن الكريم، محلٌّ مرموق، وحديث طويل، والمُلاحَظ أن القرآن الكريم يريد بكلمة النفس - في بعض الأحيان - الإنسانَ بذاتِه، المتألفَ من لحم ودم وعظم، كقوله تعالىٰ : **﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّمَ الله إلا بالحق. . .﴾**[1] وكقوله تعالى : **﴿ليجزي الله كلَّ نفس ما كسبت إنّ الله سريع الحساب﴾**[2] .

وفي أحيان أُخرىٰ، يريد هذه القوة الباطنة، التي نحن بصدد البحث عنها، والتي تفعل وتنفعل، وتتقلب، وتتلون.

وقد تحدّث عنها في أكثر من موضع، معبراً عنها بكلمة القلب، ويريد به النفس، كما في قوله تعالى : **﴿. . . .ولكن حَبَّبَ اليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم﴾**[3] وفي قوله تعالى : **﴿. . . وليربط على قلوبكم ويُثبِّتَ به الأقدام﴾**[4] فالقلوب - في مثل هذه الآيات - ليس المراد منها ذلك الجهاز الكمثري الشكل، الموضوع في الجانب الأيسر من الصدر، إنما المراد - لا شك - النفس البشرية التي تفرح وتحزن، وتنشرح وتنقبض، وتخاف

---

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٥١ .

(٢) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٥١ .

(٣) سورة الحجرات ؛ الآية : ٧ .

(٤) سورة الأنفال ؛ الآية : ١١ .

وتطمئن . . .

ولما كان لا بد من الإشارة إلى النفس، أشار القرآن إلى القلب، الـذي هو ـ ربّما ـ وعـاء للنفس مجازاً، ولينـوب القلب المحسوس، عن النفس التي لا تُدرَك بالحواس، وربما اطلق القرآن كلمة الصـدر لتقوم مقـام النفس، كما في قوله تعالى : **﴿رَبِّ اشرح لي صـدري. . .﴾**[1] وكقولـه تعالى : **﴿ولقـد نَعلمُ أنّـكَ يضيق صدرُكَ بمـا يقولـون﴾**[2]، كل ذلـك كنايـة عن النفس لأنها المحور الحقيقي للانفعالات، والتقلبات .

ولتبيان عظمتها، وأهميتها، أقسم بها الله عز وجـل، في كتابـه العزيـز، والعادة أن يكون القسم الإلٰهي بـالشيء العظيم، فقـد جعل الشمس والقمـر، والنجوم، والبلد الحرام، وغيرها، من جلائل خلقه، مقسوماً بها .

كذلك النفس، أقسم بها في قوله تعالىٰ : **﴿ونفس وما سواهـا فألهمهـا فجورها وتقواها﴾**[3] أي : قسماً بالنفس، وبخالقها العـظيم، الذي فَـطَرَها، وخلقها، فعظمة الخالق تتجلىٰ في خلقه، وعظيم آثاره، ومنها النفس العظيمة العجيبة، التي ألهمها فجـورها وتقـواها «أي عـرَّفها طـريق الفجور والتقـوىٰ، وزهّدها في الفجور، ورغّبها في التقـوىٰ، وَعَلمها الـطاعة والمعصيـة، لتفعل الطاعة، وتذرَ المعصية وتجتني الخير، وتجتنب الشر»[4] .

ثم صـرح بأن عمليـة تزكيـة النفس، وإصـلاحها، ليست عمليـة شـاقّـة عسيرة، كما يظنّ البعض بل هي ممكنة ويسيـرة .

فقال عز من قائل : **﴿قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾**[5] .

فالمستفاد من الآيتين الكريمتين، أنّ الإنسان يملك الاختيـار في اتخاذ أي قـرار شاء لنفسـه، وأي طريق شـاء، طريق السـلامـة، أو طـريق العـطب

---

(١) سورة طه ؛ الآية : ٢٥ .

(٢) سورة الحجر ؛ الآية : ٩٧ .

(٣) سورة الشمس ؛ الآيتان : ٧ ـ ٨ .

(٤) تفسير مجمع البيان : ١٠/٧٥٥ .

(٥) سورة الشمس ؛ الآيتان : ٩، ١٠ .

والفساد، فقد وكَّل الله سبحانه إليه تزكية نفسه، وتقويمها، كما وكَّل إليه اضلالها وتلويثها إن شاء.

عن ابن عباس، رضوان الله عليه، (افلح من زكّى نفسه، أي طهرها، وأصلحها، بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دسّاها: أي أخملها، واخفى مَحَلَّها، وأهلكها، وجعلها خسيسة قليلة)[1].

وروي عن سعيدبن هلال، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذا قرأ هذه الآية ﴿قد أفلح منٍ زكاها﴾ وقف ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليّها ومولاها، وزكّها، وأنت خير من زكّاها»[2].

وتوحي الآيات الكريمة، أيضاً، أن الله سبحانه، يؤيد بنصره من يحاول تزكية نفسه، فقوله تعالى ﴿قد أفلح من زكاها﴾ لا تخلو من الإشارة إلى النجح والفلاح، في عملية التطهير، والتعديل، والتوجّه إلى الله تعالى، وهي نوع من الجهاد، بل هي الجهاد الأكبر ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾[3] ولما كان جهاد النفس من أكبر الجهاد، ومحاولة اصلاحها عمل إلٰهي، لا شك ـ حينئذ ـ أن الله عز وجل، يدعم هذا الجهاد بوسائله الجليلة، ولا يدع المجاهدَ يعاني من حبائل الشيطان ومكائده.

فالنفس التي ـ بطبيعتها ـ تأمر بالسوء بإلحاحٍ، ويحول الشيطان بينها وبين تزكيتها واصلاحها، قد يبدو تقويمها عسيراً، وثنيها عن السوء صعباً بعض الشيء.

﴿وما أُبرىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رَحِمَ ربي﴾[4].

قد يتراءى للإنسان في أول وهلة، أنّ صناعة نفس طاهرةٍ، نقيّةٍ، والقضاء على النفس السجينة الملوّثة، تكلفه فوق طاقته، وتحمّله فوق مقدوره، ولكن حين يأخذ بمجاهدتها، ويحاول إصلاحها ويمارس ذلك

---

(١) تفسير مجمع البيان: ١٠/٧٥٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) سورة العنكبوت؛ الآية: ٦٩.
(٤) سورة يوسف؛ الآية: ٥٣.

بالفعل، يتبين له، أن الله سبحانه وتعالى، لا يدعه وحده، بل يمهد له السبيل، ويفتح له الطريق، للوصول إلى هدفه السامي المنشود .

إن مثل النفس، مثل الطينة الرطبة، يمكنك أن تشكِّلَها كيف تشاء، ولكن لو اخترتَ لها قُبحَ السريرة، وسوء الذات ـ والعياذ بالله ـ تتجمد على هذه الصورة، وتأخذ هذا الشكل القبيح .

هنا يرىٰ (فرويد) أن النفس تتشكل في السنوات الخمس الأُولى، من أيام الصبا، فإذا تجاوز الإنسان سنّ الطفولة، لا يمكنه ـ حينئذٍ ـ أن يغير في نفسه شيئاً، ولكن الإسلام يرفض هذا الزعم، ويرىٰ أن بإمكان الإنسان أن يجالد نفسه، أبداً دائماً، وفي أي مرحلة كان من مراحل الحياة. فلو حاول تطهير نفسه، وتخليتها من الوسخ والكدر، والخطايا والذنوب، لوجد الله ناصِرَهُ، ومؤيّده، ومعينه، فالتعرض لنفحات الله، كافية للدخول في ظلّ رحمته تعالىٰ .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «**إن لربكم في أيام دهركم نفحات، فَتَعَرَّضوا لها. . .**»[1] فمن تعرض لها، كان كمن أغلق الأبواب على شياطين النفس، وفتحها لفيوضات رحمة الله عز وجل، واستعدَّ لتلقي العلاج . . .

كان كمن أزاح أعراض المرض، واستعدَّ لتلقّي العافية، وقبول الصحة والسلامة.

لا بد اذن، من إزاحة الأوساخ المتراكمة على النفس، المتمثلة بالمعاصي، والخلال السيئة حتى يتسنىٰ التقرب إلى الله عز وجل، وورود مناهل المعرفة والفضيلة. فالأخلاق السيئة، بمثابة الغطاء للنفس، تحجب عنها الفضيلة، ولا تدع للتقوىٰ مجالاً، ليتسرَّبَ إلى النفس، مَثَلُ النفس معها، مثل الاناء المملوء ماءً، فلا يمكن أن يدخله هواء .

فالنفوس المشغولة بغير الله، لا تدخلها معرفة الله، وحبُّهُ وأنسُهُ .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «**لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم، لنظروا**

---

(١) جامع السعادات للعلامة النراقي : ١٢/١ .

إلى ملكوت السموات والأرض»[1] .

فشيطان النفس، مانع وعائق في طريق العروج والرُقيّ، إلى محل التُقى والإيمان والفضيلة .

يقول العلامة النراقي، في كتابه (جامع السعادات) : (ثم ما لم تحصل التخلية، لم تحصل التحلية، أي ما لم تتم تصفية الخطايا والسيئات، لا يتم التحلي بالفضائل، كما أن المرآة، ما لم تذهب عنها الكدورات، لم تستعد لارتسام الصور فيها، والبَدَن، ما لم تَزُل عنه العِلّة، لم تُتَصوَّر له إفاضة الصحة. . . فالمواظبة على الطاعات الظاهرة، لا تنفع، ما لم تَتَطَهّر النفس من الصفات المذمومة، كالكبر، والحسد، والرياء، وطلب الشُهرة. . . .)[2] .

(والرحمة الإلٰهية) بحكم العناية الأزلية، مبذولةٌ على الكُلّ، غيرُ مضنونٍ بها على أحد، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب، وتصفيتها عن الخبائث، ومع تراكم صدئها الحاصل منها، لا يمكن أن يتجلّى فيها شيءٌ من الحقائق، فلا تُحجَبُ الأنوار عن قلب من القلوب، لبُخلٍ من جهةِ المنعم تعالىٰ، بل الاحتجاب إنما هو من جهة القلب لكدورته، وخبثه، واشتغاله بما يضادّ ذلك)[3] .

النفس اللوّامة :

ومن عجيب ما يحويه القرآن الكريم، من أمر النفس، هو اعتبارها (لوّامة) ﴿. . . . **ولا أقسم بالنفس اللوامة**﴾[4] تعتصر القلب ـ في بعض الأحيان ـ لكثرة لومها، على ما جنت يدا صاحبها من مآثم، واجترح من منكرات .

انه تأنيب الضمير، كما يعبَّر عنه في الاصطلاح النفسي، وهو من عظيم الدلائل على وجود الله تعالى، فلو كانت المادّة وحدها، أو الطبيعة وحدها،

(١) جامع السعادات للعلامة النراقي : ١٢/١ .

(٢) ـ (٣) جامع السعادات للعلامة النراقي : ١٢/١ .

(٤) سورة القيامة ؛ الآية : ٢ .

تتحكم في خلق الإنسان، فلا معنىً ـ حينئذ ـ للنفس اللوّامة، انها قوة باطنة، يسيرها الله عز وجل، لتلجم الإنسان من التمادي في الظلم، والغي، والحرام .

ولا فرق في لوم النفس بين مسلم وكافر، ومؤمن وفاسق، فالجميع لا بدَّ أن يستشعر اللوم والندم، في لحظة من اللحظات، على ما بدر منه من خطايا وآثام، في هذه الحياة، وقبل يوم القيامة، ليكون وَخزُ الضمير رادعاً عن التمادي في الزيغ .

فما من نفس برّةٍ أو فاجرة، إلا وهي تلوم صاحبها، وتقول: يا ليتني لم أفعل[1] أما لَوم النفس في الآخرة، وإن كانت وردت بذلك بعض الروايات، والأخبار[2]، ولكن لا طائل من ورائه، إذ يكون دور العمل قد انتهىٰ وَوَلّى، وبدأ دور المحاسبة، والثواب والعقاب، فما معنىٰ أن تلومَ الانسانَ نفسه ؟

واللوم يقع من النفس الفاجرة، كما يقع من النفس المؤمنة أيضاً، فالنفس الكافرة الفاجرة، تلوم صاحبَها، وتحاسبه في الدنيا، لما سلف منها من ذنوب، والنفس المؤمنة تلوم صاحبها على ما قصّرت في طاعة الله، وتوانت في جنب الله، أو ربما صدر منها بعض ما لا يرضي الله ولكن المتبادر إلى الذهن، من كلمة (النفس اللوامة) هو ما يعيشه أهل الظلم والفسوق والفجور، من تأنيب الضمير، لما ركبوا من أعمال منافية للدين والأخلاق .

كالحجاج بن يوسف الثقفي ـ مثلاً ـ حين عمد إلى سعيد بن جُبير، وقتله ظلماً، وعدواناً يحكىٰ عنه: انه كان ـ بعد قتله لهذا الرجل الفقيه الصالح ـ يقول: (مالي ولسعيد بن جبير) (طال ليلي من سعيد بن جبير)[3] .

وكذلك معاوية بن أبي سفيان، كان يؤرقه قتله لحجر بن عدي

---

(١) راجع تفسير سورة القيامة في تفسير مجمع البيان .
(٢) راجع تفسير سورة القيامة في تفسير مجمع البيان .
(٣) بحار الأنوار : ١٨٨/٢٥ .

وأصحابه، رضوان الله عليهم وكان يقول إذا تذكر قتله: (ليلي منك طويل يا حجر)!

ولوم النفس من السُنن الكونية التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان، ليكون قادراً على أن يمسك زمام نفسه، من اتباع الهوىٰ والشيطان، فالنفس البشرية، تنزع تارة للخير، وتارة للشر، تميل للتقوىٰ مرةً، وللفجور أُخرىٰ، ولكنها حين تنزع للشر، وتعمل بالسوء، تتحرك النفس اللوامة، لتفعل فعلها، وتؤدي دورها، لردع الإنسان، ومنعه، ومعاتبته على السوء والفجور.

وربما تموت النفس اللوامة، في بعض الناس، أو تعمىٰ، كما يعبّر عن ذلك القرآن الكريم:

﴿فانها لا تعمىٰ الابصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور﴾[1] فحينئذ لا تكون في الطريق إلى الضلال، حواجز ذاتية وموانع نفسيّة، لكي تصدَّ عن الأخطاء، والقبائح، والموبقات.

﴿ختم الله على قلوبهم وَعَلى سَمعِهم وَعَلى أبصارِهم غِشاوة﴾[2].

﴿في قلوبهم مَرَضٌ فزادَهم الله مَرَضاً﴾[3].

وعندها تتحكم فيه النفس الأمّارة بالسوء، وتسوّل له، لأنها الوحيدة على الساحة.

﴿كذلك سَوّلت لي نفسي﴾[4].

وتهوّن له ارتكاب الاثم، واجتراح السيئة، وتطوّع له الحرام.

﴿فطوّعَت له نفسه قتل أخيه فَقَتَلَهُ فأصبح من الخاسرين﴾[5].

---

(١) سورة الحج ؛ الآية : ٤٦.
(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٧.
(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٠.
(٤) سورة طه ؛ الآية : ٩٦.
(٥) سورة المائدة ؛ الآية : ٣٠.

وبمـا أن الله عز وجـل، عـالم بخبـايـا النفس، ومـطلع على أسـرارهـا ومكنوناتها، وما يخفي الإنسان فيها، فانه عز وجلّ، يعطي كلاً على ما تحويه نفسه، ويبادله بما هو أهل له .

﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾[1] .

﴿تعلم مـا فـي نفسي ولا أعـلم مـا في نـفسـك إنـك أنـتَ عـلاّم الغيوب﴾[2] .

إن الله تعالى ينظر إلى القلوب، ويرىٰ ما فيها بدقّـة، فإن كـان المرء ذا قلب ذاكٍ، نيّر، ونفس قابلة للهدايـة والإصلاح، تميـل إلى التقىٰ والإيمان، زاده الله إيمـانـاً وهـدايـة، وأعـانه على اصـلاح نفسـه، وَوَجَّهَـهُ إلى الخيـر والصلاح .

﴿ومن يؤمن بالله يَهدِ قلبه والله بكل شيء عليم﴾[3] .

﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً﴾[4] .

﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾[5] .

﴿إنّ يعلمِ اللَّهُ في قلوبِكم خيراً يؤتكم خيراً مما أُخِذَ منكم﴾[6] .

ومن كانت نفسه ملوّثة بالآثام، وقلبه مريضاً، بحيث صـار ميؤوساً منـه، لا ينفع معه صلاح واصلاح، ولا يستحق أن تشمله هداية، فـإن الله يَكِلُهُ إلى نفسه، ويزيده مرضاً إلى مرضه، وضلالاً إلى ضلاله .

﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جَبّار﴾[7] .

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ١١٦ .
(٢) سورة الإسراء ؛ الآية : ٢٥ .
(٣) سورة التغابن ؛ الآية : ١١ .
(٤) سورة الفتح ؛ الآية : ٤ .
(٥) سورة الحديد ؛ الآية : ٢٧ .
(٦) سورة الأنفال ؛ الآية : ٧٠ .
(٧) سورة غافر ؛ الآية : ٣٥ .

﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ [1] .

﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ [2] .

وفي القرآن الكريم، تصريح، بأن الوقوف في وجه النفس، وصدّها عن هواها، ومشتهياتها، بعزم وصلابة، ومجالدة رغباتها، ومجاهدتها، دليل على قوة الشخصية، وعظمتها، وبذلك يستحق الإنسان، أن ينال الجنة ثمناً لهذا الموقف الإلٰهي الجليل .

فالإنسان، حين يصمد أمام هوىٰ النفس، لأجل الله، ويُعرِضُ عن المشتهيات الممنوعة، فإنه بذلك يثبتُ كونه عظيم النفس، قويَّ الإرادة، فلا غَروَ لو تكون الجنة مأواه، ومنتهاه .

﴿وأمَّا مَن خافَ مَقامَ رَبّهِ وَنَهىٰ النَفْسَ عَنِ الهَوىٰ فَإنَّ الجنَّة هِيَ المَأوىٰ﴾ [3] .

يستشهد لنا القرآن الكريم، بموقف عظيم، من نبي كريم، هو يوسف الصدّيق، على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، ويشيد به، وبإخلاصه لله تعالى، حين راودته امرأة العزيز (زليخا) عن نفسه، وأرادت منه الفحشاء، وهو الشاب الحسن الوجه، الذي لا يخلو من شهوات ونفس أمّارة بالسوء، ولكنه أبىٰ، واستنكر بشدة، وغالب نفسه، وخالفها، ووقف موقفاً عظيماً، استحق به الخلود في الدنيا، والمقام الكريم في الآخرة .

﴿ولقد هَمّتْ به وَهَمَّ بها لولا أن رأىٰ برهان رَبِّهِ كذلك لنصرفَ عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين﴾ [4] .

إن مثل هذه المواقف، ليس لها جزاءٌ سوىٰ الجنةِ التي أعدّها الله للمتقين، وما أكثرها في حياة المؤمنين، والأخيار من الناس .

---

(١) سورة الجاثية ؛ الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الروم ؛ الآية : ٥٩ .

(٣) سورة النازعات ؛ الآية : ٤٠ .

(٤) سورة يوسف ؛ الآية : ٢٤ .

يـروىٰ أنه أصـاب الناس قحطٌ في أيـام أبي بكر، فشكـوا ذلك إليـه، فقال: انصرفـوا واصبروا فلمـا كان آخـر النهار، ورد الخبـر بأن قـافلة تجارية لبعض الصحابة، جاءت من الشام، فخرج الناس يتلقّونها، فإذا هي ألف بعير تحمل الحنطة والزيت والزبيب، فأناخت ببـاب هذا الصحـابي، فلما جعلهـا في داره، جاءه التجار، فقال لهم: ما تريدون، قـالوا: إنـك لتعلم ما نـريد، بعنا من هذا الذي وَصَل إليك، فإنك تعلم حاجة الناس إليه!

قال: حباً وكرامة، كم تربحونني على شرائي؟ قالوا: الدرهم درهمين، يعني ضعف ثمن شرائه، قال: أعطاني غيركم أزيد من هذا. قالوا: نعطيـك على الـدرهم، أربعة دراهم! قـال: أعـطاني غيـركم أزيَـد من هـذا! قـالـوا: خمسة! قال: أُعطيتُ أكثر من هذا.

قالوا له: لم يبق في المدينة تجارٌ غيرنا، وما سبقنا إليك أحَدٌ، فمن ذا الـذي أعطاك أكثـر منا؟ قـال: إن الله أعطاني بكـل درهم عشـرة، أعنـدكم زيـادة؟ قالـوا: لا. قال: فإنـي أشهِدُ الله أني جعلت مـا حملت هـذه العيـر صدقةً لله على المساكين، وفقراء المسلمين[1]!

إن هذا الرجل، كانت تدعوه نفسـه ـ لا شك ـ إلى الاتِّجار، والاستزادة من المـال، فإن النفس مجبـولة على حب المـال، والإنسان بـطبعـه حـريص عليه، وبخاصة لو كان هذا المال حلالاً، ولكنه جالد نفسه، وخالف هواهـا، وباع المال لله، ففرقه بين الفقراء وأهل الحاجة.

ربما تكون النفس تشتهي الحلال، وتهوىٰ المباح، ولكن المرء يحرمها من هذا الحلال، ويمنعها من هذا المباح، إيثاراً للآخرين، وريـاضة للنفس، وتقوية لإرادتها . . .

عن أبي عبد الله الصادق ﷺ: كـان علي بن الحسين، إذا كان اليـومُ الذي يصوم فيه، يأمُرُ بشاة فتُذبَح، وتُقطَّعُ أعضاؤها، وتُطبَـخ، وإذا كان عنـد المسـاء أكب على القدور، حتىٰ يجـدَ ريح المـرق، وهو صـائم، ثم يقـول:

---

(١) قصص العرب: ١/١٨٩ نقلاً عن غرر الخصائص: ١٥٣.

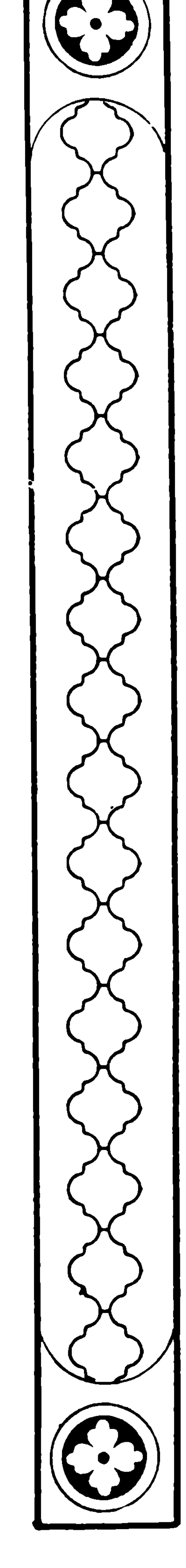
هاتوا القصاع، اغرفوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، حتى يأتي على آخر القِدر، ثم يكون إفطاره بشيء من الخبز والتمر(٢) !!

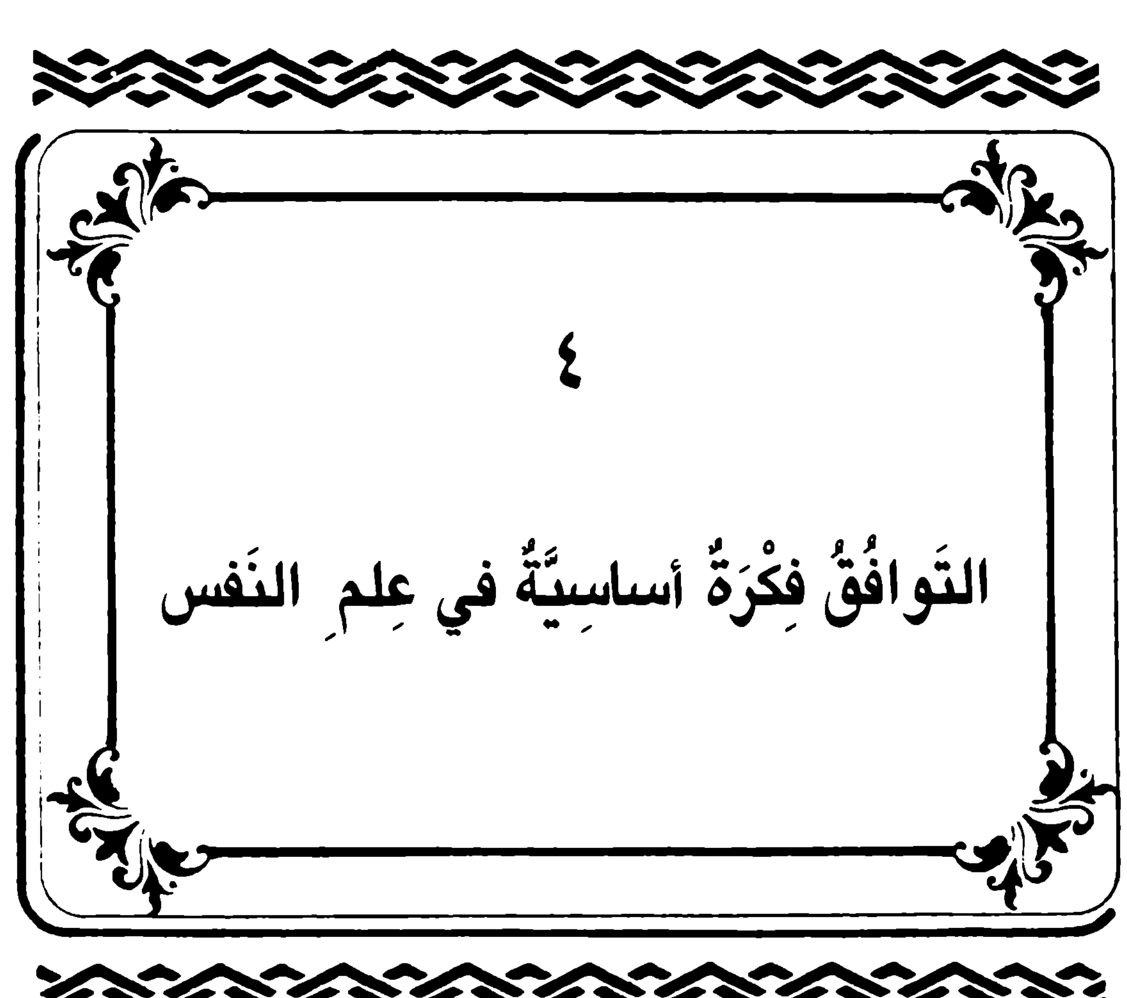
هكذا... يمنع نفسه من اللذائذ المباحة، ليشبع بطون الآخرين. ويزهد في أطايب الدنيا، لينال الحظوة الكبرىٰ، لينال الجنة.

وقد يجد الباحث في القرآن الكريم، ما يشبع رغبته من الحقائق، والأفكار، في مجال النفس، ويكتشف رؤية واسعة، أوسع بكثير ممّا أشرنا إليه في هذه الالمامة السريعة.

---

(٣) حياة زين العابدين لمحمد علي الدخيل: ٢٨.





٤

التَوافُقُ فِكْرَةٌ أساسِيَّةٌ في عِلمِ النَفس

يقول علماء النفس : إن الموضوعات التي يبحثها هذا العلم، كثيرةٌ ومتشعّبة، ومن الممكن عرضها بصور مختلفة كثيرة، غير أنه من الممكن أن نجد في (التوافق) مفهوماً أساسياً يمكن أن نستعين به في نظم جميع موضوعات علم النفس، في وحدة متكاملة، (ولعلَّ أبسط صورة للتوافق، ميل البدن الطبيعي إلى الاحتفاظ بحالة ثابتة من التوازن العضوي، والكيميائي . . . .) .

(فإذا ازدادت حرارة البدن ـ مثلاً ـ عن حدٍّ معين، بدأ العرق يتصبَّبُ بطريقة تلقائية، لكي تنخفض درجة الحرارة، ويعود البدن إلى حالته السابقة المعتدلة) .

(وإذا زاد أوكسيد الكاربون في البدن، زادت سرعة التنفس بطريقة تلقائية، لكي يتخلص البدن من هذه الكمية الزائدة من ثاني أوكسيد الكاربون) .

(وبالاختصار : فإن في الجسم ميلاً طبيعياً إلى الاستجابة للتغييرات التي تطرأ عليه، وإلى القيام بأنواعٍ معينة من النشاط، لكي يتخلص من هذه التغييرات، ولكي يعود البدن مرة أُخرىٰ إلى حالته الطبيعية السابقة، من التوازن والاعتدال) .

(ولا يتوافق الإنسان للتغييرات التي تحدث في داخل بدنه فحسب، بل يتوافق أيضاً، لكثير من المؤثرات التي تطرأ عليه، من البيئة التي يعيشها،

فالإنسان يعيش في بيئةٍ طبيعية معينة، وفي مجتمع خاص، له حضاراته، وعاداته، وتقاليده الخاصة) .

ويتفاعل الإنسان دائماً مع البيئة التي يعيش فيها، فهو يتأثر بها، ويؤثر فيها، وليست حياة الإنسان في الواقع، إلا سلسلة متصلة من التوافق مع البيئة التي يعيش فيها، فإذا نجح الإنسان في توافقه، استطاع أن يحتفظ بوجوده، ويبقي على حياته. وإذا فشل في توافقه، تعذرت عليه الحياة، وقد يؤدي ذلك إلى هلاكه) .

(ومن أمثلة توافق الإنسان مع البيئة، ما نشاهده من حدوث انفعال الخوف في مواقف الخطر، فحينما يجابه الإنسان موقفاً يهدده بالخطر، فإنه يخاف، وَيَحدثُ في بدنه أثناء الخوف، كثيرٌ من التغييرات الفسيولوجية، فتشتَدُّ دقّاتُ القلب، ممّا يُساعد على سرعة تدفّق الدم في الأوعية الدموية. . . . إلى محاصرة الدم للقلب، وهبوطه من الوجه. . . وهكذا نرىٰ انفعال الخوف، وما يصاحبه من تغييرات فسيولوجية، قد أدّى في نهاية الأمر إلى تهيئة الإنسان للقيام ببعض الأعمال العنيفة التي تتطلبها مواقف الخطر .

فانفعال الخوف إذن، عملية (توافقية) تساعد على بقاء الإنسان وحفظ حياته)[١] .

وحينما يشعر الكائن الحي بدافع معين، فإنه يقوم، عادة، بنشاط يؤدي إلى اشباع هذا الدافع، وهذا النشاط، هو ما نسميه عادة، بالتوافق، وتتم عملية التوافق في حياة الفرد بشكل دائم مستمر. فمثلاً: حينما يشعر الإنسان بالجوع، يدفعه هذا الشعور إلى البحث عن الطعام لسدّ الجوعة، وإشباع البطن، ليعيد إلى انسجته حالتها الطبيعيّة .

كذلك إذا شعر بالعطش، يدفعه ذلك الشعور للبحث عما يروي عطشه، ويحفظ أنسجته من العطب والتلف .

وربما شعر بالبرد القارس، فيسعىٰ إلىٰ التماس الدفء والحرارة، ليقي نفسه من البرد الشديد، وقد يشعر بالحر الشديد، فيبحث عن الجو المعتدل،

(١) علم النفس والحياة، الدكتور محمد عثمان نجاتي .

أو المكـان المبرَّد، ليستريـح من عنـاء الحـر . . وبتـدقيق النـظر إلى حيـاة الإنسان، تجد أن الحياة كلها كذلك .

هـذا عن الجانب المـادي في حياة الإنسـان، كذلـك الحال نسبـة إلى الجـانب الروحي النفسي فـربما دفـع الإنسان حسـده إلى الحقـد والانتقـام، وربما دفعه الغضب إلى الضرب والسب والتحطيم وربما دفعه حب المال، أو خوف الفقر، إلى الإثراء الغير مشروع . . . . وهكذا،

وهنا تظهر معادن الرجال، واختلاف النفوس، ومدىٰ قدرة الإنسان على اختيـار التوافق الأنسب والأصلح، أو زم النفس وكبـح جماحهـا امـام التـوافق السيِّىء.

وقـد تكون عمليـة التوافق ـ في بعض الأحيـان ـ أمراً سهـلاً، يقـوم بـه الإنسان من غير عناء ومشقة فقد يشعر بالبرد الشديد، ويجـد المكان الـدافىء واللباس الكافي، دون بذل مجهود يذكر .

وقد تكون عملية التوافق ـ في أحيان أُخرىٰ ـ أمـراً عسيراً شـاقاً، يكلفـه الكثير من العناء والتعب فقد لا يجد الإنسان طعاماً يسد به رمقه، في المكـان المألوف، فيحتاج إلى سعي حثيث، في أماكن أُخرى لم يألفها من قبل، حتى ينتهي به المطاف إلى العثور على الطعـام، وقد بذل مجهوداً كبيـراً في سبيل ذلك .

وعلى هـذا الأسـاس، تكـون ظـروف الحيـاة في تقلّب دائم، وتغييـر مستمـر، مما يجبـر الإنسان على تعـديل استجـاباتـه أو تغيير نشـاطاتـه، كلما تغيرت البيئة التي يعيش فيها .

والإنسان لا يحتاج إلى التوافق لإشباع دوافعه الماديـة فحسب، بل انـه يحتاج أيضاً إلى التوافق لإشباع كثير من الـدوافع النفسيـة والاجتماعيـة أيضاً، ولعل التوافق لإشباع الـدوافع النفسيـة والروحيـة والاجتماعيـة، أكثر صعـوبة وتعقيـداً، وأعظم خـطراً في حياة المـرء من التوافق لإشباع الـدوافع المـاديـة (البيولوجية) .

فالاسرة تكفل لأولادها ـ عادة ـ ما يحتاجون إليـه من طعام، ومـلابس،

ومأوىٰ، ولكن ليس ذلك هو كل ما يحتاج إليه الأطفال، فهم يحتاجون أيضاً إلى العطف، والحب، واستحسان الناس لهم، وإعجابهم بهم، كما يحتاجون إلى الشعور بالأمن والطمأنينة، ويحتاجون في بعض الأحيان إلى قضايا روحية ومعنوية، ويحسّون برغبةٍ عارمة في سَدِّ الفراغ الفكري، وفي تغذية العقل بالمفاهيم الصحيحة .

وإن عملية التوافق، قد تكون حسنة موفقة مناسبة، وقد تكون سيئة غير مناسبة، وثمَّة أمثلة كثيرة على ذلك في حياة الإنسان، ومما يزيد فهمنا لهذه العملية، أن نذكر بعض الأمثلة على ذلك :

١ ـ كان طفل يلعب بالكرة في حديقة منزله، فتعلقت الكرة بين أغصان شجرة عالية، وأراد الطفل أن يستعيدها، ليعاود لَعِبَه مرة ثانية، فأوصله فكره إلى أن يتسلق الشجرة، ولكنه عجز عن الإستمرار في تسلقها ليبلغ مكان الكرة، فعدل عن تلك الفكرة إلى فكرة أُخرىٰ، فجعل يبحث عن سلم ليستخدمه في الوصول إلى الكرة، ولما لم يجد سلماً في أطراف المنزل، عَنَّتْ له فكرة جديدة، وهي استخدام العصا لإسقاط الكرة من على الشجرة، فأخذ يبحث عن عصا طويلة، ليستخدمها في هذا الغرض، ولكنه لم يجد، وهكذا حاول محاولات كثيرة غير مجدية . . .

وأخيراً توصل إلى حل آخر، أخذ بعض الأحجار من الحديقة، وقذف بها الكرة فسقطت. واستطاع في النهاية التوصل إلى حل المشكلة التي اعترضته، ووصل إلى غرضه، فكانت عملية توافق موفقة .

٢ ـ فشل مرشح في الانتخابات الدائرة في بلده، ولم يحصل على الأصوات الكافية، لعدم كفايته وأهليته، فتملكه غضب شديد، نتيجة هذا الفشل، فجعل يكيل السباب والشتائم لهذا وذاك ويدعي انهم السبب في فشله .

إن هذا الشخص، لا يريد الاعتراف بالفشل، لأن الاعتراف بالفشل شديد الوقع على النفس ومؤلم، يجرح كبرياء الانسان، ويحط من كرامته، ولذلك صار يتهرب من مواجهة الواقع المرّ، والحقيقة المؤلمة، ويُرجِعُ الفشل

إلى تآمر الناس عليه، وجهلهم، وعدم معرفتهم .

إن سلوك هـذا الشخص يمكن أن يُفسَّر على أنـه عملية تـوافق، ولكنه توافق سيِّىء، وفي الوقت نفسه، يمكن أن يخفف عنه بعض الألم الذي يعانيه من الفشل، الناشىء عن عدم الكفاية والأهلية، أو من أسباب أُخرىٰ .

وكان عليه أن يواجه الحقيقـة، وينظر إلى الأُمـور بواقعيـة، ويبحث عن الحلول المناسبة .

وكذلك الحال في المفهوم الديني، فقد تدعو بعض الدوافع والرغبات، الإنسـان إلى البحث عن التوافق، ويكـون هذا التـوافق سيئاً من وجهـة النـظر الدينية، كمن يجد نفسه فقيراً فيدفعه ذلك إلى البحث عن المـال وعن وسيلة للاستغناء، فربما وُفِّقَ للحصول على المال بطريق صحيح وبوسائل مشروعـة، وربما حصل على المال ولكن بطريق حرام، واستغنىٰ بشكل غير مشروع يضرُّ بالدين والدنيا، فهو توافق سيِّىء دينياً .

من هنـا شدد الإسـلام، على كبح جمـاح النفس، ومنعها من الـزلـل، وزمِّها عند اختيار التوافق السيِّىء، ولمـا كانت الحيـاة، تتضمن عملية التـوافق بشكل مستمر، وجب ملاحظة النفس، ومراقبتها، ومجـاهدتهـا بصفة مستمـرة أيضاً، لتبقىٰ زاكية، طاهرة، نقية «قد أفلح من زكّاها» .

الـــدوافــع :

وللإنسان دوافع كثيرة، ورغبات متعددة، وإن أي دافع أو رغبة، يمكن أن يدفع الإنسان باتجاه البحث عن عملية توافق، لإشباع هذا الدافـع أو تلك الرغبة .

وللدوافع تأثير كبير في تـوجيه سلوك الإنسـان، فحينما ينبعث الـدافع، يشعر الفرد بحالة من التوتر، وحاجة ملحّة تدفعـه إلى القيام بعمـل يشبع هـذا الدافع، وتتنـاسب شدة التـوتر مـع شدة الـدافع، وعنـد اشباع الـدافع يـزول التوتر، ويؤدي ذلك إلى الشعور بالراحة واللذة .

فالغضب ـ مثلاً ـ دافع، يشعر معـه الإنسان بحـالة غيـر طبيعية، يشعـر

بتوتر نفسي وحالة تدفعه لاشباع هذا الدافع، فيبحث عن الوسيلة التي تناسب هذا الدافع، كالانتقام والضرب . . .

أو يعمل ما يأمر به الشرع، من كبت النفس، ومخالفة الهوىٰ، ومجاهدة النفس، فهو ـ بالنتيجة ـ لم يصل إلى التوافق، في إشباع دافعه، ولكنه كسب الأجر والثواب، وأزال التوتر بالوسائل المعنوية.

والغضب، وإن كان يُعَدُّ حالةً من الحالات الانفعالية، إلا أنه يؤدي أيضاً وظيفة الدافع، لأنه يوجّه سلوك الإنسان إلى غايات معينة .

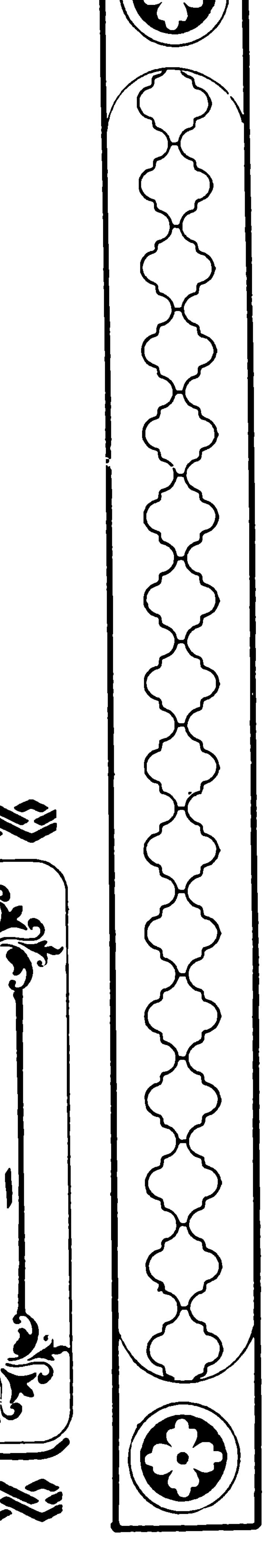
ومثال آخر : الخوف، فحينما ينبعث انفعال الخوف، يشعر الإنسان بتوتُّر شديد، يدفعه إلى الهرب من مصدر هذا الخوف، والابتعاد عنه، فيؤدي ذلك إلى إزالة التوتر، وإلى عودة الإنسان إلى حالته الطبيعيّة .

وهكذا، فكل سلوك، يصدر عن الفرد، إنما هو مدفوع بدوافع معينة، وقد تكون هذه الدوافع معروفة، في بعض الأحيان، أو تكون غير معروفةٍ في أحيان أُخرىٰ، أو تكون لاشعورية وتتطلب معرفتها شيئاً من المجهود والتحليل .

وقد قام علماء النفس، بكثير من الدراسات، لكي يتعرفوا على دوافع الإنسان المختلفة، الفطريّة منها، والمكتسبة، وأثرها في سلوك الإنسان، وهم يقومون بدراسة كل أنواع السلوك في الإنسان، ويهتمّون بها للوصول إلى الغاية المنشودة، إنما الفرق بين مناهج علم النفس الحديث، ومناهج علم النفس الإسلامي، هو أن الإسلام، كدين سماوي، ووحي إلٰهي، وضع الحلول، والعلاجات العامّة الشاملة، عن خبرة إلٰهيّة، سماويّة، لا يحتاج معها إلى دراسة النفوس، وأنواع السلوك ﴿**ألا يَعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[1] بينما يحتاج العلم الحديث أن يدرس أنواع السلوك، ويتابع أنواع الدوافع، ليصل إلى الحلول الاحتمالية .

---

(١) سورة الملك ؛ الآية : ١٤ .





٥

النَفْسُ وصِفاتُها الذاتِيَّةُ والعَرضِيّةُ

ثمّة بحثٌ في علم النفس، حول الصفات والأخلاق، أهي ذاتيةٌ طبيعية، مترسخة في النفس؟ أم انها عارضة، تتحول إلى ملكات، بتأثير البيئة والتربية، والعوامل الاخرىٰ؟

فقد قالوا في تعريف الخلق: (انه عبارة عن ملكة في النفس) و(الملكة طبيعة نفسيّة بطيئة الزوال).

والاختلاف واقع في كون الأخلاق والصفات، أهي قابلة للزوال، والتبدل، والتغيير، أم لا؟ وهو اختلاف قديم، تمسّكَ كلٌ من أصحاب الرأي برأيه، وأورد الأدلّة التي يدعم بها أقواله، وقد تشعّبت الآراء إلى ثلاث شعب:

١ ـ فمنهم القائل بإمكان التغيير في الطباع والسلوك، «كالغزالي في (الاحياء) والمحقق الطوسي في (الأخلاق).»[1].

إنما قالوا بالتفصيل بين من يمكن أن يغيّر من صفاته بسهولة ويُسر، وبين من يمكن أن يفعل ذلك، بصعوبة وعُسر، والناس تبع لاختيار ومزاولة الأسباب الخارجية للتأثير في سلوكهم وأخلاقهم..

ويستدل هؤلاء، باتفاق آراء الحكماء، والفلاسفة، وعلماء النفس،

---

(١) كشكول البهائي: ٢/٦٨٨.

على فعالية التربية في النفوس، وبخاصة نفوس الأطفال. فالطفل الصغير تنفعل نفسه بالتربية، سلباً وإيجاباً، بسهولة ويُسر، بينما يتأخر الكبير مدة حتى تنفعل نفسه .

واستدلوا أيضاً، بقوله تعالى : ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [1] فلو لم تكن تزكية النفس والتأثير في طباعها، وأخلاقها، ممكناً، لكانت الدعوة الإلٰهيّة لتزكيتها باطلة، وحاشا لله أن يقول لغواً، والآية دليل على إمكان التغيير فيها .

ويعضد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «**حَسِّنوا أخلاقكم**» [2] .

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**إنما بُعثتُ لأُتمِمَ مكارم الأخلاق**» [3] .

٢ ـ ومنهم من يقول بعدم إمكان التأثير في النفس، وعدم إمكان تغيير الأخلاق، لأنّها ذاتية، متأصلة، مترسخة، وربّما ورثها الإنسان عن أبويه، أو ربما نقشت في طبعه، منذ صغر سِنه، ونعومة أظفاره (كالنقش في الحجر)، حال النفس معها، كحال النار، التي هي ذاتية الاحراق والحرارة، فلا يمكن سلب الحرارة منها، وكورق الشجر الذي يغلب عليه الاخضرار، فلا يمكن أن نغيّر من لونه بشكل من الأشكال . . .

يقول بعض الأكابر :

لكل داءٍ دواءٌ يُستَطَبُّ به إلا الحماقة أعيَت من يداويها

وفي الديوان المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام :

وكلُّ جراحةٍ فله دواءٌ وسوء الخلق ليس له دواءُ [4]

ويحتج أصحاب هذا المذهب، بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «**الناس معادن، كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام**» [5] .

---

(١) سورة الشمس ؛ الآية : ٩ .

(٢) جامع السعادات للنراقي : ١/٢٤ .

(٣) جامع السعادات للنراقي : ١/٢٤ .

(٤) كشكول البهائي : ج٢/٦٨٨ .

(٥) جامع السعادات : ١/٢٤ .

فمن كان في الجاهلية كريماً، أو خيّراً، كذلك حاله في الإسلام. ومن كان في الجاهلية، متصفاً بصفات السوء، والأخلاق الدنيئة، كالبخل، وسوء الخلق، وخساسة النفس، وضعتها، يبقىٰ على نفس الأخلاق، لا يغيّر منه الدين الجديد شيئاً، لأنها أخلاق متأصلة، طُبع عليها.

وقد روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا سمعتم أن جبلاً زال عن مكانه، فصدقوه، وإذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوه، فإنه سيعود إلى ما جُبِلَ عليه»**[1].

(وفي أمالي الصدوق) عن الباقر عليه السلام، قال: اوحىٰ الله عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: إني شكرت لجعفر بن أبي طالب، أربع خصال.

فدعاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأخبره، فقال: لولا أن الله أخبرك، ما أخبرتك:

ما شربت خمراً قط، لأني علمت ان لو شربتها لزال عقلي، وما كذبت قط، لأن الكذب ينقص المروءة، وما زنيت قط، لأني خفت إذا عملت عُمِلَ بي، وما عبدت صنماً قط، لأني علمت أنه لا يضرُّ ولا ينفع.

قال: فضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، على عاتقه وقال: حقَّ لله أن يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكة في الجنة[2].

فهذه صفاته في الجاهلية، وهي صفاته في الإسلام، متأصلة في نفسه، كان يشعر بحاجز نفسي بينه وبين الإتيان بمثل هذه الرذائل، كان خيراً في الجاهلية، قبل أن يأتي الإسلام بمناهجه وتعاليمه، فهذا معدنه، وهذا طبعه على كل حال.

٣ ـ وهناك مذهب ثالث، يجمع بين الرأيين السابقين، ويفصِّلُ بشأن الأخلاق والصفات، فيرىٰ أن بعضها متأصل ثابت، ذاتي في نفس الإنسان، وبعضها عارض تعلق بالنفس، بتأثير العوامل التربوية، والوراثية، والبيئية.

---

(١) جامع السعادات: ١/٢٤.

(٢) شجرة طوبىٰ للمحدث المازندراني.

فأما التي عرضت للنفس، فتغييرها سهل يسير، وأما التي يقال عنها: انها ذاتية فطرية لا تجدي معها محاولات التغيير، إلا بشيء من المعاناة والمشقّة، وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «سيعود إلى ما جُبِلَ عليه» يوحي بهذا، ويفيد إمكان التأثير بالوسائل والأسباب والعوامل الخارجية، من رياضةٍ، أو تأديب، أو غير ذلك . . .

فهي ليست كزوجية الرقم (٤) حيث لا تنفكّ عن هذا الرقم بحال من الأحوال. بل هي كبرودة الماء، كونها ملازمة له، ولكن يمكن إزالتها بالوسائل والأسباب، فالماء بارد بطبعه وذاته، ولكن يمكن أن نجعله حاراً باضرام النار تحته، ويبقىٰ حاراً دافئاً ببقاء النار، فإذا زالت حرارة النار عنه عاد إلى طبيعته الأولية .

كذلك الصفات الموروثة، أو المتأصلة في النفس، (كالحدّة) مثلاً، فإنها تكون من ذات الإنسان، ومن طبعه، يكون المرء حادّ المزاج بالوراثة، فإن أباه كذلك كان، أو امّه كانت حادة الطبع، ثم انتقلت إليه، كما تنتقل إليه الصفات الأُخرى، كالحمق، أو الثرثرة، أو البخل . . . فلا شك أن للأبوين، وحتىٰ للأجداد، تأثير كبير، في توارث الصفات، والقسمات، كالطول والقصر، والبياض والسُمرة . . . .

وحال الأخلاق، حال الماء البارد، الذي يمكننا أن نجعل منه حاراً، ولكن بنوعٍ من المعاناة المستمرة والنفس في طباعها وأخلاقها، كذلك أيضاً، نحتاج في إصلاحها نوعاً من الرياضة المستمرة، والمجاهدة المتواصلة، ولهذا عُدَّ جهاد النفس، جهاداً أكبر، لأن جهاد العدو مرة، وجهاد النفس دائمٌ مستمر، ولأن جهاد العدو محدود بزمان ومكان، بينما جهاد النفس لا يتقيد بزمان ولا مكان، ولأن عدو الحرب ظاهر مكشوف، بينما شيطان النفس مستور لا يراه الإنسان . . .

«إن الجسم في سبيل الحصول على الرشاقة، يحتمل كثيراً من الجهد، ويحتاج إلى كثير من التدريبات، لا يصل إلى الرشاقة بدونها، ولكنه بعد ذلك ينعم بهذه الرشاقة ويحسّ بالخفة والانطلاق .

كـذلـك النفس، تحتــاج إلى تـدريبــات وجهـد، وامتنــاع عن بعض الرغبات، لتصل إلى الرشاقة النفسية، ولكنها بعـد ذلك تنعم بهـذه الرشاقة، وتحسّ بالخفة والانطلاق»[1] .

وكما أن بعض الوظائف الحيوية (كنمو الأسنـان) ـ مثلاً ـ يصحبـه شيء من الألم، فلو لم يكن في الجسم استعــداد لتحمّــل قــدر من الألــم، بــل استعذابه أحياناً، لمـا أمكن أن تتمّ هذه الـوظائف الحيـويّة في يسـر. كذلـك تكوين المثل والأخـلاق، يحتاج معهـا الإنسان إلى قـدر من الألـم والمعانـاة، وفي النفس استعداد لا يقل حجماً عما في الجسم من استعداد لتحمل الألم. وبذلك يصبح تكوّن هـذه المثل السامية، والأخلاق الحسنـة ميسراً للنفس، حين توجّه إليها .

وهنـاك أوجه شبـه متعددة بين ما يحدث للجسم، ومـا يحـدث للنفس، فـالعضلات في جسم الإنسـان، تأخـذ في التضخم والقوّة، بعـامل التـدريب المتـواصل، والـريـاضـة المستمـرة والاستخـدام الـطويـل، وتـذبـل وتذوي بالإهمال، حتى لتكـاد تعجز عن أداء وظيفتهـا، ولا تستطيـع اداء دورها كمـا ينبغي. كذلك الحالة النفسية، لا بد من رياضتها، وتدريبها لتقوىٰ، وتصلب، فإذا أهملت ذَوَتْ وضعفت، حتى كأنها غير موجودة، من هنا نجد العبد يعجز عن التصرف الحرّ، ليس لأن كيانه النفسي يختلف في أصله عن كيـان الحر، بل لأنه لم يستخدم أجهزة التصرف، ولم يُمرِّنْها على ذلك .

نعم، قـد يقـال: إن التّغييـر في النفس قـد يكـون نسبيـاً بـالـريــاضـة والمجاهدة والتربية .

قـال ارسطاطـاليس : (يمكن صيرورة الأشـرارِ أخياراً بـالتأديب، إلا أن هـذا ليس كلياً، فـإنه ربمـا أثر في بعضهم بـالزوال، وفي بعضهم بـالتقليـل، وربّمـا لم يؤثر أصـلاً)[2] لضعفِ السبب، أو عدم اجتيـاز المراحـل الكافيـة. فـالنفوس تختلف بـاختلاف استجـاباتهـا للعوامـل والأسبـاب، إذ قـد لا تؤثـر

---

(١) كتاب (في النفس والمجتمع) لمحمد قطب : ١٢٢ .
(٢) جامع السعادات للنراقي : ١/ ٢٥ .

الأسباب في المراحل الأُولىٰ ،فلا بد ـ حينئذ ـ من العبور بالوسائل إلى المراحل التالية، قد ننصح أحداً بالاقلاع عن التدخين، فلا تؤثر فيه النصيحة، لضعف في اسلوب الناصح، فلا تقع نصيحته موقع القبول، ولا تفعل فعلها في نفس المدخن عندها يجب تغيير الاسلوب .

وقد لا تؤثر النصيحة في المرة الأُولىٰ، فيلزم حينئذ تكرارها مرات ومرات، وهذا ما يعبر عنه بالتأثير المرحلي .

فالطفل الصغير الذي يتميز بنفس طاهرة شفافة، يستجيب للموعظة والنصيحة، لأول مرة يسمعها، ويذعن لأقوال أبويه، أو معلمه سريعاً، بينما الذي اعتادت نفسه الخلق السيِّىء يصعب عليه الإذعان للنصح للمرة الاولىٰ، فيجب تكرارها، وتكرار استخدام الوسائل لتقويم هذه النفس .

وإننا حين نتحدث عن تغيير النفوس، لا نقصد اماطة الصفات عنها كلياً، بل نقصد تهذيب الأخلاق والصفات، وتقويمها، بشكل تعتدل معه النفس . . .

فالماء البارد نسلب منه البرودة ليكون معتدل الحرارة، لا أن تصل به درجة الحرارة إلى حد حارق لا يمكن استعماله .

كذلك النفس، لا نريد لها افراطاً ولا تفريطاً في الجِبِلّات والطباع .

فالغضب ـ مثلاً ـ لا بد منه، ليدافع الإنسان عن نفسه، وليغضب لله، لو اقتضت الحال ولجهاد العدو . . .

والشهوة الجنسية، لا بد منها هي الأُخرىٰ، للتزاوج والتكاثر، والتناسل، فالمطلوب اخضاع كل الصفات، والطباع، والأخلاق، لقانون الشرع، ولأحكام الدين، وتعبئتها لصالح الحياة، وتوجيهها إلى الحد الوسط. فلو كانت النفس كذلك، أي منقادةً لمنهج الدين، بحيث تنطلق من أوامره ونواهيه، وتلتزم بآدابه وأحكامه، لوُصِفت حينئذ بالصحة والاعتدال .

تغاير النفوس :

إن نفوس بني البشر تختلف أيّما اختلاف!! وإن تشابهوا في الاشكال

والصوَر، فربما تجد شخصين يعيشـان في مجتمع واحـد، تحيط بهما أجـواء بيئيّة مماثلة، وربّما تساكنا في بيت واحد، وأظلّهما سقف واحد، وقد يكونان أخـوين، من أب واحد، وأم واحـدة، ولكنهمـا يختلفـان من حيث النفسيّـة، وأنماط السلوك أيّما اختلاف! وتتغاير أخلاقهما تغايراً يدعو للعجب، هذا حادّ المزاج، وذاك هادىء الطبع. وهـذا بخيل، وهـذا كريم، هـذا شريف النفس عـالي الهمّة، والآخـر بخـلافـه منحطّ النفس، عـديم الهمّـة! فكيف يحصـل هذا ؟

إن كان عامـل التربيـة له دخل في تهذيب النفـوس، فهذان تلقيـا تربيـة واحدة !

وإن كان عامـل الوراثـة يؤثر في السلوك والأخـلاق، فكلاهمـا من اسرة واحدة !

فما الذي يجعلهما إذن مختلفين، هذا الاختلاف الكبير ؟

لقـد سبق البحث عن صفات النفس، وقلنـا إنّ عامـل التربيـة، عـامـل حـاسم في انـطبـاع النفس بسلوك معيّن، وانـه يلعب دوراً فعـالاً في التخلق بخلق معين .

ولا زلنا نميل إلى هذا الرأي، ونؤكد أن التربية لها دخل كبير في أخلاق النـاس، وما نـلاحـظه من اختـلاف أخـوين في أخـلاقهمـا، وتمـايـزهمـا في صفـاتهما، وتفـاوتهما في الـطباع، ومـا نراه من تغـاير شخصين، وإن كـانت تحيط بهما ظروف مشابهة، وأجواء مماثلة، فإن ذلك مردّه إلى عوامل التربيـة أيضاً. إذ ربماوجّه الوالدان أحد أولادهما تـوجيهاً صـالحاً صحيحـاً في حين لم يفعلا ذلك مع غيره من الأبناء، فكان أن تخلق هذا وتأدب دون غيره .

أو ربما اختلفت أساليب الـوالدين، في المـراحل المتـأخرة من الحيـاة الزوجية، عما كانت عليه في بدايـة حياتهمـا، ولا شك أن الـوالدين يـزدادان خبـرة، وتجربـة، ونضجاً، في تـربية الأبنـاء، كلمـا مضت عليهمـا السنـون، ودارت الأيام، فيكون الولـد الثالث ـ مثلاً ـ أوفر حظاً في التربية الصحيحة من الولد الأول . .

أو ربما تلقىٰ بعضهم تربيته في فترة، كانت الأُسرة في حـالة، اختلفت عن الحـالة التي تلقىٰ الآخـرون من الأبنـاء تـربيتهم في نفس الأُسـرة. كمن عاش في بيت كانت الأُسرة تعاني فيه من الفقر، والعـوز، والحاجـة، وتركت هذه الحال آثارها الخـاصة، في سلوك بعض الأبنـاء، ثم كتب الله لهم الغنىٰ والإثراء، والحياة المرفهة بشكل أو بآخر، فعاش البعض الآخـر من الأبناء في ظـل هذه الحيـاة الجديدة المرفهـة، وتـطبعـوا بـآرائهـا ونتـائجهـا، واختلفت أخلاقهم، باختلاف ظروفهم الحياتية والمعيشية . . .

وهكـذا. . . ربما تختلف الـظروف، أو الأساليب، ولكن يبقىٰ العـامل التربوي عاملاً أساساً فعالاً في توجيه سلوك الناس .

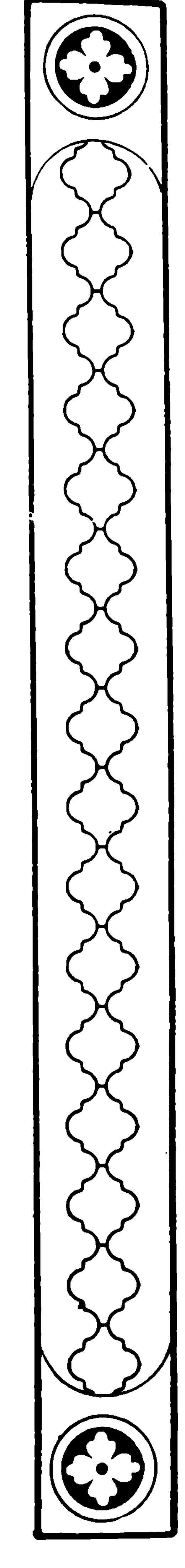
يقـال إنّ حاتم الـطائي، عظم مـوته على قـومه، وسـاءهم كثيراً، أن لا يجدوا مثله، يكون فخراً لهم بما عرف به من سخاء وجود عظيمين، فادعىٰ اخوه انه سيبلغ مقام أخيه، ويتحلىٰ بصفاته، ويكون مثله .

فلما أمسىٰ عاد إلى بيته، وأخبر أُمه بعزمه، فقالت له أُمه: هيهـات! لن تبلغ عظمة أخيك، فشتان بينكما، وبين خلقيكما، لقد ولد حاتم، فبقي سبعة أيام لا يرتضع، حتىٰ ألقمتُ أحد ثديَيَّ طفلاً من الجيران !!

وكنت أنت ـ حين وُلِدتَ ـ راضعاً أحـدهما، وآخـذاً الآخر بيدك، فـأنّى لك أن تكون مثل أخيك[1] كأنها تريد أن تقـول إنّ السخاء وسـائر الصفـات، قد تولد مع الانسان، كما أن البخل وغيره كـذلك والأولى أن تكـون العوامـل التربوية فعالة أيضاً، إن لم تكن في حاتم، ففي أخيه .

---

(١) ربيع الأبرار للزمخشري : ٦٦٨/٣ .





٦

تَقَلّبات النَفس

هل هناك ارتباط بين النفس والجسم ؟

انقسم أهل الرأي ـ في الجواب على هذا السؤال ـ إلى فرق متعددة، وتَشعَّبت الآراء حوله، ففي الرأي القديم، اعتُبِرَت النفس جوهراً أسمى، والجسم وعاء تَحُلُّ فيه النفس، هو وَطَن للنفس.

وفي المدرسة التجريبية، قالوا: إن الجسم هو الأصل، وهو منطلق كل أنواع النشاط الحيوي، من فِكرٍ، وحِسٍّ، وادراكٍ، وتذكّرٍ، وانفعالٍ، وتصرّف. وإن (النفس) انعكاس للنشاط الجسماني لا غير!

وقالوا أيضاً: إن الغدد هي التي تتصرف في كل نشاط من أنشطة الإنسان، وهي محلّ الغرائز، والميول، والنزعات.

خذ مثلاً: (الأمومة) لا يرون فيها شعوراً وحساً نبيلاً، بل هي ـ عندهم ـ غدَّة، لو أزيلت من موضعها زال الشعور بالأمومة من نفس الأم، ولو صادف أن حُقِنَت احداهُنَّ بخلاصة هذه الغدّة، لتمكَّنَ شعور الأمومة من نفسها، وإن لم تكن أماً في الواقع.

كذلك (الجنس) عَرّفوه انه نوع من الغدد، وان الإحساس به يزول باستئصالها من الجسم. وجاء العلم الحديث ليؤكد ذلك، ويضيف بعض الشواهد الأخرى... فالخوف، والشجاعة، والسخاء، والبُخل... كلُها إفرازات لغددٍ معينة، ربما تنقص أو تزيد تبعاً لإفرازات هذه الغدد[1].

---

(١) في النفس والمجتمع لمحمد قطب ص ١١٦.

ولكن، هـل صحيـح أنّ كـل هـذه المشـاعـر النبيلة، وغيـر النبيلة، والأحـاسيس النفسية، كلهـا مجرد إفـرازات عضويـة، وغير عضـوية، تفـرزها أجهزة الجسم المتعددة ؟

وهل صحيح أن النفس ليست إلا انعكاساً للنشاط الجثماني؟

إنّ الخلاف القائم بين النـظريتين، خلاف عـظيم، يؤثر كثيـراً في تقييم الحياة كَكُلٍ.

هـل ينبغي أن يعـامَـل الإنسـان، على أنـه نفس، فيكـون بحـاجـة إلى دروس الأخلاق، والتدريب على الفضيلة ؟

أم يعـامَل على انـه مجـرد جسم، فيعـطىٰ حُقن كيميـائيـة، ويقـوَّم في المختبرات المادية ؟

أما جواب الدين عن ذلك: فهو أن الإنسان يتـألف من العنصرين في آنٍ واحـد، يتألف من نفس وجسم، وأنّ أحـدهما يؤثـر في الآخـر. لا يمكن أن يهتم الإسلام بأحدهما ويدع الآخر. . . فالنفس لها آفاقها الخـاصة، والجسم له مجالاته الخاصة .

وطبيعي، أن على الإنسان أن يعطي كـلًا منهما حقـه، فلا يسـتـطيع أن يعيش بـلا غذاء، وإن نشـاطه الجسـدي، والفكـري، والنفسي، كله متـوقف على الغذاء اللازم، الذي يتناوله بين الحين والآخر . .

ولكن الفكـرة التي يبتدعهـا، والنشـوة التي يحسّهـا، والأحـاسيس التي تغتريه، ليست المعادل الرياضي لهذا الغذاء، وإلّا لكان الناس كلهم سواسية في مضمـار العبقريـة، والطاقـات الفكريـة. . . فالكـل يأكـل نفس الطعـام، ويتغـذىٰ جسمه نفس الفيتـامينات، والبـروتينات. فلمـاذا ـ إذن ـ هـذا ذكي، وهذا غبي؟ ولماذا هذا عبقري، وهذا جاهل؟ وهذا شجاع وهذا جبان ؟. . .

نعم، يمكن لحقنة من إفرازات داخلية لجسم متعب، أن يحوّل جسمـاً نشيطاً إلى تعِبٍ منهك. هذا صحيح، فالأجسام تتأثر بإفرازات أجسام مماثلة، ولكن الحُقن لّا يمكنها ـ بحال من الأحـوال ـ أن تُنشِيءَ افكاراً، أو فنـوناً، أو

عقائد تُشابه مثيلاتها عند صاحب الافرازات .

لقد صبَّ العلماء جُلَّ اهتمامهم على دراسة تأثير الجسم في النفس، ولم يلاحظوا ـ أبداً ـ تأثير النفس في الجسم . . ولكن الاسلام اهتمَّ بهذا الجانب، وأولاه عناية خاصة .

إن العلوم النفسية الدينية ـ كما قلنا سابقاً ـ أوسع دائرة من العلوم الحديثة، ففي العلوم النفسية الدينية، بحوث تفرّدَ بها الدين، في الوقت الذي عجز عن خوضها علم النفس الحديث، خذ مثلاً: التقلبات التي تنشأ في نفس الإنسان، والتبدلات التي تطرأ عليها ـ وهي من حالات تأثير النفس في الجسم ـ كما لو كانت النفس في حالة طبيعية وفجأةً، تغمرها حالة من الاكتئاب، والحزن، وانقباض النفس، أو عكس ذلك، قد يكون الإنسان مكتئباً حزيناً ولكنه ـ لسبب أو لغير سبب ـ تنبسط نفسه، وينشرح صدره .

قد تكون متعباً، متضايقاً، مهموماً، آيساً من الحياة. . . بمعنىٰ أن الافرازات الداخلية من الغدد، والأجهزة الأخرىٰ، سببت لنفسك هذا الإحساس، ووجهتها ـ بغير إرادتها ـ هذه الوجهة، ثم تقع عينك على شخص معين، تحبّه، وتستأنس إليه، فتنفرج أساريرك وتزول عنك تلك النظرة القاتمة إلى الحياة .

وهذا يعني ـ في النظريات الحديثة ـ أنّ الافرازات الداخلية من الغدد، والأجهزة الأخرىٰ، قد تغيّرت مناسيبها، وأنواعها، فرسمت لنفسك هذا المنحى الطارىء .

فما الذي حدث بالفعل ؟

هل مجرد النظر إلى الشخص المعيّن، هو الذي حرّك هذه الإفرازات ؟

أم عملية نفسية تركت أثراً مباشراً في النشاط الجسمي ؟

مثال آخر: قد تكون متعباً، منهوك القوىٰ، تعجز عن الحركة والنشاط، وتُحسُّ بحاجة إلى الراحة. ولكن ـ وبصورة فجائية ـ يخطر على بالك خاطر. . . إن المصلحة العامة، أو حبُّ فلان من الناس، أو الرغبة في زيادة

الكسب، وغير ذلك من الدواعي . . . تعطيك عزيمةً جديدة، فتندفع في العمل، والتحرك، بروح وَثَّابَة، وتشعر بالتعب قد زال عنك، وأنك قادر على الاستمرار في العمل، ساعاتٍ إضافيةً أُخرىٰ .

فما الذي حدث ؟

ومن أين جاءت الافرازات الجديدة؟ لتحل محل افرازات التعب الذي كنت تشعر به؟

والجواب: إن هذه التحولات، والتقلبات، تؤكد الارتباط الوثيق بين النفس والجسم، وإن هذه التقلبات تعزىٰ إلى الله تعالى، وقد لا يكون للغدد وافرازاتها دخل فيها، ويعجز العلم الحديث عن فهمها ويقف حائراً، لا يرىٰ تفسيراً مادياً لها .

بينما النصوص الدينية، تعزو كل ذلك إلى القوة الغيبية المهيمنة على الكون، وتقرر ان النفوس (بين اصبعي الرحمٰن) يقلبها كيف يشاء !!

﴿اعلموا أن الله يَحُولُ بينَ المرءِ وقلبِهِ﴾[1] .

ليست كل العوامل المؤثرة في النفس، حسية ماديّة، بل ومنها العوامل الغيبية التي تتعلق بالسماء. . فكثيراً ما تجتمع العوامل الحسية المادية، لتفعل فعلاً معيناً في النفس، ولكن الله عز وجل، يقلب الموازين، ويغيّر المقاييس في النفس، فيحدث خلاف ما كان متوقعاً .

ولتقريب المعنىٰ، أذكر مثالاً قرآنياً، لنفهم من خلاله، كيف يكون التحول في النفس الإنسانية .

عندما يكون أحدٌ مطلوباً لسلطان جائر، مستبد، ظالم، بتهمة كبيرة، أو ربما بتهم عديدة، وقد أمضىٰ مدة في التخفي والفرار، وها هو الآن يعود إليه متحدياً، منازعاً له في ملكه وسلطانه ترىٰ، كيف يكون موقف هذا السلطان؟ ألا ينبغي أن يبادر إلى القضاء على مثل هذا العدو بأسرع ما يمكن، والتخلص منه بأية وسيلة كانت؟ خاصة والمطلوب ضعيف، لا يقوىٰ على

---

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٤ .

الدفاع عن نفسه . . .

هذا ما حصل لموسىٰ عليه السلام ، مع فرعون، فقد كـان مطلوبـاً بقتل أحـد جلاوزة الطاغية، ففرَّ منه إلى (مدين) ثم عاد بعد عشـر سنوات، نبيـاً رسولاً، يهدد ملك الطاغوت بالزوال، مما يجعله في مواجهة ساخنة مع فرعون، وكان أصلاً، معرَّضاً للقتل، مـع من قُتِلَ من أطفـال بني إسرائيـل من مواليـد تلك السنة التي قتَّل فرعون فيها الأطفال، واستحيا النساء الإسـرائيليات، على أثـر التحذير الذي أطلقه الكهنة، ممن يولد في بني إسرائيل، وتكهنوا ان أحـدهم سيزيل ملكه، ويقوّض سلطانه فأسرف فرعون في تقتيلهم، وهتك نسـائهم . . ولم يَنـجُ منهم سـوىٰ طفـل واحـد، أراد الله لـه النجـاة والحيـاة، وهـو موسىٰ عليه السلام . . .

وها هو عائد إلى مصر، بعد غيبـةٍ دامت سنوات عديدة، حـاملاً رسـالة السماء، مما يعتبره فرعون تحدياً له ولسلطانه، وخروجاً على حكمه !

كل هذه العوامل تضافرت، واجتمعت ضـد موسىٰ عليه السلام، وكـان يُفتَرض بفرعون، أن يسارع إلى القبض عليه، ويأمر بقتله فـوراً، ودون أي تـردد في ذلك . .

وكان يُفتَرض بنبي الله مـوسىٰ، أن يدخـل مصر، على وَجَـلٍ ، وخوف، وحـذر، مما قـد يواجهـه من الأهوال، والمخـاوف، وأن يكون قلقـاً من لقـاء الطاغية . .

ولكن الله عـز وجـل، قَلّبَ القلوب، فـربط على قلب مـوسىٰ، ومنحـه قـوة، وصلابـة، في نفسه، واستجـاب لدعائه ، حيث قـال: ﴿رَبِّ اشرح لي صدري ويسِّرْ لي أمري واحلُل عقدةً من لساني يفقهوا قولي. . .﴾ (١) .

فـأجابـه الله تعالى، على الفـور ﴿قال قـد أُوتيتَ سؤلَكَ يـا موسىٰ﴾ (٢) فأعطاه قوة في نفسه ومنحه عزيمـة راسخة، دخـل بها على فـرعون، دون أن يحسّ بخوف أو قلق . . .

---

(١) سورة طه ؛ الآيات : ٢٥ ـ ٢٧ .

(٢) سورة طه ؛ الآية : ٣٦ .

وأثّر الله في نفس فرعون أيضاً، بحيث جعله يصبر على لقاء موسىٰ ﷺ، ويستمع إليه، ويناقشه بل وصار هو الذي يخاف من موسىٰ ويخشاه . .

فلو عُرِضت هذه المشاهد، من تحول النفوس، وتقلبها، على العلم الحديث، ماذا يكون جوابه عنها ؟ وكيف يفسرها ؟ وما هو دور الغدد والإفرازات فيها ؟ انه يحير في الجواب .

ولكن الدين يجيب عن ذلك، إن القلوب بيد الله تعالى، يقلبها كيف يشاء .

ورد عن الرسول ﷺ : **«إنما سمّيَ القلبُ من تقلُّبِه، إنما مثل القلب مثل ريشةٍ بالفلاة تعلقت في أصل شجرة، تقلّبها الريح ظهراً لبطن»**(٢) .

ولنرجع قليلاً إلى الوراء في حياة موسىٰ ﷺ، فلفرعون موقف عجيب آخر، قبل هذا الموقف، فعلت الإرادة الإلٰهية في نفسه ما لم يكن في حُسبان أحد، وأثرت فيه تأثيراً عظيماً، وَتَقَلَّبَ قلبُه تقلباً مفاجئاً . . . وذلك حين عثر رجاله على الصندوق الذي كان فيه موسىٰ ﷺ تتقاذفه أمواج البحر، وقبضوا عليه، فلما فتح الصندوق، وجد بداخله (الوليد المجهول) !! لم يشك أبداً، انه من بني إسرائيل، أُلقِيَ في البحر خوفاً على حياته، من بطشه بأبنائهم، الذين صاروا ـ في تلك السنة ـ عرضة للذبح والإبادة، ولِمَا تكهن به الكهنة من زوال ملكه على أيديهم وكان ذلك الوليد موسىٰ ﷺ، حكمت الإرادة الإلٰهيّة له بالبقاء والسلامة، وسط تلك الأخطار التي كانت تحفّ به فَوُلِدَ، وعاش وسَلِمَ، وألقته أُمه في البحر، بوحي من السماء، وجرفته الأمواج إلى ساحل فرعون . . .

والمتوقع ـ في مثل هذا الموقف ـ أن لا يتردد فرعون في قتل الوليد . . ولكنها العناية الإلٰهية التي لم تتخلَّ عن موسىٰ لحظة، وتصرف الله العظيم في نفس الطاغية، وإذا به ينقلب من قاسٍ عنيد، إلى أبٍ، رحيمٍ، حان .

---

(١) ميزان الحكمة : المجلد الثامن : ٢١٢ نقلاً عن كنز العمال .

يقول عز من قائل، عن هذا التحول في نفس فرعون :

﴿والقيتُ عليك محبةً مني، ولتُصنَعَ على عيني﴾[١] .

انها محبةٌ لم تكن موجودة في قلب فرعون، بل لم تكن متوَقَعَة منه، ولكن ألقاها الله في نفسه واستقرت فجأةً في قلبه، صَرَفَ الله فكرَه عن النظر إلى مستقبل هذا الطفل الذي قد يكون هو الذي يقوض أركان ملكه، وينهي حياته. . . أليست النبوءات أكدت له أن واحداً من بني إسرائيل، ممن يولد هذا العام، سيحطم حياته وملكه؟ فمن يضمن أن لا يكون هذا الوليد، هو الشخص المقصود؟. . وإن كان لا بدَّ له من تبنّي ولدٍ ما، فما الداعي أن يتبنّى هذا الرضيع الإسرائيلي بالذات ؟ كل هذه الأفكار والتصورات، ربما لم تخطر بباله، وتعلق قلبه بفعل الإرادة الإلٰهية، بهذا الطفل، وأحسّ بحب عميق يشدّه إليه. . وكان ما كان من أمره وأمر موسىٰ .

ترىٰ ماذا يقول علم النفس الحديث، عن هذا التحول والانقلاب، وكيف يفسر هذه الظواهرَ الغريبةَ، أعتقد أن العلوم الأرضية تعجز عن التعليق بشيء في مثل هذه الموارد، ولكن الدين يعتبر كل ذلك من الله عز وجل، ولا أثر للاعتبارات والحقائق المادية في ذلك، فالله ـ وحده ـ المؤثر في النفوس، ويعلم خائنة الأعين، ووساوس الصدور، وتقلبات القلوب . . . .

﴿ولقد خلقنا الإنسانَ وَنعلم ما توَسْوِسُ به نفسُهُ ونحن أقربُ إليهِ من حبل الوريد﴾[٢] .

﴿يعلم خائنةَ الأعيُن وما تُخفي الصدورُ﴾[٣] .

﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾[٤] .

ونقول في الدعاء المأثور: (يا مقلب القلوب. . .) .

---

(١) سورة طه ؛ الآية : ٣٩ .

(٢) سورة ق ؛ الآية : ١٦ .

(٣) سورة غافر ؛ الآية : ١٩ .

(٤) سورة المائدة ؛ الآية : ١١٦ .

الحجّاجُ يخالف سَجاياه :

ونظير ما كان من فرعون، يُنقل عن الحجاج بن يوسف الثقفي، (طاغية التاريخ المعروف) الذي راح مثلاً في الطغيان والجور، وإراقة الدماء.. حتى لا تجد كتاباً في التاريخ، إلا وينقل مشاهدَ من إزهاقه للأرواح، وقتله للأبرياء، على الظِنةِ والشبهة، بل وكان يقتل على الرأي والعقيدة ..

قتل سعيد بن جُبير، وقتل قنبر مولى علي بن أبي طالب ﷺ، وقتل، وقتل ...

ومع ذلك، قد يقلّب الله تعالى، قلب هذا الظالم، فيلين ـ في لحظة من اللحظات ـ ويرحم، وإليك مثال ذلك :

خرج زيد بن شبيب الشيباني في أيام عبد الملك بن مروان، فظفر به الحجاج، وبأصحابه وجعل يقتل كلَّ مقدور عليه منهم، فلما كان آخر الأمر، قُدِّمَ إليه رجل منهم، له سمتٌ ورواءٌ وهيأة فلما همَّ الحجاج بقتله، سمع ضجةً بالباب، فقال لحاجبه: ما هذه الضجة؟ قال: نسوةٌ بالباب، يسألن الدخول على الأمير. فقال الحجاج: أئذن لهنَّ بالدخول، فَدَخَلْنَ عليه، وهنَّ ثلاثٌ وعشرون امرأة، كلهنَّ أهل بيت هذا الرجل، الذي همَّ الحجاج بقتله .

فقال لهن الحجاج: ما حاجتكنَّ ؟ فتقدمت امرأة منهنَّ وقالت: أصلح الله الأمير، إن رأيتَ أن تجود باستماع ما أقول، فقال لها: قولي ما أحببتِ، فقالت :

أحجاج إما أن تمُنَّ بتركِهِ ... علينا وإما أن تُقَتِّلنا مَعا

احجاج لو تشهد مقام بناتِهِ ... وعمّاته يندبنه الليلَ أجمعا

أحجاج لا تفجع به إنْ قتلته ... ثمانياً وتسعاً واثنتين وأربعا

فمن رجلٍ دانٍ يقوم مقامَه ... علينا فمهلاً لا تزدنا تضعضعا

فلانَ الحجاج لقولها، ووجد رقة عليهن، وعفا عنه وأطلقه[1] ...

أليس عجيباً من الحجاج أن يلين ويعفو..؟ ولكنه الله، مقلب

---

(١) قصص العرب : ٢/ ١٤٤ .

القلوب، ومُغيّر الأحوال، والمتصرفُ في نفوس المخلوقين كيف يشاء، يجعل من الشديد القاسي، ضعيفاً ليّناً، ومن الليّن الرحيم قاسياً عنيفاً وهكذا. . . ذلك حين تقتضي مصلحته، وتحكم إرادته سبحانه وتعالىٰ .

ونظير ذلك أيضاً، ما كان من المنصور الدوانيقي، مع الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام . قال عبد الله بن أبي ليلىٰ، كنت بالربذة مع المنصور، وكان قد وجَّهَ إلى أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، فأُتيَ به، فلما حضر، صاح المنصور : عجّلوا به، قتلني الله إن لم أقتله، فأُدخل عليه مع عدة جلاوزة، فلما انتهىٰ إلى الباب، رأيته تحركت شفتاه ودخل، فلما نظر إليه المنصور قال: مرحباً يا بن رسول الله، فما زال يرفعه، حتى أجلسه على وسادة، ثم خرج الإمام من عنده، ولم يصبه سوء، قال الراوي: فسألته عما قاله عند دخوله على المنصور ؟

فقال: إني قلت: «ما شاء الله، ما شاء الله، لا يأتي بالخير إلا الله، ما شاء الله، ما شاء الله، كلُّ نعمةٍ فمن الله، ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1] .

كان لدعاء الإمام ـ لا شك ـ تأثير بالغ في تغيير نفسية هذا الظالم، الذي عرف عنه، إراقته للدماء، ومبالغته في قتل العلويين، وعداؤه الخاص للإمام الصادق عليه السلام .

وسبق له أن همَّ بقتل أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، غير مرة، فكان إذا بعث إليه، ودعاه ليقتله، فإذا نظر إليه هابَهُ، ولم يقتله[2] .

وكان للإمام عليه السلام ، مع المنصور، نهجٌ خاص، في تعريتِهِ للملأ، ومجابهته بما يكره من الحق ولم يَعِرْ أهمية لعتوه وتجبره، فيمضي في طريق الحق والهدىٰ، مجاهداً بقلمه، ولسانه. وقد سُئِلَ عليه السلام ، أي الجهاد أفضل؟ فقال: (كلمة حق عند إمام ظالم) .

إن المؤمن، لو قطع أنّ القلوبَ بيد الله سبحانه وتعالى، يقلّبها كيف

---

(١) الإمام الصّادق والمذاهب الأربعة : ٢/ ١٧٠ .

(٢) المناقب : ٢/٣١٧ .

يشاء، ويتصرف بها كيف يريد، اطمأن إلى ما تأتي بـه الأقدار، وفـوّض الأمرَ إلى الله، في كل حال، ولا بـدَّ ـ والحال هـذه ـ ان يحيا حيـاةً طيبة، هـانئة، خالية، مما يكدّر صفوها، وهدوءها، واستقرارها .

وهو من أنجع وسائل العلاج النفسي، لكل فئات وطبقات النـاس، وهو ـ بالنتيجة ـ ما يسعىٰ وراءه علماء النفس قديماً وحديثاً .

انشراح الصدر :

والقرآن الكريم، ينوّهُ بهذا العلاج، في سورة الانشراح، حيث يخاطب النبيَّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، بقوله تعالى :

﴿ألَم نشرَح لك صدرك، وَوَضعنا عنـكَ وِزرَكَ، الذي أنْقَضَ ظهـرك، ورفعنا لك ذِكرَكَ فإن مع العُسرِ يُسراً، إن مع العُسر يُسراً﴾ (١) .

فشـرح الصـدر: ذهـاب هَمِّـهِ، وزوال أسبـاب القلق، والاضـطراب، ومعلوم أن استعمال كلمة (الصدر) في السورة، كناية عن النفس، فالنفس هي التي تنقبض وتنشرح، وقد كنّى القرآن عنها بالصدر، ربمـا لأن الصدر متنفَس الإنسان، أو لأنه كان لا بد من الإشارة إلى النفس، بجزءٍ من جسم الإنسان، فكانت الإشارة تارة إلى الصدر، وأُخرىٰ إلى القلب، لأنهما موطنا النفس.

وقـد كانت نفس رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، تضيق، لِمـا كـانَ يحيط بـه من عوامل الأسىٰ، واجتلاب الهم، وما كـان يعيشه من تفكيـر دائم، عن مستقبل الـرسـالـة، ووضـع هـذا الـدين بين ظهــراني قـوم رفضــوا الأخـلاق والقيم الإسلامية، وعقدوا العزم على محاربة صاحب الرسالة،وهو ضعيف بين أعـداء غلاظٍ أشدّاء، وهو إلى ذلك خِلوٌ من المـال الكافي، لـدعم قضيته، في حين أن أعداءه أغنياء إلى حدّ التخمَةِ، يملكون وسائل التأثيـر في الناس بـأموالهم وإمكاناتهم، وهـو صلى الله عليه وآله وسلم ، ليّن الطبـع، حسن الأخلاق، وهم متعجـرفون، قساة لا يتوانون عن إيذاء وقتل من شاؤوا من أصحابه وجماعته . . .

ماذا يصنع مع هذا الواقع المرّ ؟

---

(١) سورة الإنشراح .

كيف السبيل لإصلاح هذه القلوب العمياء، والنفوس المريضة؟

من هنا، كانت تعتريه حالات من اليأس منهم، وتتكدَّر نفسه الشريفة كلما واجَهَ نوعاً من هذه المعاناة. . .وكانت الآيات تنزل عليه تترى عليه من الله عز وجلَّ، تسليه، وتُرَفِّه عن نفسه الكريمة، وتجبر خاطره، وتأمره بالصبر، والثبات، والاستقامة، والمثابرةِ في العمل، ومواصلة الدرب .

﴿فاصبِرْ لِحُكمِ رَبِّكَ ولا تكن كصاحِبِ الحوت. . .﴾[1] .

﴿واصبِر لحكمِ رَبِّكَ فانكَ بأعْيُنِنا﴾[2] .

﴿فاستقم كما أُمِرْتَ﴾[3] .

﴿وَلَقد استُهزِئَ بِرُسُلٍ من قبلك﴾[4] .

ورغم ذلك، كانت نفسه صلى الله عليه وآله وسلم ، تنقبض أحياناً، حين تتراكم الهموم عليها، فلا يرىٰ في الأُفق بصيصاً من أمل، ولكن الله عز وجل، إصلح شأن هذه النفس النبوية الكريمة، فأزاح عنها أثقال الهموم، ووضع عنها أوزار الغموم، وشرح صدرَ نبيِّهِ المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم ، فطابت نفسه، واطمأنت لرحمة ربّها، ففوض الأمر إلى الله تعالى، وأيقن أن الله ناصِرَه وحاميهِ، ومؤيّده .

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: سأل رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أينشرح الصدر يا رسول الله؟ قال : نعم فقال: يا رسول الله، وهل لذلك علامةٌ يعرفُ بها؟ قال : نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإعداد للموت، قبل نزول الموت[5] .

وبعبارة أُخرىٰ، ينشرح الصدر باليأس عما في أيدي الناس، والانقطاع

---

(١) سورة القلم ؛ الآية : ٤٨ .

(٢) سورة الطور ؛ الآية : ٤٨ .

(٣) سورة هود ؛ الآية : ١١٢ .

(٤) سورة الرعد ؛ الآية : ٣٢ .

(٥) مجمع البيان للطبرسي : ١/٧٦٩ .

إلى الله عز وجل وتذكر الموت، والاعتماد على الله في كل حال. . . فالمؤمن لو تحلىٰ بهذه الصفات، رضيت نفسه بما قدر الله له، وبالواقع الـذي يعيشه، فيطمئن، وترتاح نفسه .

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [(١)] .

وتعرض سورة الانشراح، حالتي العسر واليسر اللتين تكتنفـان حياة بني البشر،ولا يخلو منها أحد، ما دام يتمتع بالحياة في هذه الدنيا، فـالمرء يتنقـل بين العسر واليسر أبداً دائماً، لأن ذلـك من سنن الكون، ومن قـوانين الحياة، وعلى هذا لا ينبغي أن يُحمِّلَ الإنسان نفسه ـ في حـالة العسـر ـ فوق طـاقتها، فيقلق للمستقبل، وييأس من اليسر والفرج. بـل عليه أن يكـون مطمئنـاً بِرَوح الله سبحانه، وانه تعالى، لا بد أن يعقّبَ عسره يسراً، وشدته فرجـاً **﴿فإن مـع العسر يُسرا، إن مع العسر يسرا﴾** فيكون بذلك يحيا يسراً بـالفعل، أو يكـون بانتظار يُسر .

عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى، في حديث قدسي :

«خلقتُ عسراً واحداً، وخلقتُ يسرين، فلن يغلبَ عسرٌ يسرين» [(٢)] .

وقـال الفرّاء النحـوي: إن العرب تقـول: إذا ذكرتَ نكـرةً، ثم أعدتهـا نكـرة، صارت اثنتين كقـولك: إذا كسبتَ درهمـاً فأنفق درهمـاً، فالثـاني غير الأول، بخلاف لو ذكرت معرفـة وأعدتهـا معرفـة، فالثـانية نفس الأُولىٰ. وفي الآيتين ذُكِـرَ العُسرُ معـرفةً، وذكـر اليسر نكـرة، فكان اليُسـر يسرين، والعسـرُ واحداً.

وروي أنه لما نزلت سورة الانشراح، خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرحاً مسـروراً يقول: **(لن يغلب عسرٌ يسرين)** [(٣)] وقال شاعـر:

إذا بـلغ الـعـسـر مـجـهـوده	فثق عنـد ذاك بيسـرٍ سـريـع
ألَـم تَـرَ نحسَ الشتـاء الفـظيع	يتلوه سعـد الـربيـع البـديـع

---

(١) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

(٢) مجمع البيان : ١٠/ ٧٦٩ .

(٣)مجمع البيان : ١٠/ ٧٦٩ .

وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، انه قال : «**لو كان العسرُ في حُجْرٍ لدخل عليه اليسر حتى يُخرِجَه**» ثم قرأ : «**إن مع العسر يُسرا**»[1] .

وروي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام ؛ «**عند تناهي الشدة تكون الفُرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء**»[2] .

وفي ذلك يقول أبو العتاهية :

هـي الأيـام والـغِـيَـرُ   وأمـرُ الـلَّهِ يُـنـتَـظَرُ
أتيـأس أن تـرىٰ فـرجـاً   فـأيـن الـلَّه والـقَـدَرُ

ويقول آخر :

فلا تجزعي إن اظلَمَ الدهرُ مَـرّةً   فإن اعتكار الليلِ يؤذن بالفجـر

وقفة مع الآيات :

ولنلقِ نظرة عاجلة، إلى آيات الله البيّنات، التي تتضمن هذا المعنىٰ، ولنرَ كيف يتصرف الله عز وجل في نفوس بني البشر، ويغيّرها من حال إلى حال، حسب ما تقتضيه حكمته ومصلحته، سبحانه وتعالى .

ربما تكون النفس مشحونة بالخوف، لسبب أو لآخر، فَتَهبِطُ السكينة من عند الله تعالىٰ على هذه النفس، وتزيل الإرادةُ الإلٰهيةُ الخوفَ من القلب، وتستقرُّ النفس ويطمئن القلب دون أن تجد أي عامل أو سبب ظاهر لذلك، سوىٰ القوة الغيبية، والإرادة الربانية . .

وهذا ما حصل لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في احدىٰ معاركهم مع المشركين، فقد دهمهم العدو، بكامل العدة والعدد، والمسلمون آنذاك، قلة ضَعيفة، فغشيتهم سحائب الخوف، وأحاط بهم الموت، وضيق عليهم العدو، وأخذ عليهم مسالك النجاة . . فكان الأجدر بهم، أن يزعزعهم الرعب، ويقضي على معنوياتهم، فتموت نفوسهم، وينتصر عليهم العدو .

ولكن لم يكن ذلك، بل ربط الله على قلوبهم، وأصلح بالهم، ففي

---

(١) ربيع الأبرار : ٥٠٥/٣ .
(٢) ربيع الأبرار : ٥٠٥/٣ .

ساعة الحَرَج والشدّة، قويت عزيمتهم، وصلبت إرادتهم، وأزاح الله عن قلوبهم ذلك الخوف القاتل .

يقول تعالى : ﴿وليربطَ على قلوبكم ويُثبِّتَ به الأقدامَ﴾[1] .

ويقول : ﴿وما جعلَهُ الله إلا بشرىٰ ولتطمئنَّ به قلوبُكم﴾[2] .

وتختلف هذه الصورة عكساً مع الكفار، اعداء الله، فيزرع في نفوسهم الخوف، ويقذف فيها الرعب، ويتصرف معهم سلباً، كما تصرف سبحانه وتعالى، مع المؤمنين إيجاباً . .

فهم رغم قوتهم، وتمكنهم من العُدّة والعدد، امتلكهم خوف شديد، وتمكن من نفوسهم، بحيث كانت الهزيمة من نصيبهم . .

قال تعالى : ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرُعبَ بما أشركوا بالله . .﴾[3] .

وقال أيضاً : ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعبَ فاضربوا فوق الاعناق . .﴾[4] .

وقال أيضاً : ﴿وقذف في قلوبهم الرعب . . .﴾[5] .

وقال سبحانه : ﴿فآتاهُمُ الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾[6] .

ويتحدث القرآن عن أُم موسىٰ، وكيف أن الله مَلَك قلبها، وثبّته، وهدّأ من روعها، فقد نأىٰ عنها ولدها مدة من زمن يسير، فقد ألفته في البحر، وذهبت به الأمواج بعيداً عن عينها . . . ثم علمت أنه في بيت فرعون . . . ثم

---

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ١١ .

(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ١٠ .

(٣) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٥١ .

(٤) سورة الأنفال ؛ الآية : ١٢ .

(٥) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٢٦ .

(٦) سورة الأحزاب؛ الآية: ١٢ .

جمعتها الإرادة الإلٰهيّة برضيعها، فلما وقعت عينها عليه، ورأته قد عاد إليها سالماً معافىٰ، لا بأس عليه، كاد الشوق والحنين إليه يكشفان عن حقيقتها، ويعلم الطاغية انها ليست مرضعة، كما زعموا، بل هي الأُم الحقيقية لهذا الرضيع .

هنا ربط الله على قلبها، لكيلا تفضح نفسها، وتكشف أمر وليدها .

يقول القرآن الحكيم : ﴿**إن كادَت لَتُبدي به لولا أنْ ربطنا على قلبِها لتكون من المؤمنين**﴾ [(١)] .

فلو تركها وطبيعتها النسوية، وفطرةَ الأُمومة فيها، لكادت تبدي به، فقد كان (فؤادها فارغاً) ولعلموا انها إسرائيلية، دخلت بيت فرعون، بصفة مرضعة، وفي ذلك من التبعات والنتائج السيئة لها ولولدها، ما لا يخفىٰ .

ولكن الله عز وجل تصرف في نفسها، وجعلها هادئة، مستقرة، رابطة الجأش، بحيث لا يظهر عليها سلوك يعرّضها ووليدها للخطر .

ولقد كانت بعض النفوس ـ حين قام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغ الرسالة ـ لا تَستَحِبُّ الإيمان بالله، والإقرار بالإسلام، فقد اعتادت دين الآباء، وترعرعت في أحضان الشرك ولم تجد ميلاً إلى الدين الجديد، والرسالة المحمدية، ولا تطيب للإقرار بوحدانية الله تعالى، ونبذ الأوثان . . .

ولكن الله قلَّب هذه القلوب، وحبَّب إليها الإيمان .

يقول تعالىٰ : ﴿**ولكنّ الله حبّبَ إليكم الإيمان وزيَّنهُ في قلوبكم**﴾ [(٢)] .

وقد يحدث عكس ذلك، فكثيراً ما يتمتع أحدهم بنفس نقية، وقلب نظيف في أول أمره، ويكون بشكل يرتضيه الدين، ولكنه يتصرف تصرفاً خاطئاً، ويعمل عملاً شائناً ويصر عليه، دون توبة أو استغفار، ويتمادىٰ في غيّه دون ندم، مما تؤول به الحال إلى سوء العاقبة، وسوء المُنقَلَب .

قال تعالى : ﴿**فلما زاغوا أزاغَ الله قُلُوبَهم . .**﴾ [(٣)] .

---

(١) سورة القصص ؛ الآية : ١٠ .

(٢) سورة الحجرات ؛ الآية : ٧ .

(٣) سورة الصف ؛ الآية : ٥ .

ولـذا وجّهتنا التعـاليم القرآنيـة، أن نسأل الله سبحـانه، أبـداً دائمـاً، أن يجنبنا حالة سوء المنقلب، وسوء المصير، وزيغ النفس عن طريق الهدىٰ.

﴿ربنا لا تُزِغ قلوبَنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنـك رَحمةً إنـك أنتَ الوهَّاب﴾ (١).

ومن صور تصرف الله عز وجل في نفوس الناس أيضـاً، وتوجيـه قلوبهم نحـو الوجهـة الصحيحة، مـا يذكـره القـرآن الكـريم، من حـال النـاس قبـل الإسـلام، وما كـانـوا عليـه من عـداوة وبغضـاء، ومنـازعـات دامت عشـرات السنين، حتى إنَّ الرجل منهم، لم يكن يأمن على نفسه أو أهله، أو مـاله، من اعتداء الآخرين، وبخاصة (الأوس والخزرج) في يثرب.

كان الخوف الدائم يخيّم بظلاله عليهم، فجعل حيـاتهم تعيسة لا تكـاد تُطاق. وكانت الحروب والغارات، قـائمة على قـدمٍ وساق فيمـا بينهم، فأنّى لهذه النفوس أن تـزكو، وهـذه القلوب أن تصفو؟ كيف يمكن إحلال المحبة والـوئام، محـل العداوات المتـأصلة في النفوس؟ ولكن الله عـز وجل، حقق ذلك، وقلَّب القلوب، وتصرف في النفوس، فنزع تلك الأحقـاد من نفوسهم، وأحلَّ محلّها الاخوة والتوادد والألفة!! ولم يَعُد للكـراهيةِ والبغضـاء محلٌ في نفوسهم!!

قـال تعـالى: **﴿واذكـروا نعمـةَ الله عليكم إذ كنتم أعـداء فـألَّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتِهِ إخواناً﴾** (٢).

ويـوجّـه الخـطاب للنبي الكـريم صلى الله عليه وآله وسلم، إن هـذه العـداوات كـانت متأصلة في نفوس قومك، متعمقةً في قلوبهم، بحيث:

﴿لـو أنفَقْتَ ما في الأرضِ جميعاً مـا ألَّفتَ بين قلوبهم ولكنَّ الله ألَّفَ بينهم إنه عزيز حكيم﴾ (٣).

---

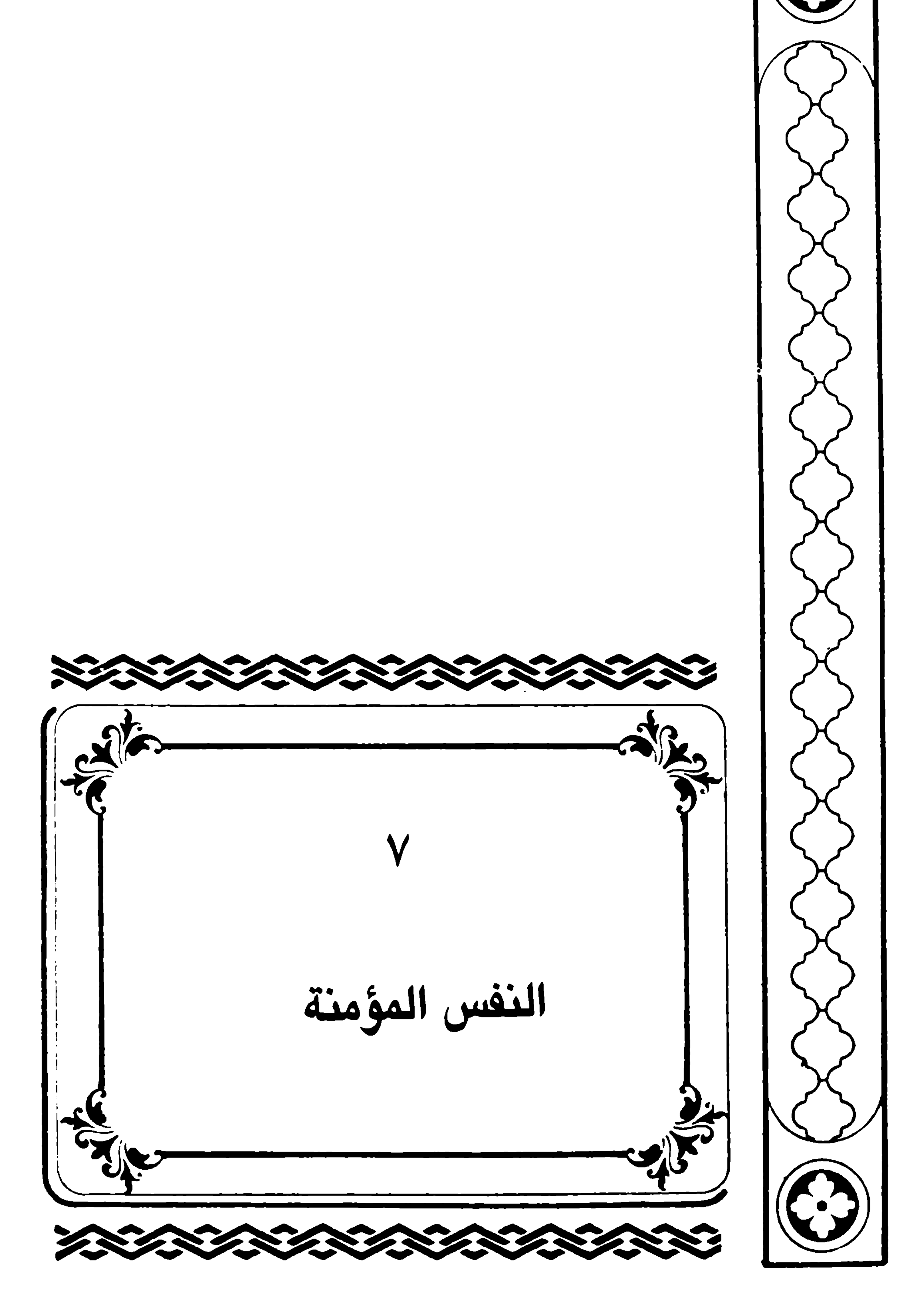
(١) سورة آل عمران؛ الآية: ٨.

(٢) سورة آل عمران؛ الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الأنفال؛ الآية: ٦٣.

فالله وحده القادر على أن يطبع في النفوس مـا يشاء، أو يـزيح عنهـا ما يشاء. . . ولو كان الأمرُ للناس لعجزوا عن ذلك .

فسبحان مقلب القلوب .



٧

النفس المؤمنة

مما لا شكّ فيه، أن أية عقيدة، تترك آثارها في النفس، وتفعل فعلها فيها، بحيث تجعلها منقادة لها، وتترك بصماتٍ بينةً ملحوظةً في سلوك الأفراد والمجتمعات .

فالمسلم المؤمن يستنجس الخمرة، ويتقزز منها، ويتجنّبها من منطلق عقيدته الإسلامية التي حرّمت عليه الخمرة، بينما لا يرىٰ المسيحي بأساً في تناولها، ولا تأباها نفسه .

والناس كلهم، يأكلون لحوم الأبقار، وربّما يتلذذ البعض ذلك، في حين أن الذي يعتنق الفكرة الهندوسية، لا يأكلها إطلاقاً، ولا يستعمل حتىٰ السكين التي استُعملت في تقطيع لحم البقر .

وهكذا تتبع النفوس العقائد، وتنفعل بها، وتنطلق من منطلقاتها. وبناءً على هذا، فإن المسلم المؤمن تقوم حياته على أُسُسٍ عقائدية، إسلامية . . يتخلق بأخلاقها، ويتأدب بآدابها، ويحاول أن يكوِّن انسجاماً بينه، وبين ما تمليه عليه عقيدته الإسلامية، ويُنشِىءَ ارتباطاً وثيقاً بينه وبين تعاليم دينه .

فمن الأفكار التي أكّدت عليها العقيدة الإسلامية، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، ففي القرآن الكريم أكثر من ألف آية حول المبدأ! وأكثر من ألف آية حول المعاد! هذا عدا النصوص الإسلامية الأُخرىٰ، مما يجعل المؤمن، تختلف نظرته إلى الحياة عن غيره لأنه سوف ينظر بعيداً . . . ينظر إلى الحياة الآخرة . . . ويحسب لها حساباته النفسية، والسلوكية، بخلاف من لا يؤمن

بـالله واليوم الآخـر، فإنـه يرىٰ هـذه الدنيـا، هي البدايـة وهي النهايـة، وتقوم حساباته على هذا الأسـاس، فتطغىٰ عليـه نوازع الشـر، ويذوب في المـادة، وفي الدنيا، لا يهتم إلا بالجانب الذاتي في سلوكه مع الآخرين، وتمـوت في نفسه القيَم والمبادىء، وتضيع لديه الموازين والمعايير الأخـلاقية، لا يتحـرك إلا إذا كان في تحركـه مردود مـادي، ليحقق المكتسبات الشخصيـة، لا يهمه أحـد سوىٰ نفسـه. فهو لا يؤمن أسـاساً بـالعمل الصـالح، والأخـلاق الدينيـة الفاضلة.

ولكن المؤمن، تحيـا نفسـه في دائـرة أوسـع بكثيـر من دائـرة الـدنيـا المحدودة . . .

يسبر أغواراً بعيدة، في عوالم ما بعد الموت، والآخرة. . . انه يرىٰ في عقيدته مجموعة متكاملة من المناهج، والبرامج، والنظم التي تنظم له الحيـاة الدنيا، وكذلك الآخرة، وتحكم سلوكياته وتحركاته . .

يقول القرآن الكريم :

﴿الذينَ يَتبِعونَ الرسـولَ النبيَّ الأُميَّ الذي يَجـدونَه مكتـوباً عنـدهم في التوراةِ والانجيلِ يأمُرهُم بالمعروفِ وينهاهُم عن المنكرِ وَيُحِلُّ لَهُم الطَيّباتِ وَيُحَـرِّمُ عليهم الخَبـائِثَ وَيَضَـعُ عَنهمِ إصْـرَهُم وَالأغـلالَ التي كـانَتْ عَليهم فـالذين آمنـوا بِهِ وعـزَّرُوهُ ونَصَروه واتّبعـوا النورَ الـذي أُنزِلَ مَعَـه أُولئك هم المفلحون﴾[1] .

إن هـذه الآية القـرآنية الشـريفة، وغيـرها من الآيـات الكريمـة، ترسم للمؤمن نهجـاً حياتيـاً، وتجعله على هذا النهـج، يكيف نفسـه وفقـه، ويتبـع خطوطه ومنحنياته، فهو يرىٰ كل حلالٍ طيباً، تستطيبه نفسه، وكلٍ حرام خبيثاً تأباه نفسه، ويرىٰ في العبودية لغير الله، غلاً وقيداً يحاول أن ينفـكَّ عنه جهـد إمكانه، ويعتقـد أن الدين الإلٰهي الـذي يعتنقه، هـو النور الـذي يستكشف به دروب الحياة الحالكة، ويهتدي به في ظلمات الدنيا . . .

انـه يحيا لله، ويعمـل لله وللناس. . ويخـطط للآخـرة أكثر ممـا يخطط

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٥٧ .

للدنيا، وتنعكس كل معتقداته الدينية على نفسه، وتلقي بظلالها على كل تحركاته في هذه الحياة . . .

إن الصفات التي يعتبرها الإسلام سيئة، كالأنانية، وحب الذات، والتعالي والتكبر، وحب الرفعة، وغير ذلك. . . لا تتوفر في المؤمن، لأنه ـ ومن منطلق الفكر الديني الذي يحمله ـ يتنازل عن ذاته، ليتوجه إلى الآخرين . . ويظهر ذلك بجلاء، في أخلاقه، وصفاته، وأطواره قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، في صفة المؤمن :

«بُشرُهُ في وجهِهِ، وحُزنُه في قلبِهِ، أوسَعُ شيءٍ صدراً، وأذَلُّ شيءٍ نفساً، يكرَهُ الرفعةَ ويَشنَأُ السُمعةَ، طويلٌ غمُّهُ، بعيدٌ همُّهُ، كثيرٌ صمتُهُ، مشغولٌ وقتُهُ، شكورٌ صَبورٌ مغمور بفكرتِهِ، ضنينٌ بخُلَّتِهِ[1] سَهلُ الخليقةِ، ليّن العريكةِ، نفسُهُ أصلبُ من الصَلدِ وهوَ أذَلُّ من العَبدِ»[2] .

يؤكد الإمام عليه السلام، في هذه المقطوعة، على كون المؤمن، يتصرف بوحي من عقيدته ودينه، لا بما تمليه عليه مصالحه وأهواؤه، فيجاهد نفسه، ويغالب هواها، ويجعلها مسخّرةً منقادةً لأعرافِ وأخلاق دينه.

يحاول جاهداً، أن يحتفظ بحزنه لنفسه، فلا يؤذي به الآخرين، ويرسم في وجهه بشراً وبشاشةً للناس . .

يمرِّنُ نفسه على أن يكون له صدرٌ رحب، لاستقبال هموم الناس ومشكلاتهم . . .

ويتذلل للمؤمنين، ولا يحبّ أن يَترفعَ على أحد منهم، مع قوةٍ في النفس، وبُعدٍ في الهمَّة . .

يفعل كل ذلك لله، لأنه تعالى أمر بذلك، ولأنهُ يثاب على ذلك عند الله، وليترك ذكراً حسناً في الناس، كل ذلك تمليه عليه عقيدته الإسلامية، ولولا الإيمان لما كان ثمةَ داع لِيُحَمِّلَ نفسه فوق طاقتها .

---

(١) خلَّتُهُ : حاجته، أي لا يذكرها لأحد، ويضنُّ بها على الناس، ويذكرها لله وحدَه .
(٢) شرح نهج البلاغة للحديدي المجلد: ٥، ٦٢٧ طبع دار الحياة بيروت .

اذكر ـ هنا ـ روايةً عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، تناسب هذا المقام :

كان ابنه (اسماعيل) أكبر أولاده، وهو ممّن جمع الفضيلة والعقل والعبادة، وكان الصادق عليه السلام ، يحبّه حباً شديداً، حتىٰ حسبَ بعض الناس، أنّ الإمامة فيه بعد أبيه وصادف أنْ ألَمَّ به مرضٌ شغل بال الصادق عليه، واشتدت به العلّة، حتى أشرف على الموت فعظم حزنه عليه، وفي أثناء ذلك حضر بعض أصحابه عنده،واجتمعوا في داره، ليطعموا على مائدته فبلغه خبر موت اسماعيل، فلم يظهر عليه شيء، وقال لأصحابه : المائدة، وجعل فيها أفخر الأطعمة، وأطيب الألوان، ودعاهم إلى الأكل، وحَثّهم عليه، لا يرون للحزن أثراً عليه فلما أتمّوا طعامهم، علموا بموت اسماعيل، وكانوا يحسبون انه سيجزع، ويبكي، ويتأثر ويتألم لموت ولده العزيز، ولكنهم لم يشاهدوا عليه أثَرَ ذلك، فسألوه عن ذلك، فقال : (وما لي لا أكون كما ترون، وقد جاء خبر أصدق الصادقين: إني ميّتٌ وإياكم!)[1] .

أية قوّة، وصلابةٍ، هذه، في نفس هذا الإمام العظيم ؟ بحيث يملك عواطفه ومشاعره، ويغالب حزنه على وفاة ولده العزيز، ويستقبل أضيافه ببشر وبشاشة، ويخفي عنهم ما يكابده من حزن عميق على فراقه !!

إنها تعاليم هذا الدين العظيم، وتجربة الصادق عليه السلام ، تكشف عن مدىٰ جدّيته في الانقياد لهذه التعاليم، والأخلاق العالية .

انها النفس المؤمنة التي تكون أصلب من الصلد !!

التقــوىٰ :

إن النفس البشريّة مستَقَرٌّ للفجور والتقوىٰ، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، غلبت عليه صبغة التقوىٰ في نفسه، وساقته إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات، ومن أعرض عن الدين والإيمان، غمره الفجور، وغرق في الضلال . .

---

(١) الإمام الصادق للمظفري : ١/٢٦٩ .

﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾ [١].

وقد مكَّنَ الله عز وجلَّ، الإنسان من التصرف في نفسه، ومنحه القدرة الكافية لتحديد وتغيير مسار النفس، وتَرَكه مُخَيَّراً لا مُسَيَّراً، يختار بنفسه لنفسه الطبيعة التي يفضلها، إن كانت فجوراً أو تقوىٰ. وبذلك يصرح إمام المتقين، أمير المؤمنين ﷺ حيث يقول: **«إنّما هي نفسي، أروضُها بالتقوىٰ، لتأتي آمنةً يوم الخوف الأكبر، وتثبُتَ على جوانب المزلق»** [٢].

أي يحمّلها ويمرّنها على التقوىٰ، وإن كان ذلك عسيراً بعض الشيء، ولكنه يملك من القدرة أن يُوطِّن فيها التقوىٰ، ويجنِّبها الفجور والانحلال.

ينبّه الإمام ﷺ، أنّ النفس المؤمنة، تلك التي تفرضُ على ذاتها قيوداً خاصةً في هذه الدنيا، لتحقق المكاسب الأُخروية، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر. لِتَسعد بالنعيم والراحة عند الله. إن الله تعالى، أرشد بني البشر، إلى أن اختيار الفجور سيؤدي ـ لا محالة ـ إلى التهلكةِ والدمار، وعبر سبحانه وتعالى عن فجور النفس، بالطغيان في بعض الأحيان.

﴿فأمّا من طَغىٰ، وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيمَ هي المأوىٰ﴾ [٣].

وإن اختيار التقىٰ سينتهي بالإنسان إلى السعادة والخير لا محالة.

﴿وأما من خاف مقام ربه، ونهىٰ النفس عن الهوىٰ فإنّ الجنةَ هي المأوىٰ﴾ [٤].

إن النفس يومٌ، وغدٌ، ففي يومها على الإنسان أن يسير بها إلىٰ الهدىٰ والنور وينتهي بها إلى الله..

﴿ومن يؤمن باللَّهِ يَهدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكلِ شيءٍ عَليم﴾ [٥].

---

(١) سورة الشمس؛ الآية: ٧.

(٢) نهج البلاغة: كتابه لعثمان بن حُنيف الأنصاري.

(٣) سورة النازعات؛ الآيات: ٣٧ ـ ٣٩.

(٤) سورة النازعات؛ الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.

(٥) سورة التغابن؛ الآية: ١١.

وفي غدها ، عليه أن يستعدّ ويتزوّد لها، وينظر لمستقبلها. . وهو ما يأمر به القرآن الكريم، وتحثّ عليه شريعة الإسلام.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفسٌ ما قدَّمت لغدٍ واتقوا الله، إنَّ الله خبيرٌ بما تعملون، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهُم أنفسَهُم أولئك هم الفاسقون﴾ (١) .

وبهذا الشكل تحصل النفس على الاستقرار والاطمئنان، لأنها تعيش في كنفِ الله وتحيا مع الإيمان والهدىٰ . .

إن الحياة تكون أجمل وأحلى، لو عاشها الإنسان بهدوء البال، واطمئنان الخاطر، ويزداد عطاء الإنسان، ويتضاعف عمله، إن كانت نفسه آمنةً مستقرة ولا يتم ذلك إلا بالاستناد إلى الله تعالى، والالتزام بمنهجه السامي، والاعتماد عليه في كل الأمور، وفي كل الأحوال .

﴿ألا بِذِكر الله تَطمئِنُّ القلوب﴾ (٢) .

إن نفس المؤمن متصلة بالسماء، تسترشد بها، وتستمدّ منها الهدوء والسكينة والقوة والعزيمة، والإصرار على مواصلة العمل الصالح، واسعاد النفس في الدارين .

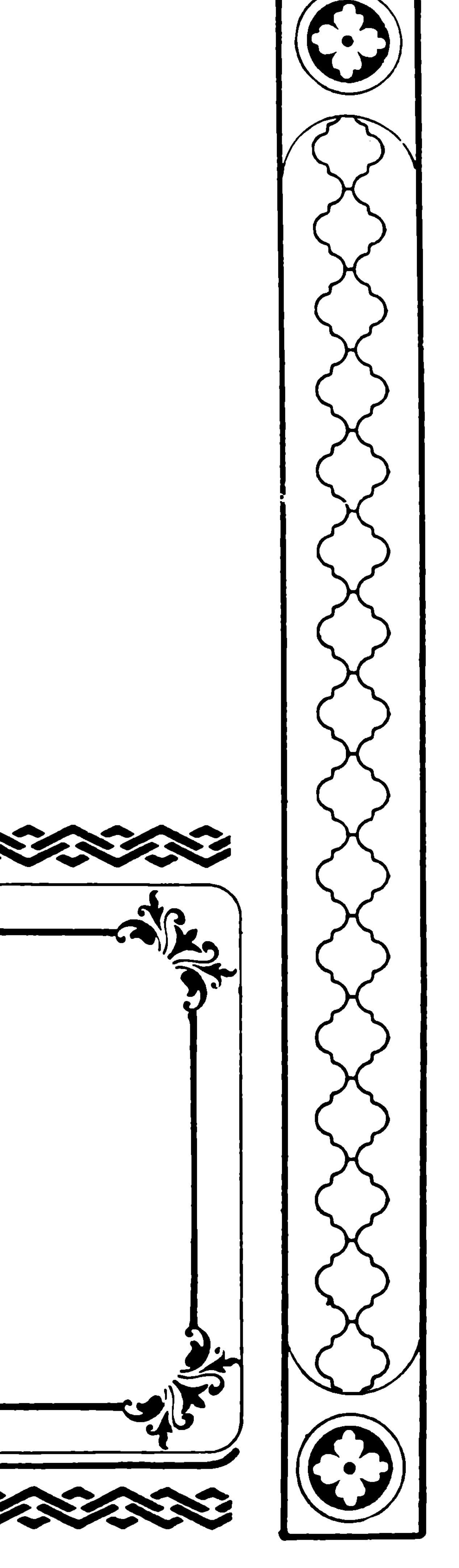
﴿هو الذي أنزل السكينة على قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً. . .﴾ (٣) .

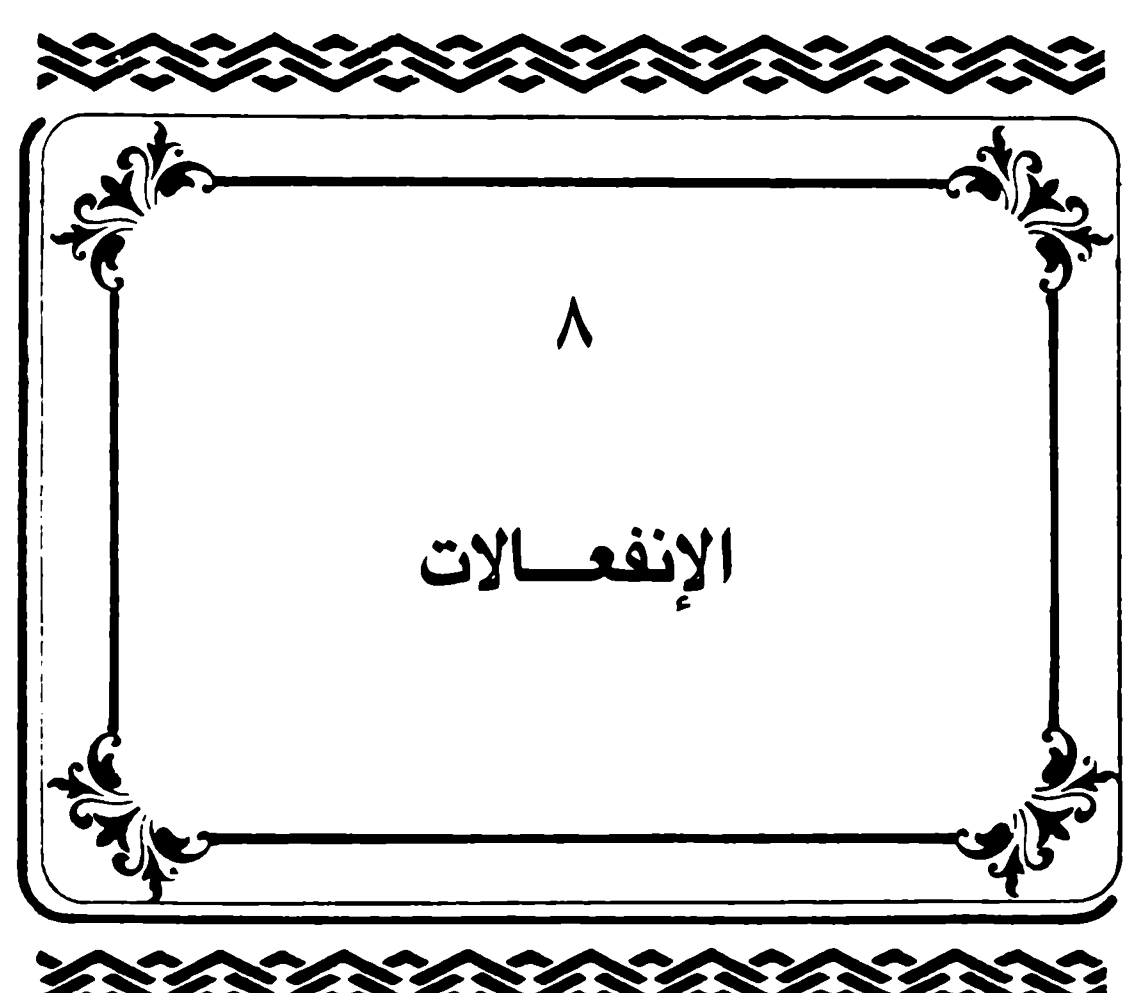
---

(١) سورة الحشر ؛ الآية : ١٩ .

(٢) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

(٣) سورة الفتح ؛ الآية : ٤ .





٨

الإنفعـــالات

الإنفعـال : حـالـة تـوتّـر نفسيـة في الكـائن الحي، تصحبهـا تغييـرات فسيولوجية داخلية، ومظاهر جسمانية، تصدر عن النفس .

وحياة الأفراد مليئة بالانفعالات المختلفة، ويمكن تقسيمها إلى نوعين : سارّة وغير سارّة، من فرح وسرور، إلى حزن وبكـاء، وقد قسَّم علمـاء النفس هـذه الحـالات إلى معتـدلـة، وحـادّة، فـأطلقـوا على الحـالات المعتـدلـة : (الحـالات الوجـدانية) وعلى الحـالات الحادّة : (الحـالات الإنفعاليـة)، ولا يعود هذا التقسيم إلى الاختلاف في نوع الانفعـال، بل يعـود إلى الاختلاف، في درجته .

فـالإحسـاس بـاللذّة، والـراحـة، والسـرور، يـدخـل ضمن الحـالات الإنفعالية أيضاً، ولا يوجـد فاصـل بين هذه وتلك، لهـذا يطلق علمـاء النفس على كل هذه الحالات : (الحالات الإنفعالية) .

«وللإنفعالات دور كبير في حياة النـاس، ويعتبرهـا علماء النفس دافعـة للسلوك الإنساني انفعالات تنجم عنها أفعال وحركات، فرؤية ثعبان ـ مثلاً ـ تدفع الفرد إلى الخوف الشديد، الذي يجعله يقفز، بدرجة لم يكن يستـطيعها في الحالات العادية»[1] .

أذكر مثالاً آخر: وقع حريق هائـل في منىٰ أيام الحـج، عام ١٩٧٥ م،

---

(١) التحليل والصحة النفسية، إبراهيم العجمي ومحمد زيدان .

أثر انفجار قنينة غاز في خيمةٍ من الخيام هنـاك، مما أدّىٰ إلى إحداث حريق هائل، طال خياماً كثيرة في تلك المنطقة، وأصيب كثيـرون في تلك الحادثـة المـروّعة، فكـان الناس يفـرّون بعيداً عن النيـران التي كانت تلتهم كـل شيءٍ بسرعة .

رأيت امـرأة عجوز كـانت لا تقوىٰ على الحـركة، وتتنقّـل على كـرسي متحرك قبل الحريق، رأيتها ـ حين اشتعلت النيران ـ تفرّ مهرولة صوب مرتفـع هناك، لتبتعد من النار، وكأنها لم تكن تعاني ألماً في أرجلها.

كنت أرىٰ المرضعة تذهل عن رضيعها في تلك اللحظات الـرهيبة، أثـر الخوف والفزع الناتجين انفعالاً وتأثراً بالحريق . . .

وربّمـا يشيـر القـرآن الكـريم إلى هـذا الانفعـال، لـدىٰ النـاس، حين يتحدث عن قيام الساعة، وشدة الخوف الذي يصيبهم، فيقول :

﴿ . . . يوم ترونَها تذهَلُ كل مُرضعةٍ عما أَرْضَعَتْ وتـرىٰ الناسَ سُكـارىٰ وما هم بِسُكارىٰ ولكنّ عذابَ اللّهِ شديد﴾[1] .

ويقول عن ذهول الناس وشتاتهم :

﴿يـوم يكـون النـاسُ كـالفَـراشِ المَبثـوثِ وَتكـونُ الجِبـالُ كـالعِهْنِ المنفوش﴾[2] .

فـأكثر السلوك نـاتج عن انفعـالات معينة، والأمثلة على ذلـك كثيـرة لا تحصىٰ، وهو من تأثيرات النفس على الجسم .

خصائص السلوك الانفعالي :

وثمة خصائص يتميز بها سلوك الفرد حين الانفعال، والتأثر النفسي :

١ ـ ففي حـالة الحب والحنـان، يحاول الفـرد أن يقترب من مـوضـوع انفعاله، ودوافعـه، بينما في حـالة الخـوف، يحاول الابتعـاد عن مصدر هـذا

---

(١) سورة الحج ؛ الآية : ٢ .

(٢) سورة القارعة ؛ الآية : ٥ .

الانفعال . . .

وهـو في كلتا الحالتين يعمل على تعبئةِ قـواه للوصول إلى هـدفه، لهـذا يوصي علماء التربية النفسيةِ، المعلمين، والمشرفين على تربية وتعليم النشء أن يكون تعاملهم مع الطلاب متصفاً باللين، والهدوء، والمحبة، ويبتعدوا كل البعد عن الغلظة، والقسوة، والشدّة ليميل الطالب إلى معلمه، ويقترب منه .

ولو سبّبَ تعامل المربّي خـوفاً لـدىٰ تلميذه، لتنفّرَ وابتعدَ التلميـذ طبعاً عن مصدر هذا الخوف .

وقد أخذ الله سبحانه وتعالى على نبيه المصـطفىٰ أن يكون ليّنـاً، هشّاً، بشّـاً، حكيمـاً، في تـربيتـه للنـاس، لأنـه المعـلم الأكبـر، والـمـربّي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم :

قـال تعـالى : **﴿ادعُ إلى سبيـل ربّـك بـالحكمـة والمـوعِـظَةِ الحَسَنَـةِ وجادلهم بالّتي هي أحسَن﴾** (١) .

وقال عز من قائل : **﴿فبما رحمةٍ من اللّهِ لِنتَ لهم ولـو كنتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفضّوا من حولك﴾** (٢) .

وقال : **﴿واخفِضْ جَناحَكَ لمن اتبعكَ من المؤمنين﴾** (٣) .

انه أدب القرآن. . . يعطي أهمية للجـانب النفسي في التربيـة، ويريـد من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يغـوص في أعمـاق النفـوس، ويمتلك القلوب، بـاللينِ والبشاشةِ، وحسن الخلق .

٢ ـ يختلف هذا السلوك من شخص لآخر، من حيث القـوة والضعف، ففي حـال يكـون الانفعـال شـديـداً فـإنه يسيـطر على كـل أنـواع السلوك الأخرىٰ، وأحياناً يكون ضعيفاً غير ملحوظ .

قد يغضبُ أحدٌ فيتجاوز حدود المعقول في سلوكه، من ضرب، وسبّ،

---

(١) سورة النحل؛ الآية : ١٢٥ .
(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٥٩ .
(٣) سورة الشعراء ؛ الآية : ٢١٥ .

واعتداء، وقطعٍ للأواصر، وما إلى ذلك من الأعمال الشائنةِ، الغير محمودة .

وقد يغضب شخص آخر، ولكنه لا يظهر عليه أثر للغضب، لبرود في طبعه، أو لقدرةٍ على كظم الغيظ. وسنتحدث عن هذا الموضوع في فصول قادمةٍ إن شاء الله .

٣ ـ تأخذ (الاستجابة) في مقابل (المثير) أو ما سميناه بالانفعال، في التباين، والتنوّع، تبعاً للتعليم، والثقافة، والعمر. فالطفل قد ينفعل لأتفه الأسباب، وذلك لصغر سنّه، بينما الكبير قد لا ينفعل سريعاً لمثير معيّن .

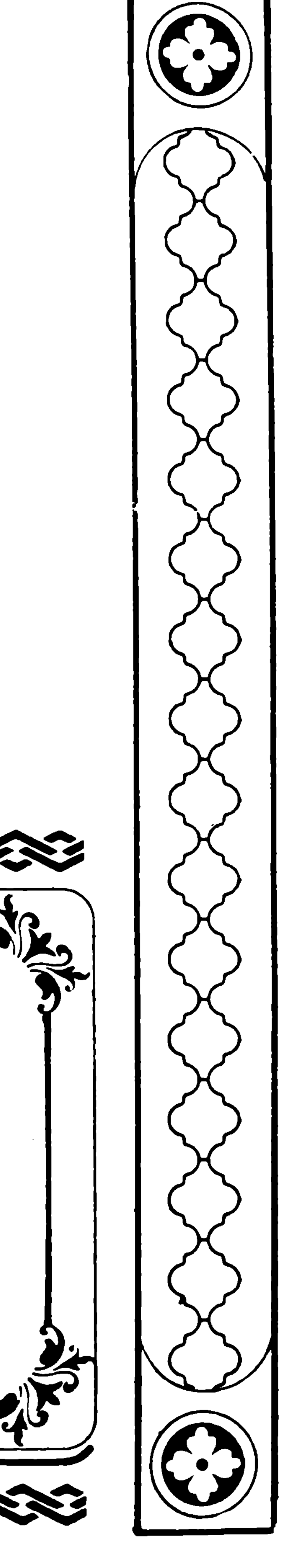
كذلك الحال للمتعلم وغير المتعلم، والمثقف وغيره، وذلك لتباين واختلاف الإدراك من شخص لآخر. . قد يقال لبعض السَوَقَةِ: أنت كذاب، فلا تثيره هذه الكلمة، ولا يؤذيه هذا الاتهام. . ولكن لو قيلت لرجل من أهل الفضل والعلم، فإنه يثور، ويستفزّ للدفاع عن نفسه، ولنفي هذه التهمة القبيحة، وربما غضب كثيراً، لأنه يرىٰ في وصفه بالكذب نوعاً من الاهانة الشديدة !

٤ ـ يضيف علماء النفس ـ أيضاً ـ التغييرات الفسيولوجية التي تطرأ على سلوك الناس (الانفعالي) من تغييرات في ضغط الدم، إلى احمرار الوجه في حالة الخجل، وشحوبة اللون في حال الخوف . . .

ذكر عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي، في شرحه لنهجِ البلاغة : إن عمر بن الخطاب، استدعىٰ امرأةً ليسألها عن أمر، وكانت حاملاً، فلشدةِ فزعها منه، ألقَتْ ما في بطنها، فأجهضت به جنيناً ميتاً[1] .

---

(١) شرح ابن أبي الحديد : ج ١ ضمن شرح الخطبة الشقشقية .





٩

الخـوف

الخوف : نوع من أنـواع الانفعال، ولا يمكن أن تخلو منـه نفس، وإذا كان الإنسان يخاف الخطر ويخشـاه، فذلـك شيء طبيعي في حياتـه، وفطري ينبـع من أعمـاق ذاتـه. ولا يمكن اعتبـار الخـوف عيبـاً أو نقصـاً، في حيـاة الإنسان، ولا يمكن حذفه كلياً، واقتلاع جذوره نهائياً.

ولكن المـطلوب : أن لا يحدُث فيـه إفراط، وان يـوجَـهَ إلى الأخـطار الحقيقية، الواقعيـة التي تهدد الإنسـان بالفعـل، وليس نحو المخـاطر التـافهة الصغيرة . .

المطلوب : أن لا يقف الخوف حـائلاً وحـاجزاً دون السيـر والتقدم في الحياة، أن لا يتحول إلى مانع يمنع الإنسان من مواصلة التحرك والعمل . . .

وقـد تطرّق القـرآن الكريم إلى مـوضوع الخـوف، وأنواعـه، ودواعيه، وأحـوال الخـائفين، في أكثـر من مـائـة وثـلاثين ١٣٠ آيـة، من آي الـذكـر الحكيم .

كمـا ذكر لفـظة الخشيـة (التي هي بمعنىٰ الخـوف أيضـاً) في أكثـر من أربعين ٤٠ آية .

ولا شك أن القرآن الكريم، يحاول من خلال آياته، تزكيـة النفوس من الشوائب، وتقويمها، وإصلاحها، والأخذ بيد الإنسان إلى الـوجهةِ الصحيحـةِ الصالحة. . . لـذا بحث القرآن هـذه القضية (المشكلة) من جـوانب عديـدة،

وفصّل فيها، وتحدث عن جذورهـا، وأسبابهـا . . وعن الخوف المـوضوعي، والغير الموضوعي، وعن جوانب عديدة. . . . ربما نأتي على ذكـرها مستقبـلاً إن شاء الله .

وفي حالة الخوف، يتّسم السلوك الانفعالي، عادة، بالحالات التالية :

١ ـ تـزداد سـرعـة ضـربـات القلب، حتى ليشعـر الخـائف ـ في بعض الأحيـان ـ أن لا قلب له أي يستشعـر الموت لشـدة ضربـات القلب. يحدثنـا القـرآن عن مثل هـذا الخوف، الـذي يعاني منـه بعض الناس يـوم القيـامـة، فيقول :

﴿وأنذرُهم يومَ الآزفةِ إذ القلوب لدىٰ الحناجر كاظمين﴾[1] .

ويقـول : **﴿مُهطعينَ مقنعي رؤُوسِهِم لا يـرتدُّ إليهم طـرفُهُم وأفئِـدَتُهُم هواء﴾**[2] .

٢ ـ اتسـاع حدقـة العين في حـال الانفعـال: وعن ذلـك يقـول القـرآن الكريم، مُذكراً بالخوف الذي اعتـرىٰ المسلمين يوم الأحـزاب، حيث تكالب عليهم العـدو، وزحف صوبهم، بـالعُدَّةِ الـوفيـرة، والعـددِ الكثيـر، وحـاصـر المسلمين، مما جعلهم يعانون خوفاً عظيماً ما ألفوه من قبل .

﴿إن جـآءوكم من فوقكم ومن أسفَـلَ منكم وإذ زاغَتِ الأبصار وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنّونَ باللّهِ الظنونا﴾[3] .

ويرسم القرآن صورة أُخرىٰ عن الخوف، وتأثيـره على العين، في قولـه تعالىٰ :

﴿فـإذا جاء الخـوف رأيتَهم ينظرون إليـكَ تدور أعينُهُم كـالـذي يُغشىٰ عليه من الموت. . . ﴾[4] .

---

(١) سورة غافر ؛ الآية : ١٨ .

(٢) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٤٣ .

(٣) سورة الأحزاب ؛ الآية : ١٠ .

(٤) سورة الأحزاب ؛ الآية : ١٩ .

٣ ـ يؤثر الاضطراب الانفعالي في سيل اللعاب في الفم، إذ تقِلُّ كمّيتهُ، ويجف الفم والحلق .

٤ ـ تحدث انقباضات في الجهاز الهضمي، أو قل: عدم انتظام، وسوء هضم بشكل عام، مما قد يؤدي إلى فقدان الماسكة، في بعض الأحيان، وفقدان الشهيَّة .

٥ ـ وقوف شعر الرأس أحياناً، وفي بعض الأحيان، ابيضاضُهُ سريعاً، بسبب الخوف .

٦ ـ تغيّر نظام التنفس، والشعور بضيق الصدر، ذكر الله عز وجلّ ذلك عن موسىٰ ﵇ حين كلّفه بالنبوّة، وحمل أعبائها إلى فرعون، ودعوته إلى الله، والإيمان به .

قال تعالى، عن لسان موسىٰ، وهو يستشعر الخوف من المواجهة الصعبة :

﴿ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾ (١) .

ويذكر دعاءه وسؤاله من الله في نفس الموقف :

﴿قال ربّ اشرح لي صدري. . .﴾ (٢) .

ولا يُستبعد أن تكون في الآية إشارة إلى تلعثم اللسان في حال الخوف أيضاً، (فربطت بين ضيق الصدر وعقد اللسان)، وهو واقع يعرفه الخطباء أكثر من غيرهم، حيث يمرّون بهذه التجربة في أحيان كثيرة، وبخاصة عندما يكون مبتدئاً في هذا الفن، جديداً عليه، فيتعرض لضيق الصدر، وتلعثم اللسان كثيراً . . .

كذلك في الحالات التي يشعر فيها الخطيب أن المستمع أدرىٰ منه، وأكثر إحاطة، بما يحاول قوله، أو أن المستمعين من الكثرة بحيث تأخذه هيبة المجلس .

---

(١) سورة الشعراء ؛ الآية : ١٣ .

(٢) سورة طه ؛ الآية : ٢٥ .

ذكروا أن الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، كانت تستمع إلى ولدها الحسن المجتبىٰ عليه الصلاة والسلام، يودد لها أحاديث جده المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم، وهو طفل صغير، وكانت تذكر ذلك لعلي أمير المؤمنين عليه السلام، فيتعجب من ذلك، وأحبَّ يوماً أن يسمع من ولده، حين يحكي لأمه عليها السلام، أخبار جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاختفىٰ وراء الباب، وجلس الحسن على عادته ليقصَّ على والدته، ما سمع من جده.. ولكنه هذه المرّة تلكأ في كلامِهِ، وعجز عن الحديث ولما سألته أمه الزهراء عليها السلام عن سبب ذلك؟ قال: يا أُماه، كلَّ لساني، وقلَّ بياني، لعلَّ سيداً يرعاني) وعلى رواية: (لا تعجبي يا أُماه فإن كبيراً يسمعني، فاستماعه قد أوقفني)[1].

إن ما تعنيه هذه الواقعة، هو أن قوةَ شخصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أثّرت في نفسية ولده الحسن عليه السلام، وهو طفل صغير، فمنعته من الكلام.

إن الخوف البالغ، ينعكس سلباً على سلوك المتكلم، في كثير من الأحيان، في حال الخطبة فيسُدّ عليه مسالك القول، ويظهر عليه الارتباك، ورُبّما أُرتج عليه، ويصاب الخطيب عادة بالتوتر، مصحوباً بتصبّب العرق.

وتختلف هذه الحالة من خطيب لآخر، حسب اختلاف النفسيات، أو الظروف المحيطة بالمتكلم، أو مدىٰ شدة الخوف الذي هجم على قلبه، وربما ينسىٰ الخطيب كل تلك المواضيع التي هيأها للإلقاء[2].

والمظاهر البدنية للخوف كثيرة، منها: خفقان القلب، وسرعة النبض، ومنها: الشعور بالتوتر، والقشعريرة، وعرق راحة اليد، وتصبب العرق البارد، وفقدان الشهية، والشعور بوخز في الظهر، وجلد الرأس، والشعور بالضعف، والدوار، والغثيان، وربما الطنين في الأذن، والقيء، والإغماء في بعض الحالات.

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ٤٣/٣٣٨.

(٢) راجع البيان والتبيين للجاحظ.

ولعل الكثير من الأفراد لا يدركون هذه المظاهر، لأنهم لم يمرّوا بمثل هذه التجارب، في حين أن البعض الآخر يدركها جيداً، لأنّه جرّبها في فترة من فترات حياته، فالذي حدثَ وأنْ تعرّض للخوف الشديد في بعض المواطن، يعرف مدىٰ صحة هذه الحقائق .

إذن فالخوف انفعال، ولكنه قد يقوم بدور الدافع، لأنه يدفع الخائف إلى الهرب من الموقف الذي أدّىٰ إلى استثارة الخوف، كما حصل للمرأة العجوز في منىٰ .

وقد قسّموا الخوف في علم النفس إلى نوعين :

١ ـ خوف موضوعي .

٢ ـ خوف غير موضوعي .

فالأول: هو الخوف الواقعي، الذي ينشأ عن مواقف تهدّد الإنسان بأخطار حقيقية، كالخوف من النار ـ مثلاً ـ أو الخوف من حيوان مفترس، فمصدر هذا الخوف حقيقي، واقعي، معقول، ولا يسمّى مثل هذا الخوف جُبناً، لأن الإنسان، بفطرته، لا بد أن يعتريه الخوف، لو كان مصدر الخوف موضوعياً يهدد بالخطر فعلاً.

قيل لرجل كان يفرّ مذعوراً، بين يدي ثورٍ هائج، لم تخاف منه؟

فقال: ولم لا أخاف منه ؟! انه أكثر مني قوةً، وأقل مني عقلاً !

إنه خوف طبيعي، فطري يمليه الخطر الحقيقي، وهو من الاندفاعات، والميول الرئيسية في نفس الإنسان .

ولا يمكن أن يغفل القرآن عن هذه المشكلة في حياة بني البشر، ويتجاوزها دون أن يضع لها منهجاً قويماً، ويبين ملامح، وأبعاد هذه القضية، وقد سبق أنْ قلنا إن الكتاب العزيز، تَطَرَّقَ إلى هذا الموضوع في عشرات الآيات، وفصّل في جوانب كثيرة من الخوف وذكر لنا ـ فيما ذكر ـ بعضَ المواطن التي أثارت الخوف في نفس بعض أولياء الله الصالحين من الأنبياء

وغيرهم .

فهذا نبي الله موسىٰ على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، ذلك الذي بعثه الله نبياً وأعدَّة لمواجهة الطاغية فرعون، وزوّده بالمعاجز والآيات، ولكنه ـ رغم ذلك ـ حين رأىٰ ما فعله السحرة، من تحويل الحبال والعصيّ إلى ثعابين هائلة، اعتراه خوف عظيم، دفعه للفرار والإدبار!

﴿فأوجَسَ في نَفسِهِ خيفةً موسىٰ﴾[1] .

﴿وألقِ عَصاكَ فَلمّا رَآها تهتزّ كأنّها جَانٌّ ولّى مدبراً ولم يُعَقّبْ. . .﴾[2] .

وخاف أيضاً حين أمره الله تعالى أن يأتي فرعون، ويدعوه إلى الله، وينهاه عن الشرك والكفر واعتذر بأنه قتل من الفراعنةِ قتيلاً، وهو الآن يخاف أن يأخذوه بالقتيل .

﴿ولهم عليَّ ذنبٌ فأخاف أن يقتلونِ﴾[3] .

﴿اني قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلونِ﴾[4] .

ولكن كل ذلك الخوف كان طبيعياً، موضوعياً، معقولاً، نابعاً من فطرة بشريّة سليمة ولا عيب على موسىٰ عليه السلام ، منه، ولقد سلم الله عليه، وأشاد به، ورفع من شأنه، لاستحقاقه، وكفاءته في حمل أعباء الرسالة .

وهذه أمُّهُ، تلك المؤمنة الصالحة، التي اختارها الله عز وجل لتكون أُماً لنبيّ من أعاظم أنبياء الله، داخلها خوف عظيم على وليدها (موسىٰ) من بطش فرعون، وفتكه .

﴿وأوحينا إلى أُم موسىٰ أن أرضعيهِ فإذا خفتِ عليه، فألقِيهِ في

---

(١) سورة طه ؛ الآية : ٦٧ .

(٢) سورة القصص ؛ الآية : ٣١ .

(٣) سورة الشعراء ؛ الآية : ١٤ .

(٤) سورة القصص ؛ الآية : ٣٣ .

اليَمِّ. . . . ﴾[1] .

وحق لها أن تخاف، فأي والدةٍ لا تخاف على رضيعها، في مثل هذه الظروف القاسية؟ ولو لم تكن خائفة، لقلنا عنها إنها خالية من العاطفة!

والثاني: الخوف الغير واقعي، وهو الخوف من أشياء لا تهدد الإنسان بأخطار حقيقية، كالخوف من الظلام أو الخوف من الحيوانات الأليفة، كالقطط مثلاً، وتسمى هذه المخاوف: (مخاوف طفيلية).

وفي بعض الحالات تكون هذه المخاوف الطفلية رموزاً لمخاوف موضوعية، حقيقية، شعر بها الفرد في فترة سابقةٍ من حياته، وخاصة أثناء الطفولة. وربّما شكّل الخوف (مرضاً نفسياً) يحتاج معه الفرد المريض إلى العلاج، وهو الخوف الذي يحول دون التكييف الشخصي أو الاجتماعي الناجح للفرد، ويقف حائلاً دون ممارستِهِ للحياة الطبيعية.

وفي مثل هذه الحالة يحتاج الإنسان إلى أن يعالج نفسه، ليتخلّصَ من هذا الخوف العارض، يحتاج إلى أن يُحسَّ بوجود حائل أو مانع دون مصدر هذا الخوف، وإلّا صار عائقاً في طريقه في الحياة، وسيطر عليه كالكابوس الثقيل الذي يجثم على نفسه. يعرقل مسيرة نشاطه وتقدمه، ويمنع طاقاته، ومواهبه من النمو والعطاء.

العـــلاج:

وليس أفضل للمؤمن من أن يجعل الله عز وجل، حائلاً بينه وبين مخاوفه، فالاعتماد على الله يجعله يشعر بالراحة التامة، والاطمئنان الكامل، ويحس أن هناك قوةً فوق كلِّ القوىٰ، تمنع عنه، وتحميه، وتدفع عنه الأخطار . . .

وربما تشير الآيات الكريمة من سورة (طٰهٰ) إلى هذا العلاج النفسي

---

(١) سورة القصص؛ الآية: ٧.

للخوف، حين يذكر لنا الباري سبحانه وتعالى، الحوار الذي دار بين موسىٰ وأخيه من جهة وبين ربّ العزةِ من جهة أخرىٰ. . . وذلك حين حَمّلهُ الله الرسالة، وابتعثه إلى فرعون وقومه، فاستشعر موسىٰ الخوف ـ كما سبق ـ من الطاغية وأزلامه، وحق له أن يخاف، ولكن لا يحق له أن يدع هذا الخوف، يتمكّن منه بحيث يعيقه عن أداء رسالته، ويقعده عن الالتزام بواجباته.

﴿قالا ربّنا اننا نخافُ أن يفرط علينا أو أن يطغىٰ، قال لا تخافا انني معكما أسمع وأرى﴾[1].

أوحىٰ الله تعالى إليه وإلى أخيه: أن لا داعي للخوف، فأنا معكما أحول بينه وبينكما، ولا أدعه أن يفرط عليكما، أو أن يطغىٰ. . . .

هنا تبددت مخاوفهما، وارتاحت نفساهما، واطمأنت، ووثقا كل الوثوق أن ثمة قوةً تقف حائلاً دون مصدر خوفهما، فلا بأس عليهما ـ إذن ـ من فرعون.

إن عظمة الأبطال، ليس في كونهم لا يخافون، بل في كونهم يتجاوزون حاجز الخوف. ليس عيباً أن يخاف الإنسان، ولكن العيب أن يوقفه الخوف في أثناء الطريق، ويهيمن على مشاعره وأحاسيسه، ويقيده عن الحركة!

المشكلة أن البعض يتكيف مع أمراض النفس، فلا يحاول معالجتها، وإصلاحها، والخوف المفرط نوع من أنواع المرض النفسي، ولا بد للإنسان من أن يقاومه ويعالجه، ليحيى حياة سعيدة.

في مسيرة العلاج، نحتاج أولاً إلى الاعتماد الكلي على الله تعالى، والإيمان به سبحانه، كما فعل الأنبياء والرسل جميعاً، وكما صنع نبينا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، في مواطن كثيرة من حياة الرسالة. .

ونحتاج إلى شيء من الإرادة والتصميم في معالجة الارتخاء والخوف والجبن، وكذلك إلى شيء من الشجاعة، وقوة النفس، لاقتحام المخاوف

---

(١) سورة طه ؛ الآيتان : ٤٥ ـ ٤٦ .

الغير موضوعية . .

الخوف لدىٰ الأطفال :

يكتسب الطفل الكثير من مخاوفه، نتيجة بعض المشاهد السابقة التي مَرَّ بها، فثمةَ كثير من الأطفال، يخافون من الظلام، لأن أُمهاتِهم أَخَفْنهم منه وهم صغار أو كان الليل عندهم ملازماً لبعض الأوهام الموحشة، وقد يبقى هذا الخوف ملازماً لهم إلى كِبَرِهم.

وبعض الأطفال، يخافون من الحيوانات الأليفة، (وقد أجرىٰ أحد العلماء النفسانيين تجربة بيّنت كيف يمكن للطفل أن يتعلم الخوف . .

قرب هذا العالم النفسي، فأراً أبيض إلى طفل صغير، فلم يخف منه أول الأمر، ولكنه ـ في المرة الثانية ـ حين قرّب الفأر إلى الطفل، أحدث في نفس الوقت، صوتاً شديداً مفاجئاً، بأن قرع قطعةً معدنية بقطعةٍ أُخرىٰ، أو بشيء آخر، فخاف الطفل من هذا الصوت المفاجىء الشديد، وبتكرار التصاحب بين الصوت الشديد الذي يُخيف الطفل، وبين مشاهدته للفأر، ابتدأ الخوف يتسرَّب إلى نفس الطفل، وصار يخاف منه تماماً، كما يخاف من أي خطرٍ حقيقي، ولم يكن يخاف منه قبل ذلك)[1] .

وبهذا الشكل يكون بعض الأطفال، قد استقر الخوف في نفوسهم، وتعلّموا الانفعالات الكثيرة. ولذا ينبغي على الوالدين خاصة، وعلى الأهل عامّة، مراعاة الجانب النفسي في الطفل، وأن لا يحاولوا إخافته من الأوهام، ومن لا شيء، عليهم أن يعلّموه الاستناد إلى الحقيقة والواقع دائماً، حتىٰ لا ينمو ضعيف النفس، مهزوز الشخصية، كما هو حاصل لكثير من الناس .

هناك الكثير من الأطفال ينظرون إلى المعلم نظرة الخائف، يثير انفعالهم، وينعكس ذلك سلباً على دراستهم وتعلمهم، والسبب في ذلك، أنّ هذا الطالب، واجه غلظةً وقسوة من معلمه في يوم من الأيام، حين كان صغيراً، ابتدأ حياته الدراسية مصحوباً بالخوف وظلّ هذا الخوف ملازم له

---

(١) التحليل والصحة النفسية : ٣١ .

حتى أيام الكبر . .

أذكر مرةً ذهبت بأحد أولادي إلى المدرسة في اليوم الأول من السنة الدراسية، وفي السنة الأولى، الابتدائية، ولم يكن ـ حينها ـ بلغ السابعة من عمره، تركته في المدرسة وعدت إلى عملي، على أن يعود إلى البيت في باص المدرسة ظهراً، ولما عدتُ إلى البيت ظهر ذلك اليوم، وجدته عائداً من المدرسة باكياً، فاعتقدت أنه تضايق في المدرسة من أقرانه، أو بسبب عدم تعوّده على نظام المدرسة، كما هو شأن الأطفال في الأيام الأولى، أو شيء من هذا القبيل . . .

ولكنني اكتشفت سبباً آخر، غير الذي كنت أعتقده، اكتشفت أن المعلم قد ضربه بعصاً، ضربة شديدة، تركت أثراً في رقبتِهِ !

ذهبت به في اليوم التالي إلى المدرسة، وعرضت أثر الضربة على المعلم، ومن حسن الحظ أو من سوء الحظ، كان الأثر باقياً إلى اليوم الثاني . . وسألته عن سبب هذه القسوة مع طفل صغير، وفي أول يوم من دراسته، وما هو الذنب الكبير الذي اقترفه بحيث استحق هذه العقوبة !؟

أجابني : أنه ـ وفي أثناء الفصل ـ سأله أن يذهب إلى الحمام !

تملكني منه غضب شديد. ولكنني كظمت غيظي . . وقلت له : إن هذه الضربة قد تسبب له خوفاً دائماً في نفسه من الدراسة والمدرسة، ربما يظل الخوف ملازماً له طوال حياته الدراسية، وقد يستقر في أعماق نفسه، فيعيقه عن التعلم والدراسة، فمن المسؤول عن ذلك سواك؟ هل يصح من المعلم ـ وبخاصة معلم المراحل الابتدائية ـ أن يكون قاسياً بهذا الشكل مع هؤلاء الصغار ؟ هل يدرك هذا الاستاذ، وغيره من الأساتذة، هذه المسؤولية العظيمة، تجاه هذه البراعم ؟

كان الأجدر به أن يعامل الأطفال، معاملة الأبوّة الحانية، المتّسِمَةِ بالعطف، والمحبةِ، والحنان .

إن القرآن الكريم يأمر الأنبياء عليهم السلام ، أن يتّسِم أُسلوبهم في الدعوة إلى الله، باللين وخفض الجناح، وقول المعروف، والابتعاد كلياً عن الغلظة،

والشدة. . . والحال أن الذين يدعونهم كبار عقلاء .

إن حمل الآخرين على الالتزام بالنظم والمقررات ـ وإن كانوا كباراً في أعمارهم ـ يقتضي الكثيرَ من مراعاة الأحاسيس، والمشاعر، وتجنب القسوة في ذلك، فكيف لو أردنا حمل الطفل على نظام معين، وأسلوب خاص جديد في المدرسة، لم يألفه من ذي قبل في بيته ؟

إن المخاوف الطفلية أكبر أثراً من مخاوف الكبار، فلا ينبغي السماح لمثل هذه المخاوف، أن تستقرّ في نفوس الأطفال .

إنك تلاحظ الأطفال في أحواض السباحة، أو على سواحل الأنهار والبحار، تجد انفعالاتهم تختلف من طفل لآخر، تجاه الدخول في الماء، والسباحة فيه أول مرة. . فبعضهم يخاف من دخول حوض الماء، أو البحر خوفاً شديداً، وبعضهم يخاف بنسبة أقل، وبعضهم لا يخاف إطلاقاً، والسبب في ذلك عائد إلى الخبرات السابقة التي يحملونها عن الماء، فمن كانت أمه تعامله في حال الاستحمام بشدةٍ وقسوة، وكان يتسرب الصابون إلى عينيه، مما يجعله يحسّ بالحرقة والألم، وكانت تصب الماء على رأسه بحيث كان يشعر بالاختناق من شدة تدفّقِ الماء على رأسه ووجهه . . .

هذا النوع من الأطفال، يبقىٰ خائفاً من الماء، حَذِراً منه، ويستمر معه خوفه، ربّما حتى سنٍّ متأخرة .

أما الذي كانت أُمُّه تحاول إسعادَه حال الاستحمام، وكانت تجعله يستأنس بالماء، وتقوم بغسلِ جسمه دون أي إزعاج أو ضجر، فهو ـ استناداً لتلك الخبرة السابقة ـ لا يخاف دخول حوض السباحة، أو البحر، ولا يستوحش من ذلك .

وهكذا نجد أن الخوف لدىٰ الأطفال يكون منشؤه ـ عادة ـ الوالدين ، والأهل، وعلى هذا النحو يتعلم الطفل كثيراً من مخاوفه، وانفعالاته الأخرىٰ، وقد يتعلم الطفل التعبير عن انفعال الخوف بطرقٍ مختلفة، فهو تارة يبكي، وأخرىٰ يصيح ويصرخ وربما يمتنع عن الطعام، وقد يتعلم التلفظ بكلمات نابية . . .

وعلاج كل ذلك، هو التثقيف الصحيح، والتربية السليمة، والاهتمام الكثير بهذا الجانب الأخلاقي في حياة الطفل، مما يجعلهم سعداء، ذوي سلوك سويّ، وأخلاق جيدة، ونضمن لهم المستقبل الزاهر.

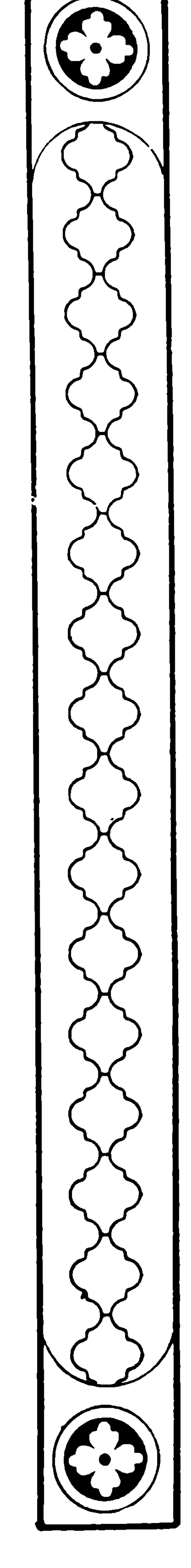
ربما يقال: علينا أن نعدّل الانفعالات لدى الأطفال بأُسلوبين:

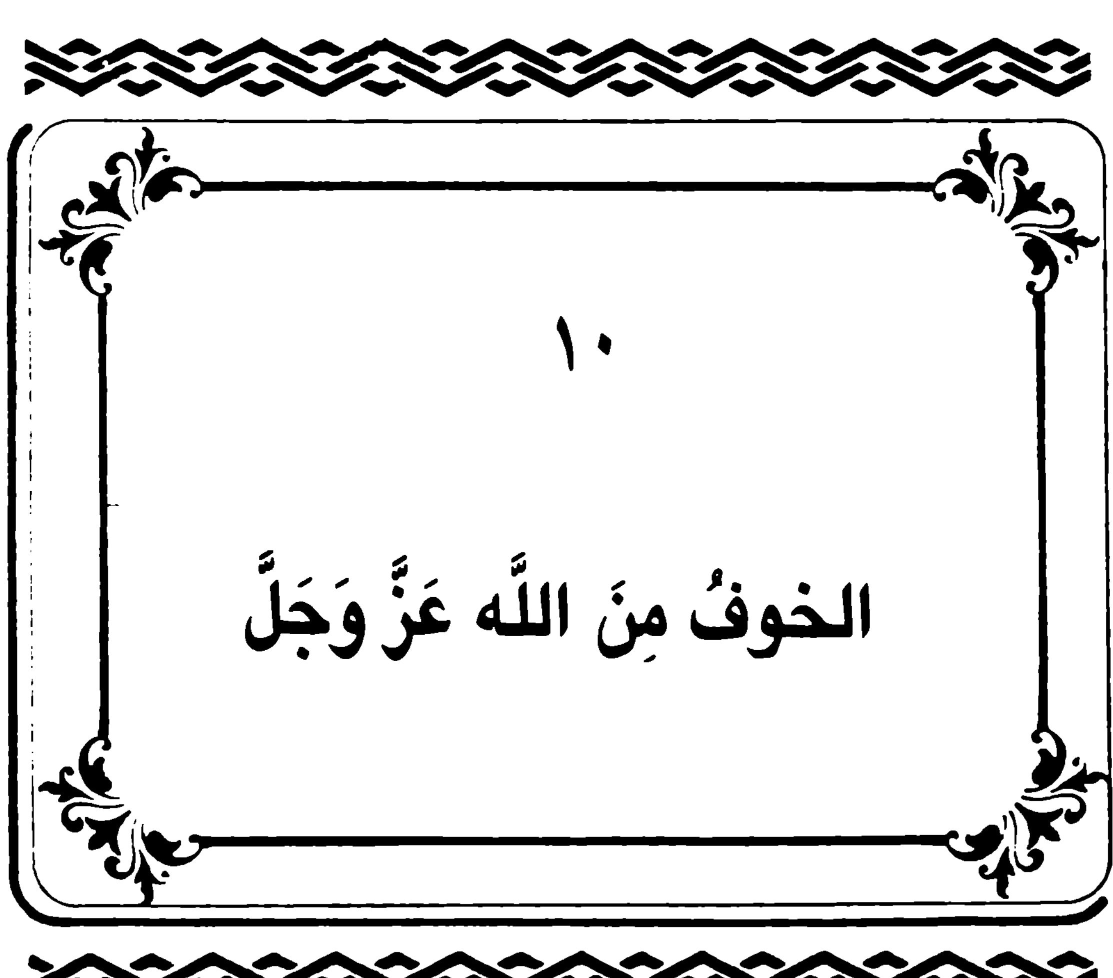
أولهما: تعديل الانفعال من ناحية المثير، فيمكن أن يشكل بعض الموضوعات مثيراً للانفعال أساساً، فالصوت العالي ـ مثلاً ـ لا يثير الخوف في حدّ ذاته، في نفس الطفل، فيمكن أن يتعلم الطفل ـ بالتجربة ـ الصوت العالي الغير مقترن بالخطر، وعلى هذا، يتدرب على سماع الأصوات العالية، والتصرف بهدوء.

مثال آخر: إن المعلم بطبيعته، إنسان عادي، لا يثير الخوف في نفس الطفل، ولكن لو ضرب الطفل، وصار مصدر تهديد له، فإنه يصبح مثيراً للخوف، وذلك لأن الضرب يثير الخوف، وبذلك يقترن المعلم ـ في خبر التلميذ ـ بالضرب، فيكون مثيراً للخوف.

وثانيهما: أن نعدّل الانفعالات عن طريق التعلّم والثقافة، وإفهام الواقع والحقيقة للأطفال، بالاسلوب التربوي، والتعليمي، فالطفل ربما ثارَ وغضبَ، وضربَ من يمنعه عن لعبته، ولكن ـ وتحت تأثير التعليم ـ يتمرن على أساليب اخرى للتعبير عن غضبه، وعلى هذا يتعدل الانفعال حسب الطرق التثقيفية المعهودة، والتربوية التي يدعو إليها الإسلام، والتي تُذكر في مجال تربية الأولاد، وأُصولها، وآدابها في الكتب الاختصاصية.

وبالجملة: قد يكتسب الطفل بعض مخاوفه الغير واقعية، منذ أيام الصبا والطفولة، وربما استمرت هذه المخاوف، واقترنت بحياته حتى سنين متأخرة، وصارت تهدد حياته، وتقف عائقاً في طريق ممارسته الطبيعية للحياة، دون أن ينتبه الأهل والوالدان، أنهم السبب الرئيسي في ذلك.





١٠

الخوفُ مِنَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ

وبمناسبة الحديث عن الخوف، وأنواعه، نأتي على ذكر (الخوف من الله تعالىٰ) لنحدد مفهومه ومعناه، وكيف يكون هذا الخوف؟ ولماذا؟ وهل أن الله عزّ وجلّ يثير الخوف في النفس، بحيث يكون المؤمن بالله خائفاً منه؟ ولماذا يكون هذا الخوف من نصيب المؤمن، دون غيره من الناس؟ . .

كل ذلك اسئلة تراود الأذهان، ونحن بصدد الإجابة عنها.

أسلفنا: إن الانفعالات تشكل دوافع في حياة الإنسان، وبما أن الخوف نوع من أنواع الانفعال، فهو يشكل دافعاً يدفع باتجاه البعد، عن مصدر هذا الخوف، واجتنابه، وهو بعينه ما يريده الشرع من الناس، يريد منهم الاجتناب، والبعد عن الممنوعات، والمحرمات التي حرّمها الله .

ثمة في التعاليم السماوية ممنوعات، يعبَّر عنها بالآثام، أو الذنوب، أو الخطايا. . وغير ذلك من التعابير المختلفة التي ترمز إلى النواهي، والمحرمات الشرعية، وقد ورد ما ورد من النهي عنها في الدين عن حكمة سماويّة، وروعيَ في النهي مصلحة أبناء البشر، وأُريد لهم الخير من ذلك، ونَهْيُ الدين عنها، كنهي الطبيب الجسماني، عن ما ينتج عنه الضرر للمريض، وإن كان طيب الطعم، حلو المذاق، ولكنه يضرُّ بصحة المريض، ويعيق شفاءَه .

وبما أن النفس مجبولة على المخالفة، وعلى اتباع الهوىٰ، والانصراف

إلى الممنوع، وردت تحذيرات الباري عزَّ وجلَّ، من العقاب في الآخرة. . وربما في الدنيا، وحدّد للناس بعض صور العذاب، ورسمها بأسلوب تعبيري مثير، بحيث تجعل النفس في خوف وَوَجل من هذا العقاب الأليم.

﴿كلمّا نضجت جلودهم بدّلناهُم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب. . ﴾[1] .

﴿يُصَبُّ على رؤوسِهِم الحميمُ﴾[2] .

﴿فليس له اليومَ هٰهُنا من حميم ولا طعامٌ إلاَّ من غسلين﴾[3] .

﴿ليسَ لَهُمْ طَعَام إلاَّ مِن ضَريع﴾[4] .

إن هذه الآيات، وأمثالها، من آيات العذاب، ترهب النفس، وتملأ القلب رعباً ووحشةً، وتدع العاصي في خوف عظيم، من هذه النتيجة المهولة .

إذن فهاهنا الخوف الواقعي . . من عقاب الله الشديد، وانتقامه العظيم . .

إن أية قوة في الكون، مهما اشتدت وعظمت، لا يمكن أن تساوي شيئاً أمام قوة الله تعالىٰ . .

وكل الأخطار التي يخشاها الإنسان، ويحذرها في الدنيا لا تعادل ذرةً من أخطار الآخرة وأهوالها . .

ولكن ـ رغم ذلك ـ فالخوف في الحقيقة ليس من الله عزّ وجلّ، وإن كانت النصوص القرآنية، تدعو للخوف من الله تعالىٰ :

﴿وايَّايَ فارهبون﴾ [5] .

---

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٥٦ .

(٢) سورة الحج ؛ الآية : ١٩ .

(٣) سورة الحاقة ؛ الآية : ٣٦ .

(٤) سورة الغاشية ؛ الآية : ٦ .

(٥) سورة البقرة ؛ الآية : ٤٠ .

﴿فلا تخشوا الناس واخشونِ﴾ [1] .

﴿إنما ذلكم الشيطانُ يُخَوِّفُ أولياءَه فلا تخافوهُم وخافونِ إن كنتُم مؤمنين﴾ [2] .

ولكننا نعلم ـ بالقطع واليقين ـ أن الخوف المراد في الآيات، هو الخوف من العقاب المحتوم، الذي يسبّبه الإنسان المذنب لنفسه، بنفسه، كالخوف الذي يعتري المريض الممنوع من طعام معيّن، فهو يخشىٰ سوء العاقبة، ولا يخشىٰ الطبيب نفسه وإن كان الطبيب هو الذي أخافه . .

كذلك الخوف من الله عزّ وجلّ، إنه في الواقع، خوف من النتائج السيئةِ، والعواقب الوخيمة التي تنتظر الجُنَاة والعُصاة، أما المؤمنون الطائعون، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

﴿فمن تَبِعَ هُدايَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون﴾ [3] .

﴿لا يَحزُنُهم الفزعُ الأكبرُ وتتلقاهم الملائكة . . .﴾ [4] .

﴿فلهم أجرهم عند رَبهِم ولا خوف عليهم ولا هم يَحزنون﴾ [5] .

ومن خصائص هذا الخوف، أنه يبعد الإنسان من مصدره، ويجنّبه مواطن الزلل ومسالك الخطر . .

إن الخوف من الله تعالىٰ، لا يعني إزعاج النفس، وإيلامها، واشغالها بالقلق، بل هو عبارة عن منهج وسلوك، يُقَوِّمُ حياة الإنسان . .

إنه يعني الالتزام بحدود الله، وقوانينه، والفرار من المعاصي والذنوب، وتجنب الإعتداء على الآخرين وتجاوز حدودهم؟

إن الخوف من الله تعالىٰ، يعني الامتناع عن الظلم، واستعباد الناس،

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٤٤ .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٧٥ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٣٨ .

(٤) سورة الأنبياء ؛ الآية : ١٠٣ .

(٥) سورة البقرة ؛ الآية : ٦٢ .

والحيف بهم .

إنـه يعني ـ فيمـا يعني ـ الإقبـال على العمـل الصـالـح، والمبـادرة إلى الخيـر، واسعاد الحيـاة في الدنيـا والآخرة، إنـه يعني : الالتـزام بـالمبـادىء، واحتضان القيم، والعمل على بثّها في المجتمع، ونشرها بين الناس . .

أما الله عزّ وجلّ، فليس من صفاته (الإخافة) بل على العكس من ذلـك تماماً، من صفاته (الرحمة) فهو الرَّحمٰن الـرَّحيم، وهو أرحم الـراحمين، وهو الغفور الودود .

نعم، يهدد تارة بالعذاب، ويلوّح أُخرىٰ بالثواب .

﴿نَبِىء عِبَـادي أنّي أنـا الغفـور الـرَّحِيم وأنَّ عـذابي هـو العـذابُ الأليم﴾[١] .

﴿اعلمـوا أن اللَّهَ شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾[٢] .

والمطلوب: أن تستقر النفس في مكان وسط، بين الخوف والرجاء .

يقـول شاعـر :

تعـادل الخوفُ فيهم والـرجـاءُ فلم　　　يُفـرطْ بهم طمـعٌ يـومـاً ولا وَجَـلُ

نقـرأ في القـرآن الكـريم، وفي النصـوص الشـرعيـة الأُخـرىٰ، آيـات ودلالات النقمة والعذاب ونقرأ أيضاً آيات ونصوص الـرحمة والمغفـرة، ولكن هـذه أكثر بكثيـر، من تلك، فالمسـاحة التي زرعهـا الله رحمـة ومغفـرة أكبـر بكثير، من تلك التي نثر فيها معاني الخوف، وآيات العذاب .

إن ما نسمعه، ونقرؤه من مشاهد الهول، وصور العذاب، في النصوص الدينية، تشكّل موضـوع انفعال في سلوك الفـرد، يؤدي إلى الخوف، وهـو ما يعبَّر عنه بـ (التقوىٰ) .

إن الإنسان بطبعه ميال إلى الذنوب، وتأمره نفسـه بالسـوء، وتحثه على

---

(١) سورة الحجر ؛ الآيتان: ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) سورة المائدة ؛ الآية : ٩٨ .

الأخطاء، والانحراف والزيغ، وإن الله سبحانه، الحكيمُ في أفعاله، خلق جنة، وبشَّر بها الطائعين وخلق ناراً، وحذَّر منها العاصين، وجعل الإنسان يعيش بين الخوف والرجاء . .

ولولا خوفه من العقاب، وحذره من الألم، لمالت به نفسه إلى السوء والحرام دائماً ولكنه بالتقوىٰ يحُدُّ من زيغ نفسه وانحرافها، ويميل إلى حيث الأمن والسلامة، ويتجنب مواطن الخوف والبلاء .

ولقد حَثَّ الشرع على التقوىٰ كثيراً، وأمر بها، ودعا إليها. واعتبر المتقين أكرم الناس على الله **«إن أكرَمَكُم عندَ اللَّهِ أتقاكم»** (1) وهي من صفات أهل الفضيلة وذوي النفوس الكبيرة والشرفاء والصلحاء من الناس.

إن مجموعة المشاهد المهولة، من عذاب القبر، وأهوال الساعة، وعذاب النار، تشكل العامل المثير للخوف، والخوف، استجابة طبيعية لهذا المثير، ينتج عن هذه الاستجابة الالتزام الدقيق بأحكام الدين، واتباع النهج القويم، وكلما كانت الاستجابة أكبر وأعظم، كانت حالة التقوىٰ في النفس أعمق وأصلب، وكان الالتزام بحدود الله أدَقّ. ومهما ازداد المؤمن، علماً ومعرفة بالله تعالىٰ، ازداد خشية منه .

﴿إنما يخشىٰ اللَّهَ من عبادِهِ العلماء﴾ (2) .

القسوة وليدة الأمن :

إن أُسلوب الترغيب والترهيب الذي يتخذه الله عزّ وجلّ مع عبادِهِ، لَهوَ أُسلوب حكيم عظيم، يترك أثراً عميقاً في حياة الناس، فالله سبحانه، اتخذ هذه الطريقة في تنظيم حياة بني البشر، رغّبَهم وأطمعهم في الثواب من جهة، وخوّفهم وأرهبهم من العقاب من جهة أُخرىٰ، ليتوطد الدين، ويتعمق في القلوب .

رغم أن هناك، من بين أولياء الله، من يعبد الله عبادةَ الأحرار،

---

(1) سورة الحجرات؛ الآية: ١٣ .

(2) سورة فاطر ؛ الآية : ٢٨ .

كعلي بن أبي طالب ﷺ، حيث يقول: (إلٰهي، ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك ولكن رأيتُك أهلاً للعبادة فعبدتك)، ولكن مثل هذا نادر قليل، بل ويكاد يكون عديم الوجود، بينما عامة الناس، لا تستقيم حياتهم إلَّا بالزواجر والأوامر، وبالبشارة والنذارة، وبالوعد والوعيد.

ولو تُركَ الناس على حالهم دون ترغيب وترهيب، لتغلبت عليهم نزعة الشر والفساد، ولأعرضوا عن الله والدين، وعن النهج القويم، والصراط المستقيم!

إن الإنسان حين يأمن العقوبة يبطر، ويطغىٰ، وتستيقظ في نفسه نوازع الشر والسوء، ويفعل ما يشاء، وما يحلو له..

فما الذي يمنعه من ارتكاب المآثم، وانتهاك الحرمات؟

إن الخوف من الله عزّ وجلّ، هو الحائل الوحيد، والسدّ المنيع الذي يحول بينه وبين الفجور والزيغ والفسوق، فإذا زال هذا الخوف، فليس هناك ما يردعه من الغي والفساد والظلم..

وبناء على ذلك يبقىٰ حراً طليقاً من قيود الدين والتزاماته، فهو لا يتورع عن حرام ولا يتوانىٰ عن معصية، ولا يرىٰ لزاماً على نفسه أن يأتي بعمل صالح..

يدع الصالحات، ويعمل بالقبائح والمحرمات، ويتبع هوىٰ نفسه، وتأخذ منه الدنيا كلَّ مأخذ وربما آل به الأمر إلى الانسلاخ من الإنسانية، ومفاهيمها ومعانيها.. فكان أقرب إلى الوحش الكاسر منه إلى الإنسان السَّوي العاقل.

ومآل كل المفاسد إلى القسوة، فهي وليدة الذنوب، والذنوب كلها تصدر من الأمن من عقوبة الله عزّ وجلّ.. وبالنتيجة: يُضرب العبد بقسوة القلب، والعنف والشدّة، وتنعدم من نفسه الشفقة والرحمة..

والقرآن الكريم، يؤكد هذا المعنىٰ، من خلال الآيات الكريمة، إذ يعتبر القسوةَ نتيجةً حتمية لسوء الفعال، وقبائح الأعمال، واقتراف المنكرات والمفاسد..

يتحدث عن بني إسرائيل، حين ذهب عنهم الخوف، وأمن روعهم، فتمادوا في غيهم، وأعرضوا عن الله، وتولوا مدبرين عن أمر الله، وقتلوا أنبياءهم، وعبدوا العجل.. وفعلوا ما فعلوا، بعد ذلك كله، يقول عنهم :

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوة..﴾[1] .

ويقول عنهم وعن غيرهم من المعرضين، حين أمِنوا عقوبة الله :

﴿فطال عليهم الأمد فقست قلوبُهم﴾[2] .

وحين يزول خوف الله منِ النفوس، وتُنتَقضُ العهود والأيمان، ويستحقون اللعنة من الله تعالى، تُثمر هذه الانحرافات والانتهاكات، قسوة في القلوب :

﴿فبما نقضِهِم ميثاقَهم لعنّاهُم وجعلنا قلوبَهُم قاسِيَة﴾[3] .

وإذا حلت القسوة في القلب، فهناك المصيبة الكبرىٰ، والسقوط في السحيق..

﴿فويل للقاسية قلوبُهُم من ذكر الله﴾[4] .

إن القاسم المشترك بين كل الطغاة، والفجرة، والظالمين، والمتمردين على الله والزناة، والقتلة، وأهل الجور، وأرباب الفسوق... هو انعدام خوف الله من نفوسِهم فلا يمكن أن نتصورَ أحداً، يخشىٰ الله تعالىٰ، ويتقيه، ثم يتجاوز حدوده في المآثم الكبيرة، والظلم، وقتل الأبرياء، واقتراف الفواحش، واجتراح المعاصي..

وإن من أبرز سماتهم القسوة، والعنف، والغلظة، والشدة .

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٧٤ .

(٢) سورة الحديد ؛ الآية : ١٦ .

(٣) سورة المائدة ؛ الآية : ١٣ .

(٤) سورة الزمر ؛ الآية : ٢٢ .

كما أن من أبرز صفات المؤمنين، الرحمة، واللين، والاشفاق على الناس.

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«المؤمنون هيّنون، ليّنون، كالجمل الأنف، إن قيدَ انقاد، وإن أنيخَ على صَخرة استناخ»**[1].

ونقل عن بعض الأولياء قوله: ما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوةِ القلب[2]؟!

إن عمر بن سعد، حين أقدَم على الجريمة التاريخية الكبرىٰ، قَتْلِ أبي عبد الله الحسين وأهله وأصحابه الميامين عليهم السلام، في واقعة الطف، إنما فعل ذلك، من منطلق كونه مُرَدَّداً في جديّةِ ما يقال، عن عذاب الله، وعقابه يوم القيامة، ونسبت إليه هذه الأشعار:

يقولون أن اللّه خالق جنةٍ	ونار وتعذيبٍ وغلٍّ يدينِ
فإن صدقوا فيما يقولون إنني	أتوب إلى الرَّحمٰن من سنتين
وإن كذبوا فُزنا بِرَيٍّ عظيمةٍ	ومُلكٍ عقيمٍ دائِم الحجلينِ

وجاء في كتاب (تاريخ الدولة العلية العثمانية):

إن السلطان (بايزيد خان) رابع السلاطين العثمانيين، كان له أخٌ أصغر منه سناً بقليل، يدعىٰ يعقوب خان، خاف السلطان منه على مستقبل ملكه، وكان يريد أن تكون ولاية العهد إلى ولده، لا إلى أخيه، فأقدم على قتله شرَّ قِتلة[3].

وإن السلطان محمد ابن السلطان بايزيد، اقتدىٰ بأبيه، فقتل أخوته، عيسىٰ وسليمان وموسىٰ، مستعيناً في قتلهم بمساعدة ومعونة ملك الروم، وذلك خوفاً على ملكه وسلطانه منهم[4].

والسلطان مراد الثاني، قتل عمه (مصطفىٰ) شنقاً، بعد حرب قامت

---

(١) ـ(٢) ربيع الأبرار: ٢/١٣.

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك المحامي: ص١٣٧.

(٤) المصدر السابق: ١٤٨.

بينهما، وقتل أخاً له يدعى مصطفىٰ أيضاً[1].

والسلطان محمد الفاتح، استهل حكمه بقتل أخٍ له رضيع اسمه أحمد، خوفاً من أن ينازع ـ إذا كبر ـ أولاده في الملك بعد وفاته[2]!!.

والسلطان سليم الأول، تاسع سلاطين بني عثمان، دس السُمَّ لوالده، بايزيد الثاني وقتله، لأنه كان يستعجل اعتلاء عرش السلطنة، فكان له ما أراد، بعد الإقدام على قتل أبيه! ثم بدأ سلطانه بقتل خمسة من أولاد أخوته، ثم قتل أخاه أحمد، في معركة دارت بينهما، ولإيجاد سبب للحرب مع إيران، حاصر قريةً يقطنها أربعون ألف إنسان مسلم بريء، وكانت القرية، متاخمة للحدود بين تركيا وإيران، حاصرهم بطريقة سريّة ثم أمر جُنده بالهجوم عليهم، غدراً وغيلةً، وقتلهم عن بكرة أبيهم، ولم يبق منهم لا عامر دار، ولا نافخ نار، ولا طالب ثار.

وفي أثناء هجومه على مصر قتل خمسين ألفاً من أهالي البلد في الشوارع والطرقات، لا لذنب اقترفوه، بل ارعاباً لمماليك حكام مصر فحسب، وكان ميالاً لسفك الدماء، فقد قتل سبعةً من وزرائه لأسباب واهية، وكان كل وزير مهدّداً بالقتل لأقلّ هفوة تصدر منه، حتىٰ صار الناس يدعون على من يتمنون موته: بأن يصبح وزيراً للسلطان سليم[3].

والسلطان سليمان القانوني، استدعىٰ ولداً له كان يقاتل في الجبهات، حامياً ثغور أركان السلطنة، فلما دخل عليه، هجم عليه بعض الحجاب، وقتلوه خنقاً بحبل شدوه شداً محكماً على رقبته حتى مات استجابة لرغبة إحدى زوجاته المعروفة باسم (روكسلان).

ثم بعث إلى مدينة بورصة، من قتل ابنه الرضيع (حفيده) وتركت هذه القضية أثراً عميقاً في نفوس الناس، حتى قال بعض الشعراء في ذلك:

يا دهرُ ويحكَ ما أبقيتَ لي جلدا ... وأنت والد سوءٍ تقْتُل الولدا

---

(1) المصدر السابق: ١٥٣.

(2) المصدر السابق: ١٦١.

(3) المصدر السابق: ١٨٨.

وكان للسلطان ابن آخر اسمه (جهانگير) قتل نفسه أمام عين أبيه، حزناً على قتل أخيه ولم يكتفِ السلطان بذلك، بل أقدم على قتل ابنه الآخر (بايزيد) وقتل معه خمسة من أولاده، أربعة منهم قتلوا بالسيف، وهم: (أورخان ومحمود وعبد الله وعثمان) والخامس كان رضيعاً، فخنقوه!! ودفنوا جميعاً إلى جوار أبيهم في مقبرة الملوك، في مدينة بورصة[1].

والسلطان مراد الثالث (الثاني عشر من سلاطين الدولة العثمانية) استهل حكمه بقتل أخوته، وكانوا خمسة، ليأمن على الملك من المنازعة[2]!.

أما السلطان رقم ١٣ المدعو محمد خان الثالث، فقد تولّى بعد أبيه مراد الثالث، وكان ابن جارية إيطالية الأصل، وكان له (تسعة عشر أخاً) فأمر بخنقهم جميعاً قبل دفن أبيه!! ودفنوا جميعاً، مع أبيه - تجاه مسجد اياصوفيا باستامبول[3].

والسلطان عثمان خان الثاني، وهو السادس عشر من سلاطين بني عثمان، أمر بقتل أخيه محمد تبعاً للعادة المتبَعة، والسنة الجارية، في سلاطين بني عثمان، فقُتل في العاصمة استامبول ودفن هناك[4].

ولم تكن هذه القسوة بدعاً من خلفاء وسلاطين العثمانيين، فقد سبقهم لمثلها ولأشدّ منها خلفاء بني أُمية، وبني العباس، فقد اقترفت أيديهم أبشع صور العنف والقسوة مع الناس، وأراقوا من دماء الأبرياء، وازهقوا من أرواح الناس، وقتلوا من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما لا يحصىٰ عدداً، وما يندىٰ له جبين التاريخ، وتقشعرّ منه الجلود وما نحتاج في سرده إلى مجلدات ومجلدات.

وليس العجب من قتلهم الناس حرصاً على الملك، وحفاظاً على السلطة، فهذا شيءٌ اعتاده الناس منهم، وألفه التاريخ فيهم، إنما العجب من اعتدائهم، وقتلهم أقرب الأقربين إليهم، وعدم تورّعهم من ازهاق أرواح أهليهم، وذرياتهم، وذلك لأتفه الأسباب، وأوهىٰ الدواعي.

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٤٨.

(٢ - ٤) المصدر السابق.

فقد ذكروا عن الخليفة العباسي (محمد بن المعتضد) الملقب بـالقاهـر بـالله، أنـه حيـن بويـع لـه بالخـلافة ببغـداد، قبض على ابن أخيه المكتفي، وطالبه بمال، فلم يقدر عليـه، وعجز عن تسـديده، فـأمر بـه فأقيم في بيتٍ، وسدَّ عليه منافذ الهواء بالآجر والجص، حتى مات جوعاً وعطشاً وغمّاً(١)!! .

وقبض على (السيدة) أم أخيه المقتدر، وطالبهـا بمال أيضـاً، فلم تقدر عليـه، فتهدّدهـا، وضـربهـا بيـده، وعـذبهـا بنفسـه أنـواع العـذاب، وعلّقهـا منكوسة، حتى كـان يجري بـولها على وجههـا، وهي تستغيث وتتوسـل إليه، وتقول: ألَستُ أُمّك في كتاب الله؟ وخلّصتك من ابني حين أراد قتلك؟ وأنت تعاقبني بهذه العقوبة؟ ولم يبق عندي مال! ألا تخاف الله؟ ألا تخشىٰ الله؟ ثم إنها ماتت عقب ذلك(٢) .

هناك مقولة كثيرة التداول على ألسنة الناس، وهي: إذا لم تستح فافعل ما شئت، ولكنِ الصحيح هو: إذا لم تخفِ الله فافعل ما شئت، لأن الخـوف من الله عـزّ وجلّ، هـو الرادع الـوحيد، والمـانـع الأكيـد، الـذي يحـول دون ارتكاب مثل هذه الآثام، فإذا انعدَمَ أو زال، لم يبق ثمـةَ ما يمنـع من ارتكاب أبشع القبائح، واقتراف أسوأ الموبقات .

التقــوىٰ :

من هنا كان رسول الله ﷺ، وكذلك عترتُه الطاهـرون، ومن قَبلِهِم الأنبيـاء جميعاً . . ومن بعـدهم، الأولياء الصـالحون، كـانوا ـ عمـر الـدهـر ـ يحرضون على التقوىٰ، والخشية من الله، ويؤكدون عليها، وكانوا أكثر الناس اتِّصافاً والتزاماً بها . . وهذه سيرتهم، وأخلاقهم، وأقوالهم، كلها شـاهدة على صدق وقوة التزامهم بتقوىٰ الله سبحانه .

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام :

«وإنمـا هي نفسي أروضُها بـالتقوىٰ لتـأتيَ آمنـة يـوم الخـوف الأكبـر،

---

(١) حياة الحيوان الكبرىٰ للدميري : ١٢٩/١ .
(٢) حياة الحيوان الكبرىٰ للدميري : ١٢٩/١ .

وتَثبُتَ على جَوانِب المَزْلَق»[1] .

يقـول ﵇ : إن تقلُّلي واقتصاري من المـطعمِ والملبس على الجَشِبِ والخَشِنِ، رياضةً لنفسي، لأن ذلـك إنما أعمله خـوفاً من الله عـزّ وجـلّ، أن أنغمس في الدنيا، فالرياضة بـذلك هي رياضة ـ في الحقيقـة ـ بالتقـوىٰ، لا بنفس التعلل والتقشف، لتـأتي نفسي آمنـة يـوم الفـزع الأكبـر، وتثبُتَ في مداحضِ الزلق .

وكان رسول الله ﷺ إذا قال: (وجهتُ وجهي للذي فطر السَّمٰـوات والأرض) يتغيّر وجهُهُ، ويصفر لونُهُ، فيُعرَفُ ذلك في وجهه من خيفةِ الله[2] .

وكان علي ﵇ يعتـق العبيد من كدّ يمينه، ويغرسُ النخلَ في أرضه، ويتصـدّق به على الفقـراء، ويقول: إنمـا فعلت ذلك ليصـرف الله عن وجهيَ النار[3] .

وكان إبراهيم الخليل ﵇ ، يُسمَعُ منه في صلاته أزيزٌ كـأزيز المـرجل من خوف الله تعالىٰ في صدره[4] .

ولمـا اتخذ الله تعـالىٰ، إبراهيم ﵇ خليـلاً، ألقىٰ في قلبه الـوجـل، حتىٰ إن خفقان قلبِهِ ليُسمَع، كما يُسمَع خفقان الطير في الهواء[5] .

وروي عن مسروق بن الأجدع الهمداني: إن المخافة قبل الرجاء، فإن الله تعالىٰ خلق جنة وناراً، فلن تخلصوا إلى الجنةِ حتىٰ تمروا بالنار[6] .

وعن فضيـل بن عيـاض الـزاهـد : إذا قيـل لـك: أتخـاف الله تعـالىٰ؟ فاسكت، فإنـك إن قلت لا، جئت بأمـر عظيم، وإذا قلتَ نعم، فـالخائف لا يكون على ما أنت عليه[7] .

وكان علي بن الحسين، زين العابـدين ﵇ ، يتغير وجهـه في صلاتـه من خوف الله تعالى[8] .

---

(١) شرح نهج البلاغة للحديدي : ٨٢٤/٤ .
(٢) ـ(٤)إرشاد القلوب للديلمي : ١٠٥/١ .
(٥) ـ(٧) ربيع الأبرار للزمخشري : ٤٠١/٣ .
(٨) إرشاد القلوب للديلمي : ١٠٥/١ .

وقال لقمان لابنِهِ: يا بني، خفِ الله خوفاً لو أتيتَه بعمل الثَقَلين خفت أن يعذبك، وارجه رجاءً لو أتيته بذنوب الثَقَلين رجوت أن يغفر لك[1] .

وقال علي بن الحسين عليه السلام : يا بن آدم : إنكَ لا تزال بخير، ما كان لك واعظٌ من نفسك، وما كان الخوفُ شعارك، والحزنُ دثارك، يا بن آدم : إنك ميتٌ محاسَب، فأعدَّ الجواب[2] .

وأوحىٰ الله إلى موسىٰ عليه السلام : يا موسىٰ، خفني في سرائرك، أحفظك في عوراتك[3] .

وقال رجل للصادق عليه السلام : يا بن رسول الله، أوصني. فقال عليه السلام : إتَّقِ الله حيثُ كنت لا تستوحِش[4] .

والخشيةُ ثمرةُ العلم بالله عز وجل، فلا خشيةَ لمن لا علم له به سبحانه، والخشية سراج النفس، به تستنير في ظلمتها، وتهدي في غياهبها.

قال الله تعالىٰ، في الحديث القُدسي : **«وعزّتي وجلالي، لا أجمَع لعبدي بين خوفين وأمنين إذا خافني في الدنيا، آمنته في الآخرة، وإذا أمِنني في الدنيا، أخفتُهُ في الآخرة»**[5] .

فالخوف من الله عز وجل، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمدىٰ المعرفة بالله، ومدىٰ قوة الإيمان وضعفه. فمهما كان المرء أكثر معرفة، وأقوىٰ إيماناً، كان أكثر خوفاً وخشيةً وتقوىٰ .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«أنا أخوفكم من الله»** [6] .

والنفس البشريَّة لا تستقيم إلا بالخوف والرجاء من الله تعالىٰ،وبدون ذلك تظل متخبطة في مسالك الحياة الوعرة، تائهةً في ظلمات اليأس والقنوط .

الرجاء بالله :

والخوف من الله عز وجل، لا يعني الهرب منه، بل الهرب إليه، لأننا

---

(١)-(٥) إرشاد القلوب للديلمي : ١/١٠٥ .

(٦) جامع السعادات للنراقي : ١/٢١٨ .

نفرّ من غضب الله وعقابه، إلى رحمته وثوابه، نتقي معاصيه لنجلب مراضيه .

إن من طبيعة النفس البشرية، أن تَفرَّ من مصدر الخوف والألم، إلى حيث الأمن والسلامة، فالتخويف من العذاب، هو ـ في الحقيقة ـ دعوة إلى الرحمة والرأفة، مثلنا مثل الطفل الذي يخاف إغضاب والديه، ويتجنب ذلك، ليستقر في أحضان حبّهما وعطفهما، فهو يخاف منهما ولكنه في نفس الوقت، يرجوهما ولا يرجو غيرهما .

روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في بعض مغازيه، فبينما هم يسيرون، إذ أخذ بعضهم فرخَ طير، فأقبل أحد أبويه، حتى سقط على يد الذي أخذ فرخه . .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ضعهنَّ عنك، فوضعهن، وأبت أُمُهنَّ إلاّ لزومَهُنّ ! !

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه : «تعجبون لرحمة أُمّ الفراخ على فراخها؟ قالوا: نعم يا رسول الله .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : فوالذي بعثني بالحق نبيّاً، للَّهُ أرحم بعباده من أُمّ هؤلاءِ الأفراخ بفراخها[1] !

إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يريد أن يكرّس معنىٰ الرجاء في أذهان أُمتِهِ، فيرجون الله بحجم ما يخافونه فلا يكونون في خوف دائم، بل يتخلل ذلك نور الأمل والرجاء .

يقول المرحوم آية الله السيد عبد الله شبّر، في كتابه الأخلاق : (واعلم أن الرجاء محمود إلى حدّ، فإن تجاوز إلى الأمن فهو خسران، قال تعالى : **«فلا يأمن مكرَ اللَّهِ إلا القوم الخاسرون»**[2] وكذا الخوف، محمود إلى حدّ، فإن جاوز إلى القنوط فهو ضلال، قال تعالى : **﴿ومن يقنط من رحمة ربِّهِ إلا الضالون﴾**[3] أو إلى اليأس فهو كفر، قال تعالى : **﴿انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾**[4] .

---

(١) حياة الحيوان للدميري : ٢/١٥٠ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٩٩ .

(٣) سورة الحجر ؛ الآية : ٥٦ .

(٤) سورة يوسف ؛ الآية : ٨٧ .

وعن الصادق عليه السلام، قال: كان أبي يقول: **(انه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وُزِن هذا لم يزد على هذا، ولو وُزِنَ هذا لم يزد على هذا)**[1] .

انه عليه السلام، يعبّر عن الخوف بالنور، وعن الرجاء أيضاً بالنور، لأنهما متصلان بالله تعالى وما كان متصلاً بالله لا يكون إلا نوراً، ولأنهما من أهم عوامل هداية البشر، وإصلاح ذاته... ان الخوف من غير الله لو اعترىٰ النفس أورثها تعتيماً وظلمة، ولكنه لو كان من الله عز وجل استنارت النفس به، وأخذت بالحيطة والحذر، يضاف إلى ذلك نور الرجاء فتحىٰ النفس سعيدة راضية هانئة .

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أيضاً، قال :

«إذا أراد أحدكم أن لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه. فليقطع رجاءه من الناس، وليصله به فإذا علم ذلك منه، لم يسأله شيئاً إلا أعطاه»[2] .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه : **«إن استطعتم أن يشتدَّ خوفكم من الله، ويحسُنَ ظنكم به، فاجمعوا بينهما، فإنما يكون حسن ظن العبد بربه على قدر خوفه منه، وإن أحسنَ الناس ظناً بالله، أشدهم خوفاً منه...»**[3] .

إن المؤمن يسمو إلى الله عز وجل بجناحين، هما : الخوف والرجاء، فإذا استويا بلغ مراتب الإيمان العالية، والقربَ من الله عز وجل، وإذا انفرد أحدهما دون الآخر، فقد انكسر أحد الجناحين واضطربت النفس، ومالت ذات اليمين، وذات الشمال . .

عليه أن يُطعِّمَ قلبه من الرجاء بحجم ما يستقر فيه من الخوف، ويعاين من عفو الله ورحمته وكرمه عند لقائه، بمقدار ما يتوقع من عذابه ونقمته .

يقول القرآن الكريم : **﴿نَبِيء عبادي أني أنا الغفورُ الرحيمُ وأن عذابي هوَ العذابُ الأليم﴾**[4] .

---

(١) الأخلاق للسيد عبد الله شبر : ٢٨٩ .

(٢) (٣) إرشاد القلوب للديلمي : ١٠٩/١ .

(٤) سورة الحجر ؛ الآية : ٤٩ .

روي أن سبب نزول هذه الآية الكريمة : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مَرَّ بقوم يضحكون فقال : أتضحكون؟ فلو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً! فنزل جبرائيل بهذه الآية[1] .

إن النصوص الواردة في إبراز مفهوم الرجاء بالله عز وجل، وتأكيده لهي أكثر بكثير من تلك التي وردت في الخوف والتحذير، ففي القرآن الكريم ـ مثلاً ـ أعطى الله عز وجل مساحة أكبر وأوسع للرحمة والأمل مما أعطى للخوف والخشية!! روي عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يقول:

«إن الله ليعجب من يأس العبد من رحمته، وقنوطه من عفوه، مع عظيم سعة رحمته»[2] .

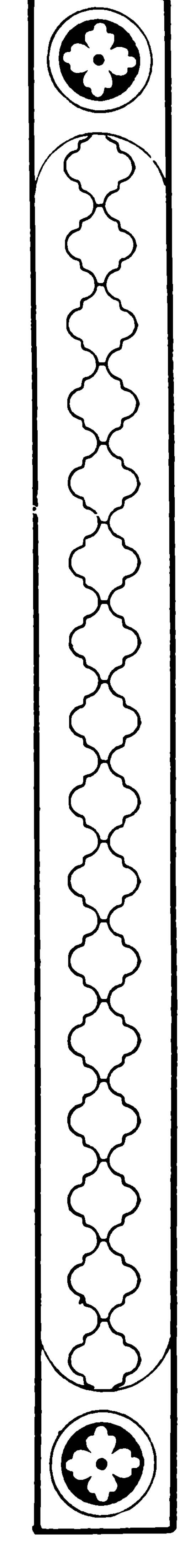
وروي أن علي بن الحسين عليه السلام ، مَرَّ برجل يضحك، وقد خولط في عقله. فقال : ما بالُهُ؟ فقالوا : هذا لحقه من قتل نفس، فقال عليه السلام **«والله لقنوطه من رحمة الله أشد عليه من قتله»**[3]!!

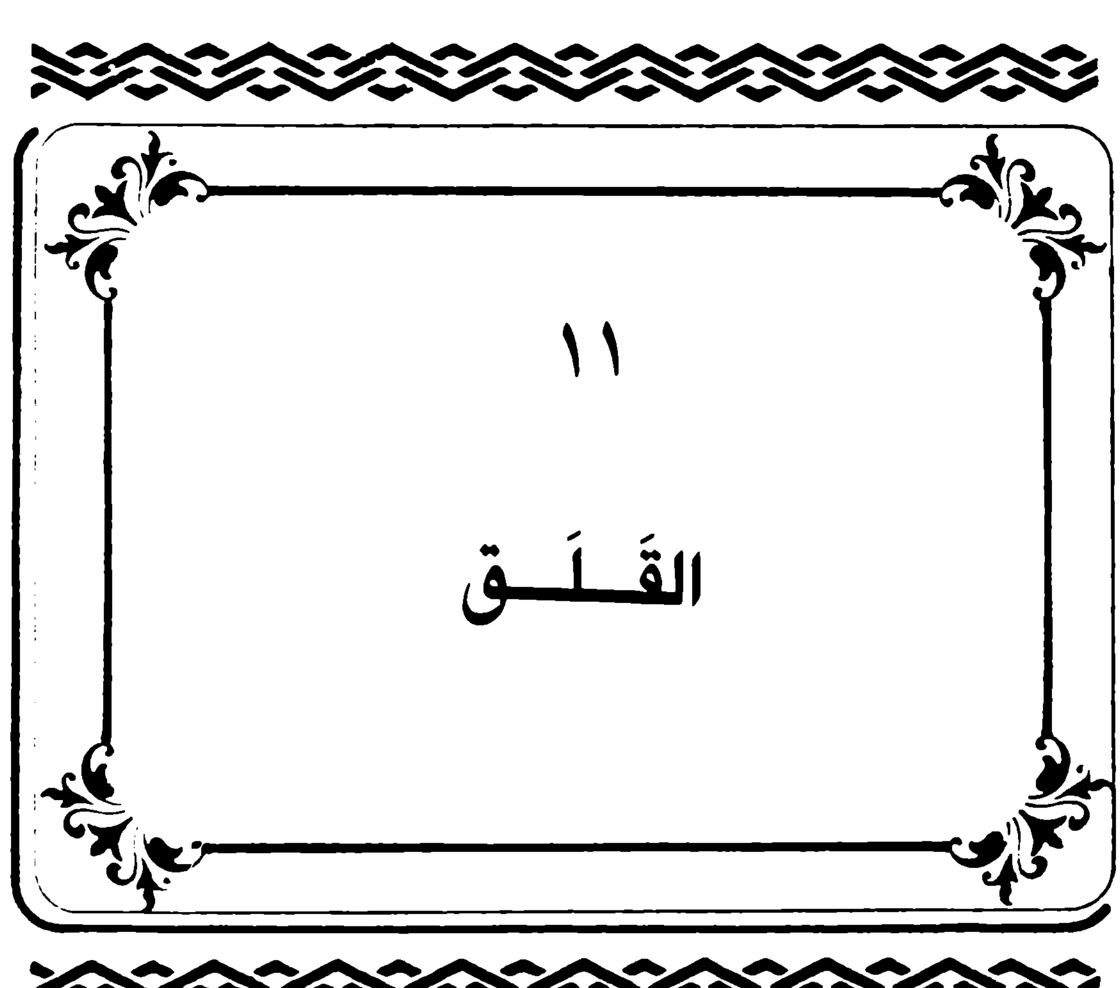
وقال أمير المؤمنين عليه السلام : **«الثقة بالله، وحسن الظن به، حصن لا يتحصن به إلاّ كلّ مؤمن، والتوكل عليه نجاة من كل سوء، وحرزٌ من كل عدوّ»**[4] .

وقال الصادق عليه السلام : **«واللّهِ ما اعطي المؤمن خير الدنيا والآخرة، إلا بحسن الظن بالله، ورجائه له، وحسن خلقه والكف عن أعراض الناس، فإن الله لا يعذب عبداً بعد التوبة والاستغفار، إلا بسوء ظنِهِ وتقصيره في رجائِهِ وسوء خلقه. . . .»**[5] .

---

(١)ـ(٥) إرشاد القلوب للديلمي : ١/١٠٩ .





١١

القَلَق

أتىٰ قومٌ أبا جعفر (محمد بن علي الباقر) ، لزيارتـه والاستفادة من علمـه وفضله، فوافقـوا له صبيـاً مريضـاً، ولاحظوا على الإمـام اهتمامـاً وغماً، وخوفاً بالغـاً على ولده المـريض، وكان لا يقرُّ له قرار، قلقـاً على ابنه المريض فقال القوم في أنفسِهِم: هذه حـاله وولـده مريض، فكيف لـو مات؟ إنّا لنتخَوف أن نرىٰ فيه ما نكره لو مات ولده .

فما لبثوا ان سمعوا الصياح على الولد، فعلموا انه مـات، وإذا بالإمـام خرج عليهم طلق الوجه منبسط الأسارير، في غير الحال التي كان عليها .

فقالوا: جُعلنا فِداك، لقد كنا نخاف ـ مما رأينا عليك من القلق ـ أنْ لـو وقع الموت، نرىٰ منك ما يغمُّنا، ولكنك الآن هادىء البال، مطمئن الخاطر، فكيف ذاك؟ فقال : «إنّا قومٌ نحب أن نُعافىٰ فيمن نحب، فـإذا جاء أمـر الله سلمنا فيما نحب»[1] .

إن الإمـام ، كان يُعـاني من قلقٍ طبيعي معقول، وهـو يـرىٰ ولـده على تلك الحالة من المرض الشديـد والاحتضار، إذ إن المسؤوليـة تقع ـ في مثل هذه الحـالة ـ على عـاتق الوالـدين والأهل. . . يفتـرض بهم أن يحاولـوا جهـد إمكانهم، دفـعَ الخطر عنـه، واستجـلاب الشفـاء لـه. . . وهكـذا كـان البـاقـر ، اعتــراه قلق على ولـده، وخــوف على حيـاتــه التي يتحمـل

(١) بحار الأنوار للمجلسي : ٨٦/١١ .

مسؤوليتها، وصادف ان شاهده القوم على هذه الهيئة، فظنّوا أن ذلك من ضعف في شخصية الإمام والعياذ بالله، وفكروا فيما قد يحدث له لو مات الولد. . . ولكن الإمام ﷺ، خرج عليهم، وقد زال عنه القلق، وأخبرهم بموت الولد، وعلته سكينة وراحة بال، وبيّن لهم: إن كلًّا من الحالتين (قبل وبعد موت الصبي) كانتا على الشكل المطلوب، والطريقة الصحيحة، عقلاً وشرعاً.

(إنّا قوم نحب أن نُعافى فيمن نحب) انه يحب ولده، ويخاف عليه، ويتحمل مسؤولية سلامته. ومن الطبيعي جداً أن يكون قلقاً على حياته، أشد القلق، وهو قلق معقول، قد يعتري كثيراً من الناس في مثل هذه الموارد.

(فإذا جاء أمر الله سلمنا فيما نحب) فلو حلَّ القدر، وحكم القضاء، فلا معنىً - حينئذٍ - للقلق والاضطراب، بل الواجب الاذعان لحكم الله، والقبول بقضائِهِ وقدره والتسليم لأمره الواقع.

إن القلق جزء لا ينفكّ من حياة الإنسان، وهو من الآفات المضنيةِ المؤلمة، ويسبب الكثير من العناء للجسم والنفس معاً، يشيب منه الصغير ويهرم منه الكبير، ويوهن الأعصاب، ويسلب النوم والراحة، وربما صار سبباً في بتر عمر الإنسان لإحداثه الكثير من الخلل والعطب . . .

إن القلق خطر فتّاك، قادر على إحداث أمراضٍ كثيرة في الجسم كارتفاع ضغط الدم والقرحة المعويّة، وانسداد شرايين القلب - أجارنا الله من كل ذلك - مما يجعل الحياة مرّة المذاق، عسيرة الاستمرار.

وقد يسبب القلق أيضاً أمراضاً نفسية، وهي أشدّ خطورة من الأمراض الجسدية كالجنون، والشوزفرينيا، وغير ذلك . . .

والقلق مرض قديم، لازم الإنسان في جميع مراحل تاريخه، فابتُلي الإنسان به، وبكثير من آلامه ومنغصاته، مُنذ أول التاريخ، فأهلك من الناس من أهلك.

ولكنني أعتقد، أن القلق في عصرنا هذا، أكثر انتشاراً، وأعظم فتكاً مما كان عليه فيما مضىٰ من زمان، وذلك لما اتصف به أهل هذا الزمان، من

كثرة الآمال والتمنيات وتبعاً لذلك ازدادت حالات الخيبةِ والاحباط، واتجه الزمان بنا إلى حيث الانهيار في الأخلاق والضعف في الإيمان، وشاع التحلل والفساد، مما تسبب في تفاقم هذا المرض، وازدياد عدد المصابين به، وتضاعفت ـ نتيجة لذلك ـ أسباب تعاسة الناس وشقوتهم .

مصادر القلق :

ينشأ القلق ـ عادة ـ من مصدرين أساسيين في حياة الناس، هما: العجز والجهل، العجز عن مواجهة مصاعب الحياة، والجهل بالأحداث المستقبلية، فالإنسان عاجز في هذه الدنيا لأسباب عديدة. عاجز لأنه يحيا في اطار هذا الكون المحكوم بنظامٍ قسري، ولا يملك الإنسان التصرف فيه كيف يشاء، ولا يمكنه تغيير شيء من سننه وأحكامه التي تجري عليه من غير إرادة، ولا يقدر أن يقدّم أو يؤخر شيئاً من قوانينه الثابتة، ويجيّرها لمصلحته .

وعاجز أيضاً أمام هجوم المكاره والمنغصات عليه، واستهداف الدهر له بالأحداث والملمّات .

واما جهله، فناجم عن كونه يواجه مستقبلاً غامضاً. لا يعرف ما سوف يقع له غداً، أو سيتعرض له في المستقبل لكي يتهيأ له، ويتوقاه، ويستعد لدفع الأخطار عن نفسه، أو لتخفيفها على أقل تقدير. ﴿**وما تدري نفس ماذا تكسب غداً . .**﴾[1].

إن الكون محكوم بقضاء الله وامره، وكل شيء فيه منفعل بالقوانين الكونية الحكيمة، ومُجبر على حركة معينة ومحدودة، رسمها الله جلَّ جلاله، ونظام الحياة ربما حكم لصالح الإنسان، فجاء موافقاً لرغباته ومصالحه، كالغيث الذي ينزل، فينتفع به المزارع في أرضه وزرعه. وربما جاء مخالفاً لأمانيه ومشتهياته، فقد يسبب له الخسارة والضرر، وقد يصيبه بالبؤس والضُرّ، كما لو تجاوز المطرُ الحدَّ المطلوب، فتسبب في احداث السيول والفيضانات المدَمِّرة، التي تكتسح المزروعات والمراتع، وتقتلع الأشجار، وتقضي على الثمار . . .

---

(١) سورة لقمان ؛ الآية : ٣٤ .

والإنسان في كل حال محكوم بحكم الطبيعة، خاضع لقانون السماء، شاء أم أبىٰ، فلا هو قادر على تحويل مجرىٰ القضاء بعيداً عن نفسه، ولا هو قادر أن يحصِّنَ نفسه ضدها ويبعدها عن مرمىٰ سهام الحوادث .

إن العلماء وأهل الخبرة، حاولوا جاهدين، التصرف في الطبيعة لصالح الإنسان، وبذلوا مجهوداً كبيراً لدرء الأخطار عنه، وقد تمكنوا بالفعل ـ بفضل التقدم العلمي والحضاري ـ تجنيب الإنسان كثيراً من المخاطر اني تهدد حياته، وتحصينه من كثير من الظواهر الطبيعية، والكوارث والأمراض، فنبهوه إلى مواطن الخطر، وحَذّروه من الزلازل المحتملة، وساعدوه عن طريق معرفة الأنواء الجوية، في تحديد فترات النفع والضرر في تقلبات الجو، وسخّروا له طاقات جساماً للوقاية من الأمراض، ودفع أخطارها، وطرق معالجتها . . .

ولكن هل استطاع الإنسان أن يؤمن نفسه ضد الأخطار والأحداث، وما تأتي به الأيام؟ الجواب : كلا، إن كل هذه الانتصارات العلمية، تُعدّ ضئيلة بالنسبة لما يخبىء القدر للإنسان من مآسٍ ، ومعانيات، وحوادث، لا زال الإنسان يقف حائراً أمامها، عاجزاً لا يقوىٰ على درئها ودفعها .

كم رأينا مريضاً يعجز الأطباء عن علاجه، بل وحتى من تشخيص مرضه !!

إن حضارة القرن العشرين، بما تحوي من انتصارات علمية، واكتشافات جمّة، لا تقف عاجزة عن حل مشاكل البشرية فحسب، بل هي اسهمت ـ في بعض الأحيان ـ في مضاعفة آلامه ومشاكله .

إن الإنسان الذي لم يكن يعرف التطوّر التقني الحديث، كان بمنأىٰ عن كثير من ابتلاءات المدنيّة الحاضرة. قد يعتقد البعض أن الاقتدار المالي، وتوفير الأسباب والوسائل، وتهيئة الإمكانات والقدرات، تشكل حاجزاً دون توجه الأخطار إلى الإنسان، وهذا هو عين الخطأ، وهو قصر في النظر، لأن الدلائل والشواهد كلها تؤكد خلاف ذلك .

فالواقع الذي يعيشه الناس، والتجارب التاريخية، أضف إلى ذلك

النصوص الشرعيّة. . . كل ذلك يخالف هذا التصور السقيم. فكم نقرأ ونسمع ونرىٰ من اناس داهمتهم الأحداث والنوائب، وألَمّت بهم الأخطار رغم استعدادهم لها أتمَّ الاستعداد، ورغم كل الإمكانيات والأسباب التي كانت موفرة لهم، ومسخرة لخدمتهم وتحصينهم .

ذِكرَ عن غسّان بن عبّاد، أحد الولاة في العهد العباسي، وكان عاملاً على خراسان والسند، وعمل في ولاية الرقّة، أنه مرض أيام ولايته على الرقة، فما كان ينجح معه دواء، وتحيّر معه الأطباء في علاجه، حتى قال له بعضهم: إن مرضه سببه الهواء، ولا بدّ من استشمام هواء نقي كهواء بغداد .

فبعث إلى بغداد فملأوا له جراباً من هوائها، وحملوا له تلك الجراب إلى الرقّة، فكان يَفتح كل يوم في وجهه جراباً حتى بريءَ وعوفي من مرضه[1] .

انه كان على درجة من الاقتدار، بحيث يستطيع أن يوفّر لنفسه ما يشاء، وكيف يشاء كان والياً، غنياً، مسموع الكلمة، نافذ القول، قادراً حتى على جلب الهواء من بغداد إلى الرقة! وهو عمل يعجز عنه كثير من الناس .

ولكن رغم ذلك، داهمه المرض، وأحاط به الموت، وغلبته الأقدار، ولم يستطع شيئاً في مواجهة الأجل .

وهكذا يشكّل العجز السبب الأول لديمومة الخوف والقلق واستمرارهما في حياة الناس .

اما السبب الآخر :

فهو الخوف من المجهول، وعدم معرفته شيئاً عن المستقبل، فهو يسلك طريقه في ظلمات لا يدرك مداها، ويسير باتجاه لا يعرف منتهاه، انه يخاف ويقلق من الغد المجهول، وغوامض أحداثه، ومبهمات مجاهله . . .

﴿ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنيَ السوء. . .﴾[2] .

---

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار : ١/١٥٥ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٨٨ .

إن الله سبحانه خص نفسه بالغيب وأخباره، والإنسان يجهل المستقبل تماماً لأن المستقبل من الغيب، والاستثناء من هذه القاعدة قليل .

لقد كان الإنسان، ولا زال، حتى يومنا هذا، يعتبر الكشف عن المستور، ومعرفة غوامض الغد المجهول، من أكبر أمانيه وغاياته، لذا ظهرت بعض العلوم والفنون التي يسعىٰ الإنسان من ورائها إلى كشفِ الغيب، وتبيان المجهول، كالسحر، والرمل، وقراءة الطالع، وقراءة الكف، وما شاكل من الطرائق التي توسل بها الإنسان في هذا الصدد ولم تزده هذه الوسائل إلاّ معاناة ونصباً. . ولم يصل إلى مبتغاه، ولم يستطع أن يقرأ المستقبل . .

لقد كانت هذه التشبثات سائدة منذ القديم، ولدىٰ كثير من الناس، وفي أغلب الحضارات القديمة، ففي أيام الفراعنة ـ مثلاً ـ كانوا يعملون تعاويذ لطرد الأرواح الشريرة، التي يهيجها السحرة على من شاؤوا، يطلبون صراحة من الآلهة التدخل لطرد هذه الأرواح .

جاء في بعضها : «السلام عليك يا حورس. . . أيها الموجود في بلاد المئات، يا حادَّ القرنين، يا بالغ الهدف، إني قصدتك لأمدح جمالك، ألا فلتقضِ على الشيطان الذي يتلبّس جسدي»[1] .

ولا زالت هذه الممارسات سائدة حتىٰ في أكثر دول العالم تقدماً وحضارة، ولكن بفارق بسيط مع ما كان عليه الناس سابقاً، وهو «ان ضرب الرمل قد تبدل إلى اسلوب حديث، والتفاؤل بحبات الحمّص قد تخلّى عن مركزه لقراءة الفنجان، أو ورق اللعب، كما أن قُرّاء البخت اليوم لم يعودوا من الجوّالين كالسابق، بل أصبحت لهم مكاتب ومؤسسات، يستقبلون فيها المراجعين، (حتىٰ من كبار الشخصيات السياسية والاجتماعية) بعد تحديد المواعيد معهم بالمراسلة، أو بالتلفون، ويتقاضون من هؤلاء الحائرين، أموالاً طائلة» .

«لقد حمل هؤلاء المشعوذون الناسَ على الاصغاء إلى ضروب الخيال في عصر الفضاء بأمل أن يطلعوا على ما يخبئُهُ لهم الغدُ من الخير أو الشّر،

(١) العلاج النفسي الحديث : ٢٨ .

ولكنه أملٌ لا يتحقق أبداً، وسيبقىٰ المستقبل ملفوفاً بأستار المجهول الغامض! وذلك لأن حكمةَ الله تعالى هي التي شاءت أن يبقىٰ الإنسان جاهلاً بمستقبله فلا يعلم ما يكون في غده وما تنتظره من أحداث»[1] .

يقول القرآن الكريم : **﴿وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت﴾**[2] .

قد يظن البعض أنه لو عَلِمَ لَعَمِلَ، ولو درىٰ لتهيأ واستعدّ . . .

ولكن الواقع ان من صالحه أن لا يعلم شيئاً عن مستقبله، وأن يجهل ما يلاقي في غده، لكي يتوكل على الله، ويدع الأمور إليه، ويحيا بالأمل، فيبقىٰ سراج الأمل وهاجاً في نفسه، يبعثه على التحرك الدؤوب والعمل المتواصل، ويستمر في إدارة عجلة الحياة، ويواصل نشاطه الحياتي بالأمل الكبير . . .

ماذا يستفيد لو علم بما يكنُّهُ له المقدور؟ إن كان خيراً أقعده عن العمل، وإن كان شراً أفقده الأمل ! لو علم المرء أنه سينال مالاً عظيماً، أو رتبة عالية، خلال الشهرين القادمين، ترىٰ هل يسعىٰ بعد معرفته بهذا الخبر كما كان يسعىٰ قبل ذلك؟ هل يعمل بجهد وتواصل لتسيير دفة الحياة كما كان يفعل ذلك سابقاً ؟ . . .

ولو علم المرء أنه سيصاب قريباً بداء عضال يستحيل التوقّي منه، ولا يمكن علاجه وسيقعده هذا المرض، وينتهي به إلى الموت. . . لاعتبر نفسه ميتاً منذ يومه ولفقد الأمل، فيهيمن عليه من الهم والغم ما لا يعلمه إلا الله، وتنتابه الكآبة، ويقنط من الحياة .

إذن، خير له أن لا يعلم شيئاً عن مستقبله، ويجهل ما تأتي به الأيام، ليحيا في ظل الأمل بالله فرحاً منشرحاً، ويلتزم بواجباته ووظائفه باخلاص، ويمضي أيامه الباقية بنشاط وتفاؤل .

---

(١) محمد تقي الفلسفي، الأخلاق : ٢/١٤١ .

(٢) سورة لقمان ؛ الآية : ٣٤ .

السحــــر :

ومن الـوسائـل التي يلتمس بهـا الإنسـان أن يكشف أغـوار المجهـول: السحر، وهو فنّ قديم أيضاً، كـان على عهد الفـراعنة، بـل ربما قبـل ذلك، والقرآن يحكي لنا عن السحرِ والسَحَرَة من خلال قصة موسىٰ عليه السلام ، وما كـان بينـه وبينهم، وكيف أن قوة السمـاء غلبت قـواهم فـأبـطلت سحـرهم، وردّت كيدهم . . .

ممـا يدل على أن السحـر شيء واقـع، وليس وهمـاً وخيـالاً كمـا يحلو للبعض أن يصفه. وقد استمر الناس في تداول السحر حتى على عهـد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بل وحاول بعضهم أن يسحر النبي، ولكن الله عز وجل، عصم نبيَّه، وأخبره بكيد الساحر ودفع عنه المكروه[1] .

ولا زلنـا نسمع في زمـاننا هـذا كثيراً عن السحـر والمسحورين، وعمن يمارسون مثل هذه الأعمال المنافية للشرع والأخلاق، فقد حكم الإسلام بعدم شرعية ممارسة السحر وأمثاله من الأعمال التي تسيء إلى الآخـرين، والتي لا طائل من ورائها، سوىٰ هدر الأوقات والأموال وزيادة النصب والعناء .

إن الـدين الحنيف، لا يـريـد للمسلمين أن يقعـوا في حبـائـل الجهـل والخرافات، وان لا يستسلموا لدسـائس النصابين والمشعـوذين، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن أئمة المسلمين النهي عن تصديق مزاعم الكهنة والسحرة، وكشّـافي الـطالـع، والنـاظـرين في النجـوم، إلا مـا اريـد بـه الخيـر والنفـع للمسلمين.

روىٰ ابن ديزيل، قـال: لمّا عزم علي عليه السلام ، على الخروج من الكـوفةِ إلى محاربة الخـوارج كان في أصحـابه منجّم، فقـال : يا أميـر المؤمنين، لا تسر في هذه الساعة، وسِـر على ثلاث سـاعات مضين من النهـار، فإنـك إن سرت في هذه الساعة، أصابك وأصحـابك أذىً وضـرّ شديـد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت، وأصبت ما طلبت .

---

(١) راجـع كتب التفسيـر في تفسيـر سـورة الفلق، ومـا فعله لبيـد بن أعصم من السحـر ومحاولته إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

فقال عليه السلام : أتدري ما في بطن فرسي هذه؟ أذكرٌ أم انثى؟

قال : إن حسبتُ علمت .

فقال عليه السلام : من صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن قال تعالى : ﴿**إن الله عندَه علم الساعة وينزل الغيثَ ويعلمُ ما في الأرحام. . .**﴾[1] .

ثم قال عليه السلام : إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يدّعي علمَ ما ادعيت علمه، أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي يصيب النفعَ من سار فيها؟ وتصرف عن الساعة التي يحيقٍ السوء بمن سار فيها ؟! فمن صدقك بهذا فقد استغنىٰ عن الاستعانة بالله جلّ ذكره، في صرف المكروه عنه وينبغي للموقن بأمرك أن يوليك الحمدَ دون الله جل جلاله، لأنك بزعمك هديته إلى الساعة التي النفع لمن سار فيها،وصرفته عن الساعة التي يحيق السوء بمن سار فيها، فمن آمن بك في هذا، لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ضدّاً ونداً، اللّهم لا طير إلا طيرك، ولا ضرّ إلا ضرك، ولا إله غيرك .

ثم قال عليه السلام : نخالف ونسير في الساعة التي نهيتنا عنها .

ثم أقبل على الناس فقال :

أيها الناس، إياكم وتعلمَ النجوم، إلا ما يهتدىٰ به في ظلمات البر والبحر، إنما المنجّم كالكاهن، والكاهن كالكافر، والكافر في النار. أما والله لئن بلغني انك تعمل بالنجوم لُأخلّدنك السجن أبداً ما بقيت، ولأحرمنّك العطاء ما كان لي من سلطان .

ثم سار في الساعة التي نهاه عنها المنجم، فظفر بأهل النهروان، وظهر عليهم، ثم قال : لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها المنجم، لقال الناس : سار في الساعة التي أمر بها المنجم فظفر وظهر، أما انه ما كان لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم منجم، ولا لنا من بعده، حتىٰ فتح الله علينا بلاد كسرىٰ وقيصر .

---

(١) سورة لقمان ؛ الآية : ٣٤ .

أيها الناس: توكلوا على الله، وثقوا به فانه يكفي ممن سواه[1].

وعن الهيثم بن واقد، قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: إن عندنا في الجزيرة رجلاً ربما أخبر من يأتيه يسأله عن الشيء يُسرق، أو شبه ذلك، أفنسأله؟

فقال عليه السلام: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **«من مشى إلى ساحر أو كاهن أو كذاب يصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله من كتاب»**[2].

بناءً على ما سبق، يجب على المؤمن أن يتجنّبَ هذه الأعمال التي لا تزيده إلا قلقاً واضطراباً ولا تعود عليه بنفعٍ أبداً، ويبقىٰ الإنسان عاجزاً في مواجهة سنن الخلق، وقوانين الكون، جاهلاً بما قد يأتي به القدر، وتصنعه الأيام، وخير له أن يفوّض الأمر إلى الله، ويتوكلَ عليه كما أمر بذلك النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، والأئمة الهداة عليهم أفضل الصلاة والسلام.

هي المقادير تجري في أعِنّتها فاصبر فليس لها صبر على حال
يوماً تريش خسيس الحال ترفعه إلى السِماك ويوماً تخفض العالي

على المرء أن يكيف نفسه حسب إرادة الله، ونظام الخلق، ويتقبل التطورات والتقلبات الكونية بصدر رحب، دون استنكار أو جزع، أو اعتراض على الحكمة الربانية، وان لا يتوقع من الكون أن يطابق أهواءه ومشتهياته، وبذلك يتهيأ له أن ينعم بحياة آمنة مطمئنة من غير قلق ولا خوف.

إن الإنسان بدافع حبه لذاته، وميوله الغريزيَّة، يتمنىٰ أن تتحرك جميع ظواهر العالم وحوادثه بما يعود عليه بالمنفعة والفائدة، وان لا يواجه في حياته خيبة أمل أو اخفاقاً، وان لا تقترب الآلام والمحن من حياته، ولكن هيهات ذلك، إلا بالخروج من أرض الله، والانفصال عن نظام الكون وقوانينه وأحكامه.

إذن، عليه ان يُقرَّ بواقع هذه الحياة المليئة بالمكاره، والمحفوفة

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، المجلد الأول: ٤٦١، طبع بيروت مكتبة دار الحياة.

(٢) سفينة البحار للشيخ عباس القمي: ٢/٥٠٠.

بالأخطار، وبذلك يكون مستعداً لمواجهتها بمعنوية وإرادة قويتين، وروح عالية، عليه أن يتدرَّع بالصبر، ويتحصن بالجلد، لئلا يقع ضحية للقلق والاضطراب .

القلق الواقعي والموهوم :

سبق وأن قلنا في حديثنا عن الخوف، إنّ خوفاً موضوعياً وخوفاً؟ غير موضوعي، والنوع الأول: هو الخوف الواقعي الذي ينشأ من مصدر واقعي معقول، والنوع الثاني: هو الخوف من أشياء لا يخاف منها عادةً، كالخوف من الحيوان الأليف، أو من ظلمة الليل أو ما شابه ذلك . . .

كذلك الحال بالنسبة للقلق، فهناك قلق معقول، وآخر لا معنىً له، غير واقعي ؛فالأول يُعَدُّ بمثابة الألم الذي يحس به المريض، وهو دليل على سلامة الأعصاب، كذلك القلق الواقعي، دليل على سلامة النفس، واتزانها، وفهم الواقع، وإدراك المستقبل، فالاحساس بالخطر القادم يحمل الإنسان على الاستعداد له، ومواجهته بشكل أفضل، ويدعو للبحث عن حلول مناسبة له . . .

في مثل هذه الحالة تحصل عملية التوافق بين ما يحس به المرء من قلق، وبين ما يجب عليه فعله لدفع القلق ودرء الخطر .

عندما يجد الشخص نفسه في مواجهة خطر معين، أو حادثة مقلقة، ينتابه القلق والخوف ويستعد للدفاع، ويكرس اهتمامه لتفادي هذا الخطر، فإذا نجح في جهوده ومساعيه، عاوده الهدوء وزال عنه القلق، وأظهر الفرح والابتهاج كرد فعل لانتصاره ونجاحه .

اما لو لم تنجح مساعيه، ولم تفلح جهوده، وحصل ما كان يخشاه، عند ذلك يختلف ردّ الفعل على الخيبة من شخص لآخر، تبعاً لاختلاف النفسيات، وانماط التفكير وتفاوت الطباع والأخلاق .

روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله : «**في تصاريف الأحوال تعرف جواهر الرجال**» . هذا عن القلق المعقول،أما النوع الآخر، وهو القلق الموهوم، فانه ينشأ عادة من تخيلات وأوهام، ويحصل غالباً عند المتشائمين،

والناظرين إلى الحياة نظرةً سوداء قاتمة، وهو دليل على عطب الجهاز الفكري، وعدم اتزان النفس، وقد يسبب الكثير من التعاسة والشقاء والعذاب والألم، ويقصر العمر . . .

فالذي يغلب على تفكيره توقع الخطر، يشعر بالاحباط دائماً، والكسل عن الحركة والعمل، ويغرق في التخيلات والأوهام، وتتضاعف عليه مصاعب الحياة، وربما أدىٰ ذلك إلى فقدان الصحة وعدم القدرة على ادراك حقائق الحياة. . وغير ذلك من المشاكل .

في حين أن القلق المعقول، يفعل خلاف ما يفعله القلق الموهوم، ومثال ذلك ما أسلفنا من قصة الإمام الباقر عليه السلام مع ولده المريض .

وطبيعي أن المرء لا يسعىٰ بنفسه نحو القلق والاضطراب النفسي، ولا يستسلم لقائد الأوهام والخيالات بمحض إرادته، إنما القلق هو الذي يهجم علىٰ حياة الإنسان فيقض مضجعه، ويستحوذ عليه، ويسلبه الراحة وهدوء البال، ويجره إلى مهاوي الشقاء والعذاب .

مراحل العلاج :

هل يا ترىٰ يستطيع الإنسان ـ بشكل أو بآخر ـ أن ينجو من هذه المحنة ؟

هل يستطيع أن يتغلب على هذا المرض الفتاك ؟

هل بإمكانه أن يكبح جماح التخيلات العنيدة، والأوهام الغير معقولة ؟

إن علماء النفس، والمحللون النفسيون يجيبون بنعم، انهم بحثوا هذا الموضوع كثيراً، وحللوا القلق من الناحية النفسية، ووضعوا حول ذلك حلولاً كثيرة، وألّفوا كتباً عديدة[1] ورسموا مناهج لمكافحته وعلاجه، ولكنهم من الناحية العملية لا يؤكدون الفعالية المطلقة لهذه العلاجات، ففي حالات القلق الحادة، لا تعود برامجهم بفائدةٍ تذكر، لأنها ليست قادرة على اخماد

---

(١) راجع كتاب (العلاج النفسي الحديث قوة للإنسان) للدكتور عبد الستار إبراهيم، طبع الكويت .

اللهيب الداخلي الذي يسببه الاضطراب فيمن استسلم للقلق صاغراً . .
وبقيت المشكلة دون حلٍ حتى الآن .

وعلى هذا يظل علم النفس الحديث عاجزاً عن المعالجة الأساسية للقلق النفسي، والاضطراب الفكري الموهومين .

لكننا بالرجوع إلى التعاليم السماوية التي سبقت علم النفس بقرون، نجد أن قادة الإسلام وأئمة المسلمين، اهتموا كثيراً بهذا الجانب في حياة الناس المؤمنين، وقدموا للأمة طرائق شتّى لمكافحة القلق والاضطراب في النفس، مستندين إلى قوة الإيمان المؤثرة في نفوس الناس تأثيراً بالغاً، وبدأوا ـ في سلسلة من التعاليم الأخلاقية والروحية ـ بوضع أساس الوقاية من هذا المرض الخطير، ثم الأعداد لمعالجته بعد ذلك .

إن المنهج الإسلامي لم يترك ثغرة في حياة المسلمين إلاَّ سدّها، مهما كانت تلك الثغرة محدودة وصغيرة. . فكيف بقضية حياتية، حساسة، مثل المشكلة التي نحن بصددها .

إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم الصَّلاة والسَّلام، أولوا اهتماماً كبيراً قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، بتنظيم حياة الناس، وتهدئة النفوس والخواطر، مستندين في ذلك إلى تعاليم الإسلام في النفس، وتحليل الحالات الروحية. وضعوا برامج عديدة للإنسان، كي يحيا قوياً ذا إرادة صلبة، يستطيع بها مواجهة المشاكل الحياتية، ومجالدة الصعاب .

رسموا للناس مناهج نفسية تحفظهم من الإنهيار والسقوط، حتىٰ في أحرج الظروف وأحلك الساعات، وأصعب الحالات، وتميزوا عن غيرهم من المرشدين والمصلحين، بأن تعاليمهم لم تكن مجرد نظريات، أوطروحات فكرية فحسب. . بل كانت حياتهم صلوات الله عليهم مشحونة بالعبر، والدروس العملية، فلا يأمرون بشيء حتى يكونوا أول المؤتمرين ولا ينهون حتى يكونوا أول المنتهين.

إذا أمروا بالصبر فهم أصبر الصابرين، ولو حثّوا على مجالدة الصعاب،

ومجاهدة النفس، كانوا أكثر الناس عملاً بهذه الوصايا، وأشدّ الناس التزاماً بها، فهم النموذج الأوفىٰ، والأكمل لكل أمر ونهي صادر عنهم .

إننا نقرأ في طيات حوادث فاجعة الطف، التي أَلَمّت بالحسين عليه السلام ، وأهل بيته الكرام، في كربلاء، نقرأ عن السيدة زينب عليها السلام ، عقيلة بني هاشم، صورة سامية عن التجلد والصبر، في مواجهة نكبات الدهر العنيفة، مما يدل على أنها كانت تحمل نفساً عظيمة ، وقلباً قوياً، تأثرت بأخلاق جدها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأبيها أمير المؤمنين عليه السلام ، وأُمها فاطمة الصديقة عليها السلام ، وأخويها الحسن والحسين عليهما السلام مما جعلها تواجه أعنف الفجائع في أهلها وقومها بجلد وثبات، فجعت بأخيها الحسين عليه السلام وأخوتها جميعاً، وأولادها، وخيرة شباب آل الرسول، في يوم واحد، رأتهم مقتلين مجزرين مضمخين بدمائهم الطاهرة . .

ثم أُخذت أسيرةً مع بُنياتها، ونسائها، بأقسىٰ طريقة، وبوحشية بالغة، إلى ابن زياد في الكوفة ثم إلى يزيد بالشام .

ناهيك عما صاحب هذه الأحداث، من منع الماء عنهم، والتضييق عليهم، وإخافتهم وإرعابهم، وتحشيد الجموع الغفيرة لقتلهم وإبادتهم . .

كل ذلك كان مدعاة لأن تنهار هذه السيدة العظيمة، وتفقد صوابها من صدمة المصاب، وعظم الرزيّة. . . . بل إن بعض تلك الأسباب كانت كافية لانهيار عظيم في نفس زينب، إن الناس تنهار نفوسهم، وتصعق قلوبهم لمثل واحدة من هذه الفجائع التي تتابعت على آل الرسول في واقعة الطف! ولا يستطيعون التجلد لها، ويعجزون عن مواجهتها. ولكننا رأينا (أُمَّ هاشم) زينب بنت علي عليها السلام ، ضربت أروع الأمثال في التصبر والتجلد، ولم تستسلم لسلطان الخوف والقلق، بل كانت قوية العزم، صلبة الإرادة صبورة على المصاب الجلل، وتحملت مسؤولية رعاية شؤون العائلة المنكوبة والأطفال اليتامىٰ على خير وجه، حتىٰ اللحظة الأخيرة، وعُدَّت بذلك شريكة الحسين عليه السلام ، في ثورته المباركة، وكان دورها متمماً لرسالة أبي عبد الله .

وقفت عند مصرع أخيها، ووضعت يديها تحت جسده المبضَّع ورفعت

طرفها نحو السماء قائلة: اللَّهُمَّ تقبل منا هذا القربان !! .

وشاهدها ابن أخيها زين العابدين عليه السلام، مساء يوم العاشر من محرم، وهي منشغلة بصلاة الليل، لم تصرفها عنها كل تلك الأهوال، لا تفتأ عن ذكر الله، وعن الصلاة!! .

وأذهلت الناس بخطبتها في الكوفة، وزلزلت عرش بني أُمية . . .

وأخرست يزيد بن معاوية، حين تكلمت في مجلسه في الشام . . .

إن المؤمن الملتزم بنهج الإسلام، والعامل بتعاليمه، لا شك يحيا بقلب مطمئن، وضمير هادىء لا يصاب بالخوف والهلع، عند وقوع الحوادث الجسام، ولا تستولي عليه الأوهام والتخيلات في مواجهة المنغصات، وبالتالي لا يقلق إلاَّ في الموارد الطبيعية التي تدعو للقلق واقعاً وفعلاً .

فالعلاج في الإسلام، أن يستمد الثبات والاستقرار من إيمانه بالله تعالىٰ، ويعوِّدَ نفسه التصبر والتجلد، ويدفع أخطار القلق بالاعتماد على القوة الغيبية، ويدع الأُمور تجري في أعِنَّتها، متوكلاً على الله، معتمداً عليه، بل ويفترض بالمؤمن أن يأخذ بالوقاية قبل أن يضطر للعلاج، فالوقاية خير من العلاج، كما قيل .

١ ـ **الوقاية** : ولمكافحة القلق الموهوم على المرء أن يتخذ أولاً سبل الوقاية، فالمطلوب من المؤمن أن يكون عارفاً بطبيعة هذه الحياة وتقلباتها، وأن ينظر إلى حالها نظرة واقعية، ولا يغيب عن باله تحولاتها المفاجئة، والغير منتظرة، وأن يكون على علمٍ بأن ما تأتي به الأقدار، يكون ـ عادة ـ غير محسوب له .

يقول أمير المؤمنين عليه الصَّلاة والسَّلام، في وصية لولده الحسن عليه السلام :

«أي بني: أحْيِ قلبك بالموعظة . . .

وبصِّره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر، وفحش تقلّب الليالي والأيام. . .»[1] .

---

(١) نهج البلاغة ص ٥٢٦ خطبة رقم ٢٦٩ طبعة الأعلمي.

فالمفروض أن يكون المؤمن على استعداد لتلقي أهوال الحياة، وتقلباتها الفاحشة، بحيث لا يفاجأ بها، ولا يقلق منها، ولا يؤخذ بتطورات أحداثها، وتحولات الليالي والأيام .

بهذه النظرة الواقعية تتهيأ النفوس، لتقبل تغيّرات عالم الطبيعة، وتكون قوية في المقاومة، ومعدّة لمواجهة المصائب والحوادث الأليمة، قبل وقوعها :

إن منهج الأئمة الطاهرين عليهم السلام ، يعلمنا أن الحياة محفوفة بالمخاطر، وأننا نعيش في عالم متغيّر متحول، وأن أياً من أحوال هذه الدنيا، لا يدوم على وضع واحد، لذلك علينا أن نواجه الحوادث والمشاكل، بصلابة وعزم، وأن نتذوق المرارات متدرعين بالصبر والجلد .

في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام ، يقول : «**دارٌ بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا يَسلم نُزّالها، أحوالها مختلفة، وتاراتها متصرفةٌ، العيش فيها مذموم، والأمان فيها معدوم، وإنما أهلها فيها أغراضٌ مُستَهدفةٌ، ترميهم بسهامِها، وتفنيهم بحِمامِها**»[1] .

وقال عليه السلام : «**لا يأمن أحد من صروف الدهر، ولا يسلم من نوائب الأيام**»[2] .

ليست هذه نظرة تشاؤمية للحياة، بل هي نظرةٌ واقعية، تجعل الإنسان لا يفقد زمام نفسه في مواجهة أحداث الحياة، ولا ينهار أو يستسلم، ولا يهيمن عليه الجزع، ولا يفقد شخصيته وهذه هي المرحلة الأولى من مراحل مكافحة القلق والاضطراب، والتي عبّرنا عنها بمرحلة الوقاية قبل وقوع الخطر .

عن الإمام الصّادق عليه السلام : «**ثلاثة أشياء لا ينبغي للمؤمن العاقل أن**

---

(١) النص ٢٢١ شرح النهج لابن أبي الحديد: ٧٣٧/٣ ، طبع بيروت مكتبة دار الحياة . .

(٢) فهرست الغرر: ١٤٨ .

ينساهن على كل حال، فناء الدنيا، وتصرف الأحوال، والآفات التي لا أمان لها»[1].

يقول الأستاذ الشيخ محمد تقي الفلسفي في مجال شرحه لهذا الحديث :

«لنتصور أن المصابيح التي تشتعل بالزيت، تَسَع كمياتٍ مختلفةً من الوقود، فكلٌ منها يشتعل وينير على قدر ما فيه من الوقود، فقد يستمر احدها مشتعلاً ليومين فقط،والآخر ليوم واحد فقط، والثالث لبضع ساعات لا غير، بناء على ذلك، يمكن تصور انطفاء هذه المصابيح على ثلاثة وجوه :

- **الوجه الأول** : هو نفاد الوقود، وانطفاء المصباح انطفاءً طبيعياً، باعتبارٍ أن كمية الوقود في المصابيح محدودة، فإن أعمار اشتعالها محدودة هي الأخرىٰ، فهي تشتعل وتنير لوقت موقوت، ومدة معينة، وعندما ينفد وقودها، تموت موتاً طبيعياً .

إن انطفاء المصباح بسبب نفاد وقوده يعتبر بمثابة فناء نوره، وموت المصباح موتاً طبيعياً .

- **الوجه الثاني** : هو حدوث مانع أو تغيّر يحول دون اشتعال المصباح، ففي هذه الصورة لا يكون انطفاء السراج، وفناء نوره ناجماً عن نفاد مادة الاشتعال وانتهاء العمر الطبيعي بل يرجع إلى انتفاء الظروف الطبيعية المناسبة لاشتعاله فينطفىء، فإذا نقلنا المصباح من فضاء مفتوح مناسب، إلى آخر مغلق، بحيث لا يصله المقدار الكافي من الأوكسجين لاشتعاله، عندها تأخذ شعلته بالتضاؤل تدريجياً، ويخفت نوره شيئاً فشيئاً، وبعد فترة من المقاومة ينطفىء ويموت قبل أن يصل إلى موعد موته الطبيعي .

- **الوجه الثالث** : هو حدوث الحدث الطارىء، دون سابق إنذار، فقد يكون المصباح في ظروف مناسبة للاشتعال، وفيه من الوقود ما يكفي لبعض الوقت، وهو موضوع في مكان مناسب يشتعل ويشع بضوئه الساطع على ما حوله، على أحسن ما يكون. . ولكن تهب فجأةً ريحٌ قويّة، وفي لحظة

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي : ١٨٣/١٧ .

تنطفىء الشعلة، ويتلاشىٰ النور على حين غرّة .

كل كائنات العالم من جمـادات، وأحياء، أشبـه بمصابيـح خلقها الله، القدير بمشيئته وهي تتمتع بإشعاع الوجود، إلاَّ أن قابليتها على البقـاء، ودوام الحياة مختلفة، فبعضها يعمّر طويلاً، وبعضها قصير العمر، ولكنها جميعاً لها أعمار محدودة مؤقتـة، وهي في النهايـة، قد تمـوت موتـاً طبيعياً، وقـد تموت لأسباب وتحولات تدريجية أو ربما بحوادث تصادفية فجائية .

والإمام علي عليه السلام، يشير في بعض خطبه إلى هذه الوجوه الثلاثة، قائـلاً بما معناه: إن هذه الدنيا التي نعيش فيها، لا هي أزليّـة، ولا هي أبديّـة، فقد كان لها بداية، وستكون لها نهاية، فالشمس الساطعة، والقمر المنيـر، والكرة الأرضية، وغيرها من الأجرام، والأفلاك والكواكب. . . كلها تحيا في ظـروف محدّدة، قد تطول وقد تقصر، ظهرت في زمن معين، وستفنىٰ في زمن محدد آخر، كذلك الإنسان بما أنه جزء من كائنات هذا العالم، لا تختلف حاله عن حـال غيره من الكـائنات، وقتيٌّ وفـانٍ وإن هـو لم يصـادف في حياتـه واقعـة مهلكة، وحادثة طارئة، فسوف يموت في النهاية حتف أنفه، عنـدما تنفـد قواه الحياتية»[1] .

والموضوع الأهم الذي يركز عليه الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، في حديثه السابق هو (فناء الدنيا) وزوالها، وإن كل شيء فيها محدود مؤقت، وسيأتي اليوم الذي ينتهي فيه كل شيء ويزول، ولا تكون ثمةَ حياة .

﴿كلُّ من عليها فانٍ ويبقى وجهُ رَبّك ذو الجلال والإكرامِ﴾[2].

كـذلك حيـاة الإنسان، لا بـد أن تكون لهـا نهـايـة، ويعتـورهـا الفنـاء والزوال، لأن الإنسان جزء من هذا العالم الفاني .

والمـوضوع الثـاني الذي ينص عليـه الإمام الصّـادق عليه السلام، والـذي لا ينبغي أن يغيب عن ذاكـرة المـرء، هــو تقلب الأحـوال، وتغيّـرهـا، وعــدم استقرارها، والإنسان في حدّ ذاته متقلب الحال، متغيّر الطبيعة، من صغر إلى

(١) كتاب الأخلاق للفلسفي : ٢/١٥١ .

(٢) سورة الرّحمٰن ؛ الآيتان : ٢٦ ـ ٢٧ .

كِبر، ومن شباب إلى شيخوخة، ومن قوةٍ إلى ضعف، وهكذا. . . (تصرف الأحوال) .

والظروف المحيطة به متقلبة، والأجواء التي يعيشها متقلبة أيضاً، والكون كله من حوله متقلب ولا بد أن يضع المؤمن في احتماله، أن الأحوال لا تدوم على وتيرة واحدة، ويكون على أهبة الاستعداد لأي تغيير طاريء.

وثمة موضوع ثالث، يؤكد عليه الإمام ﷺ ، وهو الغيب الذي نجهله تماماً، والأقدار التي لا نعرف عنها شيئاً، وحوادث الأيام التي تبغتنا، وتأخذنا على غرّة (الآفات التي لا أمان لها) .

فمهما كان الإنسان محصناً ضد الأخطار، مؤمناً من الحوادث، لابدَّ وأن تهجم عليه الآفات، وترميه بسهامها، وتصيبه بويلاتها، فقلّما تجد من يموت موتاً طبيعياً، وتنتهي حياته بانتهاء المدة الطبيعية .

إن غالبية الناس اليوم، تنتهي حياتهم بسبب الأمراض المختلفة، وبخاصة أمراض المدنية المعاصرة، أو الحوادث الغير مرتقبة، فينتهون نهاية غير طبيعية، فلا أمان إذن من الآفات والأقدار .

تقلبات الدهر:

وعن تقلبات الدهر، وتحولات الأيام، يعرض علينا التاريخ صوراً كثيرة، وقصصاً وأخباراً عن الماضين، ممن كانوا في خفض العيش، ورخاء الحياة، فأدبرت عنهم الدنيا، وأنزلتهم إلى الحضيض، وقسى عليهم الدهر .

أو على العكس من ذلك، ممن كانوا في عُسر وشدّة، فتبدل العسرُ يسراً، وتحولت الشدةُ رخاءً وأراشتهم الأيام فصاروا إلى سعة العيش، وهناء الحياة . .

أذكر على سبيل المثال: (الوزير المهلبي) الحسن بن محمد، ذكروا عنه: أنه كان قبل وزارته فقيراً، أصابته فاقة حتى ساءت حاله، وصار في ضائقة شديدة، حتى انه ـ في يوم من الأيام ـ لم يجد ما يطعم أهله، وتنكّر له

أصدقاؤه لفقره، وسُدَّت دونه الأبواب، حتىٰ يئس من الحياة، وتمنّىٰ الموت، وصار ينظر إلى الحياة نظرةً يائسة متشائمة، وبلغ به الأمر يوماً أن هام على وجهه، هارباً من همومه وأحزانه، لا يلوي على شيء، وبينا هو سائر على غير هدىٰ، وجد نفسه خارج البلد، يتمشىٰ في مزرعة من المزارع، وتفتقت قريحته عن شعر :

ألاَ موتٌ يُباع فأشتريهِ	فهذا العيش ما لا خير فيهِ
ألاَ موت لذيذ الطعم يأتي	يخلصني من العيش الكريه
إذا أبصرتُ قبراً من بعيدٍ	وددت لو أنني مما يليهِ
ألاَ رَحمَ المهيمنُ نفسَ حُرٍّ	تصدَّق بالوفاة على أخيهِ

إن هذه الأبيات تكشف عن مدىٰ القلق والاضطراب اللذين كان يعاني منهما المهلبي، والحالة اليائسة التي كان يعيشها لما أصابه من إدبار الدنيا، وجنوح الخير عنه وما حلَّ به من فقر وبؤس ولكن يختلف الدهر، ويتبدل العسرُ يسراً، ويرقُّ الزمان لفاقة المهلبي، وينيله ما يرتجي، فيصير وزيراً لمعز الدولة بن بُوَيه، فيصبح راغد العيش، بحيث إذا أراد أكلَ شيء مما يُتَناوَل بالملعقة كالأرز واللبن وأمثالهما، وقف إلى جانبه الأيمن غلام معه ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً ـ وكان يستعمله كثيراً ـ فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة، ثم يدفعها إلى غلام آخر قائمٍ إلى الجانب الأيسر، ثم يأخذ أخرىٰ فيفعل بها فعل الأولىٰ، حتّى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة إلى فمه دفعةً أخرىٰ[1] .

وكانت موائده معدّة دائماً، يجلس عليها معه كثير من أهل العلم والأدب والفضل، منهم (أبو الفرج الأصفهاني) صاحب الأغاني .

ويذكر أن الوزير حين كان يردد أبياته تلك، في أيام بؤسه، وهو هائم على وجهه بين المزارع، سمعه أعرابي، فاستحسن الأشعار وحفظها، واستودعها ذاكرته حتىٰ تبدلت أحوال المهلبي، وصار وزيراً، أتاه يوماً ووقف على بابه، يطلب الإذن بالدخول عليه، فمنعه الحجاب والحراس، فكتب

---

(١) مقدمة مقاتل الطالبيين ص هـ .

بيتين على قصاصة، وبعثها إليه مع أحدهم، ودخل الخادم على الوزير وسلّمه القصاصة، ولما فضها الوزير قرأ فيها :

ألاَ قُل للوزير فدتهُ نفسي مقالةَ مذكرٍ ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول بضيق عيشٍ (ألاَ موت يباعُ فأشتريه)

وتعجب الوزير. . . فمن أين يعرف هذا الرجل شعراً قرأه بينه وبين نفسه ؟

وأمر بإدخاله عليه، وسأله عن ذلك، فأخبره أنه كان يومذاك يمشي وراء الوزير يسمعه ويراه والوزير منشغل عنه بنفسه، فسمع أشعاره فحفظها، واليوم حين علم أنه صار وزيراً، وأقبلت إليه الأيام، جاءه مسترفداً وطالباً أن ينيله شيئاً .

فكساه وأعطاه سبعمائة درهم .

هذا عن تبدل العسر يسراً، وأما عن خلاف ذلك، فيروىٰ عن محمد بن عبد الرّحمٰن الهاشمي أنه زار أُمّه في عيد أضحىٰ، ليسلم عليها، ويبارك لها العيد، فرأىٰ عندها امرأةً رثة الثياب، منكسرة النفس، تظهر عليها الكآبة والذلة، تجلس إلى أُمه وتحادثها .

فقالت له أُمه : أتعرف هذه المرأة ؟

قال : لا .

قالت: هذه عَبّادَةُ، أُم جعفر البرمكي، (ذلك الوزير الذي طار صيته، وصيت قومه والذي دانت له الدنيا، وملك زمامها) .

يقول محمد بن عبد الرّحمٰن : فاقتربت منها وحادثتها، وأنا في عجب من أمرها، أهذه أُم جعفر!! ؟

ثم قلت لها: هل لك يا أُم جعفر، أن تذكري لنا بعد خواطرك، من عجائب الزمان وغرائب الأيام؟ .

قالت: نعم، إعلم يا بُني أنني مرَّ علي يوم مثل هذا اليوم (عيد أضحىٰ) وأربعمائة جارية في بيتي يخدمنني، وكنت مع ذلك عاتبةً على ولدي

جعفـر، وأقـول إنـه لم يؤدِّ حقي في عـدد الجـواري الـلاتي جعلهن في خدمتي!! .

ذلك يوم، وهذا يوم، يمرُّ علي هذا العيـد، وأنا في أشـدّ حال، أبحث عن جِلْديْ شاة لأفترش واحداً وألتحف بآخر.

فَرَقَّ لها محمـد وأعطاهـا خمسمائـة درهم، فكادت تمـوت فرحـاً بهذه الدراهم[1] .

ونظير هذه الحكاية، ما يروىٰ عن (مُزنـة زوجة مـروان بن محمد) آخـر الخلفـاء الأمويين فقـد ذكر أن الخيـزران[2] أم الهـادي والـرشيـد، كـانت في دارها، وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من نساء بني العباس، فبينما هي كذلك، إذ دخلت عليها جارية من جواريهـا فقالت: أعـزّ الله السيدة! بـالباب امـرأةٌ ذاتُ حُسنٍ وجمال، في أطمـارٍ رَثَّةٍ، وليس وراء مـا هي عليه من سـوء الحال غايـة، تأبىٰ أن تخبـرَ باسمهـا، وهي تروم الـدخول. فقـالت الخيزران للجارية: أدخليها، فإنه لا بد من فائدةٍ أو ثواب .

فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال، وفي أطمار رَثة، فوقفت بجنب عضادة الباب ثم سلمت متضائلة، وتكلمت فأوضحت عن بيان ولسان .

قالت لها الخيزران : من أنت ؟

قـالت : أنا مُـزنَةُ زوج مـروان بنِ محمد، وقـد أصارني الـدهر إلى مـا ترين، ووالله ما الأطمار الرثة التي عليَّ إلاَّ عارية، وإنكم لما غلبتمونا على هذا الأمـر، وصار لكم دوننـا، لم نأمن مخـالـطة العـامـة ـ على مـا نحن فيـه من الضرر ـ على بادرة إلينا تزيل موضع الشرف، فقصدناكم لنكـون في حجابكم على أية حال كـان، حتّى تأتي دعوة من له الدعوة .

فاغرورقت عينـا الخيزران بـالدمـوع، ولكن زينب بنت سليمان بن علي التي كـانت حـاضـرة في المجلس، التفتت إلى مـزنـة، وقـالت في غضب:

---

(١) وقائع الأيام للشيخ عباس القمي : ١٧٣ .

(٢) هي زوجة المهدي العباسي، ولما ولي الخلافة استبدتْ بالأمور دونه .

لاخفّف الله عنك يا مزنة ! أتذكرين وقد دخلت إليك وأنت على هذا البساط بعينه، فكلّمتك في جثة (إبراهيم الإمام) فانتهرتِني، وأمرتِ بإخراجي، وقلت: ما للنساء والدخول على الرجال في آرائهم وواللّهِ لقد كان مروانُ زوجُكِ، أدعى للحق منك! لقد حلف ـ حين دخلتُ عليه ـ إنه ما قتله ـ وهو كاذب ـ وخيّرني بين أن يدفنه، أو يدفع إليَّ جثته، وعرضَ عليَّ مالاً فلم أقبله .

فقالت مزنة : والله ما أدّاني إلى هذه الحال التي ترينها إلا تلك الفعال التي كانت مني ! وكأنك استحسنتها ، فحرضت الخيزران على مثلها، إنما كان يجب عليك أن تحضّيها على فعل الخير، وترك المقابلة بالشر، لتُحرزَ بذلك نعيمها، وتصون دينها .

ثم قالت: يا بنت عمّ، كيف رأيتِ صنيعَ الله بنا في العقوق؟ أفأحببتِ التأسي بنا!؟ ثم ولت باكية، وخرجت منكسرة القلب .

وتداركت الخيزران الموقف، فأشارت إلى جارية من جواريها، فلحقتها وعدلت بها إلى بعض حجر القصر، وأمرت بتغيير حالها والإحسان إليها .

ولما دخل المهدي عليها ـ وقد انصرفت زينب ـ قصّت الخيزران عليه قصة مزنة، وما أمرت به من تغيير حالها، فدعا بالجارية التي ردّتها، وسألها إن كانت سمعت من مزنة شيئاً حين ردّتها إلى المقصورة؟ قالت: نعم، لحقتها وهي تبكي في خروجها، وتقرأ :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقها رَغداً من كلِّ مكانٍ فكفَرتْ بِأنعُمِ اللَّه، فأذاقها اللَّهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يَصنعون﴾(١) .

ثم قال للخيزران : والله لو لم تفعلي بها ما فعلتِ، ما كلمتكِ أبداً، ثم أكرمها وأحسن وفادتها، وقال لها: والله لولا أني لا أُحب أن أجعل لقوم أنتِ منهم في أمرنا شيئاً لتزوجتك، ولكن لا شيء أصون لك من حجابي، كوني

---

(١) سورة النحل ؛ الآية : ١١٢ .

في القصـر مع أخواتـك إلى أن يـأتيك أمرٌ من لـه الأمـر فيمـا حكم بـه على الخلق. وذكر أنها عاشت حتى أيام هارون[1].

إن هذه الوقائع ونظائرهـا، مما لا تحصىٰ عـدداً، من قضايـا التاريـخ، وأحـداث الزمـان، تؤكد أن الحيـاة لا تدوم على وتيـرة واحـدة، وأنها دائمـة التغيّر والتبـدّل، والمـطلوب من الـواعي اللبيب أن يكـون على استعـداد، وعلم، وإحـاطةٍ بتقلبـات الأيام، وبـذلك يقي نفسـه من تسرّب القلق إليهـا، ويكون بمنأىٰ عن الاضطرابات النفسية التي يعاني منها كثيرٌ من الناس.

روي عن أميـر المؤمنين عليه السلام «**كيف تبقىٰ على حالتـك، والـدهـر في إحالتك**»[2].

ونعود لحديث الإمام الصادق عليه السلام، فالتأمـل فيه، وفي الـركائـز الثلاث التي وضعها لمعرفة حال الدنيا، يرشدنا إلى الطريق الأمثـل للوقايـة من القلق ومكافحته.

إن هذه الرواية وأمثالها، من روايات قادة الإسلام وعـظمائـه، وأقوالهم الحكمية الأخلاقية تخلق عند الإنسان الواعي، والمؤمن الـرشيد، نظرة واقعية للحياة، ومناعة دون الاغترار بها والركـون إليها، والاعتمـاد عليها، فـلا ينسىٰ ـ في كل أحواله ـ أن الدنيا فانيـة، وان حالاتهـا متغيرة ولا ثبات لها على صفة واحدة، وان هناك كوارث قد تأتي على حين غرّة. فيكون متهيّئاً دائماً لمواجهة كل حالة طارئة، عارفاً أن التغيّر والتبدل والانقلاب من طبيعة هذا الكـون وانه لا شيء في هـذه الـدنيـا باقٍ على حـالـه، من غيـر أن تصيبـه ريـاح التغييـر والتبديل . . .

عندما يكـون سليماً معـافىٰ، لا يفوتـه ان من ورائه مـرض وسقم، وإذا كان في بحبوحة شبابـه وقوتـه، لا يغيب عن بالـه ان من وراء ذلك شيخـوخة وضعفاً، وفي حال الغنىٰ، لا يغفل عن الفقر والحاجة . . .

وبهذا الشكل لا يقع في أسر الدنيا، ولا تقيّده أحابيلها، ولا يسمح لهـا

---

(١) قصص العرب: ٤/١٦٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي: ٥٥٤.

أن تملك عليه قلبه، وتهيمنَ على نفسه ومشاعره .

لا ننكر أن الإنسانَ بطبعهِ محبٌّ للدنيا وما يتعلق بهـا، ومن الطبيعي أن يحب الأشياء والأشخاص . . ولكن النصيحـة أن لا يفرط في حبـه، إلى درجة الانفعال والذوبان .

انـه يحب الزوج، والـولد، والمُلك، والأهـل، والاقتـدار، والجـاه . . وغير ذلك من أمور الدنيـا ولكنه لا يصيـر عبداً لهـا، لا تمتلكه بحبّـه المفرط لهـا . فلو فقد شيئـاً من ذلك، لـو فقـد مـالاً، أو عـزيـزاً، يملك زمـام نفسـه وعواطفه، ولا ينسىٰ عقله ودينه .

انه يفكر في عواقب الأُمور، ولا ينسىٰ صروف الدهر، ولا يفقد تـوازنه النفسي، وتعـادلـه الـروحي لا يَنسىٰ الحقيقـة والـواقـع، ولا يبتعـد عن الحق والفضيلة في كل حالاته، في السراء والضراء في الشدة والرخاء، سواء أقبلت إليه الدنيا، ودارت عجلتها متوافقة مـع مصالحـه ومشتهياتـه، أو أدبرت عنـه، وغدرت به، وأساءت إليه .

ولا تتحطم شخصيته تحت ضغط القلق والاضطراب، وبهذا جاء الوحي المنزل في الكتاب الكريم في قوله تعالىٰ : ﴿**لِكَيلا تأسَـوا على ما فـاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**﴾[1] .

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «**من أحبَّ البقاءَ فليُعدَّ للمصـائب قلباً صبوراً**»[2] .

وعـن الإمـام البـاقـر عليه السلام قـــال : «**من لا يُعــدّ الصبـر في النـــوائب يعجز**»[3] .

إن هذا المنحىٰ في التفكير يجعل الإنسان مستعـداً لمواجهـة الحوادث المرّة، ويرفع من معنوياته، ويمنحه إرادة، وقوة وشدّةً وصلابة .

---

(١) سورة الحديد ؛ الآية : ٢٣ .

(٢) البحار للمجلسي : ١٣٧/١٧ .

(٣) الكافي للكليني : ٩٣/٢ .

على العكس من ذلك من لا يأخذ لنوائب الدهر أهبته، ولا يستعد لها نفسياً، ولا يخطر بباله تقلّبُ الدهر، ويريد من الدنيا أن تكون مسخرة لمصالحه وأهوائه دائماً، فإن مثل هذا الإنسان لا بد وأن يصطدم يوماً بجدار الواقع والحقيقة، ويكتشف حقيقة الدنيا، في الوقت الذي لا ينفعه ذلك، فيُصاب في عمق نفسه بالعطب والخور، ويُبتلىٰ بالخوف والقلق، واضطراب النفس، لأنه كان غافلاً عن حقيقة الدهر، معرضاً عن ما قد تأتي به الأقدار .

العلاج :

أما عن العلاج من هذا البلاء العنيد، فلا بدَّ من الاستعانة بقوة الإيمان، وبالتحليلات النفسية، لتقوية الإرادة، وخلق القدرة في النفس على ضبطها، وَزَمِّها وترويضها على حُسنِ التحمل، وبذلك يتمُّ له اقتلاع جذور القلق والخوف والاضطراب من أعماق النفس .

إن من أهم أسباب القلق في حياة الإنسان، هو الأسف على ما مضىٰ، والحذر من المستقبل، فالنفس تتحول إلى ميدان تجول وتصول فيه دواعي الأسف على ما فات، والخشية مما قد يأتي ويبقىٰ الفكر مرهوناً بالأمس وخائفاً من الغد، وبذلك يمتنع على المرء فهم الواقع، وإدراك حقائق الحياة الحاضرة، فينكص عن أداء التزاماته، وواجباته الفعلية، ويتخلف عن ركب الحياة، وتذهب سنوات عمره الثمينة حَسَراتٍ وآهاتٍ، من ناتجٍ أو ثمر .

يقول أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام :

«الأيام ثلاثة، فيوم مضىٰ لا يُدرَك، ويومُ الناس فيه، فينبغي أن يغتنموه، وغدٌ، إنما في أيديهم أمله»[1] .

ويقول علي عليه السلام ، في وصيّةٍ له لولديه الحسن والحسين عليهما السلام :

«ولا تأسفا لشيءٍ منها زُوِيَ عنكما. . .»[2] .

وعنه عليه السلام أيضاً : **«الاشتغال بالماضي يضيّع الوقت»**[3] .

---

(١) تحف العقول : ٣٢٤ .

(٢) نهج البلاغة .

(٣) فهرست الغرر : ٣١٦ .

إن سعادة الإنسان تكمن في معـرفته بـاستثمار لحـظات العمر، ودقـائق الحيـاة، بغضّ النـظر عن المـاضي وعن المستقبـل، إلاَّ في حـدود التـدبيـر والاستعـداد للمستقبل، أو الإستفـادة من الماضي، والاعتبـار به، كمـا أسلفنا عن ذلـك، أمـا أن يصـرف عمـره في التـأسف على المـاضي، والخشيـة من المستقبل بحيث يسبب له ذلك الموت الحاضر، فهذا شيءٌ منهِيٌّ عنه بشدّة.

على العاقل أن يستفيـد من رصيد عمـره، ويكون ابن وقتِـهِ، ولا يمزج يومه بالغصة والمرارة، ويسبب في خلق القلق والتعاسة لنفسه .

إن الماضي انتهىٰ، وينبغي إسدال الستار عليه، فلا يعـود الأسف عليـه بشيء، إلاَّ مضيعـة الـوقت، وهـو كمـا يقـول الصـادق عليه السلام : **«يـوم مضىٰ لا يُدرَك»** .

وأما المستقبل فمنوط بالحاضر الذي يعيشه المـرء، ويمكن تعليق الأمل عليه، لا الخوف منه (وغد إنمـا في أيديهم أمله) فلو حـاول استثمار الحـاضر استثمـاراً جيـداً، أمَّنَ لنفسـه مستقبـلاً جيـداً أيضـاً، مـع عـدم التغـافـل عن المقدرات الربّانية، والمصالح الإلهية، وما قد يأتي به المستقبل ممـا لم يكن في الحسبان .

إن مسؤولية الإنسان عن حاضره، وعن الـزمان الـذي يعيشه، فعليـه أن يغلق أبواب الماضي والمستقبل، ويعمل بجدّ لإعمار وإصلاح اللحظات التي يعيشها بالفعل .

عن الصَّادق عليه السلام : **«اعمل لكل يوم بما فيه تَرشُد»** .

لنفترض أن قائـداً عسكريـاً يقود آلاف الـجنـود، يستعد الآن لتحـريك قطعات الجيش لأداء مهمةٍ عسكرية بالغـة الأهمية، وقـد سبق له أن فشـل في مهمةٍ سابقةٍ، ومُنيَ بالهزيمة وتعـرضت حـياة الكثير من جنـوده للهلاك، وهـو الآن يريد إعادة الكرَّة، فما هو المطلوب الآن ـ عقلاً وشرعاً ـ من هذا القائد ؟

هل يصح أن يعشعش اليأس في نفسِهِ من الماضي المُر؟ .

هل يـظل يجتَر الأسف على الأمس الحَزين؟ .

أو هل يصح منه، أن يمنعه القلق والخوف من المستقبل عن أداء الواجب الفعلي؟ .

هل من المعقول أن يعيقه القلق على ما قد يحدث له في غدِهِ المجهول؟ أم عليه الإقدام والجهاد والمثابرة في مهمته الحاضرة؟ .

إن المنطق السليم، والعقل الحصيف، ومقتضيات الشرع الإلٰهي... هذه كلها تدعوه إلى مراعاة الزمن الحاضر، وتحثه على مواصلة العمل لإنجاح المهمة الفعلية، والوصول إلى الغاية المنشودة، وقيادة الجيش إلى النصر المؤزر .

إن التدبر في الماضي، والإتعاظ منه، والأخذ بالحزم من خلاله شيء جيد، فقد قيل (لا يُلدغ المرء من جُحرٍ مرتين) ولكن التحسّر الدائم عليه، والأسف المقلق منه، وصرف العمر الثمين عبثاً في التفكير الغير مجدي لما حصل بالأمس... هذا كله من قُصر النظر وضعف التمييز .

كذلك الخوف من المستقبل والعيش في الأوهام، والتخيلات المستقبلية، والقلق من احتمال الكوارث، والتوجس من الغد، وتوقع الشر فيه، مما يعيقه عن أداء المهام، والالتزام بالواجبات والتكاليف، وتحمل المسؤوليات، ويُحيل يومه عذاباً ومرارة، ويُلحق حاضره الذي كان ينبغي أن يكون مشرقاً بماضيه المحزن، وغدِهِ المخيف، فيتصل الخوف بالخوف، والقلق بالقلق، وتتحول الحياة إلى جحيم وعذاب .

قيل إن بعض الأعراب، خُطبت إليه ابنته، فقال وهو ينظر إلى مستقبل مجهول أمره إلى الله، ويعيش عبثاً في قلق حاضر :

أحبُّ بُنَيَّتِي وددت أني	دفنتُ بنيتي في قاعِ لَحْدِ
وما بي أن تهون عليَّ لكن	مخافة أن تذوق الذُّلَّ بعدي
فإن زوجتها رجلاً فقيراً	أراها عندَهُ والهمُّ عندي
وإن زوجتها رجلاً غنياً	فيلطم خدَّها ويسبُّ جدّي
سألت اللّهَ يأخُذُها قريباً	ولو كانت أحبَّ الناس عندي[1]

(١) المستطرف : ٢/ ٢٣ .

إن قليلاً من الخوف والحذر، لا بدّ منهما في حياتنا، وإلاّ لكان الإنسان متهوراً، معرضاً عن النظر للعواقب والنتائج، ولكن دون أن يصبح هذا الخوف عاملاً لإيجاد القلق الدائم، وسبباً لإعاقة مسير الحياة.

فدع عنك الماضي والمستقبل، وفكر في يومك الحاضر، وتخلص من الأوهام، واتجه نحو تنفيذ الأهداف النبيلة، والغايات الشريفة، ودع عنك النظرة التشاؤمية، وتخلَّ عن التردّد.

قد يقول قائل: إنني معرضٍ عن الماضي، ولا أفكر في المستقبل، ومع ذلك ينتابني القلق، ويقضّ مضجعي الخوف، لأنني أعيش محنة بالفعل، إنني في مشكلة قائمة لأنني مهدد بذهاب مالي.. أو خائف على تجارتي المعرّضةِ للخطر، أو خائف علىٰ مريضه من الهلاك، أو خائف من سلطان جائر... وهكذا ربما تتعدد عوامل الخوف الواقعي، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: (الخائف لا عيش له).

وقد سبق الحديث عن مثل هذا الخوف المعقول، والقلق الطبيعي في حياة الناس، ونؤكد أنه شيء طبيعي.. بل لا بدّ منه لتستقيم الحياة، ولا يمكن أن تخلو حياة أحد من مثل هذه المخاوف.. ولكن لا ينبغي أن يتجاوز الحد المعقول.

يجب على المرء أن يتعرف على أسباب إثارة هذا القلق، وعلة التوتر والاضطراب، وهل الأسباب والعوامل وجيهة ومقبولة، أم أنها وهمية لا معنىٰ لها، وزائدة عن الحدّ؟ قد يكون ـ بقلقه الزائد، وتخيلاته وأوهامه، وتصوراته الباطلة ـ قد زاد الطين بلّة، وأوقع نفسه في محذورات ومشاكل كان في غنىً عنها..

عن الإمام علي عليه السلام: **«إذا رهبتَ شيئاً فقع فيه، فإن شدّةَ تَوَقِّيهِ أعظمُ مما تخاف منه»**[1].

ولنضرب مثلاً على ذلك:

---

(١) نهج البلاغة الحكمة: ١٦٦.

دُعي أحدهم ليلقي خطبة في حشد كبير من الناس، فيهم من أهل العلم والأدب والفضل، والمثقفين، فَتَهَيَّبَ من ذلك، وداخله قلق بالغ، فهو وإن كان فاضلاً أديباً، إلّا أنه لم يجرب نفسه في الخطابة من قبل، وهذه ستكون المرة الأولى التي يجرب حظه فيها في مثل هذا الجمع الغفير والحشد الكبير من الناس. لذا كان شديد التهيب والقلق من هذا الموقف الحرج وظل دائم التفكير في هذه المشكلة... كيف يواجه الناس؟ ماذا يصنع لو نسي ما أعدَّ قوله ؟

وكيف يكون مصيره لو تلعثم أو أُرتج عليه ؟

بات ليلته بأشد قلق، وتمنىٰ لو تنزل به نازلةٌ تعيقه عن الحضور، ويعتذر بها عن إلقاء الخطبة، ويعفىٰ منها. قضى ليلَهُ مشغول البال في هذا الأمر، وأصبح مشغول البال أيضاً، وبقي أياماً على هذا الحال، يزداد ارتباكاً وقلقاً كلما اقترب الموعد .

ولكنه فكر في نفسه في الآخر، وأخذ يحلل الباعث على هذا الخوف، والسبب وراء هذا القلق أوَ كلّ الخطباء تعتريهم مثل هذه الحالة؟ وهل يستحق هذا الموقف كل هذا الإرتباك والقلق؟ ما الذي يَهابُه في الواقع؟ إنه يخاف أن لا يكون موفقاً في إلقاء خطبته، فليكن كذلك، وماذا لو لم يوفَق؟ هل تنطبق السماء على الأرض؟ كلا طبعاً، كل ما هنالك أن بعض الحاضرين قد يسخر منه... وماذا بعد ذلك؟ وهل الفشل إلّا مرحلة أولىٰ للوصول إلى النجاح؟ .

توسّل بالحكمة، والتفكير السليم، وبهذه النظرة الواقعية، اجتاز مرحلة الخوف، وترك القلق وراء ظهره، وهجم على الخوف، وأوقع نفسه فيما كان يهابه ويخشاه، فتضاءلت الرهبة في نفسه، وأخلىٰ قلبه من الاضطراب الموهوم... ونجح بالفعل في إلقاء خطابه، ووجد نفسه يتحدث بطلاقة ويسر، دون عناء أو وجل، ولم يحدث له ما كان يتوقعه، من الخوف والإحباط... وكان من أمره أنه صار بعد ذلك خطيباً بارعاً. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام : «**إذا خفت صعوبة أمر، فاصعب له يَذِلّ لك**»[1] .

---

(١) غرر الحكم : ٣١٩ .

إن التعرف على بواعث القلق يجعلنا نتعرف على طرق المعالجة بشكل أفضل، والبواعث متعددة وكثيرة.. ولم يدع أئمة الهدىٰ عليهم الصَّلاة والسَّلام، داءً من غير دواء، ولا معضلة من غير حَل.. لم يتركوا ثغرة في حياة المؤمن إلاَّ سدّوها بمناهجهم القيّمة ومبادئهم النبيلة.. فذكروا لنا أن من أهم الأسباب التي تمنح الراحة والإطمئنان، ويتغلب بها الإنسان على قلقه واضطرابه، هو الرضوخ للأمر الواقع الذي لا مناص منه والرضا بما قسم الله عزّ وجلّ، وترك الجزع.

ذكر عن إبراهيم الخليل على نبينا وآله وعليه الصَّلاة والسَّلام، حين وُضِع في المنجنيق، ليرمىٰ في نار نمرود، أنه لم يظهر جزعاً، ولم يعتريه قلق وخوف، بل تدرع بالصبر والثبات، واستسلم لقدره الجاري عليه، شاء أم أبىٰ، وهو في كل حال بعين الله.. وماذا يفيده الجزع والتضجر في مثل هذه الحالة؟ خير له أن يستعد للقاء الله بالجَلَد والصبر فكان أن أوحىٰ الله تعالىٰ إلى النار: ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾[1].

إن النوازل التي ليس بيد المرء ردّها ودفعها، ولا يملك حلّها، لا ينفع معها إلاَّ أن يكيّف نفسه لها، وينسجم معها..

لو كان يملك دفعها والخلاص منها، أو كان في مقدوره التخفيف من وطأتها فعل، وإلاَّ صبر لها، وتحملها، واحتسبها عند الله.

عن الصادق عليه السلام: **«إيّاكَ والجزع، فإنه يقطع الأمل، ويُضِعفُ العمل، ويورث الهمَّ، واعلم أن المخرج في أمرين: فما كانت له حيلةٌ فالاحتيال، وما لم تكن له حيلةٌ فالإصطبار»**[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: **«إذا نزل بك مكروهٌ فانظر: فإن كان لك حيلةٌ فلا تعجز وإن لم تكن فيه حيلة فلا تجزع»**[3].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: **«إذا كان القدرُ لا يُرَد،**

---

(١) سورة الأنبياء؛ الآية: ٦٩.

(٢) محمد تقي الفلسفي، الأخلاق.

(٣) شرح النهج للحديدي: ١/ ٣١٠.

فالاحتراس باطل»[1] .

وعنه عليه السلام أيضاً : **«إنكم إذا رضيتم بالقضاء طاب عيشكم، وفزتم بالغناء»**[2] .

وعن علي بن الحسين عليه السلام : **«الرضا بمكروه القضاء، أرفع درجات اليقين»**[3] .

كل هذه النصوص، تمنح النفس البشرية قوة وصلابة، لمواجهة الصعاب والأهوال والمشاكل، ولا تشجع بأي شكل من الأشكال على الاستكانة والكسل، كما يحلو للبعض أن يصفها بهذه الصفة .

إنها تدعو لاختراق الحواجز، وتجاوز الصعاب فيما لو كان بمقدور المرء ذلك. . . ولكن الإنسان كثيراً ما يعجز تمام العجز عن أداء أي نوع من أنواع المقاومة للشدائد والمحن والنوازل، عندها يجب عليه أن يتدرع بالصبر والتحمل، ويفوض الأمر إلى الله تعالىٰ بدل أن يعتريه الخوف ويعيش القلق ويملأه اليأس.

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : **«عليك بالصبر والاحتمال، فمن لزمهما هانت عليه المحن»**[4] .

وعنه عليه السلام : **«المصيبة واحدة، وإن جزعت صارت اثنتين»**[5] .

وعن صفوان الجمال، قال: كنا عند أبي عبد الله الصّادق عليه السلام ، فجاء رجل فشكا إليه مصيبة أُصيبَ بها، فقال له: **«أما إنك إن تصبر تؤجر، وإن لم تصبر يمضي عليك قدر اللّهِ الذي قُدِّرَ وأنت مأزور»**[6] .

وعن علي عليه السلام ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«. . . ومن صبر**

---

(١)ـ(٢) محمد تقي الفلسفي، الأخلاق .

(٣) حياة الأئمة للدخيل .

(٤) فهرست الغرر : ١٩٣ .

(٥) فهرست الغرر : ٤٣ .

(٦) جامع الأخبار للسبزواري : ٣١٦ .

على المصيبة أعطاه الله تعالىٰ سبعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة، ما بين منتهىٰ العرش إلى الثرىٰ مرتين»[1] .

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: **«إنك إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور»**[2] .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : في الحديث القدسي : **«إذا وجهتُ إلى عبدٍ من عبيدي مصيبة في بدنه، أو ماله، أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه أن أنصب له ميزاناً، أو أنشر له ديواناً»**[3] .

لنفترض أن شخصاً كان له ولد عزيز، أثير على نفسه، يحبه حباً بالغاً، ويسعد به فاختطفه الموت، ماذا يصنع؟ هل يواصل البكاء والجزع ليله ونهاره؟ ويندب حظّه العاثر؟ ويعترض على الله عزّ وجلّ، ويزداد مصيبةً إلى مصيبتِهِ، ومحنةً إلى محنتِهِ؟ أم افضل له أن يتحمل ذلك، ويصبر صبراً جميلاً، ويبتسم للحياة، وينظر إلى المستقبل، ويرضى بما قدّر الله له، ويحتسبهُ عند الله؟ .

طبيعي أن الحالة الثانية، هي التي تنفعه لدينه ودنياه، وهي التي يأمر بها الشرع، وهي الطريقة التي واجه بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مثل هذه المصيبة، وذلك حينما فقد ولده إبراهيم .

مرض إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مارية القبطية، ولما يبلغ عامين من عمره، فجزعت عليه أُمُهُ، وقامت تسهر حول فراشه، وتمرّضه، ونفسها تذوب عليه في لهفة وقلق. . . ولكن الحياة أخذت تنطفىء فيه رويداً رويداً . . . فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، معتمداً على يد بعض أصحابه، لشدة أَلَمِهِ، فحمل الصغير من حجر أمه، وهو يجود بنفسه، ووضعه في حجره، محزون القلب، ضائع الحيلة، لا يملك إلاّ أن يقول في أسىً وتسليم :

«إنّا يا إبراهيم لا نُغني عنك من الله شيئاً» .

ثم ذرفت عيناه وهو يرىٰ ولده الوحيد يعالج سكرات الموت، ويسمع

---

(١) (٣)جامع الأخبار للسبزواري : ٣١٦ .

حشرجة احتضاره مختلطةً بعويل الأُم الثكلىٰ، وانحنىٰ على جثمان عزيزه الفقيد، فقبله والدمع يفيض من عينيه، ثم تمالك نفسه، فقال :

«يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنّا عليك حزناً هو أشدّ من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يُسخِطُ الربَّ»[1] .

وبنفس الطريقة واجه الإمام الصَّادق ﷺ، محنته في موت ولده إسماعيل، وكان أكبر أولاده . . .

الجزع لا يغيّر شيئاً من الواقع المرّ، غير أنه يزيد القلق، ويعطب النفس، ويعرقل حركة الحياة، وقد قيل: (الجزع عند البلاء تمام المحنة) ولكن الصبر، والاستسلام لقضاء الله وحكمه يخفف المحنة، ويدفع القلق، ويسكّن النفس، ويمنح الإنسان اطمئناناً وأمناً.

وربما اكتشف الصابر فيما بعد أن المصيبة التي نزلت به، كانت في صالحه، ولم تكن سوءً وشراً كما تصوّرها، فكثيراً ما يحدث أن تجري الأحداث بخلاف أماني النفس ومشتهياتها في ظاهر الأمر، ويغيب عن علم المرء أنها في الحقيقة توافق أغراضه ومصالحه، فهو غافل عن ذلك تماماً، يقول القرآن الكريم :

﴿وعسىٰ أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم. . .﴾[2] .

ويقول تعالىٰ : **﴿فعسىٰ أن تكرهوا شيئاً ويجعلُ اللَّهُ فيه خيراً كثيراً . . .﴾**[3] .

كانت أُم سليم من النساء المؤمنات الصالحات، على عهد الرسول الكريم ﷺ، وكذلك كان زوجها أبو طلحة من المؤمنين الأخيار الأوفياء، ويُعدُّ من أصحاب رسول الله ﷺ .

---

(١) الاستيعاب : ٥٦/١ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢١٦ .

(٣) سورة النساء ؛ الآية : ١٩ .

أنجب الزوجان ولداً ففرحا به، وكان قرة عين لهما، ولكن أُصيب ـ وهو صغير ـ بمرض ألزمه الفراش، وانهمكت الأم في العناية به وتمريضه، وكان الوالد عند عودته من العمل، يعود ابنه المريض، ثم ينصرف متحسراً حزيناً إلى حجرته ليخلد للراحة من عناء يومه، وفي يوم من الأيام، أصابت المنية بسهامها هذا الصبي، أثناء غياب الوالد، وفارق الحياة، فبكت عليه أُمه قليلاً، وحزنت عليه، ثم تذكرت ما وعد الله الصابرين من الأجر الجزيل، والثواب الجميل. . فكفكفت دموعها، وغطّت جسد ابنها، وغالبت المرأة المؤمنة الصالحة حزنها وجزعها. . وكان يهمها كثيراً أن لا تُفاجىء أباه بموت الولد، رأفة ورفقاً به، ولكيلا يتأذىٰ بموت ابنه. وصمّمت فيما بينها وبين نفسها أن تخفي عنه موت الصبي، فلما أمسىٰ المساء، وعاد الرجل إلى بيته، توجه على عادته لعيادة ولده، فمنعته أُم سليم، قائلة: إنه نائم، دعه ينام في سكون وهدوء، واستشعر الوالد من أُسلوب حديثها، أنّ المرض قد خفّف من وطأته على الصبي، فاطمأن قلبه بعض الشيء، خاصة حين لاحظ الهدوء، والإطمئنان على زوجته . .

وباتا تلك الليلة دون أن يشعر أبو طلحة بشيء، فلما أصبحا أرادت الزوجة إخباره بموت الولد، ولكن بأسلوب عقلاني ذكي.

قالت: لو أودع الجيران عندك شيئاً معيناً، لفترة محدودة ثم أرادوا استرجاع وديعتهم، هل كنت تنزعج لذلك ؟ .

قال : لا .

قالت : وهل كنت تبكي عليه ؟ .

قال : لا .

فقالت: فقد أودع الله عندنا ولداً، وعاش معنا مدةً، ولكنه استعاده أمس، وأخذه منا، لقد توفي الولد، فاصبر على قضاء الله واستسلم لأمره، وجهّز ابنك !

إن أُسلوب هذه المرأة المؤمنة، في إخبار زوجها بموت الولد، جعله يستسلم لأمر الله بالفعل، ويصبر على المصيبة .

هدّأت من خاطره، ومنحته استقراراً نفسياً .

وحمل أبو طلحة، هذا الخبر إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فاستحسن طريقتها في إبلاغ الخبر لزوجها، بل وتعجب من أسلوبها، ثم دعا لهما، وقال: (اللّهُمَّ بارك لهما في ليلتهما) واستجاب الله لدعاء نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، فحملت أُم سليم من ليلتها، ثم وضعت ولداً أسمته (عبد الله) عاش كريماً مؤمناً، وقضىٰ شهيداً، صار في عداد أصحاب علي عليه السلام ، واستشهد معه[1] .

طبيعي أن يحب الوالدان ولدهما، وفلذة كبدهما، وأن يشفقا عليه، ويحرصا على راحته وسلامته. . . إنه الحب الإلٰهي الذي أودعه قلبَ الوالدين تجاه الأبناء، وموت الولد يصدع القلب، ويوهن النفس، ويفجّر العين، وهو من المحن العظيمة التي لا يطيقها الناس وكثيراً ما نشاهد أحد الأبوين أو كليهما. . . ينهاران لفقد ولدهما، ويصابان بالذهول والشرود لأيام وأشهر، ولكن الحالة اختلفت مع أبي طلحة وزوجته أُم سليم، إنهما تغلّبا على الحزن وغالبا المصيبة، بالصبر والتجلّد، والإستعانة بقوة الإيمان، والتفويض إلىٰ الله، وتسليم الأمر إليه، والإستسلام لقضائِهِ وإرادته .

تميزت أُم سليم عن سائر الأُمهات بالعقلانية، والنفس الكبيرة، والأخلاق العالية . . . وتميز أبو طلحة عن سائر الآباء، بالتصبر والتجلد، وحسن التحمّل . .

ومُجمل القول :

في هذه الحياة صور كثيرة، ومشاهد تتكرر في حياة كل فرد من أبناء البشر من الصدمات التي تهزّ كيان الآدمي، وتحطم نفسيته، أكثر مما تحطم جسده، وهذا هو الأخطر كفقدان عزيز، أو سطوة ظالم، أو بطش جبار، أو خسارة مالية، أو فشل في عمل معين. . . هذه عوائق الحياة. . ولا مهرب منها، وهي تواجهنا يومياً. . . ولكن ذلك لا يعني نهاية العالم فلا ينبغي الركون لليأس والحزن، والرضوخ للقلق، لأن الحياة ماضية، والآيس منها ميتٌ بين أحياء، ومن جلس يندب حظه واستسلم لسلطان القلق تخلف عن ركب

---

(١) مضمون الخبر عن (الكنىٰ والألقاب) للشيخ عباس القمي : ١/١٠٨ .

الحياة، وفاتته الفرص، الفرصة تلو الفرصة، وبذلك يدمّر نفسه، ولا يصل إلى نتيجة، ليكن المرء ابن وقته... ووليد ساعته، فالذي مضى أصبح مجرد ذكرى، لن يعود ثانية، والمستقبل غائب عنا لا يعلم خبره إلّا الله تعالى، فلندع أمره إليه.. ولنسِرْ مع ركب الحياة معتمدين على الله والإيمان.. لننطلق وراء الأمل بالله، وبذلك نحقق الكثير ممّا نطمح إليه بعزم وإصرار.. والذي يؤمن بشيء، ويعمل بحماس في سبيله، لا بد وأن يحقق إرادته، ويصل إلى مبتغاه.

وعندما تراودنا فكرة الإستسلام واليأس، أو عندما يساورنا القلق علينا أن نتحصّن بالاتكال على الله عزّ وجلّ، ونؤمن بأنفسنا، فإن في أعماق النفس قوةً هائلة، نستطيع بها التكيّف مع كل حال، ونتغلّب بها على الأحزان والمشاكل.

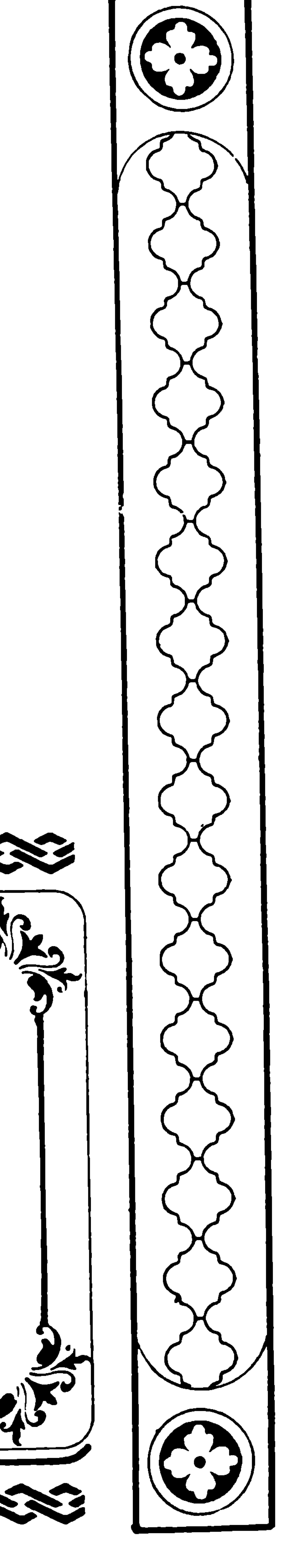
لا تقلق من الحياة.. ولا تندب حظك.. فتصبح سجين نفسك...

تغلّب على مصاعب الدهر، بالاعتماد على الإيمان بالله جل اسمه، والله كفيل أن يعين من استعان به، وينصر من استنصره.

﴿أليسَ اللَّهُ بكافٍ عَبدَهُ﴾[1].

---

(١) سورة الزمر؛ الآية: ٣٦.





١٢

الـغَـضَـبُ

إنّ علم النفس يغور في أعماق بني البشر، ويتدخل في كل شأن من شؤونهم، ولا نستطيع أن نحدد، ولا مجالاً واحداً، في حياة الناس، لا يستوعبه علم النفس فهو يغطي جميع أوجه النشاط البشري، والممارسات الحياتية . .

والغضب، نوع من أنواع النشاط النفسي، ولون من ألوان الانفعال لدىٰ الإنسان وغريزة من الغرائز التي أودعها الله في طبيعة البشر، وهو (استجابة) في قبالة (مثير). فأنت حينما يُساء إليك، لا بدّ وأن تكون لك ردَّة فعل، فالإساءة مثير مهما كان شكلها والرد عليها استجابة مهما كان نوعه . .

ويمكن تصور الإستجابة على ثلاث صور :

١ ـ إساءة بإساءة، وهو الشكل السائد في الطبيعة البشرية، الذي يتصف به أكثر الناس، وعليه عامّتهم .

٢ ـ سكوت على إساءة، وهو كظم الغيظ، ومحاربة الطبع والهوىٰ، والتغلب على النفس .

٣ ـ إحسان على إساءة، وهو خلق عظيم، لا يتحلىٰ به إلّا ذوو النفوس الكبيرة، وأصحاب الهِمَمِ العالية، والطباع الشريفة . .

والغضب : حالة نفسية، وحين تدخل ضمن عملية (الاستجابة والمثير) تختلف هذه الاستجابة من شخص لآخر، ويتفاوت سلوكٌ عن آخر، ونفسية

عن أُخرىٰ ولكن يبقىٰ الغضب (حالة استنفار للنفس) ربما تؤدي إلى ردود فعلٍ لا تُحمَد عقباها من هنا، شبّه أمير المؤمنين علي عليه السلام ، الحدّة والغضب بالجنون، فقال:

«الحدّة ضربٌ من الجنون، لأن صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم»(١) .

وعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : **«الغضب يفسِدُ الإيمان، كما يفسدُ الخلُّ العَسَلَ»** (٢) .

وقال الإمام جعفر بن محمد الصًادق عليه السلام : **«الغضب مفتاح كل شرٍّ»** (٣) .

وقيل: من أطاع الغضب، أضاع الأدب . . .

كل ذلك لأن النفس تتحول عن طورها الطبيعي إلى الهيجان والانفعال، ومن ركودها إلى الغليان والثورة، والتوتر الشديد، وحب التخريب، وشهوة الإنتقام والهدم، والإعراض عن الوقار والرزانة، إلى سيكولوجية الإعتداء والضرب، وإطلاق التهديدات، وما إلى ذلك من الردود العقابية. . فهي حالة جنونية!! .

ولكن هذه الثورة النفسية سرعان ما يخمد لهيبها، وينطفىء نارها، ويلحق الإنسانَ بعد ذلك ندمٌ على ما بَدَرَ منه في تلك الحالة، وهو من فضل اللّهِ على الناس، أنْ جعلهم بهذه الصورة، بحيث لا تدوم الآثار النفسية للغضب معهم طويلاً .

ولو لم يكن المرء كذلك، أي لو لم يكن يندم على السلوك الانفعالي في حال الغضب، لكان مجنوناً بالفعل، يحتاج إلى ممارسة العلاج النفسي للتخلص من هذا المرض، كما صرّح بذلك الإمام عليه السلام .

ولنستمع إلى تعريف آخر للغضب ـ للشيخ الجليل العلامة النراقي ـ لا

---

(١) ـ(٢) جامع السعادات للنراقي : ٢٨٨/١ .

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري : ٣١/٢ .

يخلو من فائدة :

يقول: «الغضب كيفية نفسانية، موجبة لحركة الروح من الداخل إلى الخارج للغلبة ومبدؤه شهوة الانتقام، وهو من جانب الإفراط، وإذا اشتدَّ يوجب حركة عنيفة، يمتلىء لأجلها الدماغ، والأعصاب، من الدخان المظلم، فيستر نور العقل، ويُضعِفُ فعله، ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة» .

«قال بعض علماء الأخلاق ـ والكلام للنراقي ـ الغضب شعلة نار اقتُبِسَت من نار الله الموقدة، ولكنها لا تطلع على الأفئدة، وإنها لمستكنَّةٌ في طي الفؤاد، استكنان الجمر تحت الرماد وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين، أو حمية الجاهلية والكبر الدفين، من قلوب الجبارين التي لها عرق إلى الشيطان الرجيم، حيث قال: (خلقتني من نار وخلقته من طين) فمن شأن الطين السكون والوقار ، ومن شأن النار التلظي والاستعار»[1] .

يذكر الشيخ في هذه المقطوعة، بعد تعريفه للغضب: إن فيه الإفراط والتفريط وفيه الإعتدال والحد الوسط، وهو حق . . . إذ إنه غريزة أودعها الله فينا، ولم تودَع اعتباطاً، بل لغرض معين، وحكمة بالغة، ولا بدّ منه في حياة الإنسان . .

فربما كان الغضب في محلّه مناسباً، كالغضب لأجل الله، وذلك الذي ينطلق من حمية الدين، ومن قلوب المؤمنين، وربما لم يكن في محلّه، فهو إفراط في حالة الانفعال الشديد، ناتج عن إلقاءات الشيطان الرجيم وإيحاءاته . . .

بعبارة أُخرىٰ : إن هذه الحركة النفسية، ربما تتسم بالإفراط، أو بالتفريط أو بالاعتدال، فالإفراط فيها، أن تخرج من اطار العقل والعرف والشرع، ومن طاعة الله عزّ وجلّ. . . فتعمي الفكر والبصيرة. . . وتجرّ إلى المهالك والمساوىء، فتكون استجابة عنيفة، مبالغ فيها، خارجة عن الحدّ المطلوب. . وفي هذه الحالة يحتاج المرء إلى كظم الغيظ، واجهاد النفس

---

(١) جامع السعادات : ١/ ٢٨٥ .

في سبيل عدم الإستجابة والانفعال بالغضب ، وسنتحدث عن ذلك إن شاء الله .

والتفريط فيها: أن تتسم الاستجابة بالبرود واللامبالاة، وعدم الردّ، في حال يقتضي منه الرد، ويتحتم عليه شرعاً وعقلاً أن يستجيب للمثير، ويغضب .

والاعتدال فيها : هو الحدّ الوسط المعقول، أن يغضب في موطن الغضب، كما لو كان غضبه لله ، أو بسبب ظلم ظالم واعتداء معتدٍ غاشم. . أو غضب من سوء تصرف. .

والمقياس في ذلك كله، هو العقل والشرع، فيكون تابعاً لهما، ولا ينقاد للمشاعر والعواطف .

وعن الاعتدال في الغضب، قيل : من استُغضِبَ ولم يغضب فهو حمار، ووصف الله سبحانه خيار الصحابة بالحمية والشدّة على الكافرين، فقال عزّ من قائل : ﴿**أشدّاء على الكفار. . .**﴾[1] .

وخاطب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، بقوله : ﴿**واغلظ عليهم**﴾[2] .

ومن الغضب الصحيح : غضب أبي ذر الغفاري، رضوان الله عليه، على الأوضاع السائدة آنذاك، حيث وجد بعض ولاة الأمر، اتخذوا مال الله دِوَلاً، وعباد الله خَوَلاً . . فاستنكر تلك التصرفات الغير مرضية في المفهوم الإسلامي منهم، وبلغ به الاستنكار إلى الغضب مما أدّىٰ به إلى إبعاده عن مدينة الرسول، فخرج منها حزيناً على فراقها، والِهاً للعودة إليها، في الوقت الذي منع الخليفة الناسَ، حتىٰ من الخروج لتوديعه، واضطر الناس للامتثال للأوامر الصارمة. . ولم يخرج أحد لتوديع الصحابي الجليل، باستثناء الإمام عليه السلام وأولاده، ولما حانت ساعة الرحيل نظر أبو ذر إلى هذه الوجوه النيّرة الكريمة، فهاجت عبرته، وبكىٰ لفراقهم، وفراق جوار رسول

---

(١) سورة الفتح ؛ الآية : ٢٩ .

(٢) سورة التوبة ؛ الآية : ٧٣ .

الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفراق المدينة وأهلها، ومن صَحِبَهم وأَلِفَهم.. فقال له علي عليه السلام:

«يا أبا ذر: إنك غضبت لله، فَارْجُ من غضبتَ له، إن القومَ خافوك على دنياهُم وخِفتَهُم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب بما خِفتَهم عليه، فما أحوَجَهم إلى ما منعتَهم، وما أغناكَ عما منعوك، ولو أن السَّمٰوات والأرضِ كانتا على عبد رتقاً، ثم اتقىٰ الله، لجعل له منهما مخرجاً، ولا يُؤنِسَنَّك إلاّ الحق، ولا يُوحِشَنَّكَ إلاّ الباطل، فلو قبلتَ دنياهم لأحبّوك، ولو قرضتَ منها لأمّنوك»(1).

إن الإمام عليه السلام يبرر له غضبه، ويعتبره في محله، لأنه كان لله، وما كان لله فهو حقٌ وصحيحٌ، ولا يمكن أن يكون إفراطاً، ولا يوصف أنه خارج عن الإطار المعقول.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا النوع من الغضب، في سورة النمل، حيث يحكي عن سليمان النبي، على نبينا وآله وعليه الصَّلاة والسَّلام، حين تفقَّد الطير فوق رأسه، فلم يجد الهدهدَ في محله، فاعتبر ذلك عصياناً وتمرداً على أمر الله تعالىٰ من هذا الطائر، بتركه التظليل على رأسه، وغضب لذلك.

﴿وتفقَّد الطيرَ فقال ما ليَ لا أرىٰ الهُدْهُدَ أم كان من الغائبين، لأُعَذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً أو لأذبحنّهُ أو لَيأتيني بسلطانٍ مبين﴾(2).

إن هذا التهديد الذي أطلقه سليمان للهدهد، يَنُمُّ عن غضبٍ شديد.. ولم يكن هذا الغضب اعتباطاً، ولم يكن لأجل نفسه، بل لما اعتبره سليمان، خروجاً من الطائر على أمر الله تعالىٰ، ومخالفة له عزّ وجلّ.. حتىٰ إذا انكشفت له الحقيقة، وظهر له الواقع، زال غضبه، وانتهت المشكلة.

إن الوالد قد يغضب على أولاده لسوء تصرفهم، والرجل يغضب من

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، طبع دار مكتبة الحياة، بيروت، المجلد: ٣/٩٠، النص: ١٣٠.

(2) سورة النمل؛ الآيتان: ٢٠ ـ ٢١.

أهله لمخالفتهم وعصيانهم لأوامر الله تعالىٰ، وأي فرد من الناس قد يغضب لانتهاك حرمةٍ من حرمات الله، أو بسبب ظلم ظالم. . أو جور حاكم. . كل ذلك لله، ولا بدّ منه، وليس هذا النوع من الغضب المنهي عنه، بل هو من النوع الذي يحبّذه الدين، ويدعو إليه الشرع .

أما لو كان الغضب ينطلق من منطلق الكِبر والتعالي، أو كان بسبب عصبية جاهلية أو لمصلحة شخصيّة، كغضب السلطان على بعض الرعية المظلومة، أو كغضب الزوج على الزوجة لتهاونها في أداء بعض الأعمال المنزلية، أو كغضب الرجل العالم الفاضل العاقل على جهلة الناس بسبب سلوك غير مؤدب، أو تصرف غير لائق. . . هذه الصور وأمثالها يحث الشرع على مواجهتها بالصبر وكظم الغيظ، وإخماد ثورة النفس، ووضع السدود أمام سورة الغضب، بالطرق الإسلامية النفسية المذكورة في تعاليم الشرع الحنيف .

روي أن رجلًا كلّمَ عروةَ بن محمد السعدي بكلام فغضب غضباً شديداً . فقام وتوضّأ ثم جاء فقال: حدّثني أبي عن جدي ـ وكانت له صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من نار، وإنما تُطفأُ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضّأ**»[1] .

هذه طريقة لإسكات الغضب، وثمة طريقة أُخرىٰ :

عن الإمام الباقر عليه السلام ، قال: «**إن هذا الغضب جمرة من الشيطان، توقَد في قلب ابن آدم، وإن أحدكم إذا غضبَ احمرّت عيناه، وانتفخت أوداجه، ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض (أي يجلس) فإن رِجزَ الشيطان لَيَذْهَبُ عنه عند ذلك**»[2] .

وعن معاذ بن جبل: استَبَّ رجلان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فغضب أحدهما غضباً شديداً، حتّىٰ خُيِّلَ إليّ أن أنفه يتمرّغ من شدة غضبه.

---

(١) ربيع الأبرار للزمخشري : ٢/٣٠ .
(٢) جامع السعادات للنراقي : ٢٨٨ .

فقال ﷺ : إني لأعلم كلمةً لو قالها، لذهب عنه ما يجد من غضب! فقلت: ما هي يا رسول الله؟

فقال: «اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من الشيطان الرَّجيم»[1] .

وقال بعضهم: أطفئوا الغضب بذكر جهنم .

إن المرء حين يعتريه الغضب، يكون في حالة خاصة، حالة هيجان النفس وجنونها وإرادة العقاب، ويلزمه أن يغير طور النفس في هذه الحالة بحركة معينة، أو قول معين ليخرج من هذه الثورة التي هو فيها، فلو قام بعمل مما ذكر في الأحاديث والروايات لتغيرت هذه النفسية، ولأخذ بكظم الغيظ، ولزالت هذه الفورة .

وصف الله تعالىٰ المؤمنين بكظم الغيظ في قوله تعالىٰ :

﴿الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾[2] .

وأصل الكظم: شدّ رأس القربة على مَلئها، تقول: كظمت القربة إذا ملأتها ثم شددت رأسها، وفلان كظيم، ومكظوم، إذا كان ممتلئاً غضباً ولم يَنتقم لنفسه، والكظامة: القناة التي تجري تحت الأرض، سميت بذلك لامتلائها تحت الأرض، ويُقال: أخذ بكظمه، أي مجرىٰ نَفَسِهِ، لأنه موضع الإمتلاء بالنَفَس .

يصف الباري عزّ وجلّ المؤمنين بصفات كثيرة. منها كظم الغيظ، أي: المتجرعين للغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، فلا ينتقمون ممن يضرّهم أو يؤذيهم، بل يصبرون على ذلك بتضييق الخناق على سورة الغضب .

ويذكر لهم في هذه الآية صفة أُخرىٰ، لا تبتعد كثيراً عن موضوع حديثنا، وهي: العفو عن الناس **﴿والعافين عن الناس﴾** أي الصافحين عن الناس، المتجاوزين عما يجوز العفو والتجاوز عنه، مما لا يؤدي إلى الإحلال

---

(1) ربيع الأبرار : ٢/ ٣٥ .

(2) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٣٤ .

بحق الله تعالىٰ .

ومضىٰ القول أن كظم الغيظ، أو ردّ الغضب، والسكوت عليه، إن كان لله تعالىٰ وفي موقعه ومحلّه، فهو من الأعمال الصالحة التي جاءت الأخبار فيه، منها ما رواه أبو أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«من كظم غيظه وهو قادر على إنفاذه ملأه الله يوم القيامة رضا»**[1] .

وفي خبر آخر: **« ملأه الله يوم القيامة أمناً وإيماناً»**[2] .

وقال أيضاً : **«كاظم الغيظ كضارب السيف في سبيل الله في وجه عدوه، وملأ الله قلبه رضا»**[3] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : **«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»**[4] .

ووردت أخبار عن العافين عن الناس فقال عنهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم :

« . . . إن هؤلاء من أُمتي قليل إلاّ من عصم الله . . . »[5] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : **«ما عفا رجل عن مظلمةٍ قط إلاّ زاده الله بها عزّاً»**[6] .

عن المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن قبلكم يغضب، فيشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفةٍ رجلاً، وقال للأول: إذا اشتدّ غضبي فقم إليَّ بهذه الصحيفة وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فأعطنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فناولنيها. وكان في الصحيفة الأُولىٰ: أقصر، ما أنت وهذا الغضب؟ لست بإلٰه إنما أنت بشر!! أوشك أن يأكل بعضكَ بعضاً. فسكن بعض غضبه .

وكان في الصحيفة الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، فسكن بعض غضبه. وفي الثالثة : خذ الناس بحق الله، فإنه لا يصلحهم إلاّ ذاك[7] .

---

(١)ـ(٦) مجمع البيان للطبرسي، المجلد الأول : ٨٤٨ .

(٧) ربيع الأبرار : ٢/ ٣٤ .

وأذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط ومضت نحوه، حتّىٰ إذا قاربته رمت بالسوط وقالت: ما تركت التقوىٰ أحداً يشفي غيظه[1] !!

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه مرّ بأُناس يتجاذون[2] مِهراساً، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : **«أتحسبون أن الشدّة في حمل الحجارة؟ إنما الشدّة في أن يمتلىء أحدكم غيظاً ثم يغلبهُ»**[3] .

وعن معاذ بن أنس، عنه عليه السلام : **«من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يُخيّرهُ في أي الحُور شاء»**[4] .

ويقول علي عليه السلام : **«متىٰ أشفي غيظي إذا غضبت؟ أحين أعجز عن الانتقام، فيقال لي: ألا صبرت، أم حين أقدر عليه، فيقال لي: لو عفوت»**[5] .

وروي عن لقمان الحكيم أنه قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قَدِرَ لم يتناول ما ليس له[6] .

وعن عيسىٰ عليه السلام : **«يباعدك من غضب الله أن لا تغضب»**[7] .

وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أي شيء أشدّ؟ قال: غضب الله، قال: فما يباعدني من غضب الله؟ قال: أن لا تغضب[8] .

ومن شعر أبي العتاهية :

ولم أرَ في الأعداء حين اختَبَرتُهم عدواً لعقلِ المرءِ أعدىٰ من الغضب

---

(1) ربيع الأبرار : ٢/ ٣٤ .
(2) يتجاذون : يتجاذبون والتجاذي إشالة الحجر .
(3) ـ(4) ربيع الأبرار : ٢/ ٣٥ .
(5) شرح النهج لابن أبي الحديد : ٤/ ٣٣١ .
(6)-(7) ربيع الأبرار : ٢/ ٢٤ .
(8) ربيع الأبرار : ٢/ ٢٨ .

وعن علي عليه السلام: **«تجرع الغيظ فإني لم أرَ جرعة أحلى منها عاقبةً، ولا أَلَذَّ مغبَّة»**.

وروي: **«ما من جرعة أحمد عقباناً من جرعة غيظٍ تكظمها»**[1].

وقال رجلٌ لآخر: لو قلتَ واحدة لسمعت عشراً! فأجابه: لو قلتَ عشراً لما سمعت واحدة!!

ولقيَ شاميّ الإمامَ الباقر محمد بن علي عليه السلام، وسبّه، فلم يلتفت إليه الباقر، فقال الشامي: إيّاك أعني، قال: وعنك أُعرِض[2].

وعن أبي سعيد الخدري (رض) يرفعه: **«ألا إنّ بني آدم خلقوا على طبقات، منهم بطيء الغضب سريع الفيء. ومنهم سريع الغضب سريع الفيء، ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء، وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء»**[3].

وقيل لابن مبارك: أجمل لنا حُسنَ الخلق في كلمة، قال: ترك الغضب[4].

كل هذا التحذير من الغضب، لأن نتائجه وثماره مجموعة من الأعمال السيئة، والخلال القبيحة التي لا تحمد عقباها، كالحقد والحسد، وإضمار السوء. وإفشاء أسرار الآخرين، وتوجيه السباب والشتائم، والتلفظ بالأقوال الفاحشة، والكلام البذيء...

ولا يَصحُ القول (إن الغضب حالة نفسية متأصلة في نفوس بعض الناس، لأنهم ربّما توارثوها من آبائهم وأهليهم، ولا يمكن معالجة هذا المرض).

أجل، لا يصح هذا القول، إذ لو لم يكن بالمقدور معالجة هذه الحالة المرضية، لما وردت كل هذه النصوص من الأخبار والروايات، والآيات

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/٢٨.

(٢) ربيع الأبرار: ٢/١٩.

(٣) ـ(٤)ربيع الأبرار: ٢/ ٣١.

القرآنية ، في الحث على إخماد الغضب وكظم الغيظ، والتصبر في مواقف الحدّة، وعدم إظهارها .

إن الله سبحانه وتعالىٰ، وهب الإنسان قدرةً يستطيع بها أن يمتلك زمام نفسِهِ فيوقفها عند حدّها، ويَزُمّها عن كثير من الانفعالات النفسيّة، ومنها الغضب، ويروضها على تقوىٰ الله ، كما مرَّ في كلام سيدنا أمير المؤمنين عليه الصَّلاة وعليه السَّلام .

والشواهد على ذلك كثيرة، وبخاصة في قادة الإسلام وعظماء البشر، أئمة الهدىٰ من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، نقتبس مجموعة منها، للتدليل على قدرة الإنسان، وتمكنه من ضبط النفس .

روىٰ المبرّد، وابن عائشة: إن شاميّاً رأىٰ الحسن بن علي عليه السلام ، راكباً، فجعل يلعنه والحسن لا يردّ، فلما فرغ أقبل الحسن إليه يبتسم في وجهه وقال: أيها الشيخ، أظنّك غريباً، ولعلك شبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنتَ محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك وإن كانت لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا، وكنت ضعيفاً إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً، وجاهاً عريضاً، ومالاً كبيراً .

فلما سمع الرجل كلامه بكىٰ، ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه. . الله أعلم حيث يجعل رسالته. . كنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليَّ، والآن أنت أحبُّ خلقِ الله إليَّ، وَحَوَّل رحله، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبتهم[1] .

إن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ، لم يكتفِ بتجنب الغضب فحسب ـ في هذه القضية ـ بل زاد على ذلك بأن مارس عملية الإصلاح والتربية لهذا الرجل الذي غُرِّرَ به، وأزاح عن بصره غشاوة الجهل والتبعية. . ثم أكرمه وأحسن وفادته، حتى تحول من مبغض عنيد إلى محبٍ وصديق، نادمٍ على

---

(١) الحسن بن علي للدخيل : ٢٤ .

ما كان منه للإمام عليه السلام، وعلى الضغينة التي يحملها في صدره على آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بفعل الدعاية السيئة المغرضة التي كان يبثها أعداؤهم آنذاك .

ومثل هذا الردّ المتسِمِ بالأخلاق العالية، وليونة الطبع، ومجانبة الحدّة في مقابل تلك الخشونة والجفوة والصلافة، هو بحق موقف عظيم، ويمثل قدرة فائقة على تملك زمام النفس والتحكم فيها، والتغلب على الشيطان . .

إنه إحسان على إساءة، ودرجة عالية في درجات التنازل عن الذات والتنكر لها . . .

يُقال إن راهباً سأل الشيطان الرجيم : أخبرني أي أخلاق بني آدم أعونُ لك عليهم؟ قال: (الحِدّة) إن الرجل إذا غضب قلبناه كما يقلب الصبيان الكرةَ[1] .

وقال الصادق عليه السلام : **«إن الرجلَ لَيَغضَبُ، فما يرضىٰ أبداً حتىٰ يدخلَ النار»**[2] .

وقال أيضاً : **«الغضب ممحقةٌ لقلب الحكيم»**[3] .

وقال عليه السلام أيضاً : **من لم يملك غضبهُ لم يملك نفسهُ»**[4] .

ذكر جُلّ أرباب المقاتل: إن الحسين عليه السلام ، حين التقىٰ بالحُرِّ بن يزيد الرياحي، قبل وصوله إلى كربلاء، جَعْجَعَ الحُرُّ بِهِ وبِبنيّاتِهِ، وقطع عليه الطريق، ومنعه من التوجه إلى أيّ مكان، وكان مع الحر، من عسكر ابن زياد ما يقرب من ألف مقاتل، وكان الهدف أساساً من إرساله منع الحسين من ورود الكوفة، ومحاصرته وتسليمه إلى ابن زياد، وكان ذلك فقد قطع الطريق على الحسين، وحاول تسييره إلى ابن زياد. . ودارت بينهما محاورات، انتهت بأن يلتزم الحسين عليه السلام طريقاً لا يُعيده إلى المدينة، ولا يوجهه إلى الكوفة، فسار حتى وصل إلى كربلاء .

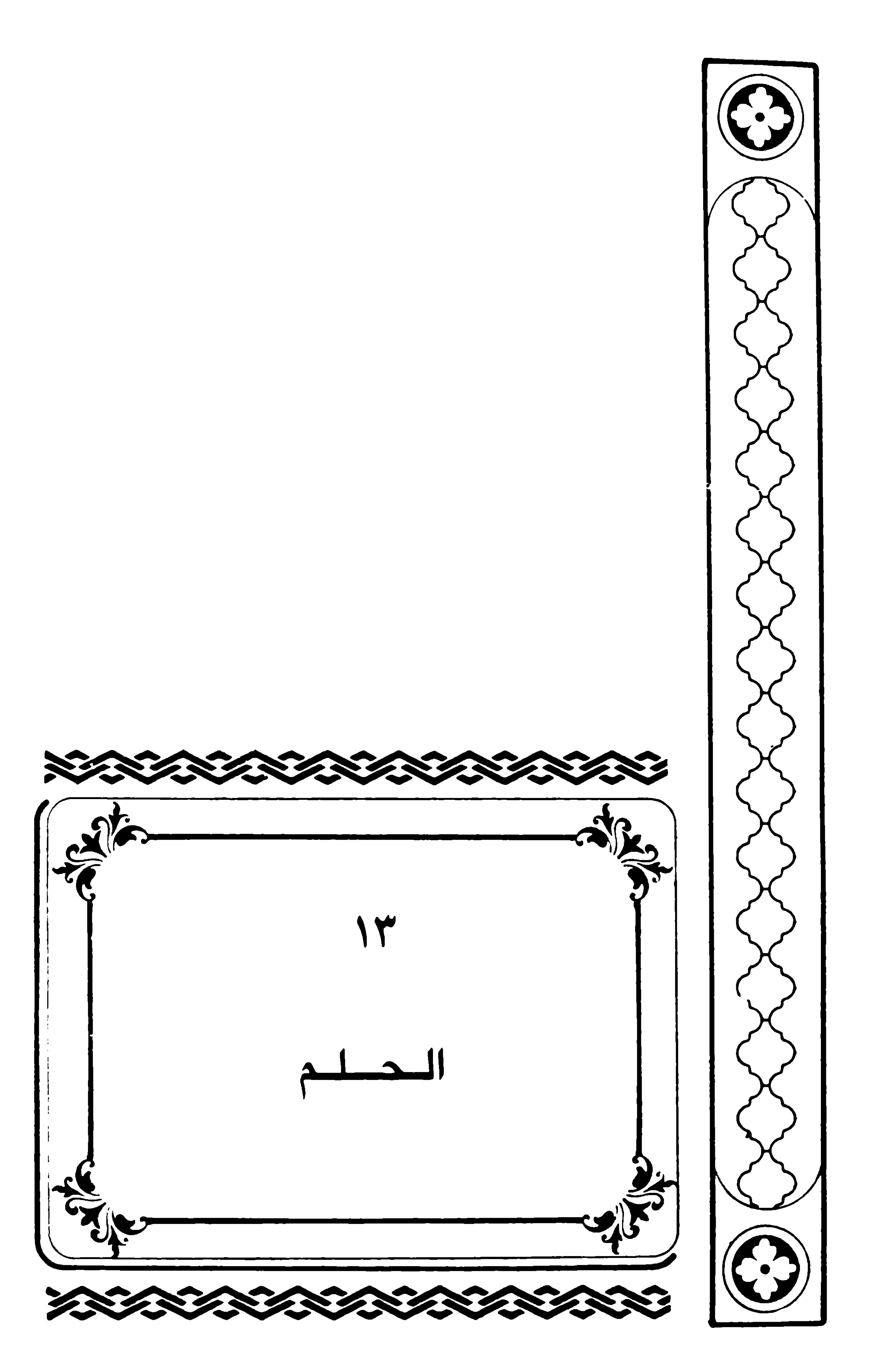
---

(١) ربيع الأبرار : ٣٤ .

(٢) -(٤) جامع السعادات للنراقي : ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

والموقف البارز ـ هنا ـ أن الحسين عليه السلام ، رغم ما ناله من الحرّ من أذىً وظلم، ولكنه حين وجدَه وأصحابَه عطاشىٰ، وفي أمس الحاجة إلى الماء، فقد أضَرَّ بهم العطش حتى أنهكهم جميعاً، وقد انقطعوا في تلك الفلاة المقفرة. . التفت عليه السلام إلى أهله وأصحابه وقال لهم : اسقوا القوم ورشفوا الخيل ترشيفاً !!

أمر بسقيهم وسقي خيولهم، وإرواء ظمئهم. . وقابل تلك الإساءة بإحسان جميل يسترعي انتباه الأجيال ويبقىٰ التاريخ ذاكراً له ذلك عبر العصور والأزمان .



١٣

الحلم

يمثل الحلم قمة الإستواء لدىٰ الشخصيّة، ولا يتوفر إلاّ عند القلّة القليلةِ من الناس، ممن تدعم نفوسَهم قوةٌ هائلة من الإيمان .

روي عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، أنه كان عنده أضياف، مُدَّت لهم الموائد، واستعجل غلام له بشواء كان في التنور، فأقبل الخادم مسرعاً، فسقط السفود من يده على رأس ولدٍ صغير لعلي بن الحسين ـ تحت الدرجة ـ فأصاب رأسه فقتله .

فقال علي بن الحسين عليه السلام للغلام ـ وقد تحيّر واضطرب ـ : أنت حُرّ لوجه الله تعالىٰ، فإنك لم تتعمَّده، وأخذ في جهاز ابنه ودفنه[1] .

ويذكر له التاريخ أيضاً، أنه سلام الله عليه، لما أُخرجَ بنو أُمية من المدينة إلى الشام في واقعة الحَرَّة، آوىٰ إليه ثقلَ مروان بن الحكم، وامرأته عائشة بنت عثمان بن عفان وغضَّ النظر عما كان قد فعله مروان بأهل البيت، وما عرف عنه من بغضه وعداوته لهم .

وقد كان مروان ـ لما طرد أهلُ المدينة عاملَ يزيد وبني أُمية منها ـ كلّم عبدَ الله بن عمر أن يُغيبَ أهله عنده، فأبىٰ ابن عمر أن يفعل، وخاف على نفسه من غضبة الناس ورجا مروان غيره فلم يجد من يتحمل عائلته. . . فكلم

---

(١) الإمام علي بن الحسين للدخيل نقلاً عن مطالب السؤول وكشف الغمة: ٢٣ .

علي بن الحسين ﷺ ، وقال: يا أبـا الحسين، إن لي رَحِماً، وحـرمي تكون حرمك .

قـال ﷺ : أفعل، فبعث بحـرمه إلى علي بن الحسين، وخـرج الإمام بحرمه وحرم مروان حتى وضعهم في حائط له في ينبع بالبغيبغة[1] . .

وهـذا الموقف ـ كمـا تـرىٰ ـ نهـايـة في كـرم الأخـلاق، والتحلم على العدو، ومجـازاة على إساءات سابقة كثيرة، بإحسان .

إن الحـلم حالة نفسية، على نقيض الغضب، وهو التمكن من الـوقوف في وجه ثورة النفس بصلابة، وهو من أشرف الكمـالات النفسية بعـد العلم، وهـو مستوىٰ رفيـع من الأخلاق لا يـرقىٰ إليه إلاّ أصحـاب النفـوس الكبيـرة، والشخصيات العالية، ممن جاهدوا في تربية النفس ورياضتهـا، وحملها على الأخلاق الفاضلة الحميدة .

قـال أبو ذر الغفـاري رضي الله عنـه، لغـلامـه: لِمَ أرسلت الشـاةَ على علف الفـرس؟ قال: أردت أن أغيـظك !! قال: لأجمَعَنَّ مـع الغيظ أجـراً . . أنت حُرٌّ لوجه الله تعالىٰ[2] .

وروي أن رسـول الله ﷺ ، بينمـا كـان يمشي، وامـرأة تمشي بين يديه، قال لها بعض أصحابه: الطريق لرسول الله، فقالت: الطريق معترض، إن شاء أخذ يميناً وإن شاء أخذ شمالاً .

فقال عليه الصَّلاة وعليه السَّلام: دعوها فإنها جبّارة[3] .

كـان بالإمكـان إزاحتها عن طـريق رسول الله ﷺ ، وفتـح المجـال لعبور سيد الكائنات ولكنه ﷺ ـ وهو صـاحب الأخلاق السـامية الـرفيعة، والمبعوث ليتمم مكارم الأخلاق ـ لم يشأ أن يأخذ حقه عنوة وقسوة. . . خاصـة مع امرأة. . لم يغضب من قولها، بل حَلُمَ عنها، وقال: دعوها .

---

(١) الإمام علي بن الحسين للدخيل نقلاً عن مطالب السؤول وكشف الغمة : ٢٣ .
(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٢/٣٧ .
(٣) المصدر السابق :٢/١٣ .

وهكذا يجب أن يكون المسلم المؤمن، يتجنب مواطن الحِدّة والقسوة والشدّة مع الناس .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«المؤمنون هيّنونَ لينون كالجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن أنيخَ على صخرة استناخ»**(١) .

والناس في الحلم صِنفان، فمنهم الحليم ذاتاً، يتصف بالحلم بالطبع الأوّلي، كالأحنف بن قيس الذي راح مثلاً في الحلم، روي عنه أنه جاء إلى باب بعض الأمراء، فجلس ينتظر الإذن، فمرّت به امرأة سقاءة (وهي التي تحترف نقل الماء إلى المنازل). فقالت: يا شيخ عليك بقربتي حتىٰ أعود، فصرف همّه في حفظ قربتها، فخرج الآذن عليه بالإذن فقال إن معي وديعة، ولم يزل قاعداً حتى جاءت السقّاءة(٢) .

وشتمه رجل فقال: إن كنت كاذباً فغفر الله لك، وإن كنت صادقاً فغفر الله لي(٣) .

وكان يقول: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال .

إنه كان حليماً بطبعه، لا يحتاج إلى كثير من عناء ليتصف بهذه الصفة، كما هو الحال في كثير من الناس، يكون الخلق الحسن من طبعه، كذلك كان الأحنف بن قيس، يدركه الحلم عند غضبه .

وثمةَ آخرون، ليس الحلم من طباعهم الذاتية، ولا تتحلىٰ بها نفوسهم، بل ـ على العكس من ذلك ـ تطغىٰ عليهم حالة النفور والغضب، وتستفزهم المثيرات بسرعة، فينبغي ـ حينئذٍ ـ على مثل هؤلاء، اصطناع الحلم، والتحلّم، والمواظبة على ذلك، حتىٰ يعود التحلّم ملكةً لديهم، وعادة عندهم، بحيث لا يهيج الغضب أصلاً ليكونوا بحاجة إلى كظمه .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«إنما العلمُ بالتعلم، والحلمُ بالتحلّم»**(٤) .

---

(١) المصدر السابق : ١٣/٢ .

(٢)-(٣) المصدر السابق : ٢٣/٢ .

(٤) جامع السعادات للنراقي : ٢٩٦/١ .

وقال الصادق عليه السلام: «إذا لم تكن حليماً فتحلّمْ»[1] .

ويقول العلامة النراقي في ضمن حديثه عن الحلم «فمن لم يكن حليماً بالطبع، لا بدّ له من السعي في كظم الغيظ عند هيجانه حتى تحصل له صفة الحلم، وقد مدح الله سبحانه كاظمي الغيظ في محكم كتابه، وتواترت الأخبار على عظم أجره» .

ومما لا شك فيه أن الإنسان يلاقي جزاء أعماله مرتين، مرة بشكل أثرٍ وضعي، ونتيجة حتمية للأعمال في الدنيا، وهو الجزاء التكويني للأعمال . . .

ومرّة بصورة ثواب وعقاب، وأثر جعلي تشريعي في الآخرة. . . والنصوص الواردة لتأكيد هذا المعنىٰ، أكثر من أن تحصىٰ منها قوله تعالىٰ :

﴿ومن أعرضَ عن ذكري فَإنَّ له معيشةً ضنكاً ونحشرُهُ يوم القيامة أعمىٰ. . .﴾[2] .

فالإعراض عن الله تعالىٰ، وعن ذكره، ينتج عنه أثران، ويترتب عليه عقابان: عقاب في الدنيا وهو حياة الضنك والشدّة، وعقاب آخر عند الله يوم القيامة . . .

ومنها قوله تعالىٰ : **﴿من عَمِلَ صالحاً من ذكر أو أنثىٰ وهو مؤمنٌ فلنحيينّهُ حياةً طيّبَةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾**[3] .

فالعمل الصالح الذي يرتضيه الباري عزّ وجلّ، ينتج عنه ثوابان، ثواب في الدنيا، وهو العيش الكريم والحياة الطيّبة. . وثواب في الآخرة بأحسن مما عمل في الدنيا .

والحلم . . وهو خلق كريم، وعمل صالح، والتحلّم، وهو عمل شاق فيه مجالدة النفس والسيطرة عليها. . لا تنحصر نتائجه على ثواب الآخرة،

---

(١) جامع السعادات للنراقي : ٢٩٦/١ .

(٢) سورة طه ؛ الآية : ١٢٤ .

(٣) سورة النحل ؛ الآية : ٩٧ .

والجزاء الحسن عند الله تعالىٰ بل، لا بدّ له من أثر محسوس في هذه الحياة، وقبل يوم القيامة . .

في الدنيا: يحبه الناس وتتجاوب معه المشاعر والعواطف، فالناس بطبيعتها تميل إلى ذوي الأخلاق الحسنة والطباع الحلوة، فيكون مرغوباً فيه، وينال رضاهم، وينتصرون له، ويحيىٰ عزيزاً كريماً . .

وفي الآخرة: يجازيه الله عزّ وجلّ على تَحَلُّمِهِ وَتَحَمُّلِهِ بأحسن مما عمل في الدنيا، ويعطيه الجزاء الأوفىٰ . . . ويبلغ به درجة الصائم القائم .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«إن الرجلَ لَيُدرك بالحلم درجة الصائم القائم»**(١) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : **«إن الله يحب الحييّ الحليم، ويبغض الفاحش البذيء»**(٢) .

وفي الحديث النبوي الشريف : **«إذا جُمِعَ الخلائق يوم القيامة، نادىٰ منادٍ: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس ـ وهم يسير ـ فينطلقون إلى الجنة سِراعاً، فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سِراعاً إلى الجنة؟ فيقولون: نحن أهل الفضل! فيقولون: فما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلِمنا صبرنا، وإذا أُسيءَ إلينا عفونا، وإذا جُهل علينا حَلمنا. فيقال لهم: ادخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين»** (٣) .

وعن الصّادق عليه السلام : **(إذا وقع بين رجلين منازعة، نزل ملكان للسفيه منهما وقالا له: قلتَ وقلتَ، وأنت أهل لما قلت، وستجزىٰ بما قلت ويقولان للحليم منهما: صبرتَ وحلمت، سيغفر الله لك إن أتممت ذلك، فإذا ردَّ الحليم ارتفع الملكان)**(٤) .

أما عن النتائج الفعلية الدنيويَّة :

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«ما أعزّ اللّهُ بجهلٍ قط، ولا أذلَّ بحلم قط»**(٥) .

---

(١)ـ(٢) جامع السعادات للنراقي : ١/٢٩٦ .

(٣)ـ(٥) جامع السعادات : ١/٢٩٦ .

وقال الصَّادق عليه السلام : **«كفىٰ بالحلم ناصراً»**[1] .

وقـال علي أميـر المؤمنين عليه السلام : **«أول غـرض الحليم من حلمـه، أن الناس أنصار له على الجاهل»**[2] .

وروي عن الأحنف بن قيس قـولـه: وجـدت الحـلم أنصـر لـي من الرجال[3] .

ولعل المرء يكون معذوراً في بعض الأحيان، إذا ما انسلخ من التحلّم، فقـد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : **«ثـلاثة يُعـذَرون بسوء الخلق، المـريض والصـائم والمسافر»**[4] .

فهم يعيشون نفسية استثنائية، بسبب وطأة المرض، أو عنـاء الصوم، أو مشقّة السفر، أما غيرهم فالمطلوب منه مجاهدة النفس، وترويضها على الصبر والأناة والحلم. وقد قيل: (ما تقلد امرؤ قلادة أحسن من الحلم).

وكـان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يـدعـو ويقـول : **«اللَّهُمَّ اغنني بـالعلم وزينّي بالحلم»**[5] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام : (يا علي هل أدلّك على خيـر أخلاق الأولين والآخرين؟) .

قال: نعم يا رسول الله .

قـال : **«تصل من قـطعـك، وتعـطي من حـرمـك، وتحلم عمن جهـل عليك»**[6] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : **«ثلاث من لم تكن فيه واحـدة منهن فلا تعتـدّوا بشيء من عمله: تقـوىٰ تحجـزه عن معـاصي الله، وحِلم يكفُّ بـه السفيـه، وخلق يعيش به في الناس»**[7] .

---

(١) جامع السعادات : ١/٢٩٦ .
(٢) - (٣) ربيع الأبرار : ٢/٢١ .
(٤) المصدر السابق : ٢/١٣ .
(٥)-(٧) جامع السعادات : ١/٢٩٦ - ٢٩٧ .

قال شاعر :

وإذا الجهولُ طمت به غلواؤه ... فاجعل له الحِلمَ الرصينَ لِجاما

وبعث الإمام الصَّادق ﷺ، غلاماً له في حاجة فأبطأ عليه، فخرج في أثره فوجده نائماً فجلس عند رأسه يروّحه حتىٰ انتبه، فقال له: يا فلان، والله ما ذلك لك، تنام الليل والنهار؟ لك الليل ولنا منك النهار[1] .

معاوية والحلم :

وكثيراً ما يجري بأقلام المؤرخين وصف معاوية بن أبي سفيان بالحلم وطول الأناة، واعتبار ذلك نوعاً من الأخلاق الرفيعة التي كان يتحلىٰ بها الرجل. . ويستشهدون له على ذلك بقصص وشواهد تاريخية لتعضيد ادعائهم، ولإضفاء هالة من العظمة عليه كونه رئيساً وحاكماً يغالب نفسه في الغضب، ويتحلم، ويتجنب الحدة. . بيد أن الناظر في سلوك معاوية بإمعان، لا يجده حليماً كما يوصف، بل على العكس من ذلك يجده يتصف بالغضب، وحب الإنتقام، لغير ضرورة عاجلة ولا مصلحة آجلة، كما حصل مع (حجر بن عدي) وأصحابه رضوان الله عليهم، قتلهم وأبادهم وحملت رؤوسهم إليه ودفنت أجسادهم منفصلة عن الرؤوس حيث مرقدهم الآن في (مرج عذراء) .

ودهش الناس لهذه المقتلة الجُزاف، واهتزَّ لها العالم الإسلامي هزّة عنيفة أورثته مبغضةً لبني أمية كَمُنَتْ وطالت حتىٰ انفجرت أخيراً وأدت إلى انهيار دولتهم، خصوصاً بعد تعاظم آثامهم بقتل الحسين ﷺ، وارتكابهم فجائع كثيرةً أخرىٰ .

إن الذي كان يتصف به معاوية لم يكن حلماً. . بل كان نوعاً من بطء الغضب، وبطء الغضب كثيراً ما يكون شيئاً سلبياً يدل على امتناع الغضب طبعاً، أو قلة الاستعداد له في الخلقة، وهي لا ترادف الحلم أبداً .

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه (معاوية) حين يأتي على

---

(١) جامع السعادات : ١/٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

ذكر صفة الحلم فيه :

«فليس معنى الشجاعة ـ مثلاً ـ تجرد الطبع من الشعور بالخوف، لأن الإنسان الذي يقدم على الخطر وهو لا يشعر به يندفع اندفاع الجماد ولا فضل له في اندفاع لا يكلفه الغلبة على خوف يساوره في ضميره . .» .

* * *

«وليس معنى الكرم تجرد الطبع من الشعور بقيمة المال أو قيمة المنحة المبذولة، لأن من يتصرّف في شيء لا قيمة له عنده كمن يتصرَّف في التراب والهواء وما إليهما من مبذول العطاء .

وليس معنى العفة تجرد الطبع من الشعور بالشهوات، لأن من لا يشتهي لا يطلب ولا يقاوم الإغراء ولا تحسب له عفة .

وليس معنى الحلم تجرد الطبع من الشعور بالغضب، لأن التجرد من هذا الشعور قد يأتي من بلادة في الطبع وركود في حركة النفس ومقابلة العوامل الطبيعية بما يناسبها من الانفعال .

وإنما الحلم أن يغضب الإنسان وأن يحكم غضبه بإرادته إيثاراً لأمر يفوق الغضب في قيم الأخلاق . .

فمن الحلم أن يأنف الإنسان من الاستسلام للغضب، لأنه يرتفع بكرامته أن تصيبها إساءة المسيء .

ومن الحلم أن يصفح الإنسان عن الإساءة إيثاراً للخير وعطفاً على المسيء كما يعطف الأب الرحيم على الولد الجاهل بما يصنع في حق أبيه .

ومن الحلم أن يقمع الإنسان غضبه لأنه يملك زمام نفسه ويوازن بين العواقب فيختار أسلمها للناس عامة، وإن لم يكن أسلمها في ذات شأنه وشؤون ذويه . . .» .

«ولا بد من التفرقة هنا بين الحلم إيثاراً للنفع الإنساني أو النفع القومي، وبين الحلم إيثاراً للسلامة وعملاً بطبيعة «الأنانية» وحب الذات .

فليس من الحلم أن يُضرب الضعيف فلا يَردُّ الضربة بمثلها لأنه يعلم

أنه سيتلقى أضعافها ممن هو أقدر منه وأقوى على إيذائه، وإنما يُقال عن هذا إنه جبن أو رضى من المعتدى عليه بأهون الشرين .

ولا يكون الحلم أبداً عجزاً عن مجاراة الغضب أو امتناعاً للشعور به، لأن الفضيلة لا تقوم على عجز أو امتناع، ولكنها تقوم على إرادة تملك الاختيار بين الخطتين. . » .

* * *

«وجملة القول في هذه الصفة إن الحليم هو الذي يملك الغضب ولا يملكه الغضب، وكلما اشتد الغضب واشتدت القدرة عليه كان ذلك أبين عن الحلم وأدل عليه، وكلما ارتفع السبب الذي من أجله يتغلب الحليم على غضبه كان ذلك أرفع لقدره وأرجح لوزنه في ميزان الفضيلة، فمن يحسمُ الغضبَ حرصاً على منافع الناس أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب حرصاً على منافعه العاجلة أو الآجلة، ومن يحسم الغضب لأنه يشمل الناس بحبه وعطفه أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب لأنه يحب نفسه ويقدم حبها على كل حب لغيره» .

«ومن كلام حكماء العرب وبلغائهم نستشف[1] فطنتهم لحقيقة هذه الفضيلة، فهي فضيلة المريد المختار المالك لزمام الأمرين كما قال ابن خليفة مولى قيس بن ثعلبة يمدح قوماً من آل شيبان :

عليهم وقار الحلم حتى كأنما ... وليدهم من أجل هيبته كهل
إن استجهلوا لم يعزب[2] الحلم عنهم ... وإن آثروا أن يجهلوا عظم الجهل

أو كما قال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم متى ما أورد الأمر أصدرا

ومن كلام الأحنف بن قيس ـ أحد مشاهيرهم بالحلم ـ «رب غيظ قد

---

(١) نستشف : استشف الشيء : نظر منه إلى ما وراءه. واستشف الكتاب: تأمل ما فيه .
(٢) يعزب : عزب الشيء : بعد وغاب .

تجرعته مخافة ما هو أشد منه» . . .

وكـان من حلمه أنـه يصفح عن المسيء وإن ظن بـه الذل ويقـول: «ما أحب أن لي بنصيبي من الذل حمر النعم» . . . فلمـا قيل لـه: كيف وأنت أعز العرب؟ . . قال: «إن الناس يرون الحلم ذلاً» . . .

وهو القائل: «لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان» . .

وسألوه: ما الحلم؟ . . فقال: «قول إن لم يكن فعل، وصمت، إن ضر قول» . .

«وروى العقد الفريد أن هشام بن عبد الملك سأل خالد بن صفوان: بمَ بلغ فيكم الأحنف مـا بلغ؟ . . فقـال: إن شئت أخبـرتـك بخلة، وإن شئت بخلتين، وإن شئت بثلاث . . .

قال: فما الخلة؟

قال: كان أقوى الناس على نفسه .

ثم قال عن الخلتين إنه كان موقى الشر ملقى الخير، وعن الثـلاث إنه كان لا يجهل ولا يبغي ولا يبخل» .

«وأستـاذ الأحنف في الحلم قيس بن عـاصم المنقـري كـان مشهـوراً بالإقدام كشهرته بالحلم والإغضاء عن الـذنب كبيره وصغيـره، وبلغ من حلمه أنه صفح عن ابن أخيه الذي قتل ابنه، وقد أوثقه من ودّ أن يبطش به لساعته فما زاد على أن قال له مؤنباً : «بئس ما فعلت. نقصت عددك وخنت عشيرتك وأسقطت مروءتك وأشمت عدوك وأسأت قومـك . . . وأنت الذي كنـا نرجـوك لعظائم الأمور» ثم واسى زوجتَه أمَ القتيل وأجـزل لها الـدية من مـاله، وحسم بذلك شراً مستطيـراً في القبيلة لا يجعله عنده أخـطر من شر الثكـل إلاّ الحلم الراجح والقلب الكبير والنظر البعيد» .

* * *

«ويمـر بنا مثـل من الأمثلة الصالحـة لتقويم الـروايـات ورواتهـا بصـدد الأخبار التي نقلها صاحب العقد الفريد عن الحلم والحلمـاء، ومنهم الأحنف

ومعاوية . .

فابن عبد ربه ينقل لنا أن الأحنف سئل: من أحلم. . أنت أم معاوية؟ فقال: تالله ما رأيت أجهل منكم. إن معاوية يقدر فيحلم وأنا أحلم ولا أقدر، فكيف أقاس عليه أو أدانيه؟ .

فإذا سمع السامع المتعجل هذا فحري أن يتقرر لديه رجحان معاوية في الحلم بشهادة الرجل الذي يضرب به المثل في حلمه، وأي شهادة عسى أن تكون أصدق من هذه الشهادة. . . !

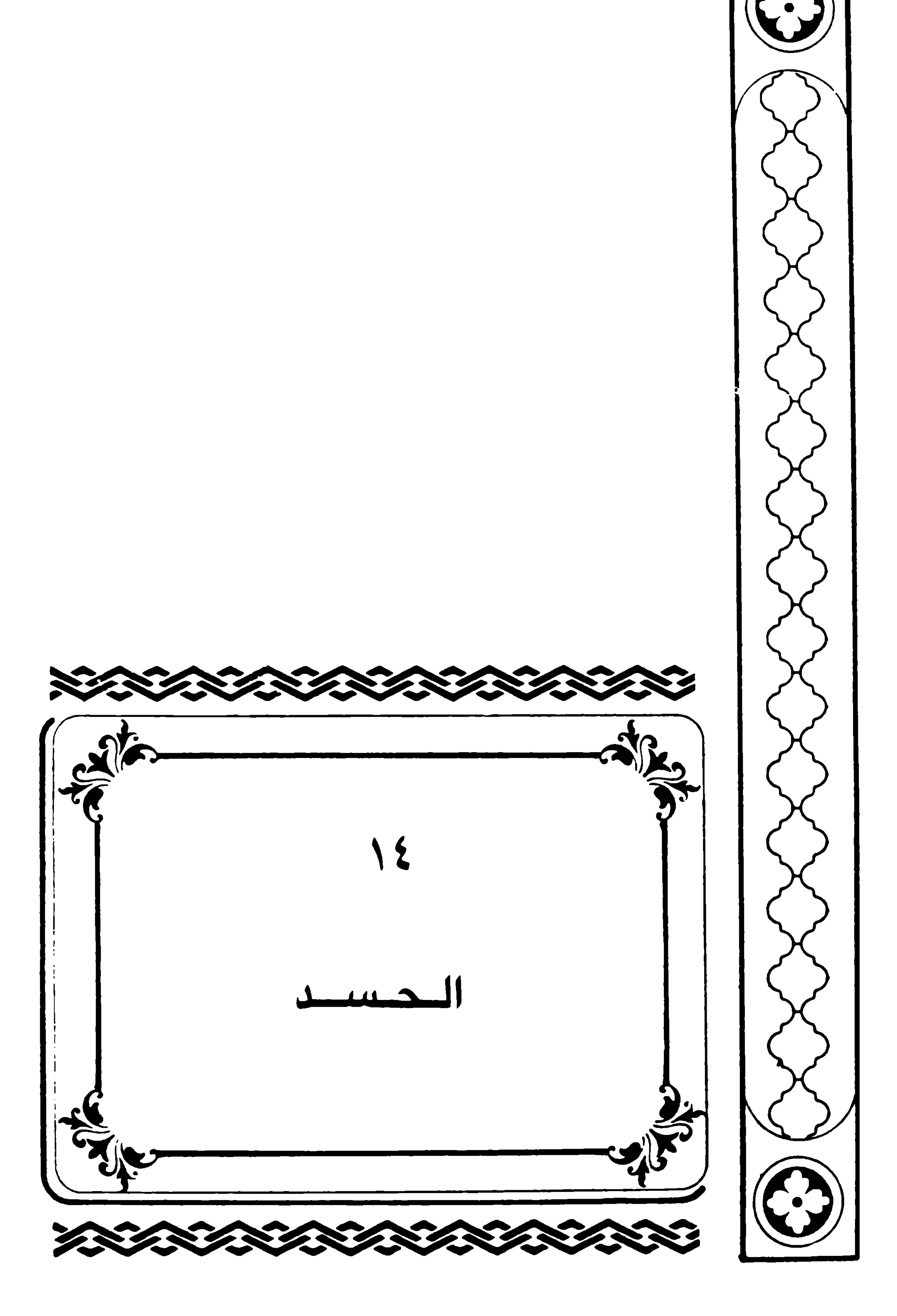
وما هي إلاَّ معاودة لحظة في السؤال والجواب حتى يتقرر على خلاف ما تقدم أن السؤال كان لا يحتمل جواباً غير ذلك الجواب، لو أنه سؤال ما كان ينبغي أن يتوجه للأحنف ويترقب سائله أن يقول له: بل أنا أحلم من معاوية! . . وقد كان الأحنف خاصة يرى من عرف الحلم أن يستصغره وأن يقول عن نفسه كما نقل صاحب العقد قبل ذلك بسطر واحد : لست حليماً ولكنني أتحالم. . » .

« . . . ونعود إلى تاريخ معاوية فيما قاله، وفيما سكت عنه منذ نشأته الأولىٰ فلا نجد فيه أثراً واحداً لطبيعة الغضب التي تمتحن بها فضيلة الحلم»[1] .

من هنا نعرف أن الذين يصفون معاوية بالحلم لا يخلون من حالتين، إما أنهم من المنتفعين في دولة بني أمية، أو أنهم ناقلون عنهم من غير دراية ولا إحاطة .

---

(١) عباس محمود العقاد : كتاب (معاوية) ص ٦٨، منشورات المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت .



١٤

الحسد

الحسد هو الرغبة في امتلاك ما يمتلكه الغير، أو الحظوةُ بامتيازات تماثل ما يتمتع به الآخرون، ويكون دائماً مقروناً بِتَمَنّي زوال النعمةِ من المحسود .

والحاسد ـ عادةً ـ يشعر بالتنافس مع شخص آخر، وقد يؤدي هذا التنافس (الغير شريف) إلى تأجج نيران الحقد والعداوة والغضب، أو الشعور بالتعاسة، وضيق النفس، وربما اجتمعت هذه الخلال جميعاً في نفس الحسود، وانتهت به إلى البغي والاعتداء .

والحسد يقع ـ غالباً ـ بين المشترَكين في عمل واحد، أو هدف واحد، أو مهمّةٍ واحدة، كالحسد بين تاجرين، أو صانعين، أو بائعين . . فهؤلاء ربما تحاسدوا لاشتراكهم في التنافس في عمل واحد .

وكالحسد بين طالبين، أو عالمين، أو حتىٰ مصلحَين . . فهؤلاء أيضاً، ربّما دبّ الحسد في نفوسهم، لأنهم شركاء في التنافس في تحقيق هدف واحد .

والحسد من طبيعة النفوس، سواء كان أصحاب النفوس صغاراً أو كباراً، رجالاً أو نساءً فهو يسري في مسارب النفس منذ نعومة الأظفار حتى سن الشيخوخة . . . ويدبّ في نفوس الرجال كما يدبّ في نفوس النساء . . ولا يسلم منه إلاّ من عصم الله .

وقد سرى الحسد حتى بين زوجات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «فقد شهد بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم (عائشة بنت أبي بكر) في عزة صباها، ونضرة شبابها، تشعلها الغيرة من تلك الضرة التي سبقتها إلى قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، واستأثرت به وحدها، حتى يومها الأخير.. ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قلبه».

«أقبلت (هالة) أُخت خديجة لزيارة المدينة، وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوتها في فناء بيته، وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة، فهتف القلب: (اللَّهُمَّ هالة)[1] فما ملكت عائشة نفسها أن قالت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر أبدلك الله خيراً منها[2]؟!.

فتغير وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وزجر عائشةَ غاضباً:

«والله ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي حين كفر الناس، وصدّقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء»[3].

فأمسكت عائشة وهي تقول في نفسها: (والله لا أذكرها أبداً ...) وكانت قبل ذلك لا تكفّ عن الكلام فيها!!.

قالت له يوماً، وقد ألفتهُ لا ينقطع عن ذكرها: (كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلاّ خديجة)!.

فردَّ عليها صلى الله عليه وآله وسلم : «... إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد...».

ورآته صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذبح الشاة يقول: أرسِلوا إلى أصدقاء خديجة، فحدثته في ذلك مرةً فقال: إني لأحبُّ حبيبها[4].

---

(١) نساء النبي: بنت الشاطىء: ٥١ طبع بيروت.

(٢) صحيح مسلم، باب فضائل عائشة: ح ٢٤٣٧.

(٣) (٤) السمط الثمين ٢٦، والاستيعاب: ٤/١٨٢٤.

وفي رواية بصحيح مسلم، إنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني رُزِقت حُبَّها»[2] وطالما سُمعت عائشة تقول: (ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة، وما تزوجني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلاَّ بعدما ماتت)[2] أو تقول: «ما غِرتُ من امرأة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما غِرتُ من خديجة، لما كنت اسمع من ذكره لها، وما تزوجني إلاَّ بعد موتها بثلاث سنين» وفي رواية «لكثرة ذكره إياها، وما رأيتها قط»[3].

ويمتلك الحسد مشاعر الصغار كثيراً، وتظهر عليهم الغيرة للتنافس في امتلاك الأشياء أو كسب حب الوالدين، أو ما شاكل ذلك، من المشاهد المألوفة التي لا يخلو منها بيت..

وربما أدّىٰ ذلك إلى ارتكاب بعضهم لجرائم فظيعة.. كالقتل الغير المتعمّد، أو الاعتداء العنيف على الأطفال الآخرين، بسبب هذه المنافسة الشرسة.. ففي مرةٍ حدث أن صبياً دفع أخته الصغيرة من فوق سطح المنزل، فسقطت من ذلك الارتفاع وارتطم رأسها بالأرض وماتت !!.

ومرّة أُخرىٰ ضرب طفل، لا يتجاوز الثالثة من العمر صبياً من عمره ـ بدافع الحسد ـ بآلة حديدية على عينه ففقأها !!.

يقول علماء النفس: إن الحسد يولد مع الطفل غريزياً، وربما استمر معه حتى سنِّ الكبر، ولكن يبقىٰ الفارق بين نفس وأُخرىٰ، وبين إنسان وآخر، متمثلاً في إظهار الحسد أو إخفائه وكبته.

قد تجد من يمتلك نفسه في مواطن الحسد، فلا تظهر عليه آثاره، إنما يبطن ذلك فحسب، يحجزه من إظهاره دينٌ وتقوىٰ.. أو أخلاق، في الوقت الذي لا يقوىٰ غيره على إخفاء مشاعر الحسد التي تؤرقه.. فتظهر على فلتات لسانه، وقسمات وجهه، وحركاته الغير طبيعيّة. من هنا كان العقاب عند الله تعالىٰ على الحسد مبتنياً على ما يُظهر المرء من آثار الحسد، وما يحققه من إيذاء الآخرين، وليس على النوايا، وما يبطن في نفسه ويخفي

---

(1) (2) صحيح مسلم باب فضائلها ح: ٢٤٣٥، والإصابة: ٨/٦٢.

(3) صحيح مسلم ح: ٢٤٣٥، والإستيعاب: ٤/١٨٢٣.

في صدره .

وتنبيهاً على هذا الواقع، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«إذا ظننتم فلا تحققوا، وإذا تطيّرتم فامضوا، وإذا حسدتم فلا تبغوا»[1] .

فالحسد مرض نفسي يبتلىٰ به أكثر الناس، ولا يخلو منه إلاَّ قليل، فمن كلام بعضهم : (ما خلا جَسَدٌ من حَسَدٍ) وعلى المرء أن يحاول جاهداً لمعالجة وإزالة أعراض هذا المرض .

وثمة فرق بين الحسد والغبطة، فالغبطة تمني توفر ما عند الآخرين من امتيازات وَنِعَمٍ إلٰهيةٍ، كالغنىٰ والعافية والممتلكات وما شاكل ذلك، دون إرادة زوال ذلك من أصحابها بينما نزعة الحسد تدعو وتتمنىٰ زوال النعمة والامتيازات من المحسود، وانتقالها إلى الحاسد ويغيظ الحاسدُ مما يراه من خير في غيره، ويودّ لو زال عنه ذلك، وصار إليه، مشفوعاً دائماً بشحنة كبيرة من الحقد والعداء والقسوة .

في الحسد (نقارن أنفسنا بالغير، ونودّ أن نكون كمن هم أحسن حالاً منا . . وقد يكون هذا مستحيلاً، لافتقارنا للجوانب والأسباب التي هيأت الغير للنجاح، كالجمال، والشباب، أو سهولة التفاعل مع الناس، أو المواهب التي يتمتع بها المحسود، ولا يتمتع بها الحاسد . . .)[2] فيحاول الحسود الحطّ من مؤهلات المحسود، وإيذائه بشكل أو بآخر، وهذا ـ في مفهوم الإسلام ـ دليل الضعةِ والشعور بالنقص .

وليس هناك فرق كبير بين الحسد والعين، فغالباً ما يكون صاحب العين حسوداً، ولكن ليس كل حسود يصيبُ بعينه .

وقد كانت العلماء، ولا زالت، تبحث عن مفهوم (العين) ومعنىٰ الإصابة بها، وكيف تكون الإصابة فقد خاض الجاحظ هذا الموضوع . . كما

---

(١) ربيع الأبرار : ٤٣٧/٣ .

(٢) التحليل والصحة النفسية : ٣٥ .

بحث فيه السيد الرضي رضوان الله عليها[1] وغيرهما . .

ولا زالت الجامعات الحديثة تواصل البحث والنظر في مسألة العين وإصابتها، وإيجاد السبل لدرء هذا الخطر ومنع الإصابة بالعين. . والملفت للنظر أن بعضهم اكتشف أن هذه (الخرزة الزرقاء) التي يستعملها الكثير من الناس، ويعلقونها على صدورهم، وملابس أطفالهم، اكتشف أن بها ـ بالفعل ـ قابلية الصدّ (للإشعاعات) التي تطلقها بعض العيون فتصيب المحسود !! ويبقىٰ أن نعرف هل العين هي التي تطلق شيئاً، أم النفس تفعل ذلك؟ أم كلاهما معاً ؟؟ .

ومهما كان من أمر العين، فإن القرآن الكريم تطرَّق إلى موضوع العين والحسد في مواردَ عديدة منها قوله تعالىٰ : ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**. . .﴾[2] فقد ورد في تفسير الآية، كما يذكر ذلك الطبرسي في مجمع البيان، إنها نزلت في حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآل البيت الأطهار عليهم الصَّلاة والسَّلام، والمراد بالفضل في الآية: النبوة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والإمامة في العترة الطاهرة .

. . . عن أبي الصباح الكناني، قال : قال أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام : (يا أبا الصباح، نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الانفال، ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم، ونحن المحسودون الذين قال في كتابه : أم يحسدون الناس، الآية)[3] .

ومنها قوله تعالىٰ : ﴿**وقال يا بَنِيَّ لا تدخلوا من باب واحدٍ وادخلوا من أبوابٍ متفرِّقةٍ وما أُغني عنكم من اللَّهِ من شيء إنِ الحكمُ إلاَّ للَّهِ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون**﴾[4] .

فالآية على لسان يعقوب عليه السلام يخاطب أولاده حين بعثهم للبحث

---

(١) مجمع البيان (في تفسير سورة يوسف) .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ٥٤ .

(٣) مجمع البيان، تفسير الآية المجلد : ٣ ـ ٤، ص ٩٥ .

(٤) سورة يوسف ؛ الآية : ٦٧ .

عـن ولده يـوسف عليه السلام وكانـوا مجموعـة من الشباب الأشـداء، الذين تنضـح وجـوههم نضـارةً وشبابـاً، ذوو جمال وهيـأة وكمال، وهم أخـوةٌ، أولاد رجـل واحـد. . فخاف عليهم يعقوبُ عيونَ الحاسدين[١].

وقيل خاف عليهم الحسد من الناس، وأن يبلغ الملك قوتهم وبطشهم، فيحبسهم أو يقتلهم خوفاً على ملكه[٢].

وروي عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«إن العين حـقٌ، والعـين تـستـنـزل الحـالق»**[٣] والحالق المكـان المرتفـع من الجبل وغيـره، ذروة الجبل، وقمـة المرتفع، فجعل العين كأنها تحط ذروة الجبل.

وورد في الخبـر أيضاً، أنـه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعـوّذ الحسن والحسين عليهما السلام من الحسد والعين وما شاكل، فكان يقول : **«أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهـامّة، ومن كـل عين لامة»**[٤] وروي أن إبـراهيم الخليل عليه السلام، عَـوَّذَ ابنيـه (من العـين)، وأن مـوسىٰ عليه السلام، عَـوَّذَ ابنـي هـارون بعـوذة النبي صلى الله عليه وآله وسلم [٥].

وروي أن بني جعفر بن أبي طالب الطيار عليه السلام ، كانوا غلمـاناً بيضـاً، فخـافت عليهم أُمهم أسماء بنت عميس من العين، فقـالت : يا رسـول الله : (إن العين إليهم سريعة، أفأسترقي لهم من العين؟) .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : نعم .

وروي أن جبـرئيل عليه السلام ، رقىٰ رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلمـه الـرقيـة، وهي :

(بسم الله أرقيك، من عين كل حاسدٍ الله يشفيك)[٦] .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه قـال: **«لـو كـان يُسبَق القـدرُ لسبقته العين»**[٧] .

وفي تفسيـر سـورة الفلق، ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، مـا يؤكـد مفهـوم

---

(١) (٥)مجمع البيان تفسير سورة يوسف .

(٦) (٧)مجمع البيان المجلد : ٥ ـ ٦، ص ٣٨٠ .

الحسد والعين، فقد ذكر جلُّ المفسرين رواياتٍ وأخباراً متضمنةً بأن العين حق، والحسد حق، وأن على المرء أن يتعوّذ بالله من ذلك، ويستعين به تعالىٰ لدفع ضرهما . .

في تفسير الآية الشريفة من سورة الفلق ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ : إن الحاسد يحمله الحسد على الإيقاع بالمحسود، وإيذائه، فأمر الله عزّ وجلّ بالتعوذ من شرّه، والاعتصام والامتناع بالله سبحانه .

وقيل: إنه أراد من شر نفس الحاسد، ومن شر عينه، فإنه ربما أصاب بهما فعاب وَضَرَّ وقد جاء في الحديث «**إن العين حق**»[1] .

وروى أنس، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**من رأىٰ شيئاً يعجبه، فقال: الله، الله، ما شاء الله، لا قوة إلاّ بالله، لم يضرّ شيئاً**»[2] .

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان كثيراً ما يعوّذ الحسن والحسين عليهما السلام بهاتين السورتين (الفلق والناس)[3] .

وقال بعضهم: إن الله سبحانه جمع الشرور في هذه السورة (الفلق) وختمها بالحسد، ليعلم أنه أخسّ الطبائع . . نعوذ بالله منه .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «**استعينوا على أُموركم بالكتمان، فإن كل ذي نعمةٍ محسود**»[4] .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «**إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[5] .

ولا شك أن القدرة على مقاومة آثار الحسد في النفس، دليل الصحة والسلامة في النفس والجسد، وأن المقاوم، هو المستفيد الأول من تملك نفسه، كما وأن الذي يطلق العنان لهذا المرض الخبيث في البغي وإيذاء

---

(١)-(٢) مجمع البيان : سورة الفلق .

(٣) مجمع البيان : سورة الفلق .

(٤) ربيع الأبرار : ٣/ ٥٠ .

(٥) المصدر السابق : ٥٢ .

الآخرين. . هو المتضرر الأول أيضاً!! ويدعم ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: **«صحة الجسد من قلة الحسد»**[1].

وعن ابن مسعود يرفعه: **«ألا لا تعادوا نعمَ الله»** قيل: ومن يعادي نعم الله؟ قال: **«الذين يحسدون الناس»**[2].

وكان يُقال: إياك والحسد، فإنه يتبين فيك، ولا يتبين في محسودك.

وعن أعرابي: (ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد) وينسب هذا القول إلى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه الصَّلاة والسَّلام أيضاً إلّا أنّ الزمخشري في ربيع الأبرار نسبه إلى أعرابي.

ومن طريف ما يذكر عن العين: إن عيّوناً سمع صوت بول من وراء حائط، فقال: إنك كثير الشخب، قالوا: هو ابنك! قال: وانقطاع ظهراه! فقيل: لا بأس به، قال: لا يبول ـ والله ـ بعدها أبداً. فما بال حتىٰ مات!!.

وقيل إن عيّوناً كان يقول: إذا وجدت الشيء يعجبني، وجدت حرارة تخرج من عيني!!

ويروىٰ عن الأصمعي: إن عيوناً مر بحوض من صَخر صلد، فقال: تالله ما رأيت كاليوم مثل هذا الحوض، فانصدع فلقتين!!

وتذاكر قوم من ظرفاء البصرة الحسد، فقال رجل منهم: إن الناس ربما حسدوا على الصلب: فأنكروا ذلك، ثم جاءهم بعد أيام فقال: إن الخليفة قد أمر بصلب (الأحنف بن قيس ومالك بن مسمع وقيس بن الهيثم) وذكر معهم (حمدان الحجام)، فقالوا: هذا الخبيث يُصلب مع هؤلاء!؟ يعني الحجام.

فقال: ألم أقل إن الناس يحسدون على الصلب[3].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ٥/٥٣٥.
(٢) ربيع الأبرار: ٣/٥٣.
(٣) شرح النهج للحديدي: ١/٢٥٦.

يقول شاعر :

يا طالبَ العيش في أمن وفي دِعَةٍ ... رغداً بلا قَتَرٍ صفواً بلا رَنَقِ
خلص فؤادك من غلٍّ ومن حسدٍ ... فالغلُّ في القلبِ مثلُ الغلِّ في العُنقِ

وفي نوابغ الكلم : الحسد حسك من تعلق به هلك .

وقال شاعر آخر :

كادَ الأعادي فلا واللَّه ما تركوا ... قولاً وفعلاً وتلقيناً وتهجينا
ولم نزد نحن في سِرٍ وفي علنٍ ... على مقالتنا (يا ربنا اكفينا)
فكان ذلك ردَّ اللَّه حاسدنا ... بغيظه لم ينل تقديره فينا

وقال أبو تمام :

وإذا أراد اللَّه نشر فضيلةٍ ... طُوِيَت أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يُعرَف طيبُ عرفِ العودِ
لولا محاذرة العواقب لم تزل ... للحاسدِ النعمىٰ على المحسودِ

في مسيرة الحياة وتجاربها، مشاهد كثيرة من الحسد الظالم، وربما يواجهها الإنسان ويلاحظها كل يوم تقريباً . .

فمثلاً: يتميز بعض الناس على الآخرين بالنشاط والحيوية، لخدمة الدين والمجتمع . . فيبذل مجهودات أكبر، وطاقات أعظم في المجال الديني أو الاجتماعي . . فيشتهر بين الناس وتميل إليه القلوب، ويحبه الآخرون . . لمواهبه الكثيرة ونشاطاته وحيويته في المجالات الإنسانية . . .

ويدبّ الحسد في نفوس حسّاده، كانه كابوس يقضّ مضاجعهم، وشيئاً فشيئاً ، يتحول الحسد إلى نقمة وبغضاء، فينبري لإيذاء المحسود، فيقسو عليه، ولا يدع فرصة تمر دون أن يصيبه بشواظٍ من ناره . . ويعيق مسيرته . . ويقف في طريقه . . أو ربما تبدأ المنافسة الغير الشريفة . . والنشاط السلبي المحموم، والتحرك العنيف ضد المحسود . . . كالذي نراه في حياتنا كثيراً . . ونشاهده يتكرر في كل زمان ومكان .

ولو كان هناك حاجز من تقوىٰ أو دين، لَغالب المرء حسده، ونازع

نفسه وهواه ولم يعرض نفسه والآخرين للمشاكل .

وهذه الحقيقة يؤكدها الشاعر بقوله :

حسدوا الفتىٰ إذ لم ينالوا سَعيه — فالكل أعداءٌ له وخصومُ
كضرائر الحسناء قلن لوجهِها — حسداً وبغياً - إنه لَذميمُ

فكم من إنسان نزيه، توفرت لديه أسباب التوفيق والتفوّق، واجتمعت عنده كثير من المواهب والامتيازات، مما جعلته متقدماً على أقرانه، متفوقاً عليهم. . ثم صار هدفاً لسهام الحساد، فنالوا منه بكل وسيلة، وحوّلوا حسناته سيئات، وتظافروا لإيذائه والبغي عليه، ووضعوا الحواجز والمعوقات في سبيله . .

إنها النفس الشريرة التي تدفع الحاسد إلى قبيح الفعل، وبذيء القول، والهدم والتخريب وكل عمل شائق .

ولا تستقر نفس الحاسد، ولا تطمئن أبداً، بل تبقىٰ مضطرمة بنار الحقد والعداوة حتى تموت .

قيل لأرسطو : ما بال الحسود أشدّ غماً من المكروب؟ .

قال : لأنه يأخذ نصيبه من غموم الدنيا، ويُضاف إلى ذلك غمُّهُ بسرور الناس[١] .

ومن الكلام المروي عن حكيم الإسلام، سيد الأوصياء عليٍ أمير المؤمنين عليه السلام :

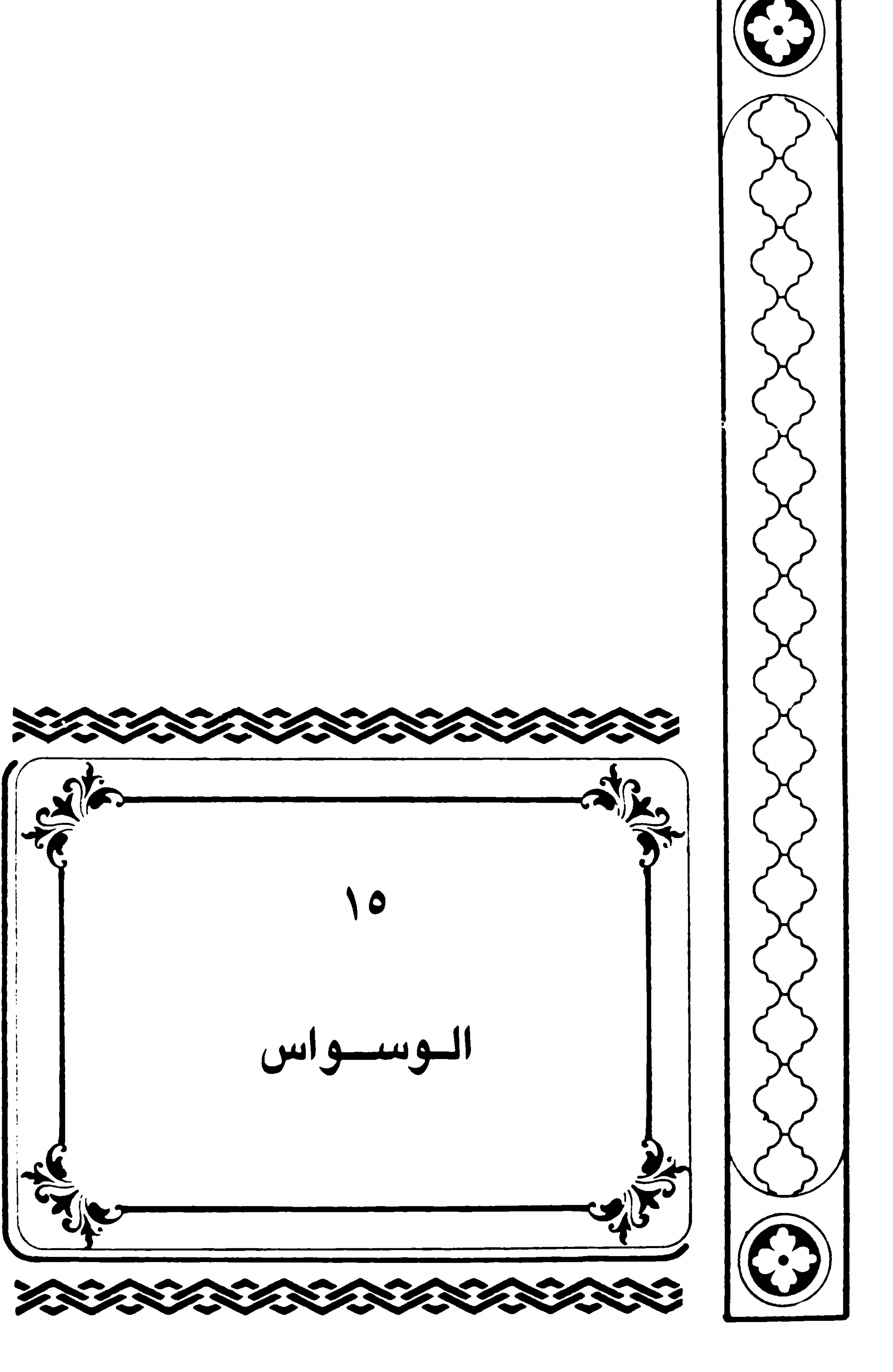
«لِلَّهِ دَرُّ الحسد، ما أَعدَلَه! بدأ بصاحبه فقتله»[٢] .

وفي الكتب القديمة : يقول الله عزّ وجلّ (الحاسد عدو نعمتي، مُتَسَخِّطٌ لفعلي غيرُ راضٍ بقسمتي)[٣] .

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً قد بلغ مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك! فقال: تركت الحسد فبقيت[٤] .

---

(١) - (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المجلد الأول طبع بيروت دار مكتبة الحياة ص ٢٥٥ .



١٥

الـوســواس

يقول علماء الأخلاق : تردُ على القلب خـواطر كثيـرة، وأفكار عـديدة، بعضها مذمومٌ سيِّىء ،وبعضها محمودٌ حسنٌ، فإن كانت الخواطـر التي تعرض للنفس محمودة طيبة فهي (إلهام) من الله عزّ وجـلّ، وإن كانت مـذمومـة سيئة فهي (الوساوس) .

قد يطرأ في خـاطر الإنسـان، وفي نفسه : أن يصـل رحمه، أو أن ينفق من ماله لوجه الله تعالىٰ. . أو أن يحسن إلى أصحابه وجيرانه. . . أو أن يدفع أذىً عن الناس. . . هذا كله من الإلهام الإلٰهي الوارد على القلب من الله عـزّ وجلّ، لأن الله تعالىٰ، خير، ويدعو إلى الخير، ويـأمر بـالخير، وهـو الرّحمٰن الرّحيم، ولا يدعو إلى الشر، ولا يرضىٰ به، بل ينهىٰ عنه .

وقـد يخطر في بـال المرء، أن يـظلم أو يجور، أو يمـرّ في خـاطـره أن يستـولي على مال حـرام. . أو يسرق أو يـزني، أو يدعـوه هـواه إلى ارتكـاب الآثام والمنكرات. . . هذه هي الوسـاوس، والتي يلقي بها الشيـطان في روع الإنسان .

ومثل النفس في ورود الخواطـر عليها، مثـل شاشـة التلفزيـون، ترتسم عليهـا صورٌ شتىٰ ومشـاهد مختلفـة، منها الأشكـال الجميلة الحسنـة، ومنهـا الصور المقززة القبيحة .

ومثل حوض مـاء، تصب فيه ميـاه مختلفة، من الجـداول الآسنة، ومن الأنهار العذبة، من الينابيع الحلوة، ومن المجاري النتنة . .

مثلها مثل المرآة المنصوبة في زاوية البيت، فكلما اجتاز من أمامها أحد، انعكست صورته في تلك المرآة.. قد يجتاز أمامها الخيِّر الطيب.. وقد يجتاز السيِّء الشرير، قد يمرّ بها جميل الصورة، حسن الهيأة.. وقد يمرّ عليها قبيح الشكل سيِّء المنظر..

كذلك النفس، تتوارد عليها الأفكار والخواطر، منها ما يتصل بالله سبحانه وتعالىٰ ومنها ما يتصل بالشيطان الرجيم.

فلنقل: إن الإنسان يتألف من عنصرين أساسيين: عنصر علوي سماوي، وعنصر مادي أرضي فالله عزّ وجلّ، حين خلق الإنسان، خلقه وكوّنه من عنصرين: من تراب، وهو الدنيء الأرضي المادي، ثم وهب له ونفخ فيه العنصر الآخر، وهو الروح السماوي.

﴿فلما سوّيته﴾ من تراب **﴿ونفخت فيه من روحي﴾** لما تكاملت الصورة الجسمانية الماديّة، نفخ فيه من روحه تعالىٰ، من روح السماء، نزلت عليه الروح من علو..

فآدم خليط من عنصر سماوي وعنصر أرضي، ترابٌ نفخ فيه روح السماء... وإذا كان كذلك، لا بد أن يكون لكل من العنصرين تأثيراته على النفس البشرية، وسلوكياتِهِ وأخلاقِهِ..

من هنا كانت الخواطر على نوعين بعضها شريفة عالية تنبعث من روح السماء وبعضها خسيسة دنيئة، تنم عن نفسية شيطانية.. فهي رحمانية وشيطانية لأن الرَّحمٰن نور، والشيطان نار.

وفي كل حال لا يغيب عن علم الله عزّ وجلّ، ما يدور في خَلَد الإنسان، وما يجول في نفسه..

يقول تعالىٰ: **﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تـوَسْوِسُ بِـهِ نفسُهُ ونحن أقربُ إليهِ من حبلِ الوريد﴾**[1].

---

(١) سورة ق؛ الآية: ١٦.

ويقول عزَّ من قائل : ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾[1] .

ويقول تعالىٰ : ﴿**ربنا إنك تعلمُ ما نخفي وما نعلنُ**﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿**ربُّكم أعلم بما في نفوسكم. . .**﴾[3] .

ولمّا كان ما يردُ على النفس رحمانيًّاً وشيطانيًّاً، فلا ريبَ أن كل نفس قابلة للتأثر بكل منهما على التساوي، إنما يترجح أحدهما على الآخر، بمتابعة الهوىٰ، أو ملازمة الورع والتقوىٰ .

وحين ننسب الوسوسة إلى الشيطان، فإنما نستند في ذلك إلى القرآن الكريم، حيث يقول عزّ من قائل في سورة الناس : ﴿ . . . **من شرِّ الوسواسِ الخناسِ الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنةِ والناس**﴾ وقد عبّر سبحانه وتعالىٰ في هذه السورة عن النفوس بالصدور فالشيطان يفعل فعله في نفوس الناس، بإلقاء الشر إليهم، ونفخ السوء في صدورهم . . أو التشكيك والترديد في أعمالهم الدينية الصالحة . .

ذكر المفسرون، أن سبب نزول هذه السورة، والتي قبلها، وهي سورة الفلق: إن (لُبيد بن أعصم) اليهودي، سوّلت له نفسه إيذاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان ساحراً، فدسَّ ما عمله من سحرٍ في بئرٍ لبني زريق، وأراد بذلك أن يَسحَر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويؤذيه، ولكن الله تعالىٰ عصم نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم .

فبينا هو نائم إذ أتاه ملكان، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فأخبراه بذلك. . وأن السِحرَ المعمول في مكان كذا وكذا، فانتبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبعث علياً عليه السلام ، والزبير بن العوام، وعمّار بن ياسر، فنزحوا ماء تلك البئر، ثم رفعوا صخرةً، واستخرجوا (الجف) فإذا فيه مشاطة الرأس، وأسنان مشط، وإذا فيه معقد في إحدىٰ عشرة عقدة، مغروزة بالإبر. . . فنزلت السورتان (الفلق والناس) فجعل صلى الله عليه وآله وسلم كلما يقرأ آية، انحلّت عقدة، ووجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خفةً فقام، فكأنما انشط من عقال وجعل

---

(1) سورة غافر ؛ الآية : ١٩ .

(2) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٣٨ .

(3) سورة الإسراء ؛ الآية : ٢٥ .

جبرائيل يقول: «بسم الله أرقيك، من شرّ كل شيء يؤذيك، من حاسد وعين الله تعالى يشفيك. . »[1].

وينفي صاحب تفسير (مجمع البيان) أن تكون هذه الرواية صحيحة، ويقول:

«وهذا لا يجوز، لأن من وُصِفَ بأنه مسحور، فكأنه قد خبل عقله، وقد أبىٰ الله سبحانه ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿**وقال الظالمون إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً**﴾[2] ولكن يمكن أن يكون اليهودي، أو بناته ـ على ما روي ـ اجتهدوا في ذلك، فلم يقدروا عليه وأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ما فعلوه من التمويه حتى استُخرج، وكان ذلك دلالة على صدقه، وكيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم؟! ولو قدروا على ذلك لقتلوه صلى الله عليه وآله وسلم، وقتلوا كثيراً من المؤمنين، مع شدة عداوتهم له»[3].

وبغض النظر عن صحة الخبر، أو عدم صحته، فإننا نعتقد أن الشيطان هو الذي يوسوس بالسوء في نفوس بعض الناس. . ونتيجة لذلك لا بدّ من آثار سيئة لهذه الوسوسة الخبيثة. . ولعل السحر، والطيرة، والظن السيِّء من ثمار هذه الوسوسة.

وربما وقعت الوسوسة في العقيدة، فيشك المرء في دينه ومعتقده، ويلقي إليه الشيطان بالظنون، فيجعله في حيرة من أمره، وأمر دينه وعقيدته، فيزعزع إيمانه. . وينتابه نوع من التردّد. . قد يحيد به عن جادة الهدىٰ والطريق المستقيم إن لم تدركه رحمة الله. . وإن لم يسعفه أحد بنور الهداية والإصلاح.

إن الشيطان الرجيم يوسوس في صدور كثير من الناس، ليضعف في نفوسهم الإيمان بالله تعالىٰ. . وقد صرّح بذلك القرآن الكريم، على شكل محاورة مع النفس، دارت بين إبراهيم الخليل عليه السلام، وبين نفسه التي

---

(١) مجمع البيان: ١٠/٨٦٥.

(٢) سورة الفرقان؛ الآية: ٨.

(٣) مجمع البيان: ١٠/٨٦٥.

افترضها شاكّة في الله تعالىٰ!! وأقول: (افترضها) لأنه ﷺ، حاشاه أن يكون شاكاً في ربه سبحانه بالفعل، وهو النبي المرسل الخليل، والمعلم المرشد.. وقد أورد المفسرون أقوالاً عديدة، وتوجيهات كثيرة، لأسلوب محاورة إبراهيم مع نفسه وكلها تشترك في نفس الشك والتردّد عن إبراهيم الخليل على نبينا وآله وعليه الصّلاة والسّلام. إنما كان ﷺ في هذه المحاورة يعكس الصور المختلفة للشرك بالله عزّ وجلّ، في زمانه..

قال تعالىٰ:

﴿فلما جُنّ عليه الليلُ رأىٰ كوكباً قال هذا ربي. فلمّا أَفَلَ قال لا أحبُّ الآفلين * فلما رأىٰ القمر بازغاً قال هذا ربي فلمّا أَفَلَ قال لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين * فلمّا رأىٰ الشمسَ بازغةً قال هذا ربي هذا أكبرُ فلمّا أفلت قال يا قومي إني بريء مما تشركون..﴾[1].

ومما يدل على أن إبراهيم الخليل ﷺ، لم يقل كل ذلك عن شكّ وتردّد في إيمانه وعقيدته، أن هذه الآيات مسبوقة بالآية التي تؤكد يقينه وثباته:

﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض وليكون من الموقنين﴾[2].

إنه لم يقل ما قال من منطلق الشكّ الواقعي، بل كان عالماً موقناً، قال ذلك على سبيل الإستنكار على حال قومه، والتنبيه لهم على أن الربّ المعبود، لا يجوز أن يكون بصفة الكواكب.. ولا أن يكون بهذه الصفة الدالّة على الحدوث.. فكأنه ﷺ تقمّصَ شخصية المترددين والشاكّين بالله عزّ وجلّ، وعبر عمّا يجيشُ في صدورهم من وساوس وأفكار شيطانية..

﴿أفي اللّهِ شكٌ فاطر السّمٰوات والأرض﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام؛ الآيات: ٧٦ ـ ٧٨.
(٢) سورة الأنعام؛ الآية: ٧٥.
(٣) سورة إبراهيم؛ الآية: ١٠.

وربما وقعت الوسوسة في العبادات، كالصَّلاة، والحج، والطهارة.. وغيرها، فهناك الكثير ممن يوسوس له الشيطان، فيشك في أعماله العبادية، أهي صحيحة أم لا؟ هل أدّاها كما ينبغي أم بقيت ناقصة؟ هل برئت ذمّتُهُ في أداء الفرائض، أم ماذا؟... ولعل الكثير منا أَلِفَ هذه المشاهد، ممن يكرر وضوءه، ويكرر عبارات الصَّلاة، ويشك فيها، ويعيدُ أعماله.. وأخيراً لا ترتاح نفسه، ولا تطمئن.. بل تظل شاكّة في تحقيق الواجبات والفرائض يغسل وجهه ويديه للوضوء عشرات المرّات. ورغم ذلك تبقىٰ في دخيلة نفسه بقايا شك، هل فعل أم لا؟ هل كان عمله صحيحاً أم لا؟.

لا شك أن هذه الوسوسة من إلقاء الشياطين، ليتعذب المؤمن من خلال عباداته، وفرائضه التي فرضها الله عزّ وجلّ، في الوقت الذي يسّرها الله له، فيتدخل الشيطان، ليجعل من العبادة عملاً صعباً عسيراً معقداً.

حضر رجل عند بعض الفقهاء فقال: إني كلما أنغمس في النهر، غمستين أو ثلاثاً، لا أتيقن أنه غمرني الماء، ولا أني قد طَهُرت. فكيف أصنع؟ فقال له الفقيه: لا تصلِّ!!

فقال السائل: كيف أترك الصَّلاة؟

قال: لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتىٰ يبلغ، وعن النائم حتى ينتبه، وعن المجنون حتى يفيق». ومن ينغمس في النهر مرة، ومرتين، وثلاثاً، ويظنّ أنه ما اغتسل فهو مجنون[1].

العلاج:

وربما سأل سائل: ما علاج هذه الوساوس، وكيف السبيل للتخلص منها، لئلا تعتري النفس، وتستحكم فيها؟

والجواب: هو الإستعانة بالله، واستمداد العزم منه سبحانه، فإنه تعالىٰ ربط بين هيمنة الشيطان على النفس، وبين الإعراض عنه سبحانه، وكذلك

---

(١) الأذكياء لابن الجوزي: ٦٩.

ربط بين الهدىٰ والبصيرة والثبات من جهة وبين ذكره تعالىٰ من جهة أخرىٰ . .

فالإعراض عن الله ، يفتح الطريق للشياطين لغزو النفوس، وإلقاء الخواطر السيئة فيها، والابتعاد عن ساحة الله عزّ وجلّ يلازمهُ الاقتراب من أوكار الشياطين، والتأثر بفعلهم .

قال تعالىٰ : **﴿ومن يَعشُ عن ذكر الرّحمٰن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين﴾**[1] .

إن النفس البشرية، ساحة مفتوحة لطروء مختلف الأفكار، الصالحة منها والسيئة، فإن مالت النفس إلى السوء كانت الأفكار سيئة، وإن مالت إلى الصلاح والخير كانت صالحة خيّرة فمن استعان بالله ، وتوكل عليه، واتقاه، أوصد أبواب النفس دون الشياطين .

﴿إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[2] .

ولا يمكن أن نغفل عن عامل مهم آخر، يدع أبواب النفس مفتوحة لاستقبال الوساوس والأفكار السيئة، ويتيح الفرصة لإلقاءات الشياطين، وهو (الفراغ) وبخاصة لدىٰ الشباب .

يقول شاعر :

إن الشباب والفراغ والجِدَة   مفسدةٌ للمرء أي مفسدة

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «**إن الله لَيُبغض الشباب الفارغ**» لأنه حين يتعطل عن العمل، يتسلل الشيطان إلى نفسه، ويعشعش فيها، ويفعل فعله بها، بخلاف من يكون منشغلاً بعمل معين، فالنفس تنشغل هي الأُخرىٰ مع الأعضاء والجوارح، وتوصد أبوابها دون تسرب الشكوك والوساوس إليها . .

ولا بد من التنويه، أن مجرد التفكير السيِّىء، أو التفكير بالسوء، وطروء

---

(١) سورة الزخرف ؛ الاية : ٣٥ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٢٠١ .

ذلك على الذهن، ومجرد الشك، لا يعتبر ذنباً في حدّ ذاته، ولا يعتبر خطأً يعاقَب عليه الإنسان، لأن ذلك باقٍ في حدود النية والفكر، والله عزّ وجلّ لا يحاسب على النوايا السيئة ما لم تُتَرجَم إلى أعمال خارجية، ومجرد الفكر لا يمكن منعه من الذهن، فذلك خارج عن نطاق إرادة الإنسان واختياره، فقد يحصل رغم عدم ميله ورغبته. . إنما يؤاخَذ الإنسان على أعماله وما تأتي به الجوارح. . يعاقب فيما لو حول الوساوس إلى حركات خارجية، فالذي يُقدم على عمل معين تسبقه النيّة والقصد أولاً، وربما سبقت الوساوس والشكوك السيئة. . فالعقاب لا يكون على ما راود الفكر والضمير، إنما يكون على ما بدر منه من فعل .

فامرأة العزيز ـ مثلاً ـ وسوست لها نفسها أن تراود يوسف عن نفسه، أولاً، ثم قامت بذلك فعلاً، وراودته عن نفسه (وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك) فهي قد تعاقَب وتُحاسب على فعلها لا على وسوسة نفسها، فلو لم تكن أقدمت بالفعل على مراودة يوسف عن نفسه، لم يكن عليها بأس، وكذلك الحال بالنسبة لسائر الناس، لا يؤاخذهم الله عزّ وجلّ على ما يدور في نفوسهم، ويختلج في صدورهم، إنما يؤاخذهم، حين تخرج النية السيئة من منطقة الفكر إلى ساحة العمل .

روي في الكافي، أنه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا رسول الله، هلكت! !

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : **«هل أتاك الخبيث، فقال لك: من خلقك؟ فقلت: الله تعالىٰ، فقال لك: اللَّهُ من خلقه؟»** .

فقال الرجل: إي والذي بعثك بالحق، كان كذا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«ذلك والله محض الإيمان»**[1] .

ومثله ما روي : إن رجلاً أتىٰ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال: يا رسول الله، نافقت! !

---

(١) معراج السعادة : ١/١٥٩ .

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «والله ما نافقت، ولو نافقت ما أتيتني تعلمني! ما الذي رابك؟ أظنّ أن العدو الحاضر (يعني الشيطان) أتاك فقال لك: من خلقك؟ فقلت: الله تعالىٰ خلقني، فقال لك: من خلق الله؟» .

فقال الرجل: إي والذي بعثك بالحق لكان كذا .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «إن الشيطان أتاكم من قِبَلِ الأعمال فلم يَقوَ عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم، فإذا كان كذلك فليذكر أحدُكم اللّهَ وحده»[1] .

إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، في الوقت الذي يخلص الرجل من عذاب الضمير، ويؤكد له أن لا بأس عليه من هذه الوساوس، يأمره أن لا يغفل عن ذكر الله تعالىٰ، في مثل هذه الحالات، فذكر الله يريح النفس، ويطمئن القلب، ويطرد عنه شرور الشيطان .

وروي أيضاً : إن رجلاً كتب إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام ، يشكو إليه (لَمَماً) يخطر على باله، فأجابه الإمام، وكان من بعض كلامه : «إن الله إن شاء ثبّتك فلا تجعل لإبليس عليك طريقاً، وقد شكىٰ قوم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لما يعرض لهم، لأن تهوي بهم الريح، أو يقطّعوا، أحبّ إليهم من أن يتكلموا به، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أتجدون ذلك؟ قالوا: نعم، قال: والذي نفسي بيده، إن ذلك لصريح الإيمان، فإذا وجدتموه فقولوا: آمنا بالله ورسوله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله»[2] .

وسُئل الصّادق عليه السلام ، عن الوسوسة، وإن كثرت؟

فقال عليه السلام : (لا شيء فيها، تقول لا إله إلاّ الله)[3] .

وعن جميل بن درّاج، قال: قلت للصّادق عليه السلام ، إنه يقع في قلبي أمر عظيم فقال: قل: لا إله إلاّ الله. قال جميل : فكلما وقع في قلبي قلت: لا إله إلاّ الله، فيذهب عني[4] .

ومما يدل على عدم المؤاخذة على ما تكنّه النفس من وساوس، طالما

---

(١) - (٤) معراج السعادة : ١/ ١٥٩ .

بقي ذلك مكنوناً، ما روي أنه لما نزل قوله تعالىٰ :

﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾[2] جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقالوا: كُلِّفنا ما لا نطيق! إن أحدنا ليحدّث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه، ثم يحاسب على ذلك!؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«لعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا»** فقالوا: سمعنا وأطعنا، فأنزل الله الفرج بعد سنةٍ، بقوله تعالىٰ :

﴿لا يكلِّفُ الله نفساً إلاَّ وسعها﴾[1] وفي تفسير القرطبي (المجلد الأخير) ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«إن الله عزّ وجلّ تجاوز عن أمّتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به»** .

وروي عن أمير المؤمنين عليه الصَّلاة والسَّلام، في قوله سبحانه :

﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ إن هذه الآية، عُرِضَت على الأنبياء والأمم السابقة، فأبوا أن يقبلوها من ثقلها، وقبلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعرضها على أمّتِهِ فقبلوها، فلما رأىٰ الله عزّ وجلّ منهم القبول، على أنهم لا يطيقونها، قال: أما إذا قُبِلت الآية على تشديدها، وعظم ما فيها، وقد عرضتها على الأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها، وقبلتها أمتك، فحقٌّ عليّ أن أرفعها عن أمّتك، وقال عزَّ من قائل :

﴿لا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها﴾[2] .

وورد في الحديث الشريف : **«رفع عن أُمتي تسع خصال: الخطأ، والنسيان، وما لا يعلمونه، وما لا يطيقونه، وما اضطروا إليه، وما استكرهوا عليه، والطيرة، والوسوسة في التفكير في الخلق، والحسد، ما لم يظهر بلسان أو يد»**[3] .

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٤ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٦ ، معراج السعادة : ١/١٦٠ .

(٣) معراج السعادة : ١/١٦٠ .

وروي أن الصادق عليه السلام ، سُئل عن الرجل يجيء منه الشيء على حد الغضب، يؤاخذه الله تعالىٰ؟

فقال عليه السلام : **(إن الله تعالىٰ أكرم من أن يستغلق على عبده)**[1] .

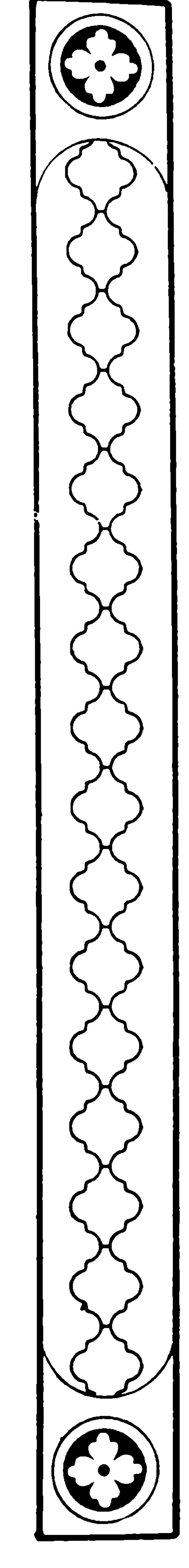
إذن لا مؤاخذ على مجرد ما يطرأ على النفس من وساوس وأفكار خاطئة، فالله عزّ وجلّ أجل وأكرم، من أن يعاقب على ما هو خارج عن سلطان المرء وإرادته . . .

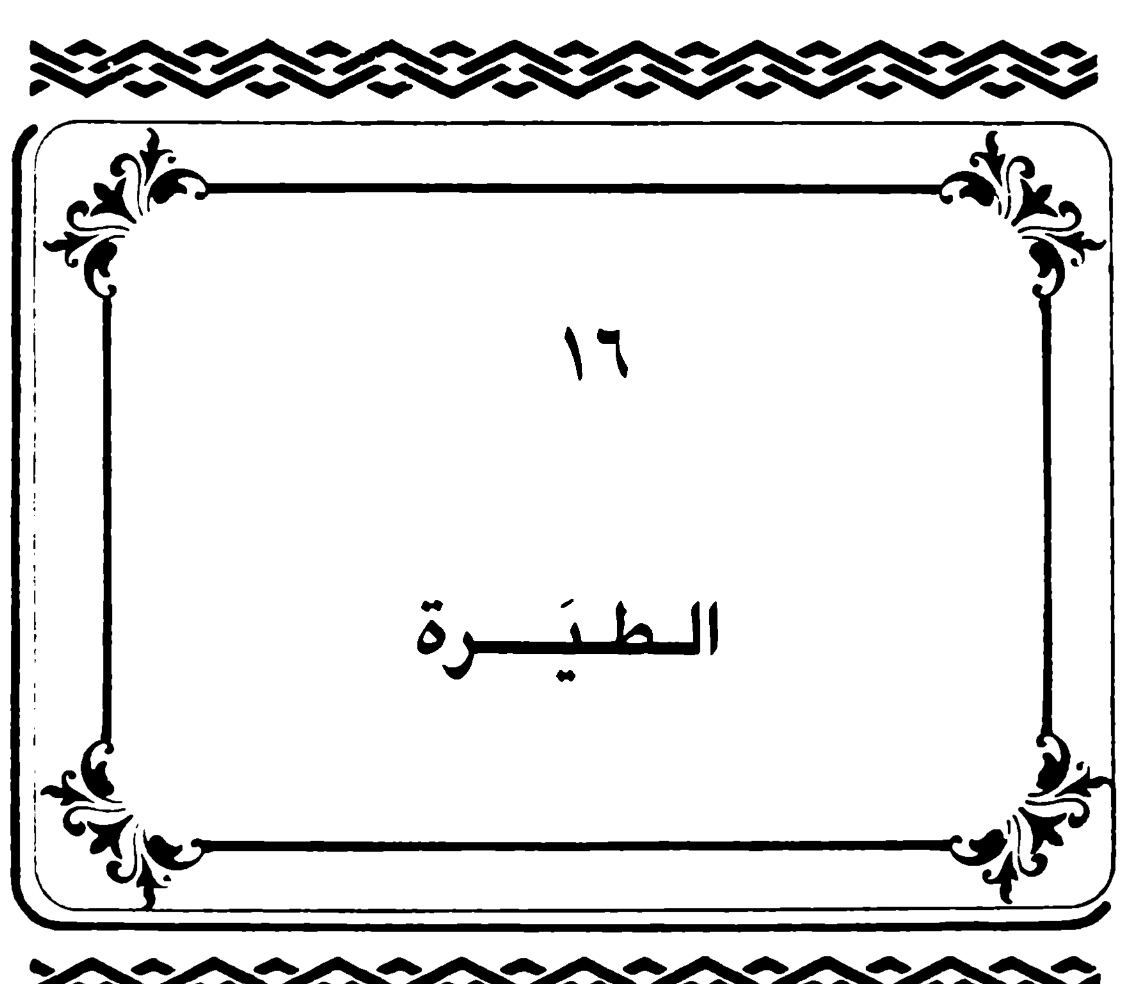
﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[2] .

---

(١) معراج السعادة : ١٦٠/١ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٦ .





١٦

الطيَرة

وما دمنا في حديث النفس ووساوسها، وما يلقي الشيطان في روع الإنسان من أفكار سيئة، وخواطر غير محمودة فالجدير بنا أن نذكر الطيرة أيضاً، لأنها من شعب الوسواس .

وربما عُبِّر عنها بالتشاؤم، وقد اشتُق اسم الطيرة من الطير، لسرعة لحوق البلاء ـ على اعتقاد المتشائمين ـ كما يسرع الطير في الطيران .

وهي بخلاف الفأل الذي يكون ـ عادة ـ فيما يُسرّ، بينما الطير ـ غالباً ـ فيما يسوء الخاطر وقد ورد في الحديث الشريف : «**الطيرة شرك**»[1] أي الاعتقاد أنها تضرّ وتنفع في شيء إذ ربما تشاءم أحدٌ من خير ! أو من صاحب خير! أو من حامل خير! . .

ربما اعتقد ما ينافي الدين . .

إن النفس مجبولة على طلب اللذّة، واجتناب الألم، كما يقول علماء النفس، مجبولة على جلب المنفعة، ودفع الضرر، وهو حق مشروع للآدمي، ولكن لا يحق له أن يعتبر المنفعة ضرراً، والضرر منفعة. . لا يحق له أن يتصور الألم لذة، واللذة ألماً، وهو الإشكال الذي يقع فيه كثير من الناس بسبب (الطيرة) والتشاؤم .

---

(١) حياة الحيوان للدميري : ١/٦٦٤ .

كانت الأقوام السالفة، يبعث الله فيهم الأنبياء، يدعونهم إلى الوحدانية والهدىٰ، فيرون في دعوتهم شؤماً عليهم، وعلى منافعهم، كانوا يستثقلون وجودهم بين ظهرانيهم.. ويفضلون التحرر من هذه الأوامر والنواهي السماوية!! في الوقت الذي كان الخير يتمثل بوجود الأنبياء ورسالاتهم كما يتمثل الشر والفساد في رفضهم ورفض مناهجهم.

يقول القرآن الكريم عن بني إسرائيل، في سياق ذكر ما ركبوه من سيئات الأعمال، وقبائح الأفعال: **﴿... وان تصبهم سيئة يَطيّروا بموسىٰ ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** [1].

تشاءموا بموسىٰ ﷺ، والمؤمنين الذين كانوا معه، وقالوا له: ما رأينا شراً ولا أصابنا بلاء حتىٰ رأيناك، فيجيبهم: ألا إنما طائرهم عند الله، أي أن الشؤم الذي يلحقهم، هو الذي وُعِدوا به من العقاب عند الله، يفعل بهم في الآخرة، لا ما ينالهم في الدنيا وإن الله تعالىٰ هو الذي يأتي بطائر البركة وطائر الشؤم، من الخير والشر، والنفع والضر، فلو عقلوا لطلبوا الخير والسلامة من الله سبحانه [2].

وكذلك قالت هودٌ قوم صالح ﷺ لنبيّها: **﴿قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك﴾** [3] أي تشاءمنا بك وبمن على دينك، وذلك أنهم قحط المطر عنهم وجاعوا، فقالوا: أصابنا هذا الشرّ من شؤمك وشؤم أصحابك، فأجابهم صالح بمثل جواب موسىٰ ﷺ لقومه: **﴿قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تُفتَنون﴾** [4] أي الشؤم أتاكم من عند الله بكفركم [5].

يذكَر في ترجمة المرحوم العلّامة المحدّث الشيخ عباس القمي، رضوان الله عليه، صاحب كتاب (مفاتيح الجنان) أنه استقلّ مرّة سيارة من مدينة قُم، متوجهاً إلى طهران وكانت الباصات العامة آنذاك، بدائية خشبية،

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٣١ .
(٢) مجمع البيان، المجلد الثاني : ٧١٩ .
(٣) - (٤)سورة النمل ؛ الآية : ٤٧ .
(٥) مجمع البيان، المجلد الثاني : ٤٧ .

والطرق غير معبَّدَة، مما كان يسبب العطل والخراب المتواصل فيها، علماً أن الشيخ التحق بالرفيق الأعلىٰ حوالي سنة ١٩٤٠ م ١٣٥٩ هجـ .

وفي كل مرة كانت تتعطل فيها السيارة، كـان قائـدها ومعـاونه، ينـزلان منها لإصلاحها وكان المسافرون ينـزلون أيضـاً للاستـراحة، وبـانتظار إصـلاح البـاص، وكان الشيـخ ينزل معهم، وينفـرد جانبـاً يشتغل بـالأدعية والأذكـار، وترديد الأوراد والصلوات ليسهّل اللَّهُ أمرهم، ويوصلهم بسلام .

ويبدو أن قائـد السيارة كـان قد تشـاءم من الشيخ وأوراده، وكَـرِهَ وجوده في سيارتهِ، مما حدا به، أنه حين أصلح العطل في سيارته في المرة الأخيرة، وركب المسافرون ليواصل السفر إلى طهران، دفع بالشيـخ من سلم السيارة، ومنعـه من الركـوب وضحك منـه المسافـرون، وتركـوه وحيداً في الصحـراء، وتحركت السيارة بسرعة، ووقـف الشيخ يتابعها بنظراته الحزينـة، وهي تقطع البيداء وتبتعد عنه، حتى غابت في عمق الصحراء .

وظل الشيخ بمفرده في تلك البريّة، متحيراً لا يعرف مصيره، وفَضَّلَ أن يشتغل بالصَّلاة والدعاء والإستعانة بالله عـزّ وجلّ . . وبعـد برهـة وجيزة وقفت عنده سيارة خـاصة جـديـدة، يستقلّهـا أحـد التجـار المعـروفين من أصـدقـاء المحـدث رحمه الله، وكـان الرجـل لَمَـح الشيـخَ في هـذا المكـان المقفـر، فـاستغرب تـواجده بمفـرده في الصحراء، وتـوقف ليسألـه عن سبب ذلـك. . فـأخبره الشيـخ بما كـان من أمر السـائق والمسافـرين الذين كـان برفقتهم في الباص وأنهم تشاءموا منه، وأنزلوه هنا . .

أبدىٰ الرجل أسفه، ورحب به، وأردفه معـه في سيارتـه وواصل سفـره إلى طهران . .

وقبيل الوصول إلى طهران بقليل، لفت انتباههما منظرٌ فجيع . . شاهـدا الباص الذي طُـرِدَ منه الشيـخ مصطدمـاً بقطار، وقـد هلك ركابـه جميعاً بمن فيهم السائق ومعاونه!! ﴿ألاَ إنَّ طائِرهم عند الله﴾ .

كان الناس قبل الإسلام، يتطيرون بالسوانح والبوارح، فينفـرون الظبـاء والطيور، فإذا أخذت ذات اليمين تبركوا به، ومضوا في أسفارهم وحوائجهم،

وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن ذلك[1] ظناً منهم أن ذلك ينفعهم، وإنما ذلك ناتج عن حالة التردّد التي تعتري النفس، فتعميها عن رؤية الواقع والحقيقة، وتصرفها عن المعقول إلى غير المعقول، وذلك من أمراض النفس . .

التطير نوع من الإيحاء النفسي الذي قد تترتب عليه آثار سيئة، وربما اضرت من يعتقد بها فعلاً، وسببت له الخوف والقلق والحيرة . .

وقد ورد في الشرع الحنيف استحباب أن يقول المرء عند رؤية ما يتطير به، أو سماعه : (اللّهُمَّ لا طيرَ إلاّ طيرك، ولا خيرَ إلاّ خيرك، ولا إله غيرك، اللّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلاّ أنت، ولا يُذهب السيئات إلاّ أنت، ولا حول ولا قوة إلاّ بك)[2] .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال : **«من رجعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»** قالوا: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«أن يقول أحدكم: لا طير إلاّ طيرك. . . ثم يمضي لحاجته»**[3]

وذكر القرطبي في تفسيره: إن العرب كانت تتيمّن بالسانح، وهو الذي يأتي من ناحية اليمين، وتتشاءم بالبارح وهو الذي يأتي من ناحية الشمال. . وكانوا يتطيرون بصوت الغراب، ويتأولونه (البين) وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً على أمور . . وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك . . .

ويطير الأعاجم إذا رأوا صبياً يُذهَبُ به إلى المعلم بالغداة، ويتيمنون برؤية صبي يرجع من عند المعلم إلى بيته. . ويتشاءمون برؤية السقّاء على ظهره قربة مملوءة مشدودة، ويتيمنون برؤية القربة فارغة مفتوحة. . ويتشاءمون بالحمّال المثقل بالحمل، والدابة الموقرة. . ويتيمنون بالحمال الذي وضع حمله . . وبالدابة يحطّ عنها ثقلها . .

---

(١) حياة الحيوان للدميري : ١/٦٦٤ .

(٢) –(٣) حياة الحيوان للدميري : ١/٦٦٤ .

فجاء الإسلام بالنهي عن التطير والتشاؤم بما يسمع من صوت طائر، ما كان، وعلى أي حال كان. . فقال ﷺ **«أقرّوا الطير على مكانتها (مكانتها) على بيضها»** [1] وذلك أن كثيراً من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتىٰ الطير في وكرها، فنفّرها فإن أخذت ذات اليمين مضىٰ لحاجته، وهذا هو السانح عندهم، وإن أخذت ذات الشمال رجع، وهذا هو البارح عندهم،فنهىٰ النبي ﷺ عن هذا بقوله السابق [2].

ربما لا يسلم الواحد منا، من هذه الهفوات النفسية، فإذا كان كذلك، ليس عليه إلاَّ أن يتوكل على الله، ويطلب الخير منه، ويرجو الله القدير أن يختار له ثم يحقق حاجته مستعيناً بالعزيز المهيمن . .

سُئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقيل له: لا يسلم أحدنا من الطيرة، والحسد، والظنّ، فماذا نصنع ؟

قال ﷺ : **«إذا تطيّرت فامضِ، وإذا حسدتَ فلا تبغِ، وإذا ظننتَ فلا تحقق»** [3] .

وفي كشكول البهائي: عن كتاب أنيس العقلاء: «لا شيء أضرّ بالرأي، ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة، فمن اعتقد أن خوار بقرة، أو نعيب غراب، يردّان قضاءً، ويدفعان مقدوراً فقد جهل .

واعلم أنه قلّما يخلو من الطيرة أحد، لا سيما من عارضته المقادير في إرادته وصدّه القضاء في طلبته، فهو يرجو واليأس عليه أغلب، ويأمل والخوف إليه أقرب وإذا عاقه القضاء، أو خانه الرجاء، جعل الطيرةَ عذر خيبته. . وغفل عن قدرة الله ومشيئته. . فهو إذا تطيّر من بعد، أحجم عن الإقدام، ويئس من الظفر، وظنّ أن القياس فيه مطرد، وأن العبرة فيه مستمرة. . ثم يصير ذلك له عادة، فلا ينجح له سعي، ولا يتم له قصد.

---

(١) هكذا في الحديث وأهل العربية يقولون : وُكُناتها .
(٢) تفسير القرطبي، المجلد الرابع : ٢٧٠١ .
(٣) حياة الحيوان للدميري : ٦٦٤/١ .

أما من ساعدته المقادير، ووافقه القضاء، فهو قليل الطيرة لإقدامه، ثقة بإقباله، وتعويلاً على سعادته، فلا يصده خوف، ولا يكفه خور، ولا يؤوب إلاّ ظافراً. . . لأن الغنم بالإقدام والخيبة مع الإحجام، فصارت الطيرة من سمات الإدبار، واطّراحها من أمارات الإقبال، فينبغي لمن مني بها وبلي، أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى، ودواعي الخيبة، وذرائع الحرمان، ولا يجعل للشيطان سلطاناً على نقض عزائمه، ومعارضة خالقه، ويعلم أن قضاء الله تعالىٰ غالب، وأن رزق العبد له طالب، فليمض في عزائمه، واثقاً بالله إن أعطيَ، وراضياً به إن مُنِعَ وليقل إن عارضته في الطيرة ريب، أو خامره فيها وَهم، ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من تطير فليقل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالخيرات إلاَّ أنت، ولا يدفع السيئات إلاَّ أنت، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله)»[1].

وقد ورد في الحديث الشريف «**لا طيرة، وخيرها الفأل**» قيل يا رسول الله: ما الفأل؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**الكلمة الصالحة، يسمعها أحدكم**» وفي رواية قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**يعجبني الفأل، وأحب الفأل الصالح**»[2].

«وكان صلى الله عليه وآله وسلم، يعجبه أن يسمع (يا راشد، يا نجيح) وإنما كان يعجبه الفأل لأنه تنشرح به النفس، وتستبشر بقضاء الحاجة، وبلوغ الأمل، فيحسن الظن بالله وقد قال تعالىٰ «**أنا عند ظن عبدي بي**» وكان عليه الصَّلاة والسَّلام، يكره الطيرة، لأنها من أعمال أهل الشرك، ولأنها تجلب ظن السوء بالله عزّ وجلّ».

«قال الخطابي: الفرق بين الفأل والطيرة: إن الفأل إنما هو من طريق حسن الظن بالله والطيرة إنما هي من طريق الاتكّال على شيء سواه. وقال الأصمعي: سألت ابن عون عن الفأل، فقال: هو أن يكون مريضاً فيسمع يا سالم، أو يكون باغياً[3] فيسمع يا واجد»[4].

---

(١) كشكول البهائي: ٥٤١/٣.

(٢) حياة الحيوان: ١٥٨/٢.

(٣) الباغي: الذي يطلب الشيء الضال.

(٤) تفسير القرطبي، المجلد الثالث: ٢٠٥٦.

إن المرء يدرك أن الشارع الكريم يريد من النـاس، أن يكونـوا متفائلين في حياتهم وينبذوا التشاؤم، والنظرة السوداء، ويبتسموا للحياة . .

إنك لو تشاءمت مرّة، لتشاءمت مرتين، وثلاث، أو وستعتاد نفسك التطيّر من هـذا الشيء وذاك، وسيستمر ذلـك حتى يأتي اليـوم الذي لا تـرىٰ فيه من الحيـاة إلاَّ الصُور القاتمـة، فتعيش حينئـذ في دوامـة من التـردّد والشكـوك والظنون السيئة بسبب ما عـوّدت نفسك عليـه من التشاؤم من كـل شيء، ومن كل أحد .

طيرة ابن الـرومي :

قال عليٌّ بن إبراهيم: كنتُ بِدَارِي جالساً؛ فإذا حجارةٌ سقطَتْ بـالقربِ مني، فبـادرْتُ هاربـاً؛ وأمرتُ الغـلامَ بالصعـود إلى السَّطْح، والنـظرِ إلى كلِّ نـاحيـة، من أين تـأتينـا الحجـارة؟ فـرجـع إليَّ وقـال لي: امـرأة من دار ابن الرومي [1] الشاعر! قد تشوفَتْ[2]، وقالت: اتقوا الله فينا، واسقُونا جـرّة من ماء! وإلاَّ هلكنا، فقد مات مَنْ عندنا عطَشاً! .

فتقدمتُ إلى امرأةٍ عندنا ذاتِ عقلٍ ومعرفة: أن تصعدَ إليها وتخاطبَهـا، ففعلتْ وبـادرتْ بالجـرَّة، وأتبعتْها شيئـاً من الـطعـام، ثم عـادتْ إليَّ فقالت: ذكرتِ المرأةُ أن البابَ عليها مُقْفَـلٌ منذ ثـلاثة أيـام بسبب تطيـر ابنِ الرومي؛ وذلك أنه يلبس ثيـابَه كـلَّ يوم ويتعـوَّذُ؛ ثم يصير إلى البـاب، والمِفتاح معـه؛ فيضعُ عينَه على ثَقْبٍ في خشبِ الباب، فتقعُ على جـارٍ له كـان نازلاً بـإزائه؛ وكان أحدَب يقعدُ كل يوم على بابه؛ فإذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابَـه، وقال: لا يفتح أحدٌ الباب!

فعجبتُ لحديثها، وبعثتُ بخـادمٍ لي كان يعـرِفُه، فـأمرتـه أن يجلسَ بإزائه ـ وكـانت العينُ تميل إليـه ـ وتقدّمتُ إلى بعض أعـواني أن يدعـوَ الجارَ الأحدب. فلما حضر عندي أرسلتُ وراءَ غـلامي، لينهضَ إلى ابن الرومي ،

---

(١) هو أبو الحسن علي بن العباس الرومي، الشاعر، وُلد ببغداد وعاش فيها متأثراً بالآداب المعاصرة بالثقافة العربية، ومات سنة ٢٨٣ هجـ .

(٢) تشوفت : تطاولت ونظرت .

ويستدعيه، فإني لجالسٌ، ومعي الأحدب؛ إذ وافى أبو حُـذَيفة الـطَّرَسُوسِي؛ ومعه بِرْذَعَة المَوَسوس، صاحبُ المعتضد؛ ودخل ابنُ الـرومي؛ فلما تخـطّى عتبةَ باب الصَّحْن عَثَرَ؛ فانقطع شِسْعُ[1] نَعْله، فدخل مذعوراً! وكان إذا فاجأهُ الناظرُ رأى منه منظراً يدل على تغيّر حاله .

فـدخل، وهـو لا يرى جـارَه المتطيّـر منه؛ فقلت لـه: يـا أبـا الحسن، أيكـون شيء في خروجـك أحسن من مخاطبتـك للخادم، ونـظرك إلى وجهـه الجميل؟ فقال: قد لحقني ما رأيتَ من العَثْرَة، لأني فكرتُ أنَّ به عاهةً! وهي قَطْع أنْثَيْه[2]! قال بِرْذَعَة: وشيخُنا يتطيّر؟ قلت: نعم ويُفْرِط! قال: ومَنْ هـو؟ قلت: عليّ بن العباس[3]. قال: الشاعر؟ قلت: نعم! فأقبل عليه وأنشده:

ولمـا رأيتُ الـدهـرَ يُؤْذِنُ صَـرْفُـه ... بتَفْـرِيقِ مـا بيني وبين الحبَـائـبِ[4]
رجعتُ إلـى نفسي فـوطَّـنْتُـهـا على ... ركـوبِ جميلِ الصبرِ عنـد النَّـوَائِبِ!
وَمَنْ صَحِبَ الـدُّنيا علي جَـوْرِ حُكْمِها ... فـأيّـامُـه محفـوفـةٌ بـالمصـائبِ
فَخُـذْ خُلْسـةً مِنْ كـلِّ يـومٍ تَعِيشُـه ... وكُنْ حَـذِراً من كـمِنَـاتِ الـعَـوَاقِبِ
وَدَعْ عَنْـكَ ذِكْرَ الفـأل والزَّجْرِ واطَّـرِح ... تَـطَيُّـرَ جـارٍ أو تـفـاؤلَ صـاحبِ!

فَبَقِيَ ابْنُ الرومي باهتـاً ينظر إليـه! ولم أدْرِ أنه قـد شَغَلَ قلبـه بحفظ ما أنشده، ثم نهض أبو حذيفة وَبِرْذَعَة معه .

فحلف ابنُ الرومي لا يتطيَّرُ أبداً مِنْ هذا ولا مِنْ غيره، وعجب من جودة الشعر ومعناه؛ وحُسْن مَـأتاه، فقلت لـه: لَيْتَنا كَتَبْنـاه! قال: أكتُبْـهُ فقد حفِـظتُه وأملاَهُ عليّ[5]! .

ويُقال أيضاً: إن بعض ملوك الفرس خرج يوماً يتصيّد، فرأى في طـريقه

---

(١) الشسع: أحد سيور النعل، وهو الذي يـدخل بين الإصبعين ويـدخل طـرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام.
(٢) يعني أنه مجبوب .
(٣) هو اسم ابن الرومي .
(٤) الحبائب: مفرده حبيبة .
(٥) قصص العرب: ١١٦/١ .

أعوراً فتشاءم منه، فأمر بضربه وحبسه، وذهب لصيده وكان يوماً موفقاً، صادَ فيه صيداً كثيراً فلما عاد أمر بإطلاق الأعور المسكين، فقال: أيأذن لي الملك في الكلام؟ قال: تكلم، قال: لقيتني فضربتني وحبستني.. ولقيتك فاصطدت، ورجعت سالماً.. فأينا أشأم على صاحبه؟

فضحك الملك وأمر له بجائزة(1).

روي عن عائشة، أنها قيل لها: إن أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الشؤم في ثلاث: المرأة والدار والفرس!.

فقالت: لم يحفظ أبو هريرة، لأنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يقول: **«قاتل الله اليهود، يقولون: الشؤم في ثلاث: المرأة والدار والفرس»**. فسمع آخر الحديث، ولم يسمع أوّله(2)!!.

هكذا.. يمكن أن يصل التشاؤم بالإنسان مرحلة، يتشاءم فيها حتىٰ من زوجته وأهله، ومن داره التي يسكنها، والوسيلة التي يستقلها.. بل قد تصل به الحال إلى التشاؤم حتىٰ من الدين وأهله، ومن القرآن وآياته، ويركب الشيطان ظهره ولا يدعه حتىٰ الهلاك..

حكىٰ الماوردي في كتاب (أدب الدين والدنيا) وغيره أيضاً: إن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، تفأل يوماً في المصحف الشريف، فخرج قوله تعالىٰ:

﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾(3) فتطيّر من هذه الآية، وثارت ثائرة نفسه الخبيثة، مما دعاه إلى تمزيق القرآن الكريم، برمح كان عنده، وأنشأ يقول:

أتوعد كلَّ جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

---

(1) كشكول البهائي: ٣/٦٨١.
(2) حياة الحيوان للدميري: ١/٦٦٤.
(3) سورة إبراهيم؛ الآية: ١٥.

فلم يلبث إلاَّ أياماً قليلة حتىٰ هلك، ولقي جزاء عمله هذا، وسائر أعماله القبيحة التي سجلها له التاريخ. . فقُتل شرَّ قِتلة، ورُفع رأسه على قصره، ثم على أعلىٰ سور في البلد!! .

هذه الطيرة، وهذه عواقبها وآثرها السيئة، وخير للمؤمن أن يجنب نفسه هذه المشاكل، ويتعوذ بالله منها، ويمنع تسرب مثل هذه الأوهام إلى نفسه، بالاعتماد على الله عزّ وجلّ، ومواصلة ذكره، والإستعانة به عزّ شأنه . .

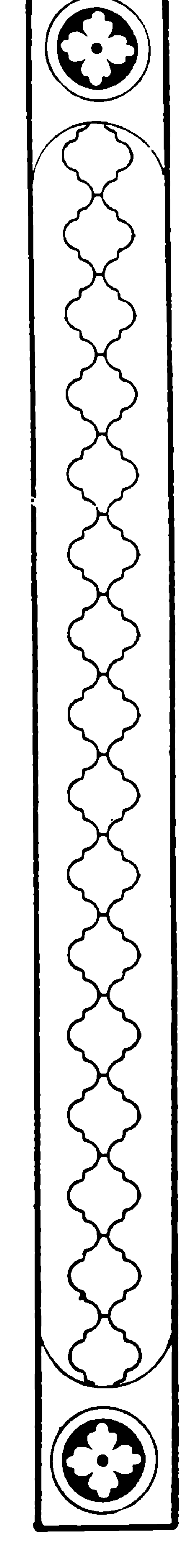
وقد كان ـ حتىٰ في العرب قبل الإسلام ـ من لا يتطير ولا يتشاءم من شيء ويعتقد أن الخير والشر كله بيد الله . . ولا يرىٰ التطير شيئاً . . وكانوا يمدحون من يكذب به، قال المُرَقش :

ولقد غدوتُ وكنت لا أغدوا على واقٍ وحاتم [1]
فإذا الأشائم كالأيامن والأيامن كالأشائم

قال عكرمة : كنت عند ابن عباس، فمرَّ طائر يصيح ، فقال رجل من القوم: خير، خير، فقال ابن عباس : ما عند هذا لا خير ولا شر[2] .

أي : الخير والشر، والحياة والموت، وكل شيء، وكل أمر، بيد الله تعالىٰ، ولا يصح أن يعول المرء على صياح طائر، ونباح كلب، وخوار بقرة وما شاكل . . .

(١) (٢) الواق :الصرد وهو طائر ابقع ضخم الرأس يكون في الشجر نصفه أبيض ونصفه أسود. وحاتم : الغراب الأسود، راجع تفسير القرطبي : ٤/٢٧٠١ .





١٧

النفاق وسوء الدخيلة

إن الله عزّ وجلّ خلق الإنسان بفطرة سليمة، ودخيلة نزيهة طاهرة، لا غلَّ فيها ولا التواء، ولا تلوُّن.

يقول تعالىٰ : ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾[1] .

ويقول عزّ من قائل : ﴿**فطرةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها . .** ﴾[2] .

فالنفس زكية نقية في ابتداء أمرها، كالمرآة الصافية أول أمرها، وكالماء الذي ينبع من الأرض، يخرج عذباً نقياً خالياً من كل شائبةٍ ودرن .

كذلك النفس البشرية، فطرها الله عزّ وجلّ، مصونة عن كل ما يشينها ويفسدها .

ولكنه الإنسان . . يأبىٰ أن تبقىٰ نفسه سليمة بريئة . . فيلوثها بمرور الزمن، بما ينافي طهارتها وبراءتها، ويملأها سوءاً ومرضاً، ويشحنها خطيئةً وقبحاً . . فيقال عنها ـ حينئذ ـ إنها مريضة .

وأمراضها مختلفة وكثيرة، ونحن ـ هنا ـ بصد النفاق وسوء الدخيلة، وهما من أخطر الأمراض النفسية .

فالنفاق ظاهرة مَرَضِيَّةٌ في النفس، تتوافر في الشخص ـ غالباً ـ في

---

(١) سورة التين ؛ الآية : ٤ .

(٢) سورة الروم ؛ الآية : ٣٠ .

المراحل الراشدة من العمر، ونادراً ما تتواجد في النفس في مراحل (الطفولة المبكرة أو الطفولة المتأخرة) أو حتىٰ في مرحلة (المراهقة) .

وهذا بعينه دليل قوي على أن هذه السمة النفسية، تنتقل إلىٰ الشخص عن طريق البيئة والمحيط، وربما بتأثير التربية السيئة، وليست فطريةً في ذوات بني البشر (كالحسد والغضب) .

والنفاق ـ عادة ـ يقود إلى أنواع أُخرىٰ من السلوك السيِّء والخصال الهوجاء وقد عرض سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه السلام ، هذه الأخلاق السيئة، في وصف دقيق للنفاق، ضمّنه عشرين نمطاً من السلوك السيِّء، تقوم بأكملها على أُسس نفسية مريضة، يتقدمها جميعاً، ويرأسها النفاق .

قال عليه السلام :

« . . النفاق على أربع دعائم، على الهوىٰ، والهوينا، والحفيظة، والطمع .

فالهوىٰ على أربع شعب، علىٰ: البغي، والعدوان، والشهوة، والطغيان .

والهوينا على أربع شعب، علىٰ : الغيرة، والأمل، والهيبة، والمماطلة .

والحفيظة على أربع شعب، علىٰ : الكبر، والفخر، والحمية، والعصبية .

والطمع على أربع شعب، علىٰ : الفرح، والمرح، واللجاجة، والمكاثرة»[1] .

والمنافق، أو سيِّء الدخيلة، يكون في ظاهره، حسناً، لطيفاً، خيّراً، صالحاً، محباً للآخرين، ولكنه في الحقيقةِ وواقع حاله، خلاف ذلك، يتظاهر بالسلوك الحسن بين الناس ولكنه إذا خلا بنفسه، رفع القناع عن وجهه، وظهر على حقيقته .

---

(١) كتاب : دراسات في علم النفس الإسلامي ص : ١٦٢ نقلاً عن (تحف العقول) ص : ١١٢ .

إن الإسلام يطلق اسم (المرض) على النفاق، حين يرصد القرآن الكريم بعض سمات المنافقين في قوله تعالىٰ : **﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةٌ ولهم عذاب عظيم * ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * ﴾**[1] .

أجل. . إنه مرض، ولكنه ليس في الجسم، بل في النفس، إنه شذوذ نفسي، لأنه موقف فكري مناهض لرسالة السماء. . إن هذه الحالة سمة نفسية ناجمة عن أصول مرضية، لا بد من معالجتها واستصلاحها .

والنفاق في مفهوم اتباع النهج السماوي، يختلف كثيراً عنه في مفهوم اتباع النهج الأرضي. . ولكنه في كل صُوَرِهِ رذيلة منفرة، ويمثل عجزاً عن المواجهة. . وضعفاً في الخلق .

صورة النفاق لدىٰ الدينيين، عبارة عن : رفض الاعتقاد بوجود الله وتعاليمه، إلاّ أنه رفض باطني غير صريح ـ فلو كان صريحاً لكان كفراً ـ تملي المصلحة الذاتية على صاحبه أن يُظهر خلافه، وهو ـ كما ترىٰ ـ يمثّل أسلوباً مَرَضيّاً في التعامل مع قيم السماء .

يصفهم محمد قطب، في كتابه (في النفس والمجتمع) بقوله :

«قوم لا يؤمنون بالفضيلة، لأنهم يعجزون عن تكاليفها، أو لأن طباعهم الهابطة لا تأتلف معها، ولكنهم في ذات الوقت، ضعاف الشخصية، لا يقدرون علىٰ المواجهة، فيتظاهرون بالفضيلة، ليرضوا المجتمع، بينما يمارسون رذائلهم في الخفاء» .

ولكن أتباع الفلسفة الأرضية، يرون في الالتزام بالفضيلة، في حد ذاته، نفاقاً، وليس على الشخص ـ لو أراد الخروج من حالة النفاق ـ إلاّ أن يتحرر من الفضيلة كلها، ويعلن نفسه صراحة أنه شهواني، وأن لا يغالب

---

(١) سورة البقرة؛ الآيات (٧ ـ ١٠).

النفس، بل يدعها على هواها، لتصنع ما تشاء. يقولون: إن الإنسان ليس فاضلاً بطبيعته، وإن المثل الأخلاقية، هي في الواقع مُثُل نظرية، لا يمكن تطبيقها في الخارج.. إذن لا ضرورة للنفاق، ولنكن صرحاء، ولنتكاشف برذائلنا.

«يقول (فرويد): إن الفضيلة كلها كذب وخداع، وإن الإنسان في حقيقته ما هو إلاَّ طاقة جنسية غالبة قاهرة، مندفعة كالحيوان، وإن إقامة الحواجز في طريقها، من خلق أو دين، أو عرف أو تقاليد، لا ينظفها ولا يهذبها، وإنما هي ـ فقط ـ تكبتها، أي تمنعها من الظهور إلى السطح، ولكنها باقية على حالها في اللاشعور، تحركُ الإنسانَ دون أن يدري أو يحس، فضلاً عن العقد النفسية، والاضطرابات العصبية التي تصاحب هذا الكبت، ولا تترك الإنسان في راحة»[1].

إن فرويد ـ في الحقيقة ـ ينظر إلى مجتمعه، ويتحدث من منطلق الواقع الذي كان يعيش فيه هو، قد يكون على حق فيما أطلق من مقولات، ولكن ينطبق ذلك كله على المجتمعات المادية التي بعدت كل البعد عن القيم والأخلاق، وذابت ذوباناً كاملاً في الماديات، أما في المجتمع الإسلامي المهذب فللقيم مكانتها وآثارها وللأخلاق دورها وتأثيراتها... وأسكت أنا الآن عن خزعبلات فرويد، لأن الكثير من علمائنا وفلاسفتنا ردوا عليه وأجابوه أجوبة شافية كافية، لا يقتضي المقام تكرارها.

ولكن هذه الدعوة الفرويديّة فعلت فعلها الخبيث المقصود في (أوروبا) والبلاد الغربية.

«وانفلتت أوروبا من تزمت المسيحية إلى إباحية فرويد.. انفلتت كالحيوان الهارب من القفص يأكل كل شيء في طريقه، ويحطم كل شيء في طريقه. ليشعر أنه طليق.

وفي ظل هذه «الهيجة» المنطلقة بلا تعقل ظهرت آراء و«فلسفات»

---

(١) (في النفس والمجتمع) لمحمد قطب.

ومعتقدات جديدة، تسير في نفس الخط الذي رسمه فرويد، تقول إن ما يسمى بالفضيلة ليس إلّا وهماً أو خرافة نادت بها الأديان، واتبعها الناس تحت سلطان الدين والخرافة. اتبعوها نفاقاً فقط، ولكنهم لم يؤمنوا بها قط ولم ينفذوها قط، فينبغي إذن أن «نتحرر» من هذه الخرافة، وأن نتبع «النور» الذي أتى به علم النفس، فنعرف نفوسنا على حقيقتها، ونتكاشف بها على طبيعتها، لا يمنعنا من ذلك حرج زائف ولا تزمت كاذب، ولنقل لأنفسنا صراحة إننا شهوانيون، وإن الشهوة هي حقيقتنا العميقة المتأصلة.. ثم لنكن شهوانيين على المكشوف بدل الخداع والنفاق واللف والالتواء...»[1] .

«وتمادى هؤلاء إلى حد المغالطة المكشوفة والاستدلال الباطل الذي لا يخضع لمنطق ولا يثبت لبرهان» .

«قالوا إن الإنسان حين يكون وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجأتهم له، يتخلى عن فضائله المزعومة، ويتصرف على طبيعته. فهو لا يتحرج أن يأتي بأي عمل من الأعمال التي تنافي مفهوم الفضيلة عند ذلك الشخص ذاته. ولكنه في اللحظة التي يحس فيها وجود أحد يسرع فيداري طبيعته.. يلبس ويتحشم ويتأدب ويتخذ سلوكاً جديداً كله مفتعل.. من أجل الآخرين!» .

«وقالوا إن التزمت والتستر وإقامة سدود سميكة من الدين والأخلاق والتقاليد لم يمنع من وجود إباحيين متحللين إلى أقذر حد يختفون داخل مسوح الفضيلة ويصنعون كل شيء في السر، ولم يمنع من وجود نساء متهتكات إلى أقصى حدود الفجور وهن داخل الأسوار ووراء الحجاب» .

«وكلتا القولتين حق يراد به باطل» .

«فصحيح ولا شك أن الإنسان وهو وحده يتخفف من كثير من القيود التي يلتزمها وهو موجود مع الناس. ولكن لماذا نسمي ذلك نفاقاً، ولماذا نقول إنه شيء مفتعل، ليس في طبيعة الإنسان؟» .

«فلنأخذ مثالاً من الواقع، لا نتحرج من ذكره، لأنه واضح الدلالة على

---

(١) (في النفس والمجتمع) لمحمد قطب.

زيف هذا الإستدلال» .

«إن كل حي يخرج فضلاته عن طريق التبرز. والتبرز عملية قذرة في حد ذاتها لأنها تتصل بالأقذار التي يلفظها الجسم إبقاء على الحياة. ولكن الأمر الواقع الذي يلمسه كل إنسان بالتجربة أنه لا يتأفف من قذارة نفسه، ولا يشعر بالنفور من عملية التبرز التي يأتيها كل يوم. بل الأمر على العكس، فإنه من عجائب الخلقة ومعجزاتها الطريفة أن كل العمليات البيولوجية مصحوبة باللذة، تشجيعاً للكائن الحي على القيام بها؛ حفظاً لذاته أو حفظاً لنوعه؛ ولولا هذه اللذة لتكاسل الكائن الحي عن أدائها، وربما أُصيب بالضرر أو قضي عليه بالفناء» .

«فالذي يحدث إذن أن كل مخلوق يحس بلذة في إخراج فضلات نفسه، بينما يحس بالتقزز والنفور من رؤية فضلات غيره، لأنه يرى قذارة ولا لذة!» .

«أفإن قام كل إنسان بإخراج فضلاته بعيداً عن أعين الناس ليمنع ما يحسون به من النفور والتقزز، أيقال عنه إنه منافق؟ ويُقال إنه يصنع من أجل الناس ما لا يصنع من أجل نفسه؟ وإنه لو كان وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجأتهم له لما قام بهذا الإجراء؟»[1] .

أي منطق هذا ؟

نعم إنه يصنع ذلك من أجل الناس. ولكن لماذا حدث ذلك؟ أليس لأن الناس قد وجدوا أنهم لو صنعوا أمام بعضهم بعضاً ما يصنعونه في خلوتهم فستكون النتيجة أن يتقزز الناس جميعاً وينفروا جميعاً؟ أليسوا قد اتفقوا حينئذ أو تواضعوا على أن يداروا سوآتهم عن الآخرين ليمنع كل إنسان عن نفسه هو في النهاية ما يثير تقززه واشمئزازه؟ أليست المصلحة المشتركة إذن هي التي منعت كل إنسان أن يعمل في صحبة الناس ما يعمله في خلوته. المصلحة التي هي في النهاية مصلحة كل فرد بمفرده؟.

أفيقال إن هذا نفاق؟!.

---

(١) (في النفس والمجتمع) لمحمد قطب .

إن النفـاق في مفهوم الإسـلام، بـل في مفهـوم الـديـانـات والمبـادىء السماوية جميعاً، معناه التلون، والظهور (المقصود) بمظهـر الخير، والإخفـاء (المقصود) للشر.

وليس عسيراً أن يتعرف المرء على هذا المفهوم، من خلال المواجهات اليومية المتكررة لأمثال هؤلاء الناس، وهم كثير !

يقـول الشاعــر :

ويـريك من طـرف اللسـان حـلاوة ويـروغ عنـك كمـا يـروغ الثعلب

ذكر الزمخشري في الجزء الأول من كتابه (ربيـع الأبرار) قضيـة طريفـة تاريخية، تناسـب مـا نـحن بصدده من الحديث عن النفاق الاجتماعي .

قال : وفد بـلال بن أبي بردة بن أبـي موسـى الأشعري، على عمـر بن عبـد العزيـز، ببلدة يُقال لهـا خناصـرة، ودخل مسجـدها، والتـزم ساريـة من سـواري المسجـد، يُصلي عنـدهـا، ويكثـر من القيـام والقعـود والـركـوع والسجود .

فقال عمر بن عبد العزيـز للعلاء بن المغيرة: إن يكن سرُّ هـذا الرجـل كعلانيته، فهو رجل أهل العراقين غير مدافع!! .

فقال العلاء : أنا آتيك بخبره .

ثم أتىٰ بلالاً وقال له مختبراً : قد عَرَفت مكاني من أمير المؤمنين، فإن أشرتُ بك على ولاية العراق، ما تجعل لي؟

قال: أجعل لك عمالتي سنة كاملة، وهي عشرون ألف ألف!

قال العلاء : فاكتب لي بذلك .

فكتب له، ثم عرض العـلاء كتابـه على عمر بن عبـد العزيـز، فلما رآه عمر، كتب إلى والي الكوفة : «أما بعد فإن بلالاً غرّنا بالله، فكـدنا نغتـرّ، ثم سبكناه فوجدناه خبثاً كله. . فلا تستعن على شيء من عملك بأحد من آل أبي موسىٰ»! .

وكتب إلى عدي بن أرطأة ـ وكان قد ولّاه على البصرة سنة ٩٩ هجرية ثم اكتشف زيغه وسوء دخيلته ـ كتب له : (غرتني منك مجالستك القُراء، وعمامتك (. . .) فلما بلوناك، وجدناك على خلاف ما أمّلناك. . قاتلكم الله، أما تمشون بين القبور) .

إن خطورة النفاق تكمن أكثر في أن بعضهم يتستر بالدين، ويلبس مسوح المؤمنين وهو في الحقيقة ذئب كاسر .

قال عبد الملك بن مبارك :

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجرهِ	وقد فتحت لك الحانوتَ بالدين
بين الأساطين حانوتٌ بلا غَلقٍ	تبتاع بالدين أموال المساكين
صيرت دينك (شاهيناً) تصيد به	وليس يفلح أصحاب الشياهين

وقد تضمّن القرآن الكريم نماذج من هؤلاء، فذكرهم بسلوكياتهم، وسماتهم، ولم يذكرهم بالأسماء، ليتعرف عليهم المؤمنون، من خلال الصفات والسمات التي ربما تتكرر على مدىٰ الأعصار والدهور، في أشخاص آخرين. . وآخرين. . فيكون المؤمنون منهم على حذر .

فمنهم : (الأخنس بن شريق) المنافق، الذي كان يظهر الإخلاص والتودد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والرغبة في دينه، ولكنه في حقيقة حاله، كان يبطن خلاف ذلك .

قال عنه تعالىٰ :

﴿ومن الناسِ من يُعجِبُك قولُهُ في الحياة الدنيا ويُشهِدُ اللّهَ على ما في قلبِهِ وهو أَلَدُّ الخصام، وإذا تولّىٰ سعىٰ في الأرضِ ليفسِدَ فيها ويُهلِكَ الحرث والنسل واللّه لا يحبُّ الفساد﴾[1] .

تتحدث الآيات عن الرجل الفاسد، الضال، المنافق، الذي يحاول خداع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكلماته العذبة المعسولة، وأسلوبه الشيق، والابتسامة

---

(١) سورة البقرة ؛ الآيتان : ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

العريضة التي ترتسم على وجهه حال تحدثه، مما يجعلك ترتاح إليه، وتحبه . .

ولكن كيف لنا أن نتعرف على ضمائر هؤلاء، وحقائقهم، كيف لنا أن نعرف ما في قلوبِهم، وأمثال هؤلاء كثيرون، يصوِّبون سهامهم نحو الأبرياء من الناس والبسطاء، وقد لا ينتبه الناس إلى حقائقهم، بسبب الأقنعة الزائفة التي على وجوههم، وظهورهم أمام الناس بمظهر المؤمن المقدس المتدين، الذي لا يريد إلاّ وجه الله . .

ولكن الله تعالىٰ، لهم بالمرصاد، ولا بد وأن يكشف حالهم وزيفهم في يوم ما . كما فعل مع المنافقين الذين كانوا يعاصرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ولنبدأ قصة (الأخنس) من بدايتها، ومن أول لقاء بينه وبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد كان اسمه الأصلي (أُبَيّ بن شريق) سمي بالأخنس، لأنه خرج يوم بدر ببني زهرة ـ وكان حليفهم ـ لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما وصلت الأخبار بعودة أبي سفيان وإبِلِهِ وأمواله سالمة إلى مكة، عاد الأخنس ببني زهرة، ولم يقاتل، فلقيه بعض المشركين يلومه على رجوعه، ويقول : خَنَسَ الأخنس، متهماً إياه بالجبن والخوف من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه[1] . .

وقد كانت للأخنس، مواقف تدل على نفاقه، وشدة خصومته للإسلام والمسلمين جميعاً، بينما تظهر على وجهه بشاشة توحي لهم بأنه مسلم، فقد كان صديقاً لأبي سفيان قبل إسلامه، فكان يجتمع ليلاً معه ومع أبي جهل، وقد كانوا جميعاً كفاراً يتسامرون في شؤونهم، وذات ليلة اجتمع الثلاثة، وراحوا يسمعون القرآن سراً . . ثم التفت الأخنس إلى أبي سفيان قائلاً :

ـ ما تقول في هذا يا أبا سفيان ؟ .

قال أبو سفيان : أعرف أنه حق وأُنكر ذلك!! .

ثم بادره أبو سفيان قائلاً : وأنت ما تقول فيما سمعت؟

---

(١) أسد الغابة : ١/٤٧ .

قال الأخنس : أراه حقاً[1] .

وذهب الأخنس بن شريق إلى رسول الله ﷺ ، وأعلن إسلامه، ويعلم الله ما كان يضمر في نفسه من السوء والأذى للرسول وللمسلمين، ولكن يبدو أن مصلحته الشخصية، اقتضت منه التظاهر بالإسلام والإيمان، ليكون أبلغ في إيذائه للمسلمين . . .

قال للرسول ﷺ : الله يعلم يا رسول الله، أني صادق، وجلس يسامر الرسول ﷺ بحديث حلو جميل، أدهش النبي من حلاوته، فأعجب به عليه الصَّلاة والسَّلام، وهو يقول: (جئت أُريد الإسلام، والله يعلم أني صادق)[2] وذلك قوله الذي أشهد الله فيه على ما في قلبه﴿**وَيُشهِدُ اللَّهَ على ما في قلبه وهو أَلَدُّ الخصام**﴾.

هكذا. . جالسَ النبيَ، وأظهرَ له كلَ الإخلاص والمودة، وأعلن عن إسلامه، ثم خرج تاركاً رسول الله ﷺ ، وفي طريق الخروج من المدينة مرَّ المنافق بزرعٍ لقوم من المسلمين، وقد اشتدَّ عودُهُ، وأوشكَ على الإنتاج، ولم يبق على حصاده إلاَّ أيام معدودات، فثارت في نفسه نوازع الشر والأحقاد، ودعاه الحسد والحقد الدفينين في قلبه، لاحراق الزرع والإضرار بالمسلمين. . فأشعل النار في الزرع، ظناً منه أنه لا يراه أحد، ولم يكتفِ بذلك. . بل وجد عدداً من الإبل التي يمتلكها المسلمون أيضاً، فأخرج من جيبه آلة حادّة جارحة، وراح ينحرها واحداً واحداً، وهي تتساقط بين يديه، وبذلك يفرغ ما في قلبه من حقد ووحشيةٍ، فأفسد الزرع، ونحر الإبل، وعاث في الأرض فساداً .

واعتقد هذا المنافق أنه لا يراه أحد، وأن خبره يبقىٰ خافياً على النبي والمسلمين، وأنه قد خدع النبي ﷺ بحديثه الحلو، وغفل عن أن الله عزّ وجلّ له بالمرصاد، وأنه تعالىٰ مبلغٌ نبيه ﷺ بما يحدث منه ومن أمثاله المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأضمروا في نفوسهم شراً للإسلام

---

(١) الإصابة : ١/ ٣٩ .

(٢) أسباب النزول للواحدي : ٥٩ .

والمسلمين .

ونـزل الـوحي يبلغ الـرسـول ﷺ بـواقـع الحـال، بـأحسن مقـال، وانكشف أمر هذا المنافق الدّجال الذي ظنَّ أن حِيَلَه، وأساليبه الخبيثة تنطلي علىٰ المسلمين دائمـاً . . ولم يعلم أن الله عـزّ وجـلّ نـاصـرُ نبيّـه ﷺ والمؤمنين، وحاميهم منه ومن أمثاله من أهل النفاق وسوء الدخيلة، وأصحـاب النفوس المريضة .

ولا ينفعهم التـظاهر بـالصلاح، ولا حتّى التفقـه في الدين، والتـدرّب على وسائل إغواء الناس وإغرائهم، والضحك على ذقونهم . .

ورد في الحديث، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ ، قال :

«أوحىٰ الله تعـالىٰ إلى بعض أنبيائـه : قل للذين يتفقهـون لغيـر الـدين، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبسون للناس صوف الكباش، وقلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسـل، وقلوبهم أَمَرّ من الصبـر، إيّاي يَخـدعون؟ وبي يَستهـزئون؟ لأُتيحنَّ لهم فتنـة تَدَعُ الحكيمَ حيرانًا» (١) .

ربمـا يظنّ هؤلاء، أن هـذا المذق، ينـطلي على الناس كثيـراً، وتخفىٰ عليهم الحقيقة طويلاً، ولكن الواقع خلاف ذلك. فإن من أعجب ما أودع الله سبحانه وتعالىٰ في الذاتِ البشرية أن جعـل الإنسان ـ بـطبعه وفـطرته ـ يـدرك حقائق بني جنسهِ التي يحاولون إخفاءها، من أخلاق، وأنماط سلوكية نفسيّة . . بل مطلق طبائعهم وأخلاقهم، ما يريدون اخفاءها، وما لا يريدون.

ومهمـا تكن عنـد امـرىءٍ مِن خليقـةٍ وإن خـالَهـا تخفىٰ على النـاسِ تُعلَمِ

يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام :

«مـا أضمـر امـرؤٌ شيئاً إلاَّ ظهـر في فَلَتاتِ لِسـانِهِ، وصفحـات وجهه» (٢) .

---

(١) حياة الحيوان : ٢/٢٣٧ .

(٢) شـرح النهج لابن أبي الحـديد : المجلد الأخيـر ص ٢٩٩ طبـع بيـروت، دار مكتبـة الحياة .

فأنت حين تنظر في صفحات وجه أحد، تكتشف دواخله، فلو كان حزيناً، بدت علامات الحزن في وجهه، أو كان مرتبكاً خائفاً، ظهرت عليه آثار ذلك، ولو كان فرِحاً مستبشراً عبرت قسمات وجهه عن فرحه واستبشاره. . وهكذا، أية حالة يكون عليها، تظهر علاماتها وآثارها، في عينيه، وفي ملامح وجهه. . وتنكشف للآخرين، عاجلاً أم آجلاً .

يقول شاعر :

تخبِّرني العينان ما القلبُ كاتمٌ ... وما جنَّ بالبغضاء والنظرِ الشزرِ

وقال آخر :

وفي عينيكَ ترجمةٌ أراها ... تدُلُّ على الضغائن والحقودِ
وأخلاقٌ عهدتُ اللّينَ فيها ... غدتْ وكأنّها زُبَرُ الحديدِ
وقد عاهدتني بخلاف هذا ... وقال اللّه : «أوفوا بالعقودِ»

وقيل: العينُ والوجهُ واللسان، أصحاب أخبارٍ على القلب .

وقالوا: القلوب كالمرايا المتقابلة، إذا ارتسمت في إحداهن صورة ظهرت في الأخرى .

ولعل القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى، في سورة يوسف عليه السلام ، حين دخل السجن ولقيه الفَتَيان لأول مرّة، وذكرا له رؤاهما، وبعد سرد الرؤى قالا: (إنا نراك من المحسنين) ما الذي جعلهما يرياه من المحسنين؟ فلم تكن بينه وبينهما سابق معرفة أو لقاء سوى ما لاحظاه في ملامحه وقسمات وجهه، من سيماء الصالحين والمحسنين . .

على هذا الأساس، لا بد وأن تنكشف حقيقة المنافقين للناس، وينجلي أمرهم مهما حاولوا اخفاء نفاقهم، وخبث سرائرهم، والتستر عليها. . لأن النفاق نوع من أنواع الكذب. . ولكنه كذب عملي (والكذوب نسيء) فإذا نسي نفسه، ظهر عليه التلون، وبدا للناس ما كان يخفيه عنهم من سوء الدخيلة .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «خير ما أعطي المؤمن خلقٌ حسن، وشر ما أعطيَ

الرجل، قلبُ سوءٍ في صورة حسنة»[1].

وربما فتح الله تعالىٰ، لأمثال هؤلاء أبوابَ الخير لفترة، ولكن إنما يفعل ذلك استدراجاً لهم، ليتبين مدىٰ تماديهم في غيّهم، ثم يأخذهم على غفلة، أخذ عزيزٍ مقتدر.

قال تعالىٰ : **﴿فلما نَسوا ما ذكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيءٍ حتىٰ إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون﴾**[2] .

منهم من يثوب إلى رشده، ويتوب إلى ربّه، ويستقيم في سلوكه، فذلك خير. ومنهم من يظل سادراً في غيّه متمادياً في ذنبه، لا ينفكّ عن النفاق والتلوّن ، وسوء الطبع . . . فيستدرجه الله حتى يأتي يوم التأديب والإنتقام .

والمتأمل في القرآن الكريم، يجد أن السِمات التي يصف بها المنافقين، أشد واعنف من تلك التي يَسِمُ بها الكافرين، فبينما يعتبر الكافرين من أصحاب النار فحسب، ويقول عنهم :

﴿. . . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[3] يشدّد على المنافقين، فيقول : **﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾**[4] .

فالملاحظ : إن أُسلوب القرآن، يأخذ طابع الشدّة والغلظة مع المنافقين، بشكل أوضح وأشد مما هو عليه مع الكافرين، ويحاول التركيز عليهم، وتسليط الضوء على تصرفاتهم، لتعريتهم، وفضح أساليبهم وردعهم عن تحقيق مآربهم الخبيثة .

لقد واجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، في حياة الرسالة، ثلاثَ طوائف، حملوا راية الحرب والعناد ضد نبي الإسلام، وتبنّوا مواجهة الإسلام، هم (الكفار والمشركون والمنافقون) ولقد استطاع صلى الله عليه وآله وسلم ، أن يحدد الموقف من الفئتين

---

(١) ربيع الأبرار : ٥٦/٣ .

(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ٤٤ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٣٦ .

(٤) سورة النساء ؛ الآية : ١٤٥ .

الأُولِيين سريعاً، ويجابههم بالأُسلوب المناسب حتىٰ انتصر عليهم، نصراً عظيماً مؤزراً . .

في حين استمرت معاناته مع المنافقين، طوال عمر التبليغ، وحتىٰ وفاته صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم تنتهِ مشكلتهم بوفاته، بل استمرت واستمرت. . .

روي عن علي عليه السلام ، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«إني لا أخاف على أمّتي مؤمناً ولا مشركاً، أما المؤمن فيمنعه إيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كلَّ منافق»[(1)] .

صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فالمؤمن معروف بإيمانه، والكافر مكشوف للناس أمره، ولكن الخوف كل الخوف من ذوي النفوس المريضة. . من المنافقين، والمتشكلين بأشكال مختلفة، هؤلاء الذين يندسُون بين أهل الإيمان، وبين البسطاء من الناس ليلبِسوا عليهم دينهم، وليشككوا في معتقدات الناس .

ولا يقف المنافق عند حدِّ النفاق. . بل يتجاوز حتى يصل إلى أُصول الشرّ ـ والعياذ بالله ـ فتجتمع فيه خصال السوء كلّها، بحيث يُمسخ شيطاناً .

يُقال: فيه أثافي الشر، الكذب والنفاق والحسد، وهي خصال تقترن ببعض، وتتزاوج لتستقر في قلب المنافق. . فالمنافق ـ عادة ـ يكون كذاباً، ويكون حسوداً أيضاً .

إن تلوث النفس بالنفاق من الأمراض الخطيرة التي قد تجرُّ إلى الويلات والمهالك، وتؤثر في الصداقات، والعلاقات العامة، وحتىٰ في تربية الأولاد. . بمعنىٰ أن الوالد لو كان منافقاً لأنتج جيلاً من المنافقين. . ولو كان الصديق منافقاً، لانتقلت عدوىٰ النفاق إلى أصحابه وأصدقائه . .

ربما كان المنافق في موقع حسّاس، ربما كان في مركز اتخاذ القرار السياسي، ربما تَسَنَّم مناصب رفيعة، وتسلمِ زمام الأُمور. . عندئذٍ لا يعلم ما تجنيه يده، أو ما يرتكب من خيانات للأُمة إلاّ الله .

---

(1) ربيع الأبرار : ٣/٦٤٧ .

فمن الأحداث التاريخية التي تجلّت فيها صفة النفاق والمداهنة : قضية تعيين معاوية لولده يزيد على رأس خلافة المسلمين، وتأميره عليهم .

فقد كان ـ حسبما أورد المؤرخون ـ متردّداً بعض الشيء في إبرام هذه الصفقة، وإنجاز هذه المهمّة. . كان يقدّم رجلاً ويؤخر أخرىٰ. . بسبب وجود أصحاب الحق الشرعي، كالحسين ﷺ ، واستنكار الأكثرية الساحقة لتعيين يزيد. . وبسبب علم معاوية بعدم كفاءة ولده لهذا الأمر الجليل، وعدم لياقته لمثل هذه المسؤولية الصعبة .

ولكن الشيء الذي شجّعه على ذلك ، وهيأه نفسياً لتحقيق هذا الغرض الخائن، مداهنة المنافقين، وأصحاب النفوس الوقحة، من أرباب المصالح الماديّة. . هؤلاء هم الذين زيّنوا له سوء عمله فرآه حسناً . .

قال أحدهم لمعاوية، حين عقد ليزيد: إعلم أنك لو لم تولّ أمور المسلمين هذا ـ يعني يزيد ـ لأضعتها!! والأحنف بن قيس جالس يستمع ويشاهد هذه المداهنة الخبيثة، ولكنه فضل السكوت.

فقال معاوية مخاطباً للأحنف : يا أبا بحر ما لك لا تقول ؟

قال الأحنف : أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت !

فقال معاوية : جزاك الله عن الطاعةِ خيراً، فما تقول في بيعة يزيد؟

قال : أنت أعلم بليله ونهاره، فلا تلقمه الدنيا وأنت منتقل إلى الآخرة .

فلما خرج الأحنف التقىٰ الرجل، فسأله عن سبب مداهنته لمعاوية، وهو يعلم ما في هذه المسألة من خطورة على الأُمة .

فقال : إني لأعلم أن شرَّ من خلق الله، هذا وابنه، ولكنه قد استوثق من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في استخراجها إلاّ بما سمعت!! .

فقال له الأحنف : أمسك يا هذا. . فإن ذا الوجهين خليقٌ أن لا يكون

عند الله وجيهاً[١] .

وهكذا المنافق . . يعطيه من لسانه، ويمنعه ما في قلبه .

يقول الخباز البلدي، محمد بن أحمد بن حمدان :

ولعنة اللّه على كل من   له لسانان ووجهان .

وفقد الحسن البصري بعض من كان يختلف إليه، فسأل عنه، فقيل: استقضاه الحجاج.

فقال: أعوذ بالله من خشوع النفاق، من الناس من يتصنع للدنيا، ويكمن لفرصته منها، كما يكمن الأسد لفريسته، فإذا تمكن منها وثب عليها، يوشك أن يَثِبَ الله عليه وثبةً يصطلم بها دنياه وآخرته فلم تمضِ أيام حتى مات [٢] .

ومرة أخرىٰ نعود إلى رحاب القرآن الكريم، لنتأمل الرؤية التي يكوّنها عن النفاق والمنافقين، من خلال الآيات الكريمة . .

فالواضح جداً، أن القرآن الكريم، يتخذ موقفاً صلباً، ومتشدداً مع أصحاب هذه النفسيات السقيمة . . فقد عانىٰ نبي الإسلام من "المنافقين كثيراً . . وعاصرهم وعايشهم . . وقد شكل المنافقون على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أشدّ الجبهات في وجه الإسلام، ليصدّوا عن الحق، ويعرقلوا مسيرة الدين، وينفروا الناس عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانت المحنة الكبرىٰ تكمن في كونهم مع الرسول في حلِّهِ وترحاله، في سفره وحضره، في بيته ومسجده . . .

يقول القرآن الكريم :

﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدوا على النفاق لا تعلمهم . . .﴾ [٣] .

ويقول :

---

(١) ـ (٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٣/٦٤٣ .

(٣) سورة التوبة ؛ الآية : ١٠١ .

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنـزل اللّهُ وإلى الرسـولِ رأيتَ المنافقين يصدّون عنك صدودا﴾ [1] .

فكم من مؤامرات حيكت للإطـاحة بهـذا الـدين، والقضـاء على سيـد المرسلين، كان المنافقون وراءها (يورون وقدتها ويهيّجـون جمرتهـا، يسرون حسواً بارتغاء، ويمشون لأهله وأسرته بالخَمَرِ والضرّاء) [2] .

كـانـوا يتحيّنـون الفـرص لتثبيط العـزائـم، وتفـريـق النـاس عـن النبي ﷺ ، بشتىٰ الـوسائـل. . فـإذا مـا أصـابت المسلمين انتكـاسـة في حرب، أو ألمت بهم شدّة عمل هؤلاء على بث الخوف، ونشر الذعر، وبعث روح التفرقة في نفوس المسلمين. .

يقول تعالىٰ عن يوم الأحزاب، حين دهمهم المشركون، وأحاطوا بهم، واستـولىٰ الخوف والـرعب علىٰ قلوب المسلمين، وزلزلـوا زلزالاً شـديـداً. . يقول تعالىٰ عنهم :

﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مـرضٌ ما وعـدنا الله ورسـوله إلاّ غروراً﴾ [3] .

هكذا، وبكل جرأة يكذبون الله والرسول. . ويعملون على بثّ الإشاعة المغرضة، والأقاويل الباطلة، لزعزعة إيمـان الناس، وثني نفـوسهم عن الميل للدين الحنيف، وتقويض عزائمهم عن نصرة الحق .

ولكن الله عزّ وجلّ، لا يدعهم وشأنهم، يفعلون ما يحلو لهم، ويعيثون في الأرض فساداً وخراباً، وإضلالاً وإغواءً للناس. . بل يقف لهم بالمرصاد، ويردّ كيدهم إلى نحورهم، ويكفي المؤمن شرّهم . .

قـال تعـالىٰ :

﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم

---

(١) سورة النساء ؛ الآية : ١٦١ .

(٢) من خطبة فاطمة الزهراء عليها الصَّلاة والسَّلام .

(٣) سورة الأحزاب ؛ الآية : ١٢ .

وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يرجعون﴾[1] .

يشبّهُ الله عملهم هذا بنار مؤقتة، يؤججونها، ويستوقدونها ليستضيئوا بنورها بعض الوقت، في ظلمات الحياة. . لأنهم يحققون بالنفاق بعض المكتسبات الآنيّة المؤقتة، دون النظر إلى الأبعاد السيئة التي تنجم عن سلوكهم الأهوج .

إنهم يحاولون إيجاد السبل لتحقيق مآربهم في الحياة الدنيا، ويقنعون بالقليل التافه الحرام، وبأساليب الكذب واللّف والدوران والاحتيال، ظناً منهم أنهم يحققون الشيء الكثير. . ولكن هيهات . .

مثلهم مثل من يوقد ناراً ليستضيء بها وتنير له ما حوله، وليصل بها إلى هدفِهِ الدنيء، فيرسل الله عليها ريحاً فيخمد لهبها، ويطفىء نورها، ويعود إلى الظلمات التي كان فيها وأكثر. . خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾[2] .

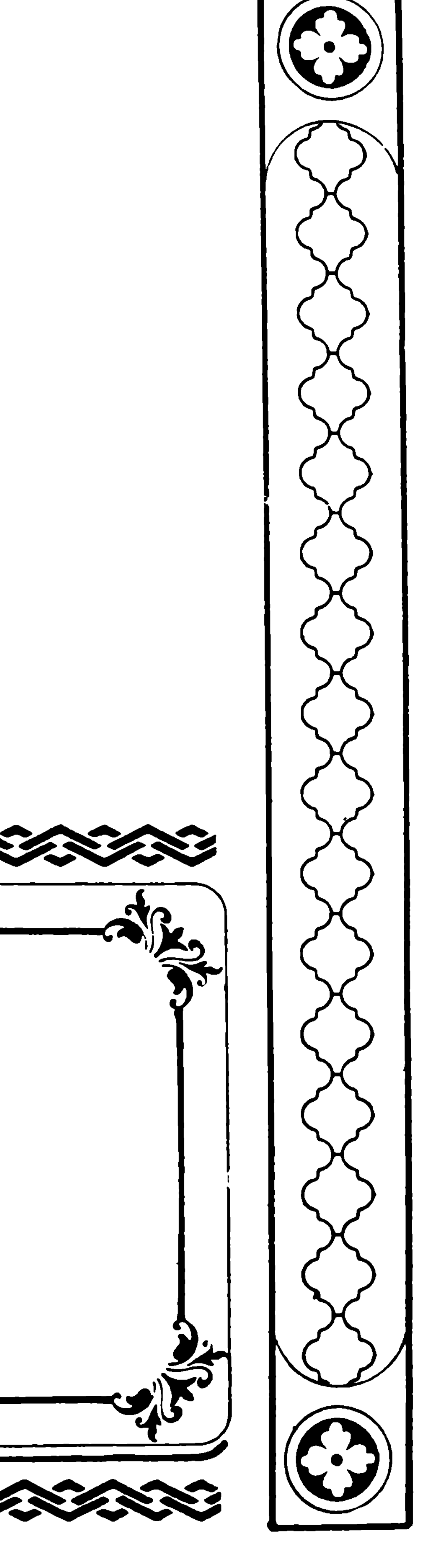
إن آيات القرآن تزخر بذكر المنافقين، وذم حالِهِم، وانتقادهم أيّما انتقاد وتوجيه اللوم إليهم بكل أُسلوب. . فهم أساس المشاكل التي كانت تواجه الإسلام ونبي الإسلام، منذ صدر الإسلام، وحتىٰ يوم الناس هذا .

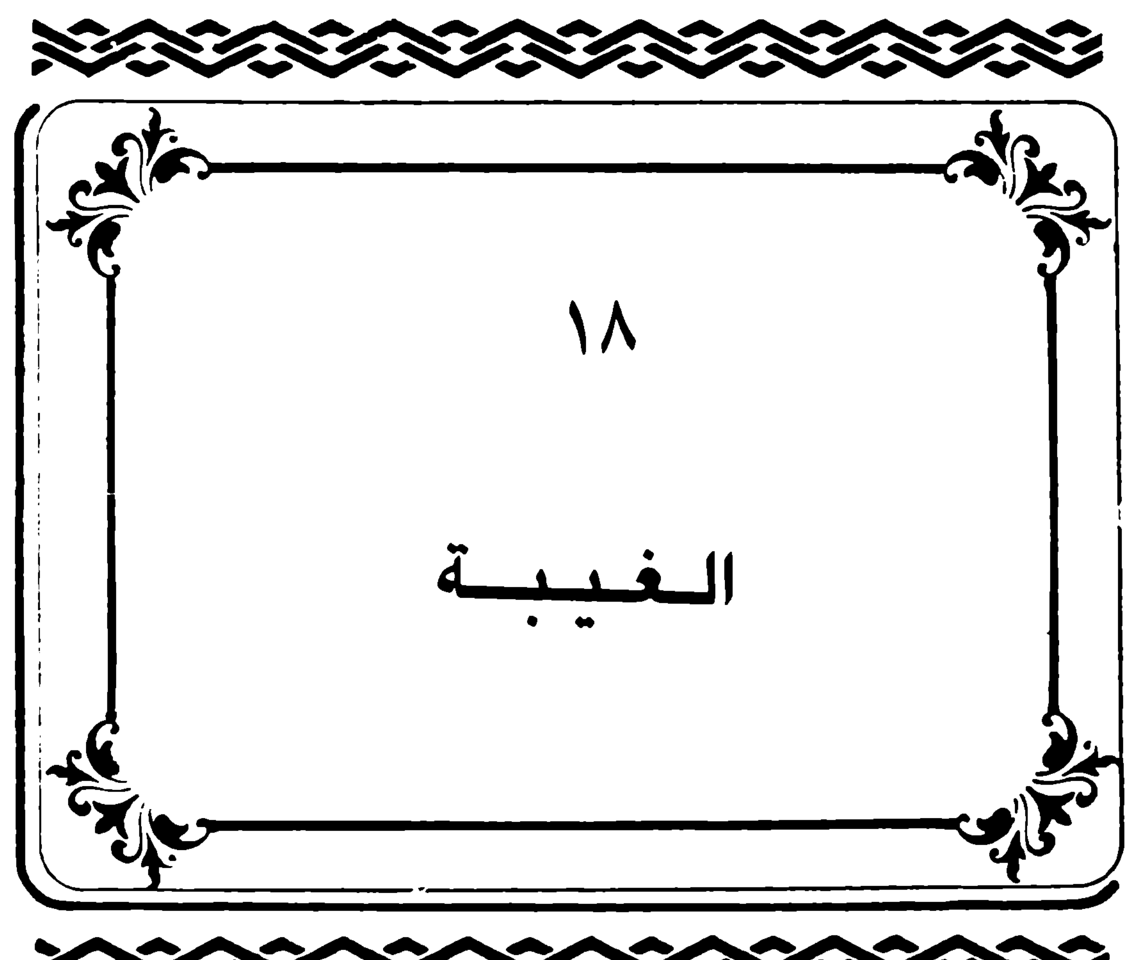
أنزل الله تعالىٰ سورة كاملة (سورة المنافقين) يتلوها أبناء الإسلام، آناء الليل وأطراف النهار، منذ نزولها وحتى يومنا هذا، لئلّا يغيب عن بالهم خطر هؤلاء المنافقين، وحتىٰ لا يغفل عنهم المسلمون أبداً، ويكونوا منهم على حذر .

---

(١) سورة البقرة ؛ الآيتان : ١٧ ـ ١٨ .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ١٤٢ .





١٨

الـغـيـبـة

﴿يـا أيّها الـذين آمنوا اجْتَنِبُـوا كثيراً من الـظَنِّ إنَّ بعضَ الـظنِّ إثمٌ ولا تَجَسَّسُـوا ولا يغتبْ بعضكم بعضـاً أيحبُّ أحـدُكم أن يـأكـل لحمَ أخيـهِ ميتـاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله توابٌ رحيم﴾[1] .

في مجتمعاتنا لا يكاد يجتمع إثنان أو أكثر، إلاّ ويبـدأ مسلسل التنقيص والتجـريـح ، وانتقـاد الآخـرين بـأسلوب مشين، وهـذا (الـطعن من خلف) لا يقتصر على العدو بل يشملُ الصديق، والقريب، والمحايد . .

لا يقف هـذا الأُسلوب عنـد حـدود المتخـاصمين، بـــل يتعـدّاهم إلى غيرهم من الأصدقاء والأحبّاء . . والعجيب في الأمـر، أن الجميع يـرفض هذا الأسلوب نظرياً، ولكن الجميع يمارسه عملياً . . والمستثنىٰ قليل .

إن هـذه الظاهـرة يسميها الإسـلام (الغيبة) ولم يتـرك الناس فيهـا على هواهم بل عالجها معالجة تتناسب وخطورتها البالغة الأهمية؟ .

ولكننا لا نرىٰ أية إشارة أو تلميـح لها في علم النفس الحـديث، لا من قريب ولا من بعيد قيـاساً إلى عنـايته واهتمـامه بشتىٰ أنمـاط السلوك المَرَضي النفسي في المجتمعات . .

بينمـا حذّر الشـرع منها تحـذيراً بـالغاً شـديـداً، ونبّـه على أنهـا تـوغـر

---

(١) سورة الحجرات ؛ الآية : ١٢ .

الصدور، وتورث العداوات وتسبب في انحلال العلائق الإنسانية، وأواصر المحبة. . وأنها أقبح الموبقات على الإطلاق وصوّرها بشكل تتقزز منه النفس، كما مرَّ في الآية الكريمة، ﴿. . **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً**﴾ ؟ .

هذا التصوير التعبيري الفنيّ يفصح بشكل واضح عن خطورة (الاغتياب) فاللحم الميت منتن كريه بشع تتقزز منه النفس وتشمئز، وتتكور ثلاث حواس على تضخيم النفور منه ، فمن حاسة البصر، لا يقوىٰ الفرد على رؤية بشاعة لحم الميت ، ومن حاسة الذوق فالمذاق يرفض طعمه، ويعجز عن تصوّره، ومن حيث حاسة الشم، فإن رائحته المنتنة تزكم الأنوف . .

في هذه الصورة القرآنية يتبين مدىٰ تفاقم الخطر الناجم عن ممارسة الغيبة .

ما معنى الغيبة ؟

يحدد الشرع دلالة الغيبة وفقاً للتعاريف المتعددة التالية[١] :

١ ـ أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه .

٢ ـ ذكرك أخاك بما يكره .

٣ ـ وقال ﷺ : حدّ الغيبة أن يقول ما هو فيه، فإن قلت ما ليس فيه فذاك بهتان له[٢] . . .

٤ ـ وبهذا المعنى ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «**إذا قلت في الرجل ما فيه فقد اغتبته، وإذا قلت ما ليس فيه فقد بَهَتَّهُ**»[٣] .

ولا يكتفي الشرع بإلقاء اللوم على ممارس الغيبة، بل يتعداه إلى مستمع الغيبة أيضاً، بصفته يقوم بتشجيع من يجرح الناس بالغيبة، وبصفته

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي .
(٢) الإرشاد : ١/١١٧ .
(٣) العقد الفريد : ٢/١٧١ .

مشـارك في تحقيق هذه الإرادة العـدوانية القبيحـة، فالشـرع يطالب المستمـع بكلمة دفاعية مادحة، بدلاً من الصمت والاستماع قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«من اغتيبَ عنده أخوه المسلم فـاستطاع أن ينصـرَه فَنَصَرَهُ، نَصَـرَهُ الله تعـالىٰ في الـدنيـا والآخـرة، ومن خـذلـه، خـذلـه الله تعـالىٰ في الـدنيـا والآخرة» (١) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

«مـا عمر مجلس بـالغيبة إلاَّ خـرَب من الدين، فنـزهوا أسمـاعكم من استماع الغيبة، فإن القائل والمستمع لها شريكان في الإثم» (٢) .

ومن الواضح أن الذي يغتاب الناس، يتوقع من الآخرين مشـاطرتـه في سوأته. . أو على الأقل صمتهم حيال عمله القبيح، والمشاطرة والصمت على الغيبـة، كـلاهمـا دليـل على وجود مشـاعـر الحقـد والكـراهيـة فـي النفـس المريضة، وبعبارة أُخرى: إن المستمع المشاطر مريض، والمستمـع الصامت مريض هو الآخر.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر الغفاري رضوان الله عليه :

«يا أبا ذر: من ذَبَّ عن أخيه المؤمن الغيبةَ كـان حقاً على الله أن يعتقـه من النـار، يـا أبـا ذر: من اغتيب عنـده أخـوه المؤمن وهـو يستـطيـع نصـره فنصـره، نصره الله عـزّ وجلّ في الـدنيا والآخـرة، وإن خذلـه وهو يستـطيـع نصره، خذله الله في الدنيا والآخرة» (٣) .

ونصرة أخيه تتمثل في الدفـاع عنه، والـوقوف بصفِّـهِ، في مجابهـة هذا العدوان الكلامي والتجريح.

ولو أردت أن تعرف السبب في التشديد على الدفاع عن الشخص الذي وقع عرضة للانتهاك والاغتياب، فاجعل نفسـك مكانـه. . فلو كنت أنت الذي اغتابوك، وذكروك بما لا ترضىٰ. . ما الذي كان يحدث في نفسك؟ .

---

(١) (٢) جامع الأخبار للسبزواري : ٤١٢ .
(٣) الإرشاد : ١١٧/١ .

لا شك أن مشاعر الحقد والعداء، وحب الإنتقام، كانت تغلي في نفسك تجاه من ذكرك وتجاه من سمع ذلك ولم يدافع عنك. . فسوف تكرههم جميعاً. . وتودّ لو أنك تكون قادراً فتنتقم منهم جميعاً. . وبهذه الطريقة تتمكن العداوات والأحقاد من النفوس. . وهذا ما لا يرتضيه الإسلام، ويحول دون وقوعه بشدّة.

هذا ويُضاف إلى ذلك، أن الكرامة الإنسانية التي قررها الإسلام لبني آدم، سوف تُنتَهَك ـ لا شك ـ بالإغتياب، ومعلوم أن الشرع الحنيف يرفض ذلك، ويريد لهذه الكرامة أن تكون مصانَةً محفوظَةً، وأن لا تُمَسَّ بأي شكل من الأشكال.

قال عليه السلام: **«الحاضر للغيبة ولم ينكرها، شريك فيها، ومن أنكرها كان مغفوراً له»**(١).

وليس مرتكب الغيبة، وحده الذي يوَدّ أن يشاركه الناس في قبيح فعله، بل كل الخطائين كذلك، فالظالم يحب أن يشرك الآخرين في ظلمه، والفاسق يودّ لو أن كل الناس يفسقون. . وعونُ الظلمة، يودّ لو أن كل الناس مثله، وهكذا . . .

والغيبة من الأمراض النفسية المُعدِيَة، التي تتفشىٰ سريعاً، لو لم يتّخذ الإنسان أسباب الوقاية منها، المتمثلة في الدفاع عن الذي صار هدفاً لتمزيق لحمه، والذب عنه والانتصار له.

يقول صلى الله عليه وآله وسلم: **«من ردَّ عن أخيه غيبةً سمعها في مجلس، ردَّ الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة، فإن لم يردّ عنه، وأعجبه، كان عليه كَوِزرِ من اغتاب»**(٢).

وفي تفسير القمي، عن الصَّادق عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس في مجلسٍ يُسَبُّ فيه إمام، أو يُغتاب فيه مسلم، إن الله يقول في كتابه: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في

---

(١) ـ(٢) الإرشاد: ١/١١٧.

آياتنا فأعرض عنهم حتىٰ يخوضوا في حديثٍ غيرِهِ﴾ . . . »[1] .

وفي أمالي الصدوق : عن الصَّادق عليه السلام : «لا تغتَب فتُغتَب، ولا تحفر لأخيك حفرةً فتقع فيها فإنك كما تدين تُدان»[2] .

والغيبة تحبط الأعمال الحسنة، وتأتي عليها، فلا تُبقي منها شيئاً، كما نص على ذلك الخبر التالي، فقد روي عن سعيد بن جبير، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه قال:

«يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة، يوقف بين يدي الله، ويُدفَع إليه كتابه فلا يرىٰ حسناته فيقول: إلٰهي، ليس هذا كتابي، فإني لا أرىٰ فيه طاعتي، فيقال له : إن ربك لا يضلّ ولا ينسىٰ، ذهب عملك باغتيابك الناس».

«ثم يؤتىٰ بآخر، ويُدفَع إليه كتابه، فيرىٰ فيه طاعاتٍ كثيرةً، فيقول: إلٰهي، ما هذا كتابي، فإني ما عملت هذه الطاعات! فيقال: لأن فلاناً اغتابك، فدفعت حسناته إليك» [3] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عبادَ الله إخوانا» [4] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «مررتُ ليلة أُسري بي إلى السماء، على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم فسألت جبرائيل عليه السلام عنهم، فقال: هؤلاء الذين يغتابون الناس»[5] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : « . . . وهل يكبُّ الناس على وجوههم إلاَّ حصائد أَلسِنَتِهِم؟» [6] .

ووقفة أُخرى مع القرآن:

إنه يحذر أشد الحذر من الغيبة، فيقول عزّ من قائل : ﴿ويلٌ لكل هُمَزَةٍ لُمَزَة﴾ [7] .

---

(١)–(٢) سفينة البحار للمحدث القمي : حرف الغين ج ٧٠٧/٦ .

(٣) جامع الأخبار للسبزواري : ٤١٢ .

(٤)–(٦) الإرشاد : ١١٦/١ .

(٧) سورة الهمزة .

وقد ورد في تفسيرها: إن الهمزة الطعن في الناس، واللمزة أكل لحومهم .

وكذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ولا تطع كلَّ حلّافٍ مهين، همّازٍ مشّاءٍ بنميم﴾ (١) .

وقوله تعالىٰ : ﴿لا يحبُّ الله الجهرَ بالسوء من القول إلاَّ من ظُلِم وكان الله سميعاً عليماً﴾ (٢) .

فالغيبة في مفهوم القرآن سوء القول، ولا يحبه الله، ويمنع من انتشاره بين الناس ولا يستثنىٰ من ذلك إلاَّ بعض الموارد التي ذكرها الفقهاء .

الاستثناء من الغيبة :

ذكرنا في تعريف الغيبة: إنها ذكر الناس بما يكرهون، وبما سترهم الله عليه. . وقد ورد عن شيخنا البهائي قُدس سرّه في (الأربعين) قوله: إنها (التنبيه حال غيبة الإنسان المعين، أو بحكمه على ما يكره نسبته إليه، مما هو حاصل فيه، ويُعَدّ نقصاً بحسب العرف قولاً أو إشارة أو كتابة، تعريضاً أو تصريحاً) (٣) .

ولكن ليس كل ما يقوله المرء عن الغير، داخل في حد الغيبة، إذ قد يقول قولاً لا يعتبره الشرع ولا العرف غيبةً. . وقد استثنىٰ الفقهاء من الغيبة موارد عشرة، وهي :

١ ـ لو كان المتكلم في حال الشهادة بين يدي القضاء .
٢ ـ أو في مقام النهي عن المنكر .
٣ ـ أو في حال شكاية وتظلّم من حيف أو جور أصابه وما شاكل ذلك .
٤ ـ أو كان في مقام النصح للمستشير.
٥ ـ أو في مقام جرح شاهد معين اقتضته الظروف الشرعية.
٦ ـ وكذلك الراوي للأخبار.

---

(١) سورة القلم ؛ الآيتان : ١٠ ـ ١١ .
(٢) سورة النور ؛ الآية : ٢٤ .
(٣) سفينة البحار للقمي: حرف الغين : ٦/٧٠٥ .

٧ ـ أو في مقام تفضيل العلماء، أو أهل الصناعات بعضهم على بعض .

٨ ـ أو غيبة الفاسق المتظاهر بالفسق، الغير مستنكف من فسقه .

٩ ـ وذِكر المشتهر بصفة مميِّزة له، كالأعور، والأعمش، والأعرج، والطويل . . وما إلى ذلك من الصفات التي يُشتهر بها البعض، أو تكون لقباً لهم، شريطة أن لا تُذكر هذه الصفات بقصد الإحتقار والذم والإهانة .

١٠ ـ وأخيراً التنبيه على الخطأ في المسائل العلمية ونحوها، بقصد عدم اتباع أحد فيها .

ولا تخلو هذه الموارد من تعليقات علمية، وأقوال للفقهاء . . وربما استثنوا من الغيبة طوائف معينة . . واقتصروا على حرمتِها على طائفة دون طائفة . . يمكن مراجعة ذلك في مظانها في كتب الفقه المعروفة .

ويراعىٰ في تخصيص الغيبةِ بمواضع معينةٍ، الاعتبارُ، وتوافقُ مدلول الأخبار، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**ليس لفاسق غيبة**» وقول الصَّادق عليه السلام : «**إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة**» .

وقال الشهيد الثاني رحمه الله : ولا فرق بين غيبة الصغير والكبير، والحي والميت، والذكر والأنثىٰ، وليكن الاستغفار والدعاء له على حسبما يليق بحاله، فيدعو للصغير بالهداية، وللميت بالرحمة والمغفرة ونحو ذلك[١] .

ويشير الشهيد الثاني رحمه الله، بقوله: (وليكن الاستغفار . . .) إلى ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه سئل عن كفّارة الاغتياب، فقال : «**تستغفر لمن اغتبته كلما ذكرته**»[٢] .

وهل تجوز غيبة من يبيح اغتيابه، ويرضىٰ بذلك ؟

يقول الشهيد الثاني رحمه الله : ولا يسقط الحق بإباحة الإنسان عرضَهُ للناس، لأنه عفوٌ عمّا لم يجب . . وقد صرّح الفقهاء بأن من أباح قذف نفسه، لم يسقط حقُّهُ مِن حدّه، وما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «**أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم، كان إذا خرج من بيته قال: اللَّهُمَّ إني تصدّقت**

---

(١) ـ (٢) سفينة البحار للمحدث القمي ج ٦ حرف الغين ص ٧٠٧ .

بعرضي على الناس» معناه أني لا أطلب مظلمة في القيامة، ولا أخاصم عليها، لا أنّ غيبته صارت بذلك حلالاً[1] .

وطبيعي أن الذي يخوض في ذكر معايب الناس، ويهتك حرماتهم بالغيبة، يكون ذا شخصية مهزوزة ضعيفة، يرىٰ في نفسه معايب كثيرة، ويعاني من نقائص متعددة، فيحاول سدَّ هذه العيوب والنقائص بذكر عيوب الناس وأكل لحومهم بالغيبة . .

عاب رجلٌ رجلاً عند بعض الأشراف، فقال له: قد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيوب الناس، لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها. . أما سمعت قول الشاعر :

لا تَهتِكنْ من مساوي الناس ما سَتَروا   فيهتِكَ اللّه ستراً من مساويكا
واذكر محاسِنَ ما فيهم إذا ذُكِروا . .   ولا تَعِب أحداً منهم بما فيكا[2]

وقال آخر :

لا تَنْهَ عن خلقٍ وتأتيَ مِثلُه   عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ
ابدأ بنفسِكَ فانْهَهَا عن غيّها   فإذا انتهت عنهُ فأنت حكيمُ[3]

بقي أن نذكر، أن آية **﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾** نزلت في رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، اغتابا رفيقهما سلمانَ الفارسي رضوان الله عليه. . بعثاه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليأتي لهما بطعام، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أسامة بن زيد، وكان خازنَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رحله، فقال أسامة : ما عندي شيء، فعاد إليهما صفر اليدين. . فقالا: بَخِلَ أسامة! وقالا عن سلمان: لو بعثناه إلى بئرٍ سميحةٍ لغار ماؤها!

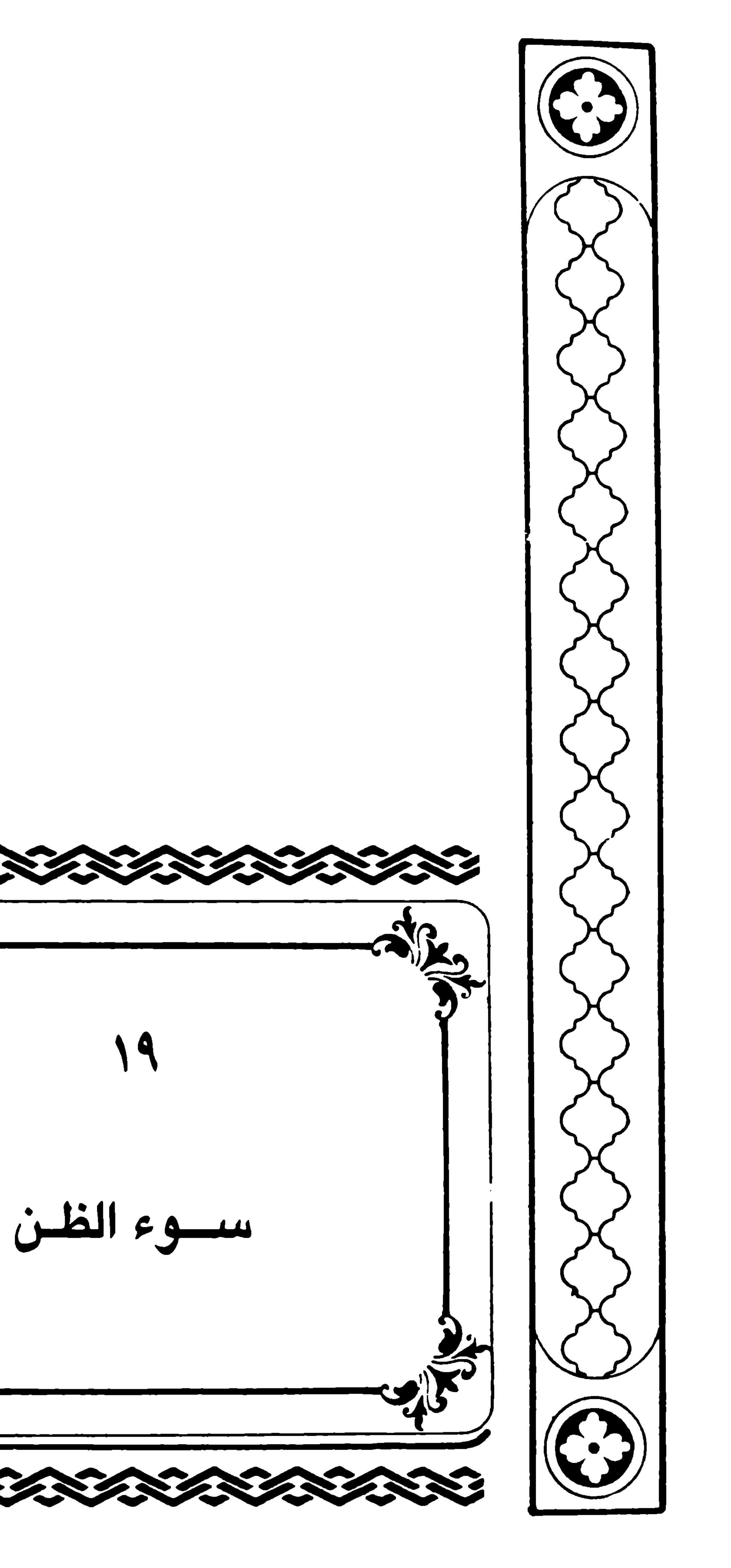
ثم انطلقا يتجسسان عند أسامة ما أمر لهما به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«ما لي أرىٰ خضرة اللحم في أفواهكما»** قالا: يا رسول الله، ما تناولنا يومنا هذا لحماً، قال: **«ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة»** فنزلت الآية[4] .

---

(١) سفينة البحار للمحدث القمي ج ٦ حرف الغين ص ٧٠٧ .

(٢) ـ(٣) العقد الفريد : ٢/١٧٢، طبع بيروت دار إحياء التراث العربي .

(٤) تفسير مجمع البيان: سورة الحجرات وقد ذكرهما المجلسي باسميهما في (البحار).



١٩

ســوء الظـن

وهـو أيضاً ممـا تمليه النفس الأمّـارة بالسـوء، ومن الخلق السيِّىء الذي يجعـل حياة الإنسـان قائمـة على الأوهام والشكـوك، وتنبعث هذه الحـالة من نفوس عدوانية. . تعتريها الوساوس، ويتحكم فيها التـريّب في حق الآخرين، فالذي تذعن نفسه للأفكار الفاسدة، والظنون السيئة، لا بـد وأن تكون نفسـه عدوانية، مريضة، ترفض السلامة والاستقامة .

ويجدر بنا أن نعبر عن سوء الظن (بالغيبـة المستترة) لأن المبتلىٰ بسـوء الـظن ينهش لحوم الآخـرين في داخله. . فيحقـد ويغضب. . وربمـا يخـطط للإنتقام والإساءة. . وكل ذلك من الإثم الذي لا يغفر . .

قال تعالىٰ : **﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنَّ بعضَ الظن إثم﴾**[1] .

ينهىٰ الله عزّ وجلّ عن كثير من الظنون، لأن البعض منها إثم. . تشحن الصدور بالبغضاء، والعداوة، والحقد، والكراهية .

ومجتمعـاتنا مـلأىٰ بمثل هـذه الحـالـة المؤسفـة، فـالبعض ربمـا أنهى صـداقته، أو قـطع رَحِمَـهُ، أو تملكـه الغضب الشـديـد، بسبب وهم اعتـرىٰ نفسه، أو ظنٍّ فاسـد بهذا وذاك، وكم من فجـائع وجـرائم تحصل هنـا وهناك لهذا السبب .

---

(١) سورة الحجرات ؛ الآية : ١٢ .

قد لا يملك الإنسان اختياراً لدفع الظنون عن نفسه، ولكن بإمكانه أن لا يُنشِيءَ أحكاماً على هذه الظنون. . في مقدوره أن لا يرتّب آثاراً سلبية على وساوسه وظنونه .

من هنا صرّح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، بقوله: «. . . **فإذا ظننتم فلا تحققوا**»[1] .

بإمكان المرء أن لا يترجم ما في النفس إلى عمل خارجي، فيصيب به الآخرين، عليه أن لا يتبع أوامر النفس. . فالنفس أمّارة بالسوء، وينبغي أن يكون زمامها في يد الإنسان يقودها حسب ما يمليه العقل ويفرضه الشرع. . ولا يدع مجالاً للشيطان ليبيضَ ويفرّخ في صدره . . .

قال علي أمير المؤمنين عليه الصَّلاة وعليه السَّلام :

«**اتخذوا الشيطان لأمرهم مِلاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم، ودَرَجَ في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزيّن لهم الخطل. . .**»[2] .

ومن جهة أُخرىٰ يجدر بالمؤمن، أن لا يدعَ مجالاً لتشكيك الآخرين فيه، وسوء ظنهم به، فعليه أن يدفع عن نفسه موارد الشبهة، ويتجنّب مواطن الشكوك والظنّة، لأن التعاليم الإسلامية، والنصوص الشرعية، في الوقت الذي تنهىٰ عن التشكيك في الآخرين وإساءة الظن بهم في الوقت ذاته، تنهىٰ أن يجعل المرء نفسه هدفاً لظنون الناس، وعرضة لشكوكهم أيضاً فقد يُسهِم البعض في توجيه التهمة إلى نفسه، بسبب بعض التصرفات الغير سليمة، والغير لائقة كمن يجالس الفسقة مثلاً، أو لا يتأبىٰ الحضور في مواطن الإتهام. . مما يجعلهُ عرضةً لسوء الظن والشبهة . .

ورد في الحديث : «**رحم اللّهُ امرأً جبَّ الغيبةَ عن نفسِهِ**»[3] .

وورد أيضاً : «**اتقوا مواقع التهم**»[4] .

---

(١) ربيع الأبرار : ٤٣٧/٣ .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة : ٨ .

(٣) -(٤) جامع السعادات : ٢٨٢/١ .

وفي هذا الصدد ينقل عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معتكفاً في المسجد، فأتته زوجته صفية بنت حيي بن أخطب، فحدثته، فلما انصرفت، قام صلى الله عليه وآله وسلم يمشي معها.. فمرَّ به رجلان من الأنصار، فسلّما عليه ثم مضيا، فدعاهما فقال: إن هذه صفية بنت حيي.. قالا: يا رسول الله، وهل نظنُّ بك إلاَّ خيراً؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: فإن الشيطان يجري من ابن آدم... وقد خشيتُ عليكما [1].

إن الإسلام يراعي الحالات النفسية لدىٰ الجميع.. من جهة يأمر هذا أن يتقي مواقع التهم ويبعدَ عن نفسه الظنون والشبهات.. ومن جهة أُخرىٰ ينهىٰ ذاك عن سوء الظن، والغيبة المستترة.. ويأمره أن يحاول الخروج بتفسير حَسَنٍ لأعمال وتصرفات الآخرين، ويُبَرِّرَ لهم ما حَسِبَه قبحاً وسوءاً وغلطاً في سلوكهم... وأن لا يسرع باتهام الناس، والحمل على المحمل السيِّء قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ضع أمر أخيك على أحسنه، حتىٰ يأتيك ما يغلبك منه ولا تَظُنَّن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً، وأنت تجد لها في الخير محملاً**» [2].

ونتائج سوء الظن كثيرة.. فمنها ما يبعث المرء على الغيبة، ومنها ما تحمله على احتقار الآخرين، أو التواني في أداء حقوق الإخوان... وربما سلك به سوء الظن إلى مهاوي الحقد والبغضاء والشحناء.. وهي كلها تنمُّ عن خبث الباطن، وتلوث النفس من هنا جاء النهي من الشارع مشدَّداً، منصوصاً عليه في الكتاب العزيز، والأحاديث النبوية الشريفة، وروايات أهل البيت عليهم الصّلاة والسّلام، وقد سبق ذكرها.

سوء الظن باللّٰه:

ثمةَ نوعان من سوء الظن، نوع يستهدف المخلوقين... وقد اسلفنا الحديث عنه. ونوع آخر يستهدف الخالقَ عزَّ شأنه.

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٣٩٠.

(٢) جامع السعادات: ١/ ٢٨٠.

قـال تعالىٰ : ﴿**ذلكم ظنكم الـذي ظننتم بـربكم أرداكم فـأصبحتم من الخاسرين**﴾[1] .

وقـال : ﴿**وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوماً بورا**﴾[2] .

وهو من لوازم صغر النفس، وتفاهتها، وينهىٰ الله عزّ وجلّ عن ذلك في مواردَ عديدةٍ من كتابه العزيز، منها قوله تعالىٰ :

﴿**ولا تيـأسـوا من رَوْح الله أنـه لا ييـأس من رَوْح الله إلاَّ الـقـوم الكافرون**﴾[3] .

فـاليأس لا يـأتي إلاَّ من سوء الـظن بالله تعـالىٰ. . . بل هـو عين سـوء الظن. . وليس بعيداً أن يكـون سوء الـظن بالله تعـالىٰ، أعظم واشـدّ من سوء الـظن بالنـاس، إذ إن الأول تشكيك في أصـول الإيمـان، وضعف في الـدين والعقيدة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحَبَّة وسَواء، إبنَي خالد :

«**لا تيأسا من رَوح الله ما تهزهزت رؤوسكما، فإن أحدكم يـولَد أحمـرَ لا قشر عليه ثم يكسوه الله ويرزقه**»[4] .

قـالا دخلنا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهـو يعالـج بناءً فقـال لهمـا: هلُمّـا فعالجا، فلما أن فرغا أمر لهما بشيء ثم قال لهمـا : «لا تيأسا من الرزق مـا تهزهزت رؤوسكمـا، فإنـه ليس من مولـود يولـد من أُمه، إلاَّ أحمـرَ ليس عليه قشرٌ ثم يرزقه الله عزَّ وجلّ»[5] .

قـال شـاعـر :

ولا تـجـزع إذا أعسـرتَ يـومـاً فقـد أيسـرتَ في زمنٍ طـويـلِ

---

(١) سورة فصلت ؛ الآية : ٢٣ .
(٢) سورة الفتح ؛ الآية : ١٢ .
(٣) سورة يوسف ؛ الآية : ٨٧ .
(٤) ربيع الأبرار : ٣٦٩/٤ .
(٥) أسد الغابة : ٣٦٨/١ .

ولا تـظنـن بـربـك ظنَّ سـوءٍ فـإن الـلَّه أولىٰ بـالـجـمـيـلِ
وإن الـعـسـرَ يـتـبـعـه يـسـارٌ وقـول الـلَّهِ أصـدقُ كـلِّ قيـلِ
فـلو أن الـعـقـولَ تـسـوقُ رزقـاً لكـان المـالُ عنـد ذوي العقـولِ

سوء الظن بالله يعني، خوف الضيعة، وانقطاع الـرزق، ويحسب المرء أنه هان على الله عزّ وجلّ. . فلا تُقبلُ توبته. . وأن الله غضب عليه فلا يـرزقه رزقـاً حسناً. . ولا يـدفع عنـه السوء. . . ويصـحّ أن نسمي سوء الـظن بالله، يأساً، وانقطاعَ أمل، وبهذا المعنىٰ وردت أخبار كثيرة، نذكر بعضها :

ورد في بعض الكتب القديمة : يقول الله تعالىٰ : يابن آدم، أتخاف أن أقتلك بطاعتي هزلاً وأنت تتفتق بمعصيتي سِمناً[١]؟ .

ونقل عن بعضهم: انقطعتم إلى غير الله فما ضيّعكم، فإن انقطعتم إلى الله خِفتم الضيعة[٢]؟ .

ونقل أيضاً: يـابن آدم، الطيـر لا يأكـل رغداً، ولا يخبىء لغـدٍ، وأنت تأكل رغداً، وتخبىء لغدٍ، فأحسنت الطيرُ الظنّ بالله، وأسأت ظنك بالله! .

وروي عن لقمـان الحكيم : يا بني اجعـل همّك فيمـا خُلِقتَ لـه، ولا تجعل همّك فيما كفيتَه [٣] .

وفي وصية لأمير المؤمنين عليه السلام، لولده الحسن المجتبىٰ عليه السلام :

«يا بني وألجىء أُمورك كلها إلى إلٰهك، فأنت تلجئها إلى كهف حريز، ومانع عزيز . . . واعلم علمـاً يقيناً، أنـك لن تبلغ أملك، ولن تعدوَ أجلك، فإنك في سبيـل من كان قبلك، فـأحسِن في الطلب، وأجمـل في المكتَسَب، فإنه رُبَّ طَلَبٍ جرَّ إلى حَرب، وليس كـل طالب بمـرزوق، ولا كل مجمـلٍ بمحروم. . . »[٤] .

وعن أبي جعفـر البـاقـر عليه السلام، قـال : وجـدنـا في كتـاب علي بن أبي طالب عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قـال وهو على منبـره : والله الذي لا إلٰـه

---

(١) (٣) ربيع الأبرار : ٤/٣٧٦ .
(٤) نهج البلاغـة .

إلاّ هو، ما أُعطيَ مؤمن خير الدنيا والآخرة، إلاّ بحسن ظنه بالله، ورجائه، وحسن خلقه، والكف عن اغتياب المؤمنين. والله الذي لا إلٰه إلاّ هو، لا يحسن ظنُّ عبدٍ مؤمنٍ بالله، إلاّ كان الله عند ظنِّ عبده المؤمن به، لأن الله كريم، بيده الخيرات.. يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن الظنّ والرجاء ثم يخلف ظنّهُ ورجاءه له، فأحسنوا بالله الظنّ، وارغبوا إليه[1].

وقال عليه‌السلام: «ليسَ من عبدٍ ظنّ به خيراً، إلاّ كان عند ظنّهِ به، ولا ظنَّ سوءً إلاّ كان عند ظنِّهِ به، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾[2].

وعنه عليه‌السلام أيضاً، قال: قال داود النبي عليه‌السلام: يا رب، ما آمن بك من عرفك فلم يحسن الظنّ بك[3].

وعن أبي عبد الله الصّادق عليه‌السلام، قال: (كان في زمن موسىٰ عليه‌السلام، رجلان في الحبس، فأُخرِجا، فأما أحدهما فسَمِنَ وغَلُظ... وأما الآخر فنحُلَ، فصار مثل الهربة.

فقال موسىٰ عليه‌السلام للأول: ما الذي أرىٰ بك من حسن الحال في بدنك؟ قال: حسن ظني بالله.

وقال للآخر: ما الذي أرىٰ منك من سوء الحال في بدنك؟ قال: الخوف من الله.

قال: فرفع موسىٰ يده إلى الله فقال: يا رب قد سمعتَ مقالتهما، فأعلمني أيهما أفضل؟

فأوحىٰ الله إليه: صاحب حسن الظنِّ بي)[4].

وعن أبي عبد الله الصّادق عليه‌السلام، قال: (إنّ آخر عبد يؤمر به إلى النار، يلتفت، فيقول الله تعالىٰ: رُدّوه، فإذا أُتيَ به قال له: عبدي، لِمَ

---

(١) الكافي: ٢/٧١.

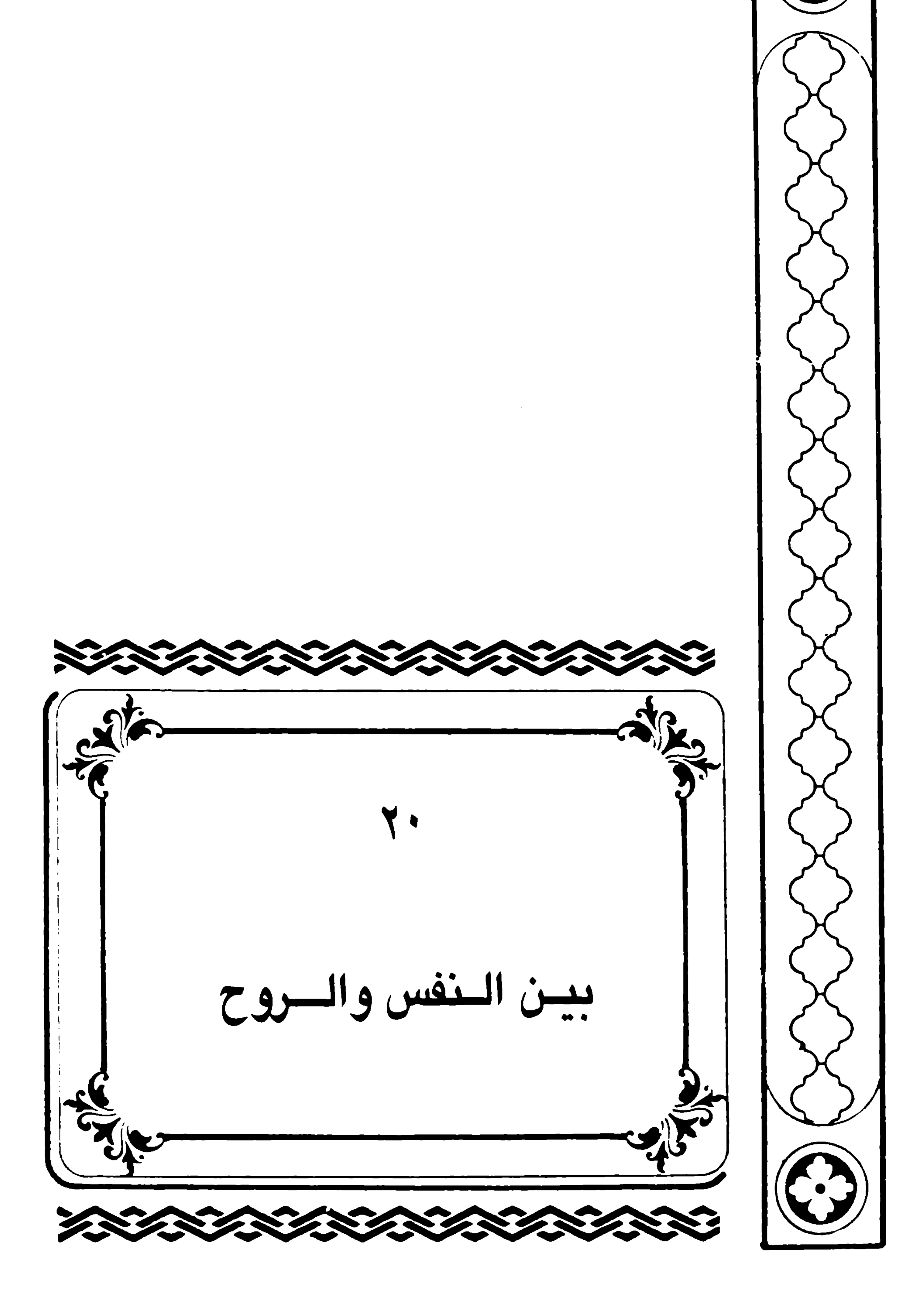
(٢) سورة فصلت؛ الآية: ٢٣، ثواب الأعمال: ١/٢٠٦.

(٣)-(٤) جامع الأخبار للسبزواري ص ٢٦٤ تحقيق مؤسسة آل البيت ـ قُم.

التَفَتَّ؟ فيقـول : يا رب مـا كان ظني بـك هذا! فيقـول الله تعالىٰ : ومـا كان ظنـك بي؟ فيقول : يـا رب، كان ظني بـك أن تغفـر لي خـطيئتي، وتسكنني جنّتك قال: فيقول الله تعالىٰ : ملائكتي: وعزتي وجلالي . . . ما ظنّ بي هذا ساعة من خيرٍ قط، ولو ظنّ بي مـا روعته بـالنار! ! أجيـزوا له كِـذبَهُ، وأدخلوه الجنةَ .

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام : ما ظنَّ عبدٌ بالله خيراً إلاّ كان الله تعـالىٰ عند ظنِّهِ به، ولا ظنّ به سوءً إلاّ كان عند ظنّـهِ به، وذلـك قول الله تعـالىٰ: وذلكم ظنكم الذي ظننتم. . .)[1] .

(١) المصدر السابق ص ٢٦٥ .



٢٠

بين النفس والروح

هل هناك فرقٌ بين الروح والنفس؟

أم هما متّحدتان في المعنى مختلفتان في اللفظ؟

قد لا نستطيع أن نصل إلى جواب قاطع بهذا الشأن، ولكن ـ وبمراجعة النصوص الدينيّة ـ نخرج بنتيجةٍ : إن الروح شيءٌ سماوي، متعلق بالله تعالىٰ فكلما ذكره الله في القرآن الكريم، نسبه إلى نفسه، أو إلى السماء.. بينما النفس ليست كذلك.. فاللغة التي يتحدث بها عن النفس، تختلف عن التي يتحدث بها عن الروح.. وإنك لتشعر بفارق كبير بين مفهوم الروح ومفهوم النفس في القرآن الكريم.. حتىٰ كأنك تراهما على طرفي نقيض.

يقول تعالىٰ عن الروح : **﴿ويسألونك عن الروحِ قل الروحُ من أمر ربي وما أُتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾**[1].

فالروح لا يعلم كنهها إلاّ الله تعالىٰ... والقليل من العلم الذي يحويه الإنسان لا يؤهله لإشباع الرغبة العارمة إلى كل المعارف والمعلومات.. والروح من المعلومات التي لا نبلغ مداها، خصوصاً بعد هذا التقرير القرآني الصريح..

وقد وردت في وصية للإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام، لأخيه محمد بن

---

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٥ .

الحنفية، عبارةٌ تُنبىء عن الاختلاف بين الروح والنفس .

قال عليه السلام : «. . . واعلم يا محمد بن علي، إن الحسين بن علي عليه السلام ، بعد وفاة نفسي، ومفارقة روحي جسمي هو الإمام بعدي . . .»[1] .

جعل الوفاة للنفس دون الروح، ووصف الروح بأنها تفارق الجسد، ولا تموت. . والإمام الحسن عليه السلام ـ وهو وريث علم أبيه وجده عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ لا يمكن أن يطلق العبارة الغير مقصودة ، إنه عليه السلام يميز بين الروح والنفس. . وقد ثبت في العلوم الحديثة والقديمة، أن الأرواح باقية خالدة ويمكن إحضارها بعد موت أصحابها، بعشرات السنين بل ومئات السنين. . بينما النفس تموت وتنتهي كما ينتهي الجسد. . وستأتي الآيات والشواهد القرآنية على ذلك .

وقد سُئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الروح، فقال: «**الروح في الجسد كالمعنىٰ في اللفظ**» قال الصفدي: ما رأيت مثالاً أحسن من هذا[2] .

وقد كان للعرب مذاهب حتى في الزمن الجاهلي، في مفهوم النفس ومفهوم الروح، فمنهم من يدعي توافقهما في المعنىٰ، ومنهم من يدعي اختلافهما، ففي كتاب المستطرف وردت بعض آرائهم عن اختلاف النفس والروح[3] بينما يدعي ابن أبي الحديد في شرح النهج، أن العرب كانت لا ترىٰ فرقاً بين الروح والنفس[4] فحين يأتي على شرح كلمة الإمام عليه السلام ، في وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «وفاضت بين نحري وصدري نفسُك» .

يقول الشارح : «أراد الإمام بالنفس آخر الأنفاس التي يخرجها الميت، ولا يستطيع إدخال الهواء إلى الرئة عوضاً عنه، ولا بد لكل ميت من نفخةٍ تكون آخر حركاته، ويقول قوم: إنها الروح، وعبّر عنها علي عليه السلام بالنفس،

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي : ١٧٥/٤٤ .
(٢) كشكول البهائي : ٣٦٧/٢ .
(٣) المستطرف : ١٧٧/٢ .
(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٥٥٤/٣ .

لِما كانت العرب لا ترىٰ بين الروح والنفس فرقاً»[1].

وبخصوص البحث في الآية الكريمة ﴿**ويسألونك عن الروح**﴾ نقف من خلال التفاسير على آراء متعددة عن الروح.. فثمة قول إن الروح هو ذلك الذي يسري في بني آدم، ويسبب الحياة.. ودعموا هذا القول بحكاية سبب نزول الآية، وهي أن قوماً من اليهود قالوا لقريش: اسألوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عن ثلاث، فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي، اسألوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الثلاثة، فقال غداً أخبركم...

ثم نزلت سورة الكهف، تنبىء عن أخبار أهل الكهف، وتخبر عن قصة ذي القرنين، وتُبهم قصة الروح، ثم نزل قوله تعالىٰ: ﴿**ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي...**﴾.

وبيّن فيها أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة ماهيّة الروح فقال «وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً»[2] ولكن هذه الرواية زيّفها البعض، وطعن فيها، وأوردوا أدلتهم التي تبرر التوقف فيها، وأهمّ ما ذكروه هو أن السؤال عن الروح يقع على وجوه عديدة، والمقصود بالروح ـ هاهنا ـ لم يتحدد بعد، أهو الروح الذي يسبب الحياة، أو جبرائيل عليه السلام، أو هو غير ذلك..؟

فكيف لنا أن نعتبر الجواب مبهماً في الوقت الذي لم يتعين السؤال.

فربما كان السؤال عن ماهية الروح ـ كما وردت بذلك روايات وأقوال[3] ـ أهو جسمٌ يشغل حيّزاً معيناً، أو حالٌ في متحيّز؟ أو هو موجود غير متحيّز، ولا حالّ في متحيّز؟.

وربما كان السؤال عن الروح، أهو قديم أو حادث؟ أو ربما كان السؤال عن بقاء الروح بعد موت الأجسام، أو عدم بقائه؟ وربما كان السؤال عن مدىٰ سعادة الأرواح وشقاوتها، وحقيقة ذلك بعد الموت؟.. هذه وغيرها احتمالات

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣/٥٥٤.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي، المجلد ٢١ ـ ٢٢/٣٦.

(٣) راجع المصدر السابق، وكذلك مجمع البيان للطبرسي وكثير من كتب التفسير.

واردة في السؤال عن الروح . .

ولو افترض تحديد السؤال، يبقىٰ أن نعرف ما هو حقيقة الجواب، أَهوَ مُبهمٌ بالفعل كما يتصوره البعض؟ أو هو جواب واضح صريح كما يبدو في بعض التفاسير . .

وتفصيل ذلك تجده في كتب التفسير كمجمع البيان للطبرسي، والتفسير الكبير للفخر الرازي وغيرهما ضمن تفسير هذه الآية . . ونحن نذكر هنا ـ مجملاً ـ بعض ما ورد من أقوال بهذا الخصوص :

فمن الأقوال: إن السؤال في الآية الشريفة، عن ماهيّة الروح وحقيقته، أَهو عبارة عن جسم متكون موجود في البدن، متولد من امتزاج الطبائع والأخلاط؟ أو هو عبارة عن نفس المزاج والتركيب؟ أو هو عبارة عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام؟ أو هو عبارة عن موجود مغاير لهذه الأجسام والأعراض؟ .

فأجاب الله سبحانه وتعالىٰ، بأنه موجود مغاير لهذه الأجسام، ولهذه الأعراض، فالروح جوهر بسيط مجرد يحدث بأمر الله تعالىٰ وتكوينه وتأثيره ﴿**قل الروح من أمر ربيّ**﴾ .

ومن الأقوال أيضاً : إن لفظ الأمر ورد في القرآن الكريم في أكثر من مورد بمعنىٰ الفعل، كما في قوله تعالىٰ ﴿**وما أمر فرعونَ برشيد**﴾[1] .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿**فلما جاء أمرنا**﴾[2] كذلك في الآية الكريمة ﴿**قل الروح من أمر ربي**﴾ فقد يكون معنىٰ الأمر : الفعل، أي : من فعل ربي، ومن هذا الجواب نستنتج أن السؤال كان عن قدم الروح أو حدوثها؟ فيكون الجواب : بل هي حادثة بفعل الله تعالىٰ، وإيجاده وتكوينه . .

ومن الأقوال : إن المراد بالروح (القرآن الكريم) لأن الله تعالىٰ، سمىٰ القرآنَ في كثير من الآيات، روحاً . . كقوله تعالىٰ : ﴿**وكذلك أوحينا إليك**

---

(١) سورة هود ؛ الآية : ٩٧ .

(٢) سورة هود ؛ في الآيتان: ٦٦ ـ ٨٢.

روحاً من أمرنا﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ينزّل الملائكةَ بالروحِ من أمرِهِ﴾[2]، واللائق بالروح في آية ﴿ويسألونك عن الروح﴾ أن يكون المقصود هو القرآن بالذات، فقد سبق الآية قوله تعالىٰ:

﴿وننزّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين﴾[3] كما تأخر عن الآية قوله تعالىٰ: ﴿ولو شئنا لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿قل لَئِن اجتمعتِ الجنُّ والإنسُ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً﴾[4].

فلما كانت الآية مسبوقة بوصف القرآن، وملحوقة بوصف القرآن كذلك، كان الأجدر أن يكون المراد (بالروح) القرآن الكريم، رعاية لتناسب وتناسق الآيات.. وذلك لأن القوم استعظموا أمر القرآن فسألوا: إن كان شعراً، أو نوعاً من أنواع الكهانة؟.

فأجابهم الله تعالىٰ، بأنه ليس من جنس كلام البشر، وإنما هو كلام ظهر بأمر الله، ووحيِهِ وتنزيله، فقال: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ أي أن القرآن الكريم ظهر بأمر الخالق، وليس من صنع البشر.

والمفهوم الاحتمالي الآخر لكلمة الروح المسؤول عنه في الآية: هو ملك من الملائكة، وهو أعظمهم قدراً وقوة، وهو المراد في قوله تعالىٰ: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً...﴾[5].

وقد روي عن علي أمير المؤمنين عليه الصَّلاة والسَّلام، وصف دقيق لهذا المَلك وعظمتِهِ...

---

(1) سورة الشورىٰ؛ الآية: ٥٢.
(2) سورة النحل؛ الآية: ٢.
(3) سورة الإسراء؛ الآية: ٨٢.
(4) سورة الإسراء؛ الآية: ٨٨.
(5) سورة النبأ؛ الآية: ٣٨.

وربما كان المقصود بالروح (جبرائيل عليه السلام) وهو ما اختاره الحسن وقتادة، والدليل عليه أن الله تعالىٰ سمّىٰ جبرائيل روحاً في قوله تعالىٰ : **﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾**[1] وفي قوله تعالىٰ : **﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾**[2] .

وبالجملة: يمكن أن نستفيد من كل ذلك أن الروح شيء والنفس شيءٌ آخر. . . وقد ذكرنا سابقاً أن النفس وصفها الله بالموت، بينما الروح لا يمكن القطع بموتها.

ومما يدل على بقاء الروح، وموت النفس، قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة طويلة له :

«حتىٰ إذا حُمِل الميتُ على نعشِهِ، رفرف روحه فوق النعش، ويقول يا أهلي، ويا ولدي، لا تلعبنَ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال من حلِهِ ومن غير حلِهِ، فالمهنأ لغيري والتبعة عليَّ فاحذروا ما حلَّ بي»[3] وواضح من هذا القول الصريح أن الروح تبقىٰ حية ولا تموت، بينما النفس التي كانت تحس وتدرك ماتت، وها هو الجسد محمول على النعش لا فرق بينه وبين أي جماد . . بينما روحه ترفرف عليه، وتكلم الآخرين .

ويرىٰ الصدوق رضوان الله عليه، في رسالة العقائد: إن النفوس هي الأرواح التي بها الحياة، وإن لا فرق بين اللفظين، وإنها الخَلق الأول، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : **«أول ما أبدع الله سبحانه وتعالىٰ هي النفوس المقدسة المطهّرة، فأنطقها بتوحيده، ثم خلق بعد ذلك سائر خلقه»**[4] ويعتقد فيها أنها خلقت للبقاء، ولم تخلق للفناء، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : **«ما خلقتم للفناء بل خلقتم للبقاء، وإنما تنقلون من دار إلى دار»**[5] وأنها في الأرض غريبة وفي الأبدان مسجونة. . وأنها حين تفارق الأبدان تبقىٰ مخلدة. . منها منعّمة ومنها معذّبة إلى أن يردّها الله عزّ وجلّ بقدرته إلى أبدانها[6] .

---

(١) سورة الشعراء ؛ الآية : ١٩٣ .

(٢) سورة مريم ؛ الآية : ١٧ .

(٣) بحار الأنوار للمجلسي : ٧٧/٦١ .

(٤) (٦) بحار الأنوار : ٧٨/٦١ .

ويستشهد لتدعيم اعتقاده بآيات وأحاديث كثيرة .

ويخالفه الشيخ المفيد رضوان الله عليه في هذا الرأي . . ويستشهد بنصوص أخرىٰ يدعم بها رأيه ويفنّد قول الصدوق . . ويفرق بين النفس والروح، ويذكر لكل منهما معاني ومفاهيم تغاير المعاني والمفاهيم التي تخص الآخر[١] . . .

ويذكر الطبرسي نور الله ضريحه في تفسيره (مجمع البيان) مجموعة من الآراء والأقوال مما ذكره الفخر الرازي، وغيرها . . وكذلك المجلسي رحمهُ الله في (بحار الأنوار) ج٦١/٧١ يورد أقوالاً متعددة عن النفس والروح، ويعلق على هذه الأقوال جميعاً فيقول : (الا ان جوابه سبحانه وتعالىٰ لا يليق إلاّ بمسألتين من المسائل التي ذكرناها، إحداهما : السؤال عن ماهيّة الروح، والثانية: عن قدمها وحدوثها) .

والمتأمل في كتاب الله العزيز، يخرج بالنتائج التالية عن الروح :

١ ـ لا يجيب القرآن الكريم عن سؤال من سأل عن كنه الروح وحقيقتها، ويترك أمرها للإبهام والمجهول، هذا على افتراض أن السؤال عن الروح التي تسري في البدن .

٢ ـ والروح نفحة إلٰهية يبثها في الجسد ليحيا، وإنها السر الإلٰهي في الحياة، ورمز حركة الوجود وهي تسري في آدم وبنيه، من عند الله، تنزل نفحة إلٰهية، إيذاناً ببثّ الحياة من منبع الخلود .

﴿ . . . وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه . . . ﴾[٢] .

﴿ . . . فإذا سويته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[٣] .

﴿ونفخنا فيها من روحنا . . . ﴾[٤] .

---

(١) بحار الأنوار : ٦١/٧٨ .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ١٧١ .

(٣) سورة الحجر ؛ الآية : ٢٩ .

(٤) سورة التحريم ؛ الآية : ١٢ .

٣ ـ ويسمّي القرآنُ وحيَ السماء روحاً، في قوله تعالىٰ : ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**﴾[(١)] .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده**﴾[(٢)] .

٤ ـ ويسمي ملكاً من الملائكةِ روحاً. . . ولعله جبرائيل ﷺ، فيكون من أسمائه الروح[(٣)] :

﴿**تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتىٰ مطلع الفجر**﴾[(٤)] .

ومن كل ما سبق نلاحظ التأكيد على نزول الروح من السماء، من عند الله تعالىٰ، وتتكرر كلمة الروح إنما بمفاهيم مختلفة، ومعانٍ متعددة، يجمعها جامع واحد، هو كون الروح سماوي رفيع، وفوق فهم البشر .

ويأتي في القرآن أيضاً، بمعنىٰ الهاتف، وجند السماء، والعون، والإلهام . .

وأمر الروح يبقىٰ سِراً إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها، فلم ولن يتوصّلَ أحدٌ أبداً، إلى ذلك السرِّ الإلٰهي الخالد .

وتلك هي مشيئة الله، وإرادته سبحانه وتعالىٰ. . . وهو من أكبر التحديات لمن كفر وجَحَدَ وكذّب وأنكر. . . ﴿**وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلاً**﴾ .

نعم، ربّما نستثني الأنبياء، والمرسلين، والأئمة الطاهرين المعصومين من أهل البيت، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، الذين وصفهم الله عزّ وجلّ بقوله : ﴿**ومن عنده علمُ الكتاب**﴾[(٥)] .

---

(١) سورة الشورىٰ ؛ الآية : ٥٢ .

(٢) سورة النحل ؛ الآية : ٢ .

(٣) مجمع البيان : تفسير سورة القدر .

(٤) سورة القدر .

(٥) سورة الرعد ؛ الآية : ٤٣ .

وقد وردت التفاسير حول الآية، أنه علي بن أبي طالب عليه الصَّلاة والسَّلام، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والصفوة المنتجبة المختارة من أهل بيته الطاهرين، ألهَمَهُم الله تعالىٰ علم الأولين والآخرين. . فلا يستبعد علمُهُم بالروح وكنهه، لأنهم مستودع علم الله تعالىٰ، وهم الراسخون في العلم، وخزّان الوحي، والمستحفظون على كتاب الله[١].

والإنسان يحيا بروح من الله عزّ وجلّ، فإذا جاء أجله انفصلت هذه الروح عن الجسد وانقطع حبل الاتصال بينه وبينها، فيموت.

تفارق الروح هذا الجسد المادّي، ليعود تراباً كما كان:

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أُخرىٰ﴾[٢] وتفيض الروح إلى بارئها، وتندفع نورانية إلى خالقها. . فهي هبة الله وسرّه، فتعود إليه.

هذا كل ما نعرفه عن الروح، وليس شيءٌ سواه.

أما النفس فشيء آخر، إنها طينيةً نارية (طينية الخلق، نارية الطباع) وهي التي تُنسَب إليها الصفات، وتطرأ عليها التحوّلات. . وهي تموت وتحيا، وهي تشتهي وتهوىٰ وهي المتهمةُ في القرآن. . وهي الملهمة. . وهي الأمّارة بالسوء. . وهي تحب وتبغض. . وهي التي تتبع الهوىٰ، أو تنقاد وراء الهدىٰ. . وهي التي يمكن أن تُرَوَضَ على التقوىٰ. . وهي التي توسوس للإنسان. . وهي وهي . . .

عن الوسوسة قال تعالىٰ: **﴿ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلم ما توسوس به نفسه. .﴾**[٣].

---

(١) ذكر في مجمع البيان في تفسير هذه الآية، رواية عن بريد بن معاوية عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام، أنه قال في معنىٰ قوله تعالىٰ: **﴿ومن عنده علم الكتاب﴾**: إيّانا عنى، وعلي عليه السلام أوّلُنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويؤيد ذلك ما روي عن الشعبي أنه قال: (ما أحدٌ أعلم بكتاب الله بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن الصالحين من أولاده. . .).

(٢) سورة طه؛ الآية: ٥٥.

(٣) سورة ق؛ الآية: ١٦.

وعن كونها ملهمة قال تعالىٰ : **﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾**[1] .

وعن كونها أمارة بالسوء، قال عزّ من قائل : **﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء﴾**[2] .

وهي مخزن الأسرار : **﴿وتخفي في نفسك ما اللَّهُ مبديه﴾**[3] .

ويعتريها الخوف : **﴿فأوجس في نفسه خيفة موسىٰ﴾**[4] .

وهكذا.. فهي عالم عجيب، تمثل الدافع والوازع والمانع للإنسان، وهي محطّ الشرور والآثام.. كما هي موطن لكل خير .

والجسد المادي الترابي، لا شيء سوىٰ كونه غطاءً للنفس، وإطاراً لها، والنفس هي الأداة الفعّالة المسيطرة على الجوارح والأعضاء، وتنطلق منها كل نشاطات الإنسان، وكل أنماط سلوكه وبهذا ربما نكون قد وجدنا فارقاً بين مفهوم الروح ومفهوم النفس .

ومهما كان من أمر النفس وأمر الروح، فلا ينبغي أن يغيب عن بال الإنسان أنه موجود مكوّن من عنصرين : عنصر مادي، وآخر معنوي سماوي.. وأن العنصر المادي فيه لا تتسنىٰ لهُ الديمومة بدون العنصر المعنوي، وبدون الاتصال بالجانب السماوي.. وهو خير دليل على أن أزمة أمور الحياة بيد الله تعالىٰ.. ومفتاح سعادة الإنسان أو شقائه بيده عزّ وجل.. وهو الذي يدفع السوء والبلاء، ويهون الخطب، ويغير سوء الحال.. وليس ثمةَ مؤثر سواه في الكون، تبارك وتعالى وأن أنفسنا مرهونة بأعمالنا.. مهما حسنت وطابت، حسنت النفوس وزالت العقد عنها واستقرت.. ومهما ساءت وخبثت، تعقدت النفوس واضطربت .

ولا طريق أسلم من طريق الله، ولا منجىٰ إلاَّ بِهِ، سبحانه وتعالىٰ عما يشركون .

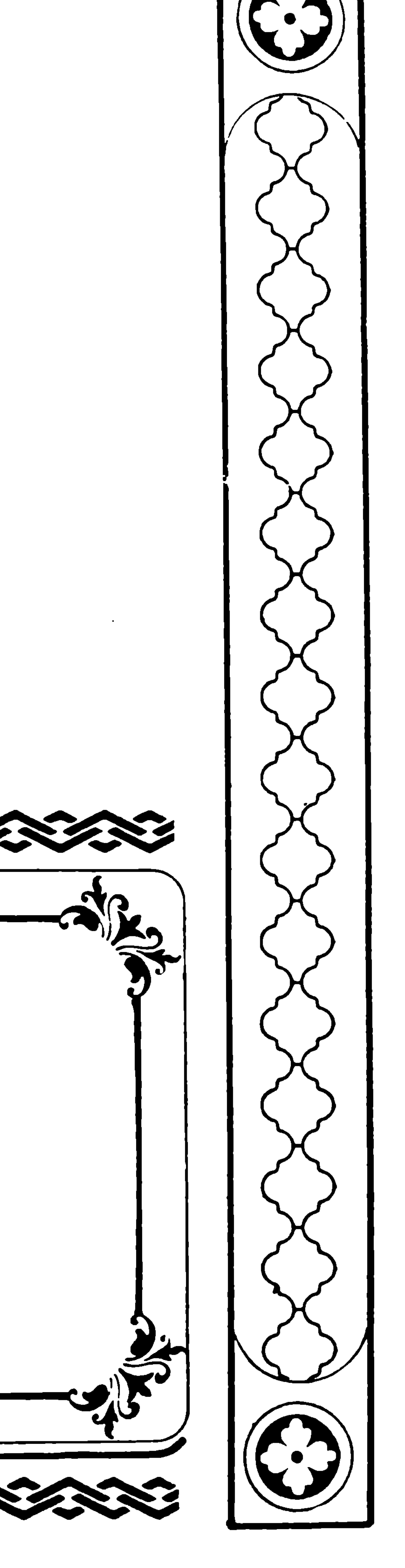
---

(١) سورة الشمس ؛ الآية : ٧ .

(٢) سورة يوسف ؛ الآية : ٥٣ .

(٣) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٣٧ .

(٤) سورة طه ؛ الآية : ٦٧ .





٢١

الرؤى والأحـــلام

إن المؤثرات النفسية، وما يختلج في بال الإنسـان تنعكس عليه صـوراً ومشـاهدَ في حـال النوم، كمـا ينعكس في ذهنه وتصـوراتـه في حـال اليقـظة أيضاً، ففي حال اليقظة قد يذهب فكر الإنسان وتصوره بعيـداً. . . فقد يكـون جالساً في بيته فيتصور نفســه، في مكان آخـر، وفي بلد آخر، وينشغـل ذهنه بأفكار ، وصور، ومشاهد تختلف كثيراً عما هو عليه . .

كذلك في حال النوم .

وليست الرؤىٰ والأحلام التي يـراها الشخص ـ غـالباً ـ في حـال النوم، إلَّا بتأثير النفس وفعلها، وما يعرض لها من أفكار وخواطر، كما تعـرض لنفس الإنســان أفكار وخـواطر وتصـورات في حال اليقـظة أيضـاً، إنمـا الفـرق بين الحالتين، هو: إن المرء في حال اليقظة لا يعير اهتمـامـاً بـالغاً بمـا يجول في خاطره، وما يطرأ على باله لأنه في شغل بـالحياة المـاديّة التي يعيشهـا. . فلا يخلو لنفسه وتهيّؤاتها وخواطرها كثيراً بينما هو خِلوٌ في حـال النوم للنفس. . . لا يرىٰ ولا يعيش سواها. . ولا يستمع إلَّا إلى وحيها. . من هنا كان الاهتمام بما يرىٰ في النوم، لأن ذلك ينـطبع في الـذهن، ويبقىٰ راسخاً حتىٰ اليقـظة، ويبحث الإنسان لرؤاه عن تفاسير وتحاليل. . .

وليس للإنسان اختيار فيها، ولا يملك أن يدفع أو يجلب لنفسه رؤيـا أو حلم. .

ففي كتاب الكافي والخصال عن الإمام الصادق عليه الصَّلاة والسلام قال :

«ستة أشياء ليس للعباد فيها صنع : المعرفة والجهل، والرضا والغضب، والنوم واليقظة»[1] .

فكما لا سلطان له على النوم، كذلك لا سلطان له على ما يرىٰ في حال النوم، ولعل المراد بالمعرفة والجهل تلك الفطنة التي قد تكون في شخص ولا تكون في شخص آخر، فالذكاء والفطنة وحسن الفهم لا يكون في اختيار المرء أن تتوفر فيه أو لا تتوفر .

وقد قسموا ما يراه النائم إلى نوعين :

نوع يُقال له (الرؤىٰ) ونوع آخر، أطلقوا عليه اسم (الأحلام)، وميّزوا بينهما، فالرؤىٰ : هي تلك الخواطر والصور الصادقة التي يراها الإنسان، والتي تتحقق في حال اليقظة، وتوافق الواقع .

والأحلام بعكس تلك. . تصورات كاذبة، وأوهام لا معنىٰ لها، ولا يمكن أن تفسَّرَ أو تعبَّر .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»**[2] .

ولأن الرؤيا من الله، فهي صادقة بلا شك، بخلاف الحلم، الذي يوسوس به الشيطان في النفس، فإنه كذب وتخريف . .

ويعبّر عن الرؤيا أيضاً بالإلهام، لأن الله عزّ وجلّ يُلهم بها النفس النقية الشفافة في حال النوم، ثم تتطابق مع الواقع الملموس في اليقظة .

ومهما كانت النفس أكثر نقاوة وزكاوة، كانت الرؤىٰ أصدق وأجلىٰ وأجدىٰ، ولعلَّ السرّ في صدق رؤىٰ الأنبياء عليهم السلام ، وكونها وحياً من السماء على قلوبهم هو صفاء نفوسهم، وجلاؤها، فالنفس كالمرآة تعكس الصور، فإن كانت المرآة صقيلة نقيّة من الأتربة والشوائب، انعكست الصورة عليها

---

(١) دار السلام للنوري : ١/٢٣ .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي : ٦١/١٦١ .

بشكل أوضح وأجلىٰ، ولو كانت مكدَّرة ومتسخة وملوثة، فإن الصور تتشوش عليها، ولا تظهر على حقيقتها .

ولما كانت نفوس الأنبياء من الطهارة والنقاوة بمكان، فإن رؤاهم تصدق دائماً . .

وقد ورد في الخبر أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (كان كثير الرؤيا، ولا يرىٰ رؤيا إلَّا جاءت مثل فلق الصبح)[1] (وأول ما بُدِىءَ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي، الرؤيا الصادقة، وكان يرىٰ الرؤيا فتأتيه مثل فلق الصبح)[2] .

هذا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك كانت الحال بالنسبة لسائر أنبياء الله عليهم السلام وقد قصَّ الله لنا في القرآن الكريم مجموعة من هذه الرؤىٰ النبوية الصادقة، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : «**رؤيا الأنبياء وحي**»[3] .

رؤيا إبراهيم الخليل (ع) :

ومن الرؤىٰ القرآنية، رؤيا إبراهيم الخليل على نبينا وآله وعليه الصَّلاة والسَّلام، وذلك أثناء أدائه لمناسك الحج، رأىٰ نفسه وهو يتولى ذبح ولده بنفسه، قال تعالىٰ :

﴿فلما بلغ معه السعيَ قال يا بني إني أرىٰ في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترىٰ قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾[4] .

صرّح برؤياه لولده إسماعيل وأخبره أنه رآه وهو يذبحه فداءً لله تعالىٰ، وكان الأمر الإلٰهي النازل لإبراهيم عليه السلام ، مشروطاً بموافقة ولده إسماعيل، كما تدل على ذلك بعض الروايات والأخبار، فكان كلاهما يتعرض ـ من خلال هذه المهمة الشاقة ـ للإبتلاء والامتحان من الله عزّ وجلّ، لينكشف مدىٰ اصطبارهما وتفانيهما في الله، وتتجلىٰ شدة انقيادهما لأمره تعالىٰ،

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي : ١٨٢/٦١ .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي : ١٩٥/١٨ .

(٣) دار السلام للنوري : ٩/١ .

(٤) سورة الصافات ؛ الآية : ١٠٢ .

وتسليمهما لقضائه وحكمه.

وقيل: إن الله تعالىٰ أوحىٰ إلى إبراهيم الخليل ﷺ، بذلك في حال اليقظة، وتَعَبَّدَهُ بأن يُمضي ما يأمره به في حال نومه.. من حيث إن منامات الأنبياء لا تكون إلّا صحيحة.. ولو لم يأمُره بذلك في حال اليقظة، لما كان يجوز أن يعمل على ما يراه في المنام[1] من الإقدام على قتل نفس، فالقتل عملية صعبة، ينبغي التأمل وتحرّي الدقة فيه، ومع ذلك هناك أخبار عديدة وأدلة كثيرة على أن رؤىٰ الأنبياء حق وصدق ووحي، وقد مرًّ قول الإمام أمير المؤمنين ﷺ (رؤيا الأنبياء وحي)، كما روي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: **«منامات الأنبياء وحي»** وروي عن قتادة: **«رؤىٰ الأنبياء حق، إذا رأوا شيئاً فعلوه»**.

وقيل أيضاً: رؤيا الأنبياء ـ رغم كونها صحيحة جميعاً ـ ضربان، أحدهما: أن يأتي الشيء كما رأوه، ويتحقق في اليقظة بالدقّة، ومنه قوله تعالىٰ:

﴿لقد صَدَقَ اللَّهُ رسولَه الرؤيا بالحقِّ لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَ اللَّهُ آمنين...﴾[2].

فقد كان ما رآه رسول الله، تحقق حرفياً.

والآخر: أن يكون عبارة عن خلاف ظاهر ما رآه في المنام، مثل رؤيا يوسف الصديق ﷺ حين رأىٰ احد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين[3] فإن الكواكب والشمس والقمر لم تسجد له واقعاً، إنما كانت تعني الأبوين والأخوة.. والإحاطة بمثل هذه المعاني من اختصاص الأنبياء أنفسهم.

ومهما كان، فإن موقف النبي إبراهيم ﷺ، اتّسَمَ بالعظمة، وإنكار الذات لله، وحيّر الألباب بإصراره على المضي في تنفيذ الأمر الإلٰهي.

---

(1) مجمع البيان للطبرسي: تفسير سورة الصافات.
(2) سورة الفتح؛ الآية: ٢٧.
(3) مجمع البيان للطبرسي: تفسير سورة الصافات.

يا لروعة المشهد. . أيةُ نفس عظيمة هذه التي تستسلم لقضاء الله ووحي السماء بهذه الصورة ؟

أي موقف عظيم، هذا الذي وقفه إبراهيم خليلُ الرّحمٰن، ليقدم ولده إسماعيل قرباناً لله ؟ !

إنه عازم على فَرْي أوداج وَلَدِهِ، وفلذة كبده بنفسه، مع كونه وحيد أبويه، فالمستفاد من الآيات التالية، أن إبراهيم ﷺ، لم يكن قد رُزِق بإسحاق بعد، وإنما صار له إسحاق بعد هذه الواقعة .

إن إبراهيم ﷺ، صبر في جنب الله، وهو نبي مرسل، يعلم من الله ما لا يعلمه غيره، ولكن الأعجب من إبراهيم نفسِهِ، في هذا المشهد العظيم، ولدُه إسماعيل، فهو الآخر استسلم لله، وقال: يا أبتِ افعل ما تؤمر به من الله تعالىٰ، فستصادفني ـ بمشيئة الله وحُسن توفيقه ـ ممن يصبر على الشدائد العظام في جنب الله، وسأسلم أمري إلى الله، وأكون راضياً بقضائه .

لقد كان في إعطاء الرضا من نفسه لله تعالىٰ، والتسليم لمشيئته، صورة طبق الأصل عن أبيه خليل الرّحمٰن، ولمّا يبعث للنبوة .

هذا الإصرار في المضيّ في تنفيذ حكم الله، لهو من أعجب العجب ﴿فلما أَسْلَما وتلَّهُ للجبين﴾ لم يستطع الشيطان، بكل أساليبه وحيله، أن يثني الرجلين عن عزمهما، وأن يقف حائلاً دون تنفيذ هذه الإرادة الصلبة، حتى اللحظة الحاسمة، ولكن الله عزّ وجلّ رَؤُفَ بحال إبراهيم، ورفع عنه هذا التكليف، واسقط عنه هذه المهمة العسيرة، في لحظة كانت من أعظم لحظات حياة هذا الرجل وولده، رحمةً به، وعطفاً عليه .

﴿ونـاديناه أن يـا إبـراهيمُ قـد صَـدّقتَ الرؤيـا إنـا كـذلـك نجـزي المحسنين﴾[1] .

---

(١) سورة الصافات ؛ الآية : ١٠٥ .

يعقوب ويوسف عليهما السلام :

يذكر القرآنُ رؤيا صـادقة أُخـرىٰ، رآها يـوسف الصديق على نبينـا وآله وعليـه الصَّلاة والسَّـلام، ﴿**إذ قال يـوسف لأبيه يـا أبتِ إني رأيتُ أحـد عشـر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين قال يـا بنيّ لا تقصُص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا. . .**﴾[1] .

روي عن ابن عباس رضي الله عنه : إن يـوسف ﷺ ، رأى في المنام ليلة الجمعـة، وكانت تصـادف ليلة القدر أيضـاً، احد عشـر كوكبـاً، نزلن من السمـاء، فسجـدن لـه، ورأى الشمس والقمر نـزلا من السماء فسجـدا له. قال : فالشمس والقمر أبواه، والكواكب إخوته الأحد عشر[2] .

ولما قصَّ رؤياه على أبيـه يعقوب ﴿**قـال يا بني لا تقصص رؤيـاك على إخـوتك فيكيـدوا لك كيـداً**﴾ ويظهـر من قول أبيـه هذا، أنـه عَلِمَ أن الـرؤيـا صادقة، وعلم تأويلها، وتعبيرها، وما هو واقع له مستقبلاً . .

وربمـا يتبادر إلى الأذهـان سؤال عن معنىٰ السجـود (سجـود الكـواكب والفرقدين) ليوسف، وعن سجود أبويه وإخوته له بعد ذلك ؟

فأجاب بعضهم: إنـه كان سجـوداً على الحقيقة، لتكـرمته لا لعبـادته، وأجاب آخرون: إن السجود هنا بمعنى الطاعة والخضوع[3] .

ومن الغريب الملفت للنظر في قصة يوسف ﷺ ، أنه رأىٰ إخوته على هيئة الكواكب يسجـدون له، بينمـا سبق ليعقوب أن رآهم في صـورة هـالتـه وأرعبتـه. . فقد رأىٰ الإخـوة، على أشكـال ذئـاب كـاسـرة، وهي تنهش لحم يوسف بأسنانها، وتقـطّعه. . فلمـا أخبر يـوسف أباه بـالرؤيـا التي رآها، علم يعقوب ﷺ ، أن خطراً قـادماً سيتـوجه إلى ولـده يوسف من قِبَـلِ إخوتـه. . لهذا نهاه عن ذكر الرؤيا لهم، وأمره بكتمانها عنهم .

ووجـه الغرابـة : كيف يراهم يـوسف على شكـل كـواكب، في الـوقت

---

(١) سورة يوسف ؛ الآيتان : ٤ ـ ٥ .

(٢)ـ(٣) مجمع البيان تفسير سورة يوسف .

الذي يراهم فيه أبوهم على هيأة ذئاب كاسرة؟

وقد أجيب عن ذلك: بأن يعقوب ، رأىٰ الإخوة على حقيقتهم الفعلية، ووضعهم الحالي كونهم شباباً حاسدين ليوسف، حاقدين عليه، وقد قاموا بالفعل بإيذائه، وإلقائه في الجُبِّ، وبيعِهِ لتجار العبيد.

ولكن يوسف ، رآهم على حالهم المستقبلية، رآهم على حالهم التالية، بعد توبتهم، وندمهم على ما بدر منهم بحق يوسف، واعتذارهم إلى الله وإلى أبيهم، وقيامهم بالبحث عن يوسف في كل مكان.

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن التائب من ذنبه، النادم على سوء فعاله (كمن لا ذنب له) يعود طاهراً نقياً (كيوم ولدته أمه) وتتحسّن صورته عند الله تعالى... فهو وإن كان في يوم من الأيام ذئباً كاسراً، إلَّا أنه يمكن أن يتحول إلى شخص طاهر، زكي، مرضي عنه، يتمتع بالإيمان والإخلاص، وذلك بالتوبة والإنابة إلى الله عزّ وجلّ.

وأمر آخر أيضاً، يدعو للتأمل في قصة يوسف ، وهو رؤيا الملك، والتي أثبتت الأيام صدقها، ومطابقتها للواقع، رغم كونه كافراً لا يؤمن بالله، فضلاً عن كونه سلطاناً جائراً ظالماً، يتجاهر بالفسوق والمعاصي (وشرب الخمر) فقد رأىٰ رؤيا اهتّم لها وأشكل تعبيرها على قومه، وقالوا عنها: «أضغاث أحلام» حتّىٰ عبّرها له يوسف .

قال سبحانه: **﴿وقال الملك إني أرىٰ سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكُلُهُنَّ سبعٌ عجافٌ، وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخَرَ يابسات، يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تَعْبرُون﴾**[1].

رأىٰ في منامه، سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع مهازيل، فدخلت السمان في بطون المهازيل حتىٰ لم ير منهن شيئاً.. ورأى أيضاً سبع سنبلات قد انعقد حَبُّها، وسبعاً أُخر يابسات قد احتُصِدَت، فالتَوَت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها.

---

(١) سورة يوسف؛ الآية: ٤٣.

فجمع الأشراف، أو السحرة والكهنة، وقصَّ الرؤيا عليهم، والتَمَسَ منهم تعبير ما رأىٰ في منامه، وبيان الفتوىٰ في ذلك. . فكان تعبيرهم: إنها أضغاث أحلام، أي أباطيل أحلام، وتخاليط، ومنامات كاذبة، لا يصحُّ تأويلها[1]. «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» .

ومحل التأمل هو: هل يمكن أن يرىٰ الكافر أو الفاسق، ومن لا يؤمن بالله. . رؤى صادقة؟

ولما كانت الرؤيا الصادقة بشارة من الله عزّ وجلّ، كما سيأتي في بعض النصوص والأخبار، فهل هي كذلك للكافر والفاجر؟ .

وهل كانت هذه الرؤيا التي رآها عزيز مصر، بشارة من الله تعالىٰ ؟ هل كانت تكرمة أكرمه بها الله عزّ شأنه؟ أم ماذا؟ .

ليست الرؤيا الصادقة تكرمة للعبد دائماً، بل قد تكون كذلك، وقد لا تكون، قد تكون بشارة من الله عزّ وجلّ للإنسان، وقد تكون استدراجاً، أو عقوبةً، أو جزاءً، أو بلاءً، أو امتحاناً، وليست نعمة في كل حال، قد يرىٰ الكافر والفاسق والظالم. . رؤى صادقة، ولكن لا يمكن اعتبارها تكرمة لهم من الله عزّ وجلّ بل واضح، أن وراءها أهداف أُخرى، وهي لصالح الآخرين ممن يستحقون الكرامة من الله سبحانه.

ورؤيا عزيز مصر كانت بشارة وتكرمة ليوسف ﷺ ، ولم تكن تكرمة له إنما أراه الله هذه الرؤيا لحكمة ومصلحة لطيفة، فلو كان أحد غير العزيز رأى هذه الرؤيا لَما كان لها هذا التأثير البالغ على مستقبل حياة الصديق يوسف ﷺ ، ولَمَا صارت سبباً في خلاصه من سجنه. . ولما آلت الأمور إلى ما آلت إليه، من استلام يوسف لزمام الأُمور فيما بعد .

إن الله عزّ وجلّ، أَلْهَمَ الملك هذه الرؤيا، ليقصَّها على الملأ، وليتذكر الساقي الذي صحب يوسف في سجنه منذ بضع سنين، ثم نجا وعمل ساقياً عند الملك، وهو الآن يستمع إلى رؤيا الملك، فيتذكر لقاءه بيوسف، والرؤيا التي

---

(١) مجمع البيان للطبرسي : تفسير سورة يوسف .

فسّرها له، وقد صدقت، وخرج من السجن ناجياً. . ورجاه يوسف ﷺ، أن يذكره عند الملك، فأنساه الشيطان ذلك، وكان أن لبث الصدّيق في السجن بضع سنين.

وها هو الآن حين سمع رؤيا العزيز، يمرُّ شريط الأحداث في ذاكرته، وتعاوده ذكريات يوسف ﷺ، والظلامة التي أصابته. . وأنه كان عالماً بتأويل الرؤىٰ، وتفسير المنامات.

فجثا بين يدي الملك وقال: يا أيها الملك، إني قصصتُ أنا وصاحب الطعام، على رجل في السجن منامين، فخبَّر بتأويلهما، وصدق في جميع ما وصف، فإن أذنتَ لي، مضيت إليه، وأتيتك من قِبَلِهِ بتفسير هذه الرؤيا. فأذن له الملك، فأتىٰ يوسف في سجنه وقال: ﴿**يوسف أيها الصدّيق أفتنا في سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنَّ سبع عجاف . . .**﴾[1].

فقال يوسف في جوابه معبّراً ومعلماً: أما البقرات السبع العجاف والسنابل السبع اليابسات: فالسنون الجدبة القادمة، وأما السبع السمان والسنابل الخضر: فإنهن سبع سنين مخصبات، ذوات نعمة، وأنتم تزرعون فيها، فاعملوا فيها سبع سنين متوالية، على عادتكم في الزراعة، بجدٍّ واجتهاد، فما حصدتم من الزرع فذروه في سنبله، واتركوه على حاله، إلاّ ما احتجتم إليه لأكلِكم واستفادتكم، حتىٰ إذا أتت السبع الشداد المجدبات الصعاب التي تَشُدُّ على الناس، استفدتم مما قدمتم وادخرتم من السنين المعطاء السابقة، وبذلك دفعتم عن أنفسكم الضرَّ والجوعَ والإقحاطَ، وتدبّرتم لعيشكم ونظرتم لمستقبلكم.

فلما سمع الملك هذا التعبيرَ الذي يُنبيء عن صدق قائله وفهمه، قال: ائتوني به، وأطلق سراحه، وفك أسره. . وأنجاه الله من المحنة التي كان يعانيها طيلة سنوات، وانكشفت حقيقة حال النسوة، ومؤامرة زوجة العزيز، وَعَظُمَ شأنُ يوسف لدىٰ الملك، وارتفع قدره عنده. . ثم ولّاه الخزائن، وصار أمره إلى ما صار إليه. .

---

(١) سورة يوسف؛ الآية: ٤٦.

هذا ما يخصّ يوسف عليه السلام .

وقد كان لرؤيا الملك أثر آخر . . وهو دفع البلاء والقحط عن أُمة كاملة . . ذلك القحط الذي كان سيصيبهم ويفنيهم لولا رؤيا الملك، وتعبير يوسف لتلك الرؤيا . . ولو كان غير الملك رآها لما كان لها هذا الأثر في درْء الخطر عن شعب بأسره .

كان الجوع سيتربّص بهم، ليفتك بالناس، وكان الجدب سيتهدّدهم بعد مرور السبع المخصبات ولكن البلاء انحسر بإذن الله تعالى، والسبب تمثل في رؤيا الملك وتفسير يوسف لها . .

ولا تخلو هذه الآيات من إيحاء بأن الشعوب والأُمم التي تسعدُ بالغنىٰ، وتحيا حياة الترف والرفاه والخير، لا بد لها من أن تفكر لمستقبل أيامها، فقد لا تدوم النعمة، ولا تستمر الحال على ما هي عليه . . لا بد من الحذر من فحش تقلب الليالي والأيام، ولا يصحُّ الركون إلى الواقع القائم دون النظر للمستقبل .

أقسام الرؤىٰ :

أسلفنا أن رؤىٰ الأنبياء صادقة، لا تحيد عن الصواب والحقيقة، ولكن ماذا عن رؤىٰ غيرهم ؟

إن الروايات والأحاديث، صنّفت رؤىٰ الناس إلى أنواع ثلاثة : منها ما يكون (إلهاماً) من الله تعالىٰ، يُلهِم بها المرء ويقرع بها القلب، وتنزل على النفس النقية الطاهرة نزول الغيث على أرض جدبة .

ومنها (الأحلام) الغير صادقة، فهي إما وساوس من الشيطان، وإلقاءٌ منه على نفوس الناس أو شيءٌ تحدّثُ به النفس، لانشغالها به، كمن يفكر في شخص معين، طول ليله، فيراه في منامه، أو كمن يصرف اهتمامه، ويُشغل نفسه في قضية معيّنة، تهمه كثيراً، وتمسُّ حياته، فلا ينام نومة إلاَّ ويرىٰ ما يتعلق باهتماماته هذه . .

مثال ذلك : منامات المسجونين، فهم ـ عادة ـ لا ينامون إلاَّ ويرون ما

يتعلق بسجنهم ومشاكلهم، ويتمثل لهم ما يتمنونه من خلاص ونجاة في حال اليقظة، وما يرجون من عودٍ إلى الأهل والأسرة.. وما شاكل ذلك، فهذا من حديث النفس، والانعكاسات النفسية التي يعيشها الإنسان في اليقظة.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: **«الرؤيا ثلاثة: بشرى من الله، وتحزينٌ من الشيطان، والذي يحدّث به الإنسان نفسه فيراه في منامه»**(١).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: **«الرؤيا على ثلاثة: منها تخويف من الشيطان ليحزن ابن آدم، ومنها الأمر يحدّث به نفسه في اليقظة فيراه في المنام، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة»**(٢).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: **«الرؤيا على ثلاثة وجوه: بشارة من الله للمؤمن، وتحذير من الشيطان، وأضغاث أحلام»**(٣).

وعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصَّادق عليه السلام: جُعِلتُ فداك، الرؤيا الصادقة والكاذبة مخرجهما واحد؟.

قال: **(صدقت، أما الكاذبة المختلفة، فإن الرجل يراها في أول ليلِهِ، في سلطان المَرَدَةِ والفسقة، وإنما هي شيء يخيّل إلى الرجل، وهي كاذبة مخالفة، لا خير فيها. وأما الصادقة اذا رآها بعد الثلثين من الليل، مع حلول الملائكة ـ وذلك قبل السَحَر ـ فهي صادقة، لا تختلف إن شاء الله، الاّ أن يكون جُنُباً، أو يكون على غير طهور، أو لم يذكر الله عزّ وجلّ، حقيقة ذكره فإنها تختلف، وتبطىء على صاحبها)**(٤).

وفي حديث الإمام عليه السلام، تأملات ينبغي الوقوف عندها قليلاً.

مها قوله (في سلطان المردة والفسقة) فإنه عليه السلام، ربما يريد بهم الشياطين وإيحاءاتهم وإلقاءاتهم في نفوس الناس، بحيث يجعلونهم يرون رؤىً مخيفة، مرعبة، محزنة، كما صرّح بذلك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث السابق.

وربما يقصد الإمام بسلطان المردة والفسقة، حالة القهر والظلم

---

(١) -(٤) بحار الأنوار: ٦١/١٩١.

والإستعباد التي يعيشها الإنسان في ظل السلطان الجائر، فهناك حيث تضيع الحقوق، وتُهدَر الكرامات، ولا يأمن الإنسان على نفسه يعيش جواً من الإرهاب النفسي والقهر الفكري، والخوف الدائم . .

وطبيعي أن مثل هذه الحالة الشاذة، تعكس آثارها السلبية على نفس المرء، وتلقي بظلالها على قلبه، مما يجعله يرىٰ الأحلام المخيفة الباطلة .

ومنها قوله ﷺ : (إلاَّ أن يكون جُنباً أو على غير طهور، أو لم يذكر الله . . .) فيظهر أن النوم على احدىٰ هذه الحالات، يغلق أبواب النفس دون وصول الرؤىٰ الحقة إليها، ودون تلقي الإلهام من الله عزّ وجلّ، وما يمكن أن يراه النائم على الحالات الثلاث، يدخل في عِدادِ أضغاث الأحلام، ولا مفهوم لما يراه، وذلك بسبب نومه على الجنابة، أو على غير طهور، أو من دون أن يذكر الله تعالىٰ عند النوم .

المؤثرات في الرؤيا :

ويؤكد العلماء وأرباب الإختصاص بالرؤىٰ والمنامات، أن هناك عوامل كثيرة تؤثر في الرؤيا، يملك الإنسان أن يتصرف فيها بنفسه، فيدفع عن نفسه الأحلام السيئة، التي تخيفه وتؤذيه، ويهيِّىء نفسَهُ للرؤى الحسنة الصادقة وهذا لا ينافي ما سبق ذكره من أن الإنسان لا سلطان له على رؤاه وأحلامه، لكون ذلك راجع إلى الله عزّ وجلّ، فهذا شيء يدخل ضمن التوسل بالأسباب .

من العوامل المؤثرة :

١ ـ العامل النفسي : إذ إنَّ النفسية التي يعيشها الإنسان ـ لا شكَّ ـ لها تأثير على رؤاه وأحلامه، فالخائف يرىٰ ما يتعلق بخوفه، والفَرِحُ المسرور ينعكس سروره على أحلامه، والذي اعترته الهموم والأحزان، لا بدَّ وأن يكون لها تأثير بالغ على مناماته . . . وفي مثل هذه الحالات لا ينبغي الإفراط في الاغترار بمبشراتها، كما لا ينبغي التهويل من سيئاتها .

٢ ـ ومن العوامل المؤثرة أيضاً : المكان الذي يستقر فيه النائم، يقول النوري في دار السلام : (يجب إصلاح المكان، ومراعاة المواضع التي ينام

فيها، فلا تكون مما تتنفر عنها طباع الروحانيين وأن لا تسكنها جنود الشياطين)[1] ويقصد بالروحانيين : الملائكة .

ولا شك أن المكان الغير مريح يسبب الأحلام المزعجة، وهذا مما ثبت في علم النفس الحديث أيضاً، فيجب تدبير الفراش المناسب للنائم جنساً ووصفاً، وما يضعه تحت رأسه، وما يلحق بذلك .

٣ ـ ومنها : الأوقات والأزمنة المناسبة، وعامل الوقت من العوامل الشرعية، ولا أعتقد أن العلوم الحديثة تعطي أهمية لعامل الوقت في التأثير على الرؤىٰ والأحلام، ولكن التعاليم الشرعية تولي أهمية كبيرة لوقت النوم، وتعتبر ذلك مؤثراً في ما يراه النائم من الأحلام المزعجة، أو الأحلام الجيدة، تجد ذلك مفصلاً في كتب الآداب والأخلاق فمثلاً : يكره النوم بين الطلوعين، وتستحبُّ القيلولة، وتُستحب المباكرة إلى النوم ليلاً . . وكل ذلك قد يكون له أثر في الرؤيا، فالمعروف بين علماء التعبير أن الرؤيا التي يراها النائم بعد طلوع الشمس لا معنى لها، بينما التي يراها قبل طلوع الفجر، تكون صادقة في أغلب الأحيان .

٤ ـ الأعمال المستحبّة شرعاً : ويدخل ضمن ذلك مجموعة الأدعية والأذكار المأثورة عن النبي وأهل بيته الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين . . كقراءة آية الكرسي قبل النوم، وكذلك سورة التوحيد، والإستعاذة من الشيطان الرجيم، وكونه على طهور، بأن يكون متوضئاً، أو متيمماً إن لم يمكنه الوضوء . . .

وأن ينام على جانبه الأيمن أو الأيسر، أو على قفاه، ويكره النوم على الوجه . . .

وكذلك تدبير البدن، بأن لا ينام على الامتلاء، وأن لا ينام طاوياً . . .

وكل ذلك مما يؤثر سلباً وإيجاباً في الرؤىٰ والمنامات، وقد وردت بذلك أخبار وروايات، ذكرتها الكتب المختصة .

---

(١) دار السلام : ١/٣٨ .

٥ ـ قلنا في ما مضىٰ من فصول سابقة إنَّ العقيدة والفكر لهما أبلغ الأثر في أنماط السلوك البشري، وتختلف النفوس باختلاف العقائد والمبادىء.. فالمسلم المؤمن تنطبع نفسيته بالأسس الأخلاقية التي تبناها الإسلام، بخلاف غيره ممن لا يعتقد بمبادىء الدين ولا يعتنق الإسلام، فلا يرىٰ نفسه ملزماً بتعاليمَ وأحكام لا يؤمن بها. . بل لعله لم يسمع بها أساساً ولم يألفها، ولم يعرفها . .

فالمسلم المؤمن يتحلىٰ (بالغيرة) على أهله وحرمه، ولهذه الكلمة مدلولاتها عنده، تطبّعت نفسه بها بشكل قهري، نشأت عن كونه مسلماً مؤمناً تلزمُهُ بها مبادئُ هذا الدين وأحكامه. . في حين لا يدرك مفهومَها غيرُهُ ممن لا علاقة له بالدين والأخلاق. . لأنه لم يسمع بهذه الكلمة من قبل، ولا تدخل ضمن اعتباراتِهِ ومقاييسِهِ .

ذكرتُ الغيرةَ، كمثال على التأثير العقائدي في السلوك البشري. . ولبيان أن للمعتقدات والأفكار دخلٌ كبيرٌ في الانعكاسات النفسية، وفيما يختلج في الخواطر، وما يدور في البال .

ولما كانت بعض الرؤىٰ ناتجة عن التصوّرات، والخلفيات الذهنية، والمرتكزات الفكرية كان لا بدَّ للمؤمن من أن يتبنّى اصلاح قلبه، وتهذيبه، ومحاولة استصلاح ومعالجة أمراضه كالقسوة، والحقد، والكراهية للآخرين. . . ليكون إيمانه أعمق، ويقينه أشدَّ رسوخاً في قلبه، وبذلك يستعدّ لتلقي الرؤىٰ الصحيحة المريحة، والتي اعتُبِرَت من فيوضات ونعم الله سبحانه وتعالىٰ . .

البحث عن التعبير للرؤيا :

ثبت في الشرع الحنيف أن الرؤىٰ صادقة وكاذبة، وقد وصفت الصادقة بأنها جزء من النبوة، أي أنها من الصدق والصراحة بمكان، بحيث تكون شبيهة بالوحي المنزل على الأنبياء عليهم السلام ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «**رؤيا المسلم الصالح جزء من سبعين جزءاً من أجزاء النبوة. . .**»[١] .

وفي كتاب الغايات، لجعفر بن أحمد القميّ، قال: قال رسول

(١) دار السلام للنوري : ١/١٨ .

الله صلى الله عليه وآله وسلم : «خياركم أُولـو النهىٰ» قيـل يا رسـول الله : ومن أُولـو النهىٰ ؟ فقال : «أُولـو النهى أُولـو الأحلام الصادقة»[١] .

وهذه الرؤىٰ عبارة عن تلاقي النفوس في عالم متسامٍ ، وحيث إنها من فيض الله ومن جهته تعالىٰ، نازلة بأمره إلى هـذه النفس، لذا يتعـذر على أيّ إنسان أن يفسِّرَ أو يؤوّل الرؤى. . . إنما عليه أن ينتظر حتىٰ يتوافق ما أُلقي إليه في حال النوم، مع ما يحدث له في حـال اليقظة، فلو كـان الحلم صادقـاً فلا بـدَّ ـ حينئـذٍ ـ أن يتوافق مـع الـواقـع، دون أن يحتـاج الإنسـان إلى تفـاسيـر الآخـرين، وتأويـلاتهم، وتعبيراتهم، وإن لم يكن كـذلك فـلا معنى إذن لكل التأويلات والتفسيرات .

وليس في إمكان أحد أن يدّعي قدرته على تأويل الأحلام، إلاَّ أن يكون نبياً مرسلاً، أو ممّن منحهم الله العلم من لدنه بقدرته، كالأئمة الطاهـرين من أهـل البيت عليهم الصَّلاة والسَّلام، وبعض الصفـوة من الناس، ممن لـه خبرة واسعة في علوم القرآن، وإحاطة كبيرة بالمعارف والعلوم الإسلامية التي تؤهله أن ينـظر بدقـة في عمق مفهوم الـرؤيـا، ويستنبط منهـا تـأويـلاً يكـون أقـرب للصحة، وأدنىٰ من الواقع .

ولا ننكـر وجود بعض أهـل التقىٰ والعلم والفضل ممن تتبـادر إلى ذهنه بعض التأويلات والتفسيرات التي يقترب بهـا من الصدق. . ولكن ليس لأحـد ـ غيـر الأنبياء والمعصومين ـ أن يقطع بتفسيـره وتأويله، ويـدعي مطابقـة ذلك للواقع تماماً .

كمـا لا يمكن الاعتماد على كتب تفسيـر الأحلام، لأنهـا لا تستنـد إلى أصل متين، وبعبارة أُخـرىٰ : لا يدعم هـذه التأويـلات والتعابيـر المدونـة في كتب تفسير الأحلام، علم معين، أو نصوص معينة، بل هي مجرد أفكار تطرأ على ذهن هذا وذاك، ربما تتطابق مع الواقع وربّما لا .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تقصَّ رؤياك إلاَّ على عالمٍ أو ناصح»[٢] .

---

(١) دار السلام للنوري : ١/ ١٨ .

(٢) ميزان الحكمة : ٢/ ١٨ .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : **«الرؤيا لا تُقصُّ إلاَّ على مؤمن خَلا من الحسد والبغي»**[1] .

ولا شكَّ أن الرؤىٰ تترك بصماتها على النفس، فربما غيّرت مجرىٰ حياة الإنسان وربما وقفت حاجزاً دون تهوّرٍ معين . . وربما أوجدت في النفس انطباعات معينة أو أزالت عنها انطباعات أُخرىٰ . . .

إننا وجدنا بالتجربة المتكررة أن الرؤىٰ تؤثر تأثيراً بالغاً في سلوك المرء . . بل ويتعدىٰ التأثير في بعض الأحيان إلى حياة الآخرين، لذا لا يمكن أن نطلب من الناس استغفال أحلامِهِم ورؤاهم، وعدم الاهتمام بها، خصوصاً وأن بعض هذه الرؤىٰ تأتي مطابقة للواقع (مثل فلق الصبح) .

ولكن المطلوب من الرائي أن ينتهج نهج الإسلام الحنيف وتعاليمه، في اعتماده على الرؤىٰ فلا يفرط أو يبالغ في الاهتمام بها، والاعتماد عليها، بحيث يعتبر كلَّ أحلامه حججاً بالغة ووحياً من الله تعالىٰ إليه، كما هو الحال لدىٰ بعض الناس .

يرىٰ ـ مثلاً ـ أن فلاناً أعرض عنه، أو أهانه في المنام . . فينتبه وهو مملوءٌ حقداً وغيظاً على الرجل، ويودّ الإنتقام منه ليشفي غليله، ويكون على حذر منه . . . وينشىء أحكاماً كثيرة على رؤياه . . وهو مما يرفضه الإسلام، ويأباه العقل .

في ذات الوقت، لا ينبغي أيضاً أن يُنظَر إلى الرؤىٰ جميعها، على أنها خرافات وأوهام، خالية من المحتوىٰ والمفهوم، كلا، بل يمكن أن تكون الرؤيا صادقة .

ومن منطلق كون الرؤيا الصادقة (إلهاماً) من الله تعالىٰ، فإن صاحبها ستنكشف له حقيقة الرؤيا بكل جلاء ووضوح، إن عاجلاً أو آجلاً، وسيعرف مغزىٰ ومعنىٰ حلمه، دون الرجوع إلى أحد . . إن لم يكن بالفعل قد فهم تفسيرها وبانت له الحقيقة .

---

(١) بحار الأنوار : ٦١/١٧٤ .

إننا نرىٰ بعض الناس، تصفو نفسه، فيرىٰ في عالم المنام ما يرىٰ، ويخبر بعد ذلك بما رأىٰ، ويتحقق بالفعل ما أخبر به، أو قد يحذّرُ راءٍ من أمر قد يقع مستقبلاً، أو ينبه عن حادث معين.. أو نازلة معينة، أو مرض أو غير ذلك... وتثبت الأيام صدق ما جاء على لسانه إلهاماً من الله تعالىٰ.

من هنا، نصح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أن لا يتفوه أحد بما رأىٰ في منامه لأحد من الناس، إلاّ من يلتمس فيه التدين والأخلاق الحميدة، وحسن العقل، والمتفائل في الأمور.. لكي لا يُفتنَ الناس بالتأويلات الباطلة، والتفسيرات الغير صحيحة والتي تترتب عليها آثار نفسية واجتماعية سيئة.

عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا رأىٰ أحدكم رؤيا يحبّها، فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها، وإذا رأىٰ غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرّها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضرُّهُ»**[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا رأىٰ أحدكم الرؤيا الحسنة فليفسرها، وليخبر بها، وإذا رأىٰ الرؤيا القبيحة، فلا يخبر بها»**[2].

وماذا يصنع من يرىٰ رؤيا سيئة؟

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: **«إذا رأىٰ أحدكم ما يكره في منامه فليتحول عن شقِهِ الذي كان عليه نائماً، وليقل: ﴿إنما النجوىٰ من الشيطان لِيَحزُنَ الذين آمنوا وليسَ بضارّهِم شيئاً إلاّ بإذنِ اللّهِ﴾[3] ثم ليقل: عذتُ بما عاذت به ملائكة الله المقرّبون وأنبياؤه المرسلون وعباده الصالحون، من شرٍّ ما رأيت، ومن شر الشيطان الرجيم»**[4].

ومرة أُخرىٰ نتساءل:

---

(١) تفسير الأحلام، عصام الدين محمد علي.

(٢) ميزان الحكمة: ٤/١٨.

(٣) سورة المجادلة؛ الآية: ١٠.

(٤) البحار للمجلسي: ٧٦/٢٢٠.

هل الرؤيا الصادقة كرامة من الله تعالىٰ ؟

والجــواب :

إنهـا ليست كـذلـك بـالضـرورة، إنمـا ينبغي النـظر إلى نـوع الـرؤيـا، وظروفها، وحيثياتها، فقد تكون تكرمة من الله بالفعل، وقد لا تكون كذلك .

وقـد سبق أن ذكرنـا، أن بعض الـرؤىٰ تعتبـر بشـارة ومكـافـأة من الله، وإشارة لصلاح العبد المؤمن، وتقديـراً من الله تعالىٰ لعمله. . أو عـلامة على قبول بعض طاعاته .

فهذه تعدّ تكرمة من الله للعبد .

قـال صلى الله عليه وآله وسلم : **«الرؤيـا الصـالحـة بشـارة للمؤمن بمـا لَـهُ عنـد الله من الكرامة في الآخرة»**[1] .

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رجل لـرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قـول الله عزّ وجلّ **﴿لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا﴾** قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«هي الرؤيـا الحسنة يراها المؤمن فيُبَشَّر بها في دنياه»**[2] .

وفي الكافي عن الرضـا عليه السلام ، قال : إن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أصبح قال لأصحابه : هل من مبشرات؟ يعني الرؤيا[3] .

وفي مجمع الزوائد للهيثمي المصري، عن أحمـد، بإسنـاده عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قـال : **«لا يبقىٰ بعدي، بعـد النبوة إلاّ المبشّـرات، قالـوا: يـا رسول الله ما المبشّرات؟ قال : الرؤيا الصـالحة يـراها الـرجل، أو تُـرىٰ له»** ورواه البزاز، إلاّ أنه قال: يراها الرجل الصالح[4] .

ومن الأحلام ما تعتبر تحذيراً، وتخويفاً، وإنذاراً من الله تعالىٰ للعاصين والظالمين، فهي وإن كانت صادقة، إلاّ أنها ليست كرامـة ونعمة على العبـد،

---

(١) ربيع الأبرار للزمخشري : ٤/٣٣٨ .

(٢) دار السلام للنوري : ١/١٥ .

(٣) ـ(٤) دار السلام للنوري : ١/١٦ .

ومن ذلك: ما ذكره الدميري في حياة الحيوان، أن هارون العباسي حين حبس الإمام موسىٰ بن جعفر الكاظم عليه السلام في بغداد، دعا يوماً صاحب شرطته وقال له : رأيت في منامي رؤيا ارعبتني، رأيت حبشياً ومعه حربة، وهو يقول : إن لم تخلِّ موسىٰ بن جعفر نحرتك بهذه الحربة .

ثم قال لصاحب الشرطة: اذهب وخلِّ عنه وأكرمه، قال صاحب الشرطة : ففعلت ذلك وقلت للإمام عليه السلام : لقد رأيت من أمرك عجباً!! قال عليه السلام : أنا أخبرك: بينما أنا نائم إذ أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا موسىٰ، حُبِستَ مظلوماً، فقل هذه الكلمات فإنك لا تبيت هذه الليلة في السجن، قل :

«يا سامع كل صوت، يا سابق كل فوت، يا كاسي العظام لحماً ومنشرها بعد الموت، أسألك بأسمائك العظام، وباسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون، الذي لم يطلع عليه أحد من المخلوقين، يا حليماً ذا أناة لا يُقدَر على أناته، ياذا المعروف الذي لا ينقطع معروفهُ أبداً، ولا يحصىٰ له عدداً فرِّج عني» فكان ما ترىٰ[1] .

روي عن الصَّادق عليه السلام : **«إذا كان العبد على معصية الله عزّ وجلّ، وأراد الله به خيراً أراه في المنام رؤيا تروعه، فينزجر بها عن تلك المعصية»**[2] .

إن هذه الرؤيا التي روّعت هارون لم يكن الله عزّ وجلّ يريد بها خيراً للخليفة الظالم، بل كان يريد بها خيراً للمظلوم موسىٰ بن جعفر عليه السلام .

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام : **«ما من أحد من شيعتنا ارتكبَ ذنباً، أو خطباً إلاّ ناله في ذلك غمٌّ مَحَّصَ عنه ذنوبه. . . فإن لم ينله في نفسه، ففي أهله وماله، وإن لم ينله في أمر دنياه ما يغتمّ، تخايل له في منامه ما يغتمّ**

---

(١) حياة الحيوان للدميري : ١/١٨٤ .
(٢) بحار الأنوار : ٦١/١٦٧ .

به، فيكون ذلك تمحيصاً لذنوبه»[١] .

إن الله تعالىٰ يملك النفوس جميعاً، ويتصرف بها كيف يشاء، فيقذف بشيء في نفس هذا أو ذاك، ويريه شيئاً في منامه، تقويماً لاعوجاجه، ومراعاةً لمصلحته، أو مصلحة الآخرين أو لمصلحة الدين . . .

قال رجل لعلي بن الحسين زين العابدين عليه السلام : رأيت في عالم المنام، وكأني أبول في يدي! فقال له الإمام عليه السلام : تحتك محرم!! فنظروا فإذا بينه وبين زوجته رضاع[٢] .

ونقل أن رجلاً جاء إلى ابن سيرين وقال: رأيت كأني أصبُّ الزيت في الزيتون! فقال : إن كانت تحتك جارية اشتريتها، ففتش عن حالها، فإنها أُمك، لأن الزيتون أصل الزيت، فهو ردّ إلى الأصل. فنظر فإذا جاريته كانت أُمه، وقد سُبِيَتْ في صغره، ثم تزوجها وهو لا يعلم بذلك[٣] .

ونقل أن رجلاً جاءه وقال: رأيت رؤيا هالتني، قال: ماذا رأيت؟ قال: رأيت كأني أعلّق الدُرَرَ في أعناق الخنازير! فقال ابن سيرين: كأنك تُعلّم الحكمةَ غيرَ أهلها!! وكان كما قال[٤] .

إن المؤمن الصالح، يتفضل عليه الله سبحانه، بأن يلهمه في منامه، ويصدر له إشارة يرىٰ بها حقيقة الأمور، ولا مانع أن نسمي رؤىٰ المؤمن ـ ذي النفس الصافية ـ كرامة باعتبارها تفضلاً وتلطفاً من الله عليه .

وإليك نماذج من الرؤىٰ الصادقة التي تحققت في اليقظة وصَحَّت :

١ ـ روىٰ الحاكم أبو عبد الله النيسابوري، بإسناده في كتابه (مفاخر الرضا عليه السلام) عن أبي حبيب النباجي، قال :

رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، وقد أتىٰ بلدتي (النباج)[٥] ونزل

(١) دار السلام للنوري : ٤/١٥٥ .

(٢) ربيع الأبرار : ٤/٣٣٧ .

(٣) - (٤) دار السلام للنوري : ٤/٢٤٩ .

(٥) النباج : قرية في بادية البصرة على النصف من طريق مكة (معجم البلدان) .

في المسجد الذي ينزل الحاج فيه كل سنة، وكأني مضيت إليه، وسلمت عليه، ووقفت بين يديه، فوجدت عنده طبقاً من خوص النخل، فيه تمر (صيحاني) وكأنه قبض قبضة من ذلك التمر فناولني إياه، فعددته، فكان ثماني عشرة ثمرة، ولما انتبهت من نومتي تلك، تأولت هذه الرؤيا أني أعيش بعد ذلك ثماني عشرة سنة، بعدد كل تمرة سنة .

فلما كان بعد عشرين يوماً، كنت في أرض لعمي، أشتغل في زراعتها، فلقيني بعض أصحابي، وأخبرني بقدوم أبي الحسن (علي بن موسى الرضا) عليه السلام ، ونزوله في نفس ذلك المسجد (وهو في طريقه إلى مَرو) ورأيت الناس يُسرعون إليه، فمضيت نحوه فإذا هو جالس في الموضع الذي كنت رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه، وتحته حصير مثل ما كان تحت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وبين يديه طبق من خوص النخل فيه تمر صيحاني، فسلمت عليه، فردّ عليّ السَّلام، وناداني وناولني قبضة من ذلك التمر، فعددته، فإذا عدده ثماني عشرة تمرة، (بعدد الذي ناولني جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت له: زدني يابن رسول الله، جعلني الله فداك، فقال لي: «لو زادك جدي رسول الله لزدتك»[1] .

وهذه رؤيا صادقة تماماً كما ترىٰ، ومثل هذه الرؤيا، تعتبر ـ لا شك ـ كرامة من الله لصاحبها، وبشارة نازلة من الله إليه، وينبغي اعتبار مثل هذه الرؤىٰ صادقة حتى قبل توافقها مع الواقع، لأن الرجل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن رأىٰ النبي، أو أحد المعصومين عليهم السلام في عالم المنام، يكون قد رآهم بالفعل، استناداً لما ورد في الحديث الشريف : **«من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»**[2] .

كذلك الحال بالنسبة للأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام فقد ورد عنهم ما هو بمعنىٰ قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) عيون أخبار الرضا : ٢/٢١٠، الثاقب في المناقب لابن حمزة ص ٤٨٣ باب فضائل أبي الحسن الرضا عليه السلام .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٤/٣٣٦ .

٢ ـ ويحدثنا الثعالبي في (اليتيمة) عن شاعر يُقال له (كـولان) حجَّ سنـة من السنين، وجاور بمكة المكرمة، فاعتلَّ علةً تطاولت به، وضاق معها ذرعاً، وكان قد نظم ـ كما يقول ـ في مدح أهل البيت عليهم السلام تسعاً وأربعين مقطوعة، قال في نفسه : لو أكملها خمسين ثم ابتدأ بها قائلاً :

بني أحمد يا بني أحمد . . .

يقول : ثم أُرتج علي، فلم أقدر على إتمام الشعر، وتوقفت قـريحتي، فعـظم ذلك علي، واجتهـدت في أن أكمل البيت فلم أقـدر، فحـدث لي من الغمّ بهـذه الحالـة مـا زاد على همي بعلتي، ونمت ليلتي مهمـومـاً أفكـر في حـالي، فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجئت إليـه أشكو إليـه ما أنـا فيه، من الضـائقة والهم، وما أجده من العلة، وأُخرىٰ من القِلّة .

فقال لي صلى الله عليه وآله وسلم : تصدّق يوسع الله عليك، وصُم يَصُحَّ بدنك .

فقلت يا رسول الله، وأعظم مما شكوته إليك، أنني رجل شاعر، أتشيَّعُ وأخصُّ بالمحبة ولدك الحسين عليه السلام ، وتُداخلني له رحمة لما جرىٰ عليـه من القتـل، وكنت قد عملت في أهـل بيتك تسعـاً وأربعين قصيـدة، فلمـا خلوت بنفسي في هذا المكان، حاولت أن أكملها خمسين، فبدأت قصيدة قلت فيهـا مصراعاً، فأُرتجَ علي إجازتـه، ونفـر عني ما كنت أعـرفه فمـا أقدر على قـول حرف .

قـال : فقال لي رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم قولاً قصـد منه إلى أنـه: ليس هذا إليَّ، لقوله تعالىٰ : ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغي له**﴾ ثم قال لي : اذهب إلى صاحبك، وأومأ بيده الشريفة إلى ناحية من نـواحي المسجد، وأمـر رسولاً أن يمضي بي إلى حيث أومـأ، فمضىٰ بي الرسـول إلى ناس معهم (علي بن أبي طـالب عليه السلام) فسلمت عليـه، وقصصت عليـه قصتي كمـا قصصتهـا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال لي علي عليه السلام : فما المصراع؟

قلت : بني أحمد يا بني أحمد . .

فقال للوقت : قل :

بكت لـكُم عُـمُــد المـسجِــدِ

بـيثــربَ واهـتــزَّ قبــر الـنبـي	أبـي القـاسم السيِّدِ الأصيَـدِ
وأظـلمت الأفـقُ أفقُ الـسمــاء	وذُرَّ عـلى الأرض كـالإثمِـــدِ
ومكـةُ مــادت ببــطحـائِهــا	لإعــظام فـعـلِ بـنـي الأعبُـدِ
ومــال الـحــطيم بــأركـانِـه	ومــا بــالـبنيـة من جلمــدِ
وكــان ولــيّــكُــمُ خــاذلاً	ولــو شـاء كـان طـويـل اليـدِ

قال : وردّدها عليَّ ثلاثاً فانتبهتُ وقد حفظتها[1] .

بنــو أُميــة :

٣ ـ وعن تسلط بني أُمية على رقاب المسلمين، وتعسفهم على الناس، وردت الأخبار المعتبرة المتواترة، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، رآهم في منامه ينزون على منبره . . .

في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه، عن الحسين بن علي عليهما السلام ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصبح وهو مهموم، فقيل له : ما لك يا رسول الله ؟

فقال : إني رأيت في المنام كأن بني أُمية يتعاورون منبري هذا .

فقيل : يا رسول الله لا تهتم فإنها دنيا تنالهم[2] .

فأنزل الله تعالىٰ : ﴿**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاَّ فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن. . .**﴾[3] .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر، كأنهم القرَدة، وأنزل الله في ذلك ﴿**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك. . .**﴾ إلى آخرها يعني الحكم وولده .

وأخرج عن عائشة، أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول

---

(١) أدب الطف للسيد جواد شبر : ٤/٧ .
(٢) تفسير الميزان : ١٣/١٤٨ .
(٣) سورة الإسراء ؛ الآية : ٦٠ .

الله ﷺ يقول لأبيك وجدك : (إنكم الشجرة الملعونة في القرآن)![1] .

بذيء اللسان حتى في المنام :

٤ ـ ومن لطيف ما يروىٰ من المنامات : إن نَبَطياً رأىٰ الحجاج بنَ يوسف الثقفي (الطاغية الظالم) في المنام، فأحب أن يعرفَ مصيره ومآله بعد الموت .

فسأله : إلى ما سيّركَ ربُّك؟

فقال الحجاج : وماذا عليكَ يابن الفاعلة !

فقال النبطي : ما سلمنا من فعلك حياً، ولا من سَبِّكَ ميتاً![2] .

عَفْــوٌ وَمَغْفِــرَةٌ :

٥ ـ ويروىٰ عن أبي نؤاس (الحسن بن هاني) الشاعر المعروف، أن رجلاً من أصدقائه رآه فيما يرىٰ النائم، فسأله : ما فعل بك ربُّك؟

قال : غفر لي ببيتين قلتهما قبيل وفاتي !

قال ما هما ؟

قال : قلــت :

من أنا عند اللّهِ حتىٰ إذا ... أذنبتُ لا يغفر عن ذنبي
العَفْوُ يُرجىٰ من بني آدمٍ ... فكيفَ لا أرجوه من رَبي؟

رؤيا المستنجد العباسي :

٦ ـ روىٰ ابن خلكان أن المستنجد بالله العباسي، الخليفة الثاني والثلاثين من بني العباس وكان موصوفاً بالعدل والإنصاف بين الرعية . . .

رأى في أيام خلافة أبيه في المنام، أن ملكاً نزل من السماء وأخذ يده،

---

(١) تفسير الميزان للطباطبائي : ١٣/١٤٨ .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٤/٣٣٨ .

فبسطها ورسم على كفّهِ أربع خاءات (خ خ خ خ) فانتبه متحيراً في معنى ذلك، وأرسل إلى أهل الخبرة والمعرفة في المنامات، يطلب منهم تفسير هذه الرؤيا . .

فقال له بعضهم : سوف تنال الخلافة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فكان كما قال[1] .

حديث النفس :

٧ ـ ومما يؤكد أن حديثَ النفس، والإيحاءات النفسية في اليقظة، قد تتحول إلى أحلام في عالم المنام، ما يذكره ابن الجوزي في كتابه (الأذكياء) عن الحلم الذي رآه المهدي العباسي، وكان من إلقاء بعض الناس عليه .

قال : وافى سعيد بن عبد الرّحمٰن دارَ الخلافة، أيام المهدي العباسي، فقال للربيع الحاجب : استأذن لي على الخليفة .

فقال له الربيع : من أنت وما حاجتك؟

قال : أنا رجل رأيت للخليفة رؤيا صالحة، وقد أحببت أن أذكرها له .

فقال الربيع : يا هذا، إن القوم لا يصدّقون ما يرون لأنفسهم، فكيف ما يراه لهم غيرهم؟ فأحتل بحيلةٍ هي أردُّ عليكَ من هذه الحيلة .

فقال سعيد : إن لم تخبرهُ بمكاني، سألت من يوصلني إليه، وأخبرته أني سألتك الإذن عليه فلم تفعل .

فدخل الربيع على المهدي، فقال له : إنكم قد أطمعتم الناس في أنفسكم، فقد احتالوا لكم بكل ضرب .

قال المهدي : هكذا صنع الملوك، فما ذاك ؟

قال: رجل بالباب، يزعم أنه قد رأى لأمير المؤمنين رؤيا حسنة، وقد

---

(١) وقائع الأيام للشيخ عباس القمي ص : ٢٣٠، أحداث ٨ ربيع الثاني .

أحبَّ أن يقصَّها عليه .

فقال المهدي : ويحك يا ربيع، إني والله أرىٰ الرؤيا لنفسي، فلا تصحُّ لي، فكيف إذا ادّعاها من لعله قد افتعلها .

قال: والله قلت له مثل هذا فلم يقبل .

قال : هاتِ الرجل .

فأدخِل سعيد بن عبد الرَّحمٰن، وكان له رؤية وجمال، ومروءة ظاهرة، ولحية عظيمة ولسان .

فقال له المهدي : هاتِ ـ بارك الله عليك ـ ماذا رأيت ؟

قال : رأيت ـ يا أمير المؤمنين ـ آتياً أتاني في منامي، فقال لي : أخبر أمير المؤمنين المهدي، أنه يعيش ثلاثين سنة في الخلافة، وآية ذلك أنه يرىٰ في ليلته هذه في منامه، كأنه يقلب يواقيت، ثم يعدّها فيجدها ثلاثين ياقوتة، كأنها قد وهبت له! .

فقال المهدي : ما أحسن ما رأيت، ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقبلة على ما أخبرتنا به، فإن كان الأمر على ما ذكرته، أعطيناك ما تريد، وإن كان الأمر بخلاف ذلك، لعلمنا أن الرؤيا ربما صدقت، وربما اختلفت .

قال سعيد : يا أمير المؤمنين، فما أنا أصنع الساعة ؟ إذا صرت إلى منزلي وعيالي فأخبرتهم أني كنت عندَ أمير المؤمنين، ثم رجعت صفراً ! .

قال له المهدي : فكيف نعمل؟

قال : يعجل لي أمير المؤمنين ما أحبّ، وأحلف له بالطلاق إني قد صدقت .

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وأمر أن يؤخذ منه كفيل لِيُحضِرَه من غد ذلك اليوم، فقبض المال، وقيل له : من يكفل بك؟ فمدَّ عينيه إلى خادمٍ فرآه حسنَ الوجه والزيّ، فقال: هذا يكفل بي .

فقال المهدي : أتكفل به؟ فاحمرَّ وخجِلَ وقال : نعم .

وكفله وانصرف، فلما كان في تلك الليلة، رأىٰ المهدي ما ذكره له سعيد حرفاً حرفاً، وأصبح سعيد على الباب، واستأذن فأُذن له، فلما وقعت عين المهدي عليه، قال له : أين مصداق ما قلت لنا؟

قال له سعيد : وما رأىٰ أمير المؤمنين شيئاً ؟

فضجعَ في جوابه، فقال سعيد : امرأتي طالق إن لم تكن رأيت شيئاً !!

قال له المهدي : ويحكَ ما أجرأك على الحلف بالطلاق! .

قال : لأنني أحلف على صدق .

قال المهدي : فقد والله رأيت ذلك مبيناً .

فقال له سعيد : الله أكبر، فأنجِز يا أمير المؤمنين ما وعدتني.

قال له: حباً وكرامة، ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار، وعشرة تخوت ثياب، من كل صنفٍ، وثلاثة مراكب من أنفس دوابّه مُحلّاة. فأخذ ذلك وانصرف،فلحق به الخادم الذي كان كفل به ، وقال له: سألتك بالله، هل كان لهذه الرؤيا التي ذكرتها من أصل؟ .

قال له سعيد : لا والله ما كان لها من أصل .

قال الخادم : كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له؟

قال : هذه من المخاريق الكبار التي لا يأبه لها أمثالكم، وذلك أني لما ألقيتُ إليه هذا الكلام، خطر بباله، وحدّث به نفسه، وأسرَّ به قلبه، وشغل به فكره، فساعة نام، خُيِّلَ له ما حلَّ في قلبه، وما كان شغل به فكره في المنام .

قال له الخادم : فقد حلفت بالطلاق ؟

قال : طلقت واحدة، وبيقت معي ثنتين، فأرد في مهر عشرة دراهم، وأتخلص، وأتحصل على عشرة آلاف درهم، وثلاثة آلاف دينار، وعشرة تخوت ملابس، وثلاثة مراكب .

قال : فبهت الغلام في وجهه، وتعجب من ذلك .

فقال له سعيد: قد صدقتك، وجعلت صدقي لك مكافأة على كفالتك لي، فاستُر عليّ ذلك.

ففعل ذلك[1].

إن رجلاً مثل الخليفة العباسي (المهدي) يهمّه كثيراً أن يعيش فترة أطولَ، وهو في سدة الحكم يتمتع بالجاه والسلطان، وهو أحرص ما يكون علىٰ استمرار حكمه وسلطانه، إنها قضية تشغل باله في كل لحظة من لحظات يقظته ونومه.. وأشدّ ما يخاف منه أن لا تستمرَّ معه الحياة على حالها، يفزع من الموت، أو أن يُنتَزَعَ منه الملك وهو بعدُ لم يستوفِ الكفاية من هذه الحكومة اللذيذة..

إن سعيداً ألقىٰ في روع الخليفة شيئاً يَمسّ جوهر حياته، فالقضية التي ذكرها له، تشكل مسألة حساسة مهمة، بل هي في غاية الأهميّة، إنها تتناول طول عمره في الخلافة والملك.. وبذلك شغل سعيد كل مساحة تفكير الرجل طوال ذلك اليوم وحتى الساعة التي آوىٰ فيها إلى مضجعه.. وغلبه النوم وعقله الباطن منصرف كلياً إلىٰ هذه الرؤيا التي ادّعاها له سعيد... واستمر معه التفكير حتى في حال النوم..

ورأى بالفعل ما ألقىٰ إليه سعيد، وما أوحىٰ به إليه.

إن النفس البشرية تنفعل بما يلقىٰ إليها، من خيرٍ أو شر، صحيح أو باطل.. فلو قيل لإنسانٍ صحيح مُعَافىٰ: ماذا بك؟ هل أنت مريض؟ لماذا هذا الإصفرار في وجهك؟

ثم لقيه آخر، فكرر عليه مثل هذه الأسئلة.. ثم لقيه ثالث، وأعاد عليه هذه الإستفسارات سأله عن سبب تغيّر سحنته، وضمور حدقة عينه... تكون النتيجة ـ لا شك ـ التأثر بهذه الإيحاءات.. ويمرض فعلاً.. ويستشعر العلة والسقام حقيقة، وإن كان صحيحاً سالماً ولم يكن به أي بأس.

إن أطباء النفس يستفيدون من (الإيحاء) في مجال عملهم كثيراً

---

(١) (الأذكياء) عبد الرَّحمٰن بن الجوزي ص: ١١٠.

لاستصلاح نفوس المرضىٰ إذ ربما كان المريض لا يشكو من مرض عضوي معين، ولا من علةٍ خاصة، إنما يعاني من أوهام وتهيوءات لا أساس لها، تراكمت على نفسه فأردته مريضاً، في مثل هذه الحالة، يحاول الطبيب أن يطرد ـ بشكل أو بآخر ـ هذه الأوهام من نفس المريض ليعود صحيحاً سالماً.

فالإيحاء، أو الإلقاء النفسي، وسيلة من الوسائل المعروفة لعلاج مثل هؤلاء المرضىٰ . .

وكما يستخدم طبيب النفس هذه الوسيلة لعلاج مرضاه، كذلك تستخدمه وسائل الإعلام، فتسخّر الإيحاء النفسي مع الجماهير للتأثير في نفوسهم وأفكارهم، وتوجيههم الوجهة التي تريدها. . وبخاصة في فترات الحروب، تلقي إلى الناس بما تريد، وتوجّههم كيف تشاء وتوحي إليهم بمعلومات قد تكون صحيحة، وقد لا تكون . .

ويظهر أن سعيداً كان ملماً بهذه الطريقة، فقد ألقى في روع الخليفة بشيء يهمه كثيراً وتركه مشغول البال بهذا الموضوع ليله ونهاره. . حتىٰ تحول هذا الإلقاء إلى رؤيا رآها المهدي في منامه .

وهذا ما يقع لكثير من الناس. . إن اهتمامات اليقظة تتحول إلى أحلام، يراها الرائي، دون أن يكون لها أي مفهوم محَدّد، أو تعبير خاص . .

فلا ينبغي التخاوف منها. . ولا يصحُّ البناء عليها .

العلاج :

والعلاج الناجع لدفع هذه المنامات التي لا معنىٰ لها، هو ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذا أخذ مضجعه .

روي عن حذيفة رضوان الله عليه : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذا أخذ مضجعه من الليل، وضع يده تحت خدّه ثم يقول : **«اللَّهُمَّ باسمك أموت وأحيا»** وإذا استيقظ قال : **«الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور»**[1] .

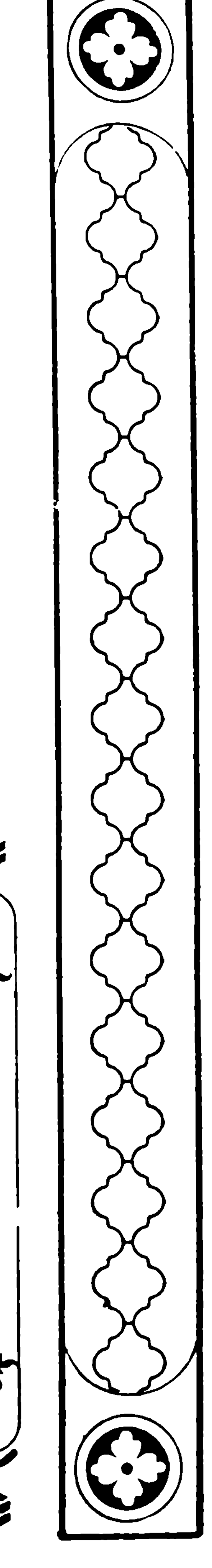
---

(١) تفسير الأحلام : عصام الدين محمد علي ص ٣٣ .

والملاحظ في هذا الحديث، أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يسمي النوم موتاً . . وذلك إن القاسم المشترَكَ بين الموت والنوم، هو تعطيل الحواس، وربما مفارقة الروح للبدن، أو، لِنَقل : مفارقة النفس للبدن . .

وعن براء بن عازب قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، إذا آوىٰ إلى فراشه، نام على شقِهِ الأيمن، ثم قال : **«اللَّهُمَّ أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلاَّ إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيّك الذي أرسلت»**[1] . للأحلام

(١) تفسير الأحلام : عصام الدين محمد علي ص ٣٣ .





٢٢

صفـــاء الـــنفس

أكرر القول: إن صفاء النفس وشفافيّتها يشكلان أهم عنصرين للإحلام المريحة الصادقة، ولكن الناس تتلوث نفوسهم ـ عادة ـ باجتراح المعاصي، واتباع سبل الغي، والجنوح للحرام، والميل للهوىٰ. . فتشوب نفوسهم شوائب وأكدار مما يمتنع معها تلقي الإلهام من الله تعالىٰ.

من هنا، فإننا بحاجة إلى تربية دائمة للنفس، وترويض لها على الخير، لتكون مؤهلة لاستقبال بشارة الله، وإلهام السماء.

وتطهير النفس لا يتأتىٰ إلاّ باجتناب الشهوات، والملذات الممنوعة، والذنوب المهلكة. . فمن الذنوب ما يقف حاجزاً دون الالتقاء بروح السماء ويغلق أبواب الفهم على الإنسان **﴿كلّا بل ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾**[1].

لذا وجب علينا ـ عقلاً وشرعاً ـ أن نكابد بشدّة، لعزل أنفسنا عن الشر، بعد أن أحطنا به، من كل حدب وصوب، وأن نقلع عن ممارسة الفعل القبيح، والقول القبيح، اللذين ينهىٰ عنهما الدين، كالكذب والغيبة، والحقد على الناس، والإفتراء والخوض في الباطل، والمكر. . . وما إلى ذلك، فقد اتجه العالم بنا ـ في هذا الزمن ـ إلى خواء في الأخلاق والقيم والمثل . . .

إننا بحاجة للنفس الصقيلة، النقية، أكثر من حاجتنا للحلم الصادق، أما لو كانت النفس محمّلة بأثقال الآثام، محجوبة بكدر الذنوب، فلا تنفعها

(١) سورة المطففين ؛ الآية : ١٤ .

الأحلام في شيء.

والنفس الشفافة تؤدي دوراً كبيراً في حياة الإنسان، في نومه ويقظته، وإذا كان للنفس هذا الأثر الفعال في تصوير الحقائق، وتجسيد الوقائع للإنسان في حال نومه، من خلال الرؤىٰ الصادقة، فالأجدر والأولىٰ أن يكون لها أثر في تبيان الحقائق في حال اليقظة . .

وهي كذلك بالفعل. . فالنفس البشرية تمتلك قدرة عجيبة على اكتشاف الحقائق، ورؤية المستور، وإدراك ما لا تدركه الأعضاء والجوارح. . ولكن تختلف نفوس الناس من شخص لآخر، باختلاف درجة صفاء نفوسهم وطهارتها، فمن كانت نفسه أكثر نقاءً وصفاء كان أبعدَ وأعمقَ نظراً، وأقوىٰ على استكشاف الحقيقة. . بخلاف من ضَعُفَت نفسه، وهانت، وتدنّت في الموبقات. .فهويكون أضعف بصيرةً، بل فاقداً للبصيرة، ومعدوم الرؤية، تكتنف الظلماتُ قلبه .

قال تعالىٰ : ﴿**ومن لم يجعل اللَّهُ له نوراً فما له من نور**﴾[1] .

إنه نور النفس الذي يستطيع أن يرىٰ به ما لا تراه العين، يستطيع أن يميّز بين الخير والشر، والصحيح والسقيم، والحق والباطل .

ويقول تعالىٰ : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا اللَّهَ يجعل لكم فرقانا. . .**﴾[2] .

إن هذه الشفافية في النفس، يصطلح عليها العلم الحديث بـ (العقل الباطن) أو (الحاسة السادسة) لأن هناك إرشاداً وتوجيهاً ذاتياً تقوم بهما النفس، للتعريف على مواطن الصحة والسلامة، أو مواطن السوء والإنحراف. . وتقوم النفس بعملية قراءة ما بين السطور .

أما في نصوص الدين الحنيف، فيعبَّر عنها بتعابير مختلفة، منها : (الفرقان) كما سبق في الآية الكريمة، والفرقان هو المرشد الباطني الذي ينير

---

(١) سورة النور ؛ الآية : ٤٠ .
(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٩ .

الدرب في ظلمات هذه الحياة .

يشرح الطبرسي نوّر الله ضريحه، كلمة الفرقان بهذا الشكل (يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل)[1] .

ومنها : بعد النظر، كما ورد في وصف ضرار بن ضمرة لعلي أمير المؤمنين ﷺ (كان والله بعيد المدىٰ . . .) فلا يمتلك بعد النظر إلاّ من يمتلك نفساً شفافة لينظر بعيداً ويكتشف المستقبل بنظرته الثاقبة، كما كانت الحال في أصدق صورها مع الرسول وأهل بيته الكرام .

وربما عبّر عنها بكلمة (النور) لأن الإنسان تمتنع عليه الرؤية والحركة في الظلمة (ظلمة الحياة) إلاّ بنور من الله عزّ وجلّ .

قال سبحانه : **﴿أَوَمَن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مَثَلُه في الظلمات ليس بخارجٍ منها . . ﴾**[2] .

والمراد بالميت هنا (الكافر) الجاحد لآيات الله، والمعرض عن الدين، مثله مثل الميت لا ينفع أحداً ولا ينتفع منه أحد، وإن كان حاملاً لكفاءات عالية، وقدرات واسعة كما لو كان ـ مثلاً ـ عالماً غزير العلم، وعظيماً في أعين الناس، إلاّ أنه يبقىٰ عاجزاً في نفسه عن استكشاف الطريق الصحيح، وهو بالتالي ضالّ يعيش ظلمة الكفر والضلالة. بخلاف المؤمن الذي يحمل نفساً بصيرة، ذات رؤية بعيدة وواضحة، عميقة وكاشفة .

قال تعالىٰ : **﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . . . ﴾**[3] .

وقال : **﴿قل هل يستوي الأعمىٰ والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾**[4] .

---

(١) مجمع البيان للطبرسي تفسير الآية من سورة الأنفال .
(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٢٢ .
(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٥٧ .
(٤) سورة الرعد ؛ الآية : ١٦ .

وقـال : ﴿وما يستوي الأعمىٰ والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ (١) .

وقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : **إتّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله** (٢) .

والفراسة هي عمق النظر وبعده، واستكشاف المجهول. فمن أين تـأتي هذه الفراسة؟

إن مصدر هذه الفراسة في المؤمن، نفسه الطاهرة النقية،وبـاطنه الـذي حرص على أن يبقىٰ سليماً، وقلبـه الزكي الـذي يَدُلّـه على الصواب ويهـديه سواء السبيل قال أمير المؤمنين عليه السلام : (المؤمن نفسه منه في تعب والناس منه في راحة) .

روي عن أحـد كبار علمـائنا، وهـو المرحـوم العالم الـربّـاني، الشيـخ عبد الكريم الحائري رحمه الله، وقد كان نزيل مدينـة (قُم) ومؤسس جامعتهـا العلمية .

دعاه يومـاً أحد الـطلبة إلى ضيعـة كانت لأبيـه، وكان والـده تاجـراً غنياً يملك بستاناً كبيراً في الضيعة .

استجاب الشيخ لدعوة تلميذه، وحلَّ ضيفاً عليهم في البستان، قـدّم له البستاني سفطاً من عنب، ومدَّ الشيخ يده ليأخذ منه، ولكنـه ردّها، ولم يـأخذ من ذلك العنب، فتعجبوا من فعله، وأصرّوا عليه أن يأكل، فلم يفعل .

انفضَّ المجلس. . وبقي في نفس هـذا الـطالب أن يسـأل الشيـخ عن سبب امتنـاعـه عن أكـل العنب، رغم علمـه أن الشيـخ يحب العنب! فحين اختلى به سأله، فلم يرغب الشيخ أن يفصـح عن سبب امتناعـه، ولكنه أخيـراً ـ أمام إصرار الطالب ـ ذكر له السبب .

قال : إن لديَّ إحساس يمنعني عن الأكل الحـرام، وحين مددت يـدي إلى العنب عـافتـه نفسي، وغلب على ظني أنـه من حـرام، دون أن أقـطع

---

(١) سورة فاطر ؛ الآية : ١٠ .

(٢) ربيع الأبرار: ٢/٨٠٧.

بـذلك، فـلا يمكن الحكم على الظنـون والشبه النفسيـة. . ولكنِي في الوقت ذاته أرىٰ أن نفسي لا تكذبني. . ففضلت الإمتناع عن أكله، احترازاً من الحرام المظنون.

تعجّب الـطالب، وامتلكتـه حيرة. . كيف يمكن أن يكـون هـذا العنب حراماً، وهو مجنيّ لتوّه من شجر بستانهم؟.

عزم على أن يتأكد من ذلك ويسأل أباه، فقـد يكون اختلط شيءٌ من الحرام بمال أبيه وهـو لا يعلم بذلـك. . ولكن الوالـد حين سمع بخبـر الشيخ أبـدىٰ استغـراباً شـديداً من ذلـك، وأكد أن مـاله لم يحصـل عليه إلاَّ من حِـل، ولا يشوبه شيء من الحرام. . والخير أن يسأل البستاني الذي باشـر تهيئة العنب، ووضعه بين يدي الشيخ، لعله يعرف شيئاً لا يعرفانه.

وبالفعل أرسل الوالد إلى الفلاح، وسأله: من أين جاء بالعنب؟.

قـال البستاني مستغـرباً من هـذا السؤال: وهل كـان به بـأس لا سمـح الله؟

قالوا: لا، ولكن الشيخ امتنع عن أكله، وقال إنه من حرام!

قـال: لقد صـدق الشيـخ!! إن العنب في بستـاننـا حـامض، والشيـخ يفضله حلواً، وفي بستان الجيران عنب حلو، تسوّرت حائطهم وجلبت له عنباً حلواً دون علم الجيران. .

إن مثـل هذا التصـرف من البستاني يكـون ـ عـادة ـ مـألـوفـاً بين جيـرة البسـاتين، فـربمـا يـأخـذ هـذا من بستـان ذاك، وذاك من بستـان هــذا بـإذن الفحوىٰ، وبالموافقة الضمنية. .

ولكن الشيخ أدرك بقوة حاسته النـابعة من تمـرسه في التقـوىٰ، وجهاد النفس، ورسوخ الإيمان، بحيث صفت نفسـه، ورأى ما لا يراه غيره، وأحس بما لا يحس به الآخرون.

﴿ذلك هدىٰ اللّهِ يهدي به من يشاء من عباده﴾[1].

(١) سورة الأنعام؛ الآية: ٨٨.

قد يشترك الجميع ـ بالفطرة التي فطر الله الناسَ عليها ـ في امتلاك الحاسة السادسة، أو ما سميناه بشفافية النفس، وقراءة ما بين السطور، وتبيان الحقائق، إنما المؤمن يتمتع بالقدر الأكبر من ذلك .

ويمكن أن تذبل هذه النفس شيئاً فشيئاً، كلما اقترف المرء من المعاصي، وركب من الآثام وابتعد عن ساحة الإيمان . .

وتصلب وتقوىٰ وتشتد كلما ازداد صفاء ونقاوة في نفسه، بالإيمان والعمل الصالح واجتناب الأخطاء . . كالضياء الذي ربما يكون في كل البيوت، ولكن بعض الناس يمتلك كشّافاً يريك أبعد المسافات وينير أكبر حجم من الظلمات .

ومن ميزات النفس المتفرسة، أنها تبحث عن الحقيقة، وتتحرىٰ الدقة في بحثها حتى تقع عليها، وتستأنس بها .

إن علياً عليه السلام ، سبق الناس جميعاً إلى الإسلام، وكذلك خديجة بنت خويلد عليها السلام ، أنهما أدركا سريعاً صدق نبي الإسلام، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء بخير الدنيا والآخرة، فأعلنا عن إيمانهما به، وتصديقهما له، وقبولهما لما جاء به من عند ربه، دون أي تردّد أو تأخّر، وقعا على الرأي الصواب بتدليل من تفرس نفسيهما . . في الوقت الذي أشاح الناس فيه جميعاً بوجوههم عن هذا الدين، وأعرضوا عن النبي الكريم .

ولما اعترض البعض علىٰ علي عليه السلام قائلاً : هل استشرت أباك حين آمنت بمحمد ؟

أجابه قائلاً : وهل استشار الله أبي حين خلقني؟ رأى بفهمه الواسع، ونظره الثاقب أنّ الطريق الصحيح هو هذا الذي تتبّع فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم (اتباع الفصيل أثر أمه) ففيه صلاح دنياه وآخرته، وإن كان محفوفاً بكثير من الأخطار والأهوال، والتي أحجم بسببها الكثيرون من السير وراء نهج الإسلام الجديد، فمنهم من تأخر إسلامه لضعف فراسته، ومنهم من لم يؤمن أبداً لعمىٰ قلبه .

إن البعض يمتلك من حدّة التفرس، وقوة الحدس، ما يمكّنه من استطلاع

غيب القلب، وإنّ كثيراً من الناس يدرك بفطرته وفطنته خبايا نفوس الآخرين، ومستور ضمائرهم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه»**[1].

ولكن يبقىٰ أهل الإيمان والتُقىٰ أكثر قدرة على ذلك.

قال شاعر:

كأنك مُطَّلِعٌ في القلوب إذا ما تناجت بأسرارها
فكرات طرفك ممتدّةٌ إليك بغامِضِ أخبارها

دخل داخل إلى بيت الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، واستقر به المجلس ليستمع درس الإمام، ولما انتهىٰ الدرس وتفرق الناس، طلبه الإمام، وحذَّره من أين يحضر جنباً في مثل هذا المكان، فلا يليق به أن يكون بمحضر الإمام جُنباً! وفي حالة نجاسةٍ معنويّة!..

وقد كان الإمام عليه السلام كأنما ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق.. واعتذر الرجل للإمام بأنه خاف أن يفوته الدرس لو ذهب للإغتسال.

هذه صور عن صفاء النفس وشفافيتها لدىٰ بعض الطاهرين من الناس، ذكرتها لتكون مثلاً لمن يحاول الوصول إلى علو النفس وشرفها وطهارتها.. ولنحاول جميعاً ترويض نفوسنا على الصفاء والطهارة.. وإن كان في ذلك بعض الجهد وشيءٌ من المعاناة إلاّ أن في ذلك راحة للنفس وراحة للناس.

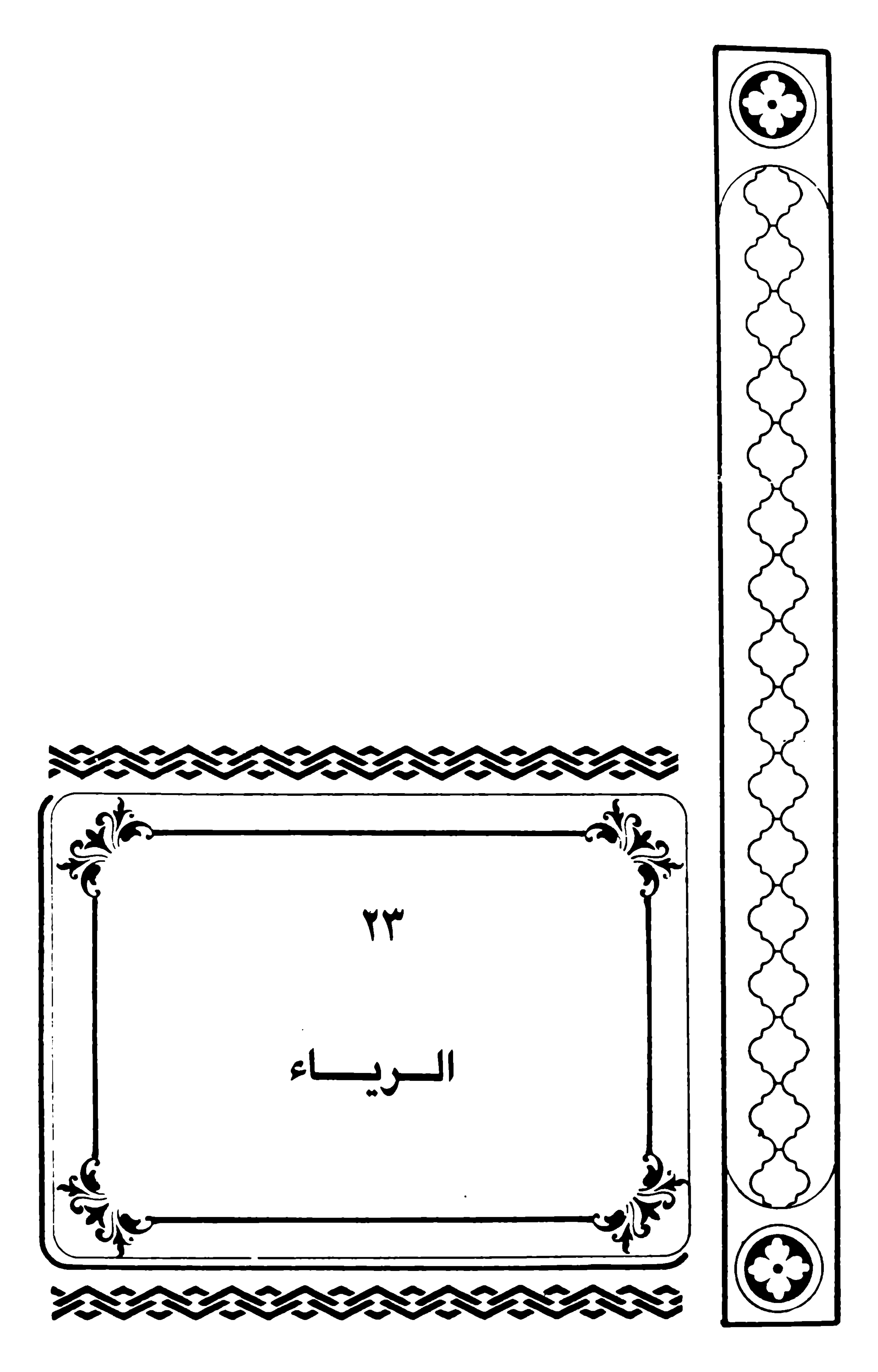
روي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«المؤمن نفسه منه في تعب، والناس منه في راحة».

نسأل الله العون والمدد في طريق إصلاح النفس وتقويمها.

---

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار ربيع الأبرار: ٢/٨٠٧.



٢٣

الـريـاء

إن الإنسان ـ بطبعه ـ لا ينطلق في هذه الحياة إلاَّ بثمن، ولا يتحـرك أية حركة، إلاَّ إذا كان مدفوعاً إليها، ولا يأتي بفعل إلاَّ أن يحقق من ورائه غـرضاً معيّناً .

التجارة ـ مثلاً ـ يبتغي من ورائها الربح والغنىٰ، والزراعة لا يمارسها إلاَّ لطلب الغذاء،وحتى طلب العلم. . إنما يريـد أن يصل بـه إلى غايـة منشودة، وهكذا . .

هذا ما يخص الجانب المادي في حياة الإنسان .

كذلك الحال في نشاطاته المعنوية أو الـروحية، يـريد المـرء من ورائها ثمناً أيضاً، ولولا اعتقاده بأن أعماله تُثمَّن عند الله، لمـا عمل شيئـاً قط، والله عـزّ وجـلّ يحـدّث النـاس في بعض المـوارد بهـذه اللغـة أيضـاً، لغــة الثمن والمثمن، فهو عندما يحثهم على الجهاد في سبيله يدعوهم بهذا الأُسلوب :

﴿إن الله اشتـرىٰ من المؤمنين أنفسَهُم وأمـوالَهم بـأن لهم الجنّـة﴾ (١) فالجهاد بالمال والنفس عملية تجاريـة مع الله عـزّ وجلّ، صفقـة بيع وشـراء، وثمن ومثمَّن! وأما كيف تتمُ هذه الصفقة؟ فيجيب القرآن الكريم :

﴿يقـاتلون في سبيل الله فَيَقتُلونَ وَيُقتَلون وعـداً عليـه حقـاً في التـوراة

---

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ١١١ .

والإنجيل والقرآن ومن أوفىٰ بعهدِه من اللهِ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[1] .

هكـذا . . يسمي الجهاد بيعـاً! ويجعل الجنة له ثمناً، ويفتـرض المـال والنفس بضاعة يقدمها الإنسان المؤمن بين يدي المشتري وهو الله عزّ وجلّ .

وورد في الخبـر أيضاً : (تـاجروا الله بـالصدقـة) على اعتبـار أن المـال الذي يتصدق بـه الشخص يشتري بـه ما عنـد الله من الثواب الجميـل والأجر الجزيل . . فهي عملية اكتساب وبيع وشراء .

بناء على ذلك، فإن كل سلوك الفـرد لا بد وأن يكـون مدفـوعاً بـدوافع معينة، ولا يمكن أن يخطو خطوة عبثاً واعتبـاطاً من غيـر أن يفكر في المـردود المادي أو المعنوي . .

وقد تكون هذه الدوافع معروفة معينة في بعض الأحيـان، وقد تكـون لا شعوريّة، تتطلب معرفتها شيئاً من المجهود والتحليل .

وقد قام علماء النفس (الحديث) بكثير من الدراسات لكي يعرفوا دوافع الإنسـان المختلفة، الفـطريـة والمكتسبـة، وأثـرهـا في سلوك الإنسـان، وهم يقومون بدراسة كل أنـواعِ الـسـلـوك في الإنسـان، ويهتمون بهـا للوصول إلى الغاية المنشودة، إنما الفَرق الواضـح بين علم النفس الحديث، ومنـاهج علم النفس الديني، هو أن الإسـلام، وضع الحلول والعـلاجات العـامة الشـاملة، عن خبرة إلٰهيّة سماوية، بكنه الإنسان وذاته وطباعه لا يحتاج معهـا إلى دراسة النفوس وأنواع السلوك. بينما يحتاج علم النفس الأرضي، أن يـدرس بعمق، أنواع السلوك ليصل إلى الحلول الاحتمالية .

والفرق كبير بين معالجة الدين وبين معالجة العلم الحديث للنفـوس . . ونحن هنا بصدد طـرح وجهة النـظر الإسلاميـة، فيما يتعلق بـالنفس والسلوك البشري .

---

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ١١١ .

وبما أن النفس مجبولة على أن تكون وراء نشاطاتها (المادية والمعنوية) دوافع، وضع الله عزّ وجلّ لها دافعاً حتىٰ في العبادات والطاعات والقربات وأداء الفرائض .

قال عزّ وجلّ : **﴿فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ الذي أطعَمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف﴾**(١) .

إنه تعالىٰ أطعمهم وأغناهم ووفر لهم الأمن، وفي المقابل أراد منهم العبادة والطاعة فكأن طاعة الله لها ثمن، وهو الخير العميم والأمن والسلامة. . فيكون الدافع وراء الطاعة والوحدانية لله تعالىٰ، طلب الاستغناء والشبع وهدوء البال، وبعبارة أُخرىٰ يكرر هذا المعنىٰ في قوله تعالىٰ : **﴿وأن لو استقاموا على الطريقةِ لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾**(٢) .

إن وحي السماء يؤكد على أن لكل عمل جزاءً، كمردود حتمي، سواء كان هذا العمل دنيوياً مادياً، أو كان أُخروياً إلٰهياً .

ولكن يبقىٰ ثمة فارق كبير، بين ما يعمله الإنسان للدنيا، وبين ما يعمله لله وللآخرة. . وهو أن العامل لله وللآخرة لا ينبغي أن يطلب الأجر والثمن من أهل الدنيا، وإلاّ فسيكون قد أشرك غير الله في ما يتعلق بالله سبحانه . . .

وهو ما يُعَبّر عنه بـ (الرياء) .

ومثال ذلك : من ينفق ماله زاعماً أنه أنفق لله، ولكنه ـ في حقيقة الحال ـ يريد بانفاقه الاشتهار بين الناس .

وبعبارة أُخرىٰ : يريد أن يجمع بين أجرين: أجر الدنيا وأجر الآخرة، أو الأجر من الناس والأجر من الله، وبذلك تكون الدوافع غير سليمة. . وهذا من العمل الممنوع .

﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناسِ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾(٣) .

---

(١) سورة قريش ؛ الآية : ٣ .

(٢) سورة الجن؛ الآية: ١٦ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٦٤ .

إن الأعمال الإلٰهية الصالحة، لا بد وأن تكون مقرونة بالنية الخالصة، من غير شائبة من النوايا الدنيئة، والأهداف المنحطة.

وبين الإخلاص والعمل الصالح، تلازمٌ واتصال وثيقين، كتلازم النور للشمس، والروح للجسد، ولا يمكن الفصل بينهما إلّا إذا خرج العمل من دائرة الصلاح والتعبد.

والنفس هي التي تتحكم في مثل هذه الموارد.. فهي التي تسمح للعمل أن يبقىٰ خالصاً نقياً من الشوائب، وهي التي تلوثه بالرياء، وحب السمعة، والتظاهر والتجاهر.

وجاءت تعاليم الإسلام، لتقوّم انحراف النفس في هذا المجال، وتحث على الإخلاص وتحذّر من الرياء، في مجموعة متكاملة من النصوص الدينية.

قال سبحانه وتعالىٰ: **﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾**[1].

وقال علي ﷺ: **«... ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، وقد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمّرَ من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية»**[2].

تتضمن هذه المقطوعة من كلمات الإمام ﷺ صوراً متعددة لأهل الرياء والنفاق ولابسي الصوف والثياب المرقوعة لغير وجه الله، الذين يتظاهرون بالعبادة والإخلاص والعمل الصالح، ولكنهم في الحقيقة، ذئاب في ملابس الحملان، يريدون أن يحققوا بأعمالهم هذه مكاسبَ دنيويّة، وأهداف حقيرة.. وما أكثرهم!!.

قال تعالىٰ: **﴿يراؤون الناسَ ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً﴾**[3].

---

(١) سورة الكهف؛ الآية: ١١٠.
(٢) النص ٣٢، نهج البلاغة.
(٣) سورة النساء؛ الآية: ١٤٢.

الرياء لون من ألوان النفاق، ومنشأ النفاق النفسي هو إحساس المنافق بالحقارة في ذاته، وبالذل في دخيلته.. المنافقون يتصنّعون في أقوالهم وأفعالهم ويظهرون للناس على غير حقيقتهم، لكي يعوّضوا عن هذا الطريق، ما يشعرون به من نقص وامتهان للذات، ويخففوا به من آلامهم النفسية.

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«نفاق المرء من ذلٍ تجده في نفسه»**[1].

الإحساس بالحقارة:

إن الذين تنقصهم القيم الأخلاقية، وينظر إليهم الناس نظرة امتهان وتحقير، يحاولون نيل بعض الكرامة الشخصية، والحصول على بعض الوزن الاجتماعي، فيتوسلون بالمخادعة والرياء، والسبل الخبيثة المضلّلة، ويتظاهرون بالزهد والتقوىٰ، ويلبسون لَبوس الإيمان والصلاح كِذباً (كما عبر عنهم أمير المؤمنين عليه السلام).

إنهم يريدون بالرياء والنفاق استغفال العامة، وحشر أنفسهم ـ زوراً ـ في زمرة الصالحين الطاهرين، والفوز بحسن تقدير الآخرين لكي يكونوا مثل المؤمنين الصادقين، محبوبين عند الناس.. فيخفف ذلك إحساسهم بالذلّ والضِعة.

وما أحسن ما قال عنهم شوقي في مقطوعته المعروفة (الثعلب والديك):

بَرَزَ الثعلبُ يوماً في شعار الواعظينا
فمشىٰ في الأرض يهذي ويسبُّ الماكرينا
ويقول: الحمد للّهِ إلٰهِ العالمينا
. . . .
إنهم قالوا وخيرُ القولِ قولُ العارفينا
«مخطِىءٌ مَن ظنَّ يوماً أن للثعلبِ دينا»[2]

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي: ٧٧٧.

(٢) الشوقيات: ٤/١٥٠ طبع بيروت دار الكتاب العربي.

من صفات هؤلاء المرائين أنهم يحبون المدح والثناء حباً جمّاً، وخاصة بين عامة الناس من البسطاء والطيبين. . وما هدفهم من أعمالهم (التي تبدو صالحة) والتي يقومون بها، وأدائِهم الفرائض الدينية، إلاّ نيل استحسان الآخرين، والتأثير فيهم وتحقيق مآربهم وأغراضهم ومشتهياتهم الدنيئة، من دون أن يكونوا معنيين بأداء واجباتهم الإسلامية والإنسانية، وإطاعة الأوامر الإلٰهية .

إنهم لا يفعلون خيراً إلاَّ بشرط أن يكون له صدىٰ في المجتمع، فيراه الناس، أو يسمعون به على الأقل، وإلاَّ فإنهم لا يقيمون وزناً للطهارة والصلاح ولا يعنيهم من مقاصد الدين شيء .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : **«ثلاثُ علامات للمُرائي: ينشط إذا رأىٰ الناس، ويكسل إذا كان وحدَه، ويحب أن يحمد في جميع أمورِهِ»** (١) .

أما المؤمن الصَّادق، الذي يذكر اللَّهَ في جميع أحواله، وسِرُّهُ وعلانيتُهُ سواء، فهو صالح بتمام معنىٰ الكلمة، دائم الشعور بالمسؤولية، يعمل حسب ما تمليه عليه معتقداته ومبادئه ولا يرضىٰ إلاَّ بتوافق الظاهر مع الباطن والسر مع العلانية، وإلاَّ بتطابق الأقوال والأفعال مع الآراء والأفكار، وتماثُل نواياه مع أفعاله، وأفعاله مع نواياه .

هذه الفئة من الناس، تتمتع بقلوب مطمئنة، وبإرادة قويّة، بسبب اتكالها على الله، وطلبها لمرضاته، تعمل ما تعمل بحزم وإصرار وثقة بالنفس، لا تخاف المشاكل، ولا تقلقها الأحداث، ولا يهمها رضا الناس بأكثر من رضا الله سبحانه .

تلك هي الفئة المطيعة لله بحق، تتميز بخلوص النية، وطهارة القلب، لا تغفل ولا تتنكر لقيمها ومبادئها ، وتأبىٰ الدناءة والضِعة، وإن كلّفها ذلك كثيراً. وهم كما قال عليٌّ عليه السلام : **«من أخلَصَ النيَّةَ تنزَّهَ عن الدنيّة»** (٢) .

---

(١) الكافي للكليني : ٢/٢٩٥ .

(٢) فهرست الغرر: ٩٣.

المراؤون في القرآن :

يعرض القرآن الكريم صوراً ومشاهد من رياء العبّاد والمصلين، فيقول عنهم :

﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون﴾[1] .

يتلاعبون بالصَّلاة ويسخِّرونها لصالح أهدافهم الحقيرة، ويتخذونها وسيلة للإغواء والإغراء. إن الله عزّ وجلّ يسمي أعمالهم شركاً كما سبق في الآية (١١٠) من سورة الكهف، وينفي عنهم الإيمان بالله واليوم الآخر كما ورد في الآية (٢٦٤) من سورة البقرة، هذا فيما لو كانت كل أعمالهم رياءً ونفاقاً، وقد يكون من بين الناس من يرضخ لهوىٰ النفس ويَتّبع سبلَ الشيطان في بعض الأحيان، لا في كل الأحيان، يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . . هؤلاء عليهم أن يكونوا حذرين من الإنجراف في تيار الشيطان واجتناب الرياء في الأعمال، وإلاّ لكانوا ممن قال الله فيهم :

﴿يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلاَّ قليلاً﴾[2] .

ويشير القرآن الكريم إلى موقف مبدئي عظيم، اتَّسَمَ بالإخلاص التام لله، وخلا من أي لون من ألوان الرياء والمخادعة، وتجلىٰ فيه الإصرار والعزم والحزم، في سورة الدهر، عند ذكر إيثار الإمام عليه السلام وأهل بيته الكرام، وإطعامهم المسكين واليتيم والأسير .

وملخص القضية كالتالي : مرض الحسنان عليهما السلام ، فنذر علي عليه السلام ، أن يصوم ثلاثة أيام إن عوفي السبطان من مرضهما، وحين سمعت أُمهما سيدةُ النساء فاطمة عليها السلام بذلك، نذرت أيضاً . . ولما عافاهما الله، وَجَبَ الإيفاء بالنذر .

﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شرُّهُ مستطيرا﴾[3] فصام أهل

---

(١) سورة الماعون ؛ الآيتان : ٥ ـ ٦ .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ١٤٢ .

(٣) سورة الإنسان ؛ الآية : ٧ .

البيت عليهم السلام، ولما حانت ساعة الإفطار ـ وكانوا قد هيّأوا أقراصاً من الخبز لإفطارهم ـ طرق عليهم مسكين، يسألهم أن يطعموه مما رزقهم الله، فقدموا له إفطارهم واكتفوا بالماء القراح، ثم صاموا لليوم الثاني، ولما كانت ساعة الإفطار ـ وكان الجوع قد أضرَّ بهم لكونهم لم يذوقوا طعاماً منذ يومين ـ طرق عليهم هذه المرة يتيم، يرجوهم أن يطعموه شيئاً. فأعطوه الأقراص وباتوا على الطوىٰ، وصاموا يوماً ثالثاً، وفاجأهم وقت الإفطار أسير، يريد طعاماً، فآثر أهل البيت الجوعَ ليشبع هذا الأسير.. فعلوا كلَّ ذلك لوجه الله تعالىٰ، لا يريدون جزاءً من أحد، بل لم يكن يعرف عن حالهم أحد، وهذا غاية الإخلاص في الطاعة، وأعظم الإيثار، ونهاية الكرم، إنها نفوسهم الكريمة العظيمة التي تعينهم على الإخلاص وتقبّح لديهم المراءات.

قال تعالىٰ عنهم: **﴿ويطعمون الطعام على حبهِ مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾**[1].

نزل القرآن يشيد بهذا الموقف النبيل، ويسجله مأثرة خالدة لأهل هذا البيت صلوات الله عليهم أجمعين، ويركز على الإخلاص في هذه البادرة، وأنهم أرادوا وجه الله حقاً ولم تكن لهم دوافع أخرىٰ، وأي دافع غير الدافع الديني الإنساني، يجعل المرء يصبر على الجوع ويبيت على الطوىٰ مع أفراد أسرته ثلاثة أيام؟.

إن العطاء يحسب عند الله بالكيف لا بالكَمّ، فلو كان قليلاً خالصاً، كان خيراً من أن يكون كثيراً شائباً، ينظر الله تعالى إلى النوايا قبل أن ينظر إلى الأفعال، فكم من فعل كثير يشوبه رياء، لا يتقبله الله، وكم من فعل قليل يتسم بالخلوص والطهارة، يتقبله الله قبولاً حسناً.

إن الذين أنفقوا من أموالهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيرون.. وكان ما أنفقوه كثيراً أيضاً.. ولكن القرآن سجل موقفاً لعلي عليه السلام، وهو ينفق خاتماً يتصدق به على فقير في حال الركوع، لخلوص هذا العمل ونزاهة صاحبه.

---

(١) سورة الدهر؛ الآيتان: ٨ ـ ٩.

وزير السلطان طغـرل :

كان أبو منصور، وزير السلطان طغـرل، رجلاً عـالماً، ومن أهـل الدين والتقوىٰ وكان من عادته بعد كل فريضة، أن يشتغل بالدعاء والذكر والتسبيح، خاصة بعد صلاة الفجر، ثم يذهب بعد ذلك إلى عمله لدىٰ السلطان .

وصـادف في بعض الأيام أن جـدَّت حادثـةٌ مهمة للسلطان احتـاج معها لحضـور الوزيـر باكـرًا، فبعث إليـه الخـدم لإبـلاغـهِ رغبـة السلطان العـاجلة لحضـوره، فذهب الخـدم إلى منزلـه، فصادفـوه جالسـاً على مصلاه مشغـولاً بالذكر والتسبيح، فأبلغوه أمر السلطان العاجل بالحضور بين يديه، فلم يلتفت إليهم، فكـرروا عليه الأمـر مرتين وثـلاث، فلم يلق بالاً إليهم، فـرجعـوا إلى السلطان، وقالوا له: إن الرجـل مغرور، ومتمـرد، لم يستجب لأمر السلطان، وأوغروا نفس السلطان على الوزير، وأخذ الغضب منه كل مأخذ .

أتمَّ الوزير أذكاره وتعقيباتـه ثم توجـه إلى السلطان بعد طلوع الشمس، فوجده غضباناً وصرخ في وجهه قائلاً : لماذا تأخـرت عني، وقد بعثت إليـك أستعجلك الحضور؟

أجاب الوزير : أيها السلطان، أنا عبد الله أولاً، وخـادم السلطان طغرل ثانياً، يجب عليَّ أداء حق العبودية لله أولاً، ثم خدمتك وأداء حقك !! .

نبع هذا الكلام من أعماق قلب الـوزير، وبنيـة خالصـة، مما تـرك أثراً عميقـاً في نفس السلطان وضميره. . ودمعت عينـاه وراح يشيـد بـه ويحتـرمـه ويشكره ويقول :

صـدقت أيها الـوزير، عبـادة الله مقدمـة على طاعتي، وقـد كبـرت في نفسي اليوم كثيراً .

ثمةَ نفوسٌ كبيرة، ترفض السفاسف، والنزول بعمل الآخرة للدنيا، فهم المخلصون الصادقون وثمةَ نفوس صغيرة تافهة تبيـع الآخرة بـالدنيـا، وترضىٰ بالقليل الفاني على الكثير الباقي وأصحاب هذه النفوس يعملون لله في ظـاهر الحال، ولكنهم ـ في واقع الأمر ـ يريدون الثمن من الناس .

ينقل الطوسي رحمه الله خبراً عن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، عن آبائه عن علي أمير المؤمنين عليه السلام، قال: أتاه رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين، والله إني لأحبك في الله.

فقال له الإمام عليه السلام: ولكني أبغضك لله!!.

قال: وَلِمَ؟

قال: لأنك تبغي في الأذان كسباً، وتأخذ على تعليم القرآن أجراً، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من أخذ على تعليم القرآن أجراً كان حَظه يوم القيامة»[1].

ومعلوم أن أخذ الأجر على الأعمال الدينية، لا يتفق مع كونها يُراد بها الإخلاص والقربة ووجهَ الله تعالىٰ، فإن كانت لله فليأخذ الثمن من الله، وإن كانت للناس فقد ضيّع أجر الآخرة.

وورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أنه سأله رجل: يا رسول الله، فيم النجاة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألّا تعمَلَ بِطاعةِ الله وتريد بها الناس»[2].

وفي الحديث أيضاً: «من راءىٰ، راءىٰ به الله، ومن سَمَّعَ، سَمَّعَ به الله»[3].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «إن الملكَ ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فإذا صعد بحسناته يقول الله عزّ وجلّ: اجعلوها في سجين، إنه ليس إيّاي أراد بها»[4].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟

قال: «الرياء، يقول الله تعالىٰ إذا جازىٰ العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى

---

(١) التهذيب، باب المكاسب: ٦/٣٧٦، والوافي، باب شرائط الأذان.

(٢) - (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٣٩٩ طبع بيروت دار مكتبة الحياة.

(٤) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الرياء.

الذين كنتم تراؤونهم في الدنيا، فاطلبوا جزاءكم منهم»[1].

وقد ورد التعبير عن الرياء بالشرك، في أخبار كثيرة وأحاديث متعددة، وهو شرك في العمل، لا في العقيدة.

ففي حديث شداد بن أوس **«إني تخوفت على أمتي الشرك، أما إنهم لا يعبدون صنماً، ولا شمساً ولا قمراً، ولكنهم يراؤون الناس بأعمالهم»**[2].

إن الرياء والتلون ينظر إليهما الإسلام، على أنهما من السيئات الأخلاقية لا يأتي بهما إلّا ذوو النفوس المنحطة، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك الأئمة الطاهرون عليهم السلام عن ذلك نهياً شديداً، حتى عبروا عن هذا الفعل القبيح بالشرك وقد سبق القرآن الكريم بتسميته شركاً، لأنه فضلاً عن كونه فساداً أخلاقياً، وعملاً غير صالح، فهو يتنافى مع عقيدة التوحيد في العبادة.

إن الذين يعملون رياءً وتظاهراً وجلباً لرضا الناس، هم أشبه بالذين يجعلون الأصنام شركاء لله يعبدونها من دونه سبحانه، بفارق واحد، هو أن معبودات المشركين مشهودة، وشركهم علني. . بينما المراؤون يعبدون الأصنام الباطنية المستورة، فيكون شركهم خفياً، لا يعلم به الناس، ولكنهم أنفسهم يعلمون بانحرافهم النفسي الأخلاقي.

عن الصَّادق عليه السلام: **«الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله، إنما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به الناس، فهذا الذي أشرك بعبادة ربه»**[3].

في هذا الكون الشاسع، يحيا آلاف المخلوقات التي ذرأها الله عزّ وجلّ، وهي تحيا بفطرتها وغرائزها، لا تحيد عما رسم لها الله من منهج حياتي، ولا تريم عن هداها. . والإنسان من بينها هو الكائن الوحيد الذي خلقه الله حراً في عالم الطبيعة، وهو الوحيد القادر على التلون والتظاهر خلافاً

---

(١)-(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٣٩٩ طبع بيروت دار مكتبة الحياة.

(٣) سفينة البحار للمحدث القمي: ١/٤٩٩.

لحقيقته وواقعه، فيرائي وينافق، ويتخذ صوراً وأشكالاً غير حقيقية. . أما سائر المخلوقات، فلا تملك هذه القدرة، للنبات نظام في الخلق لا يقدر أن يحيد عنه، وللحيوان نظام في هذا الكون لا يملك أن يخالفه في شيء. هل سمعتم عن نبتة معينة غيرت لونها، أو بدلت طعمها، أواستعاضت عن رائحتها برائحة غيرها، لإغراء بني البشر، والضحك على ذقون الناس؟

هل استطاع (الحنظل) أن يُظهر نفسه حلواً في يوم من الأيام؟

هل يملك الأسد أن يتظاهر بالوداعة والإلفة أمام الآخرين؟

كل ذلك لا يمكن أن يقع إلاّ من الإنسان، فالحيوان محصور ضمن نطاق الغرائز، لا مناص له من العمل وفق ما تمليه عليه هذه الغرائز دون أن يتخطاها قيد أنملة. . وكل الخلق كذلك.

الإنسان وحده الذي خلق حراً طليقاً بقضاء إلهي حكيم، فهو وحده القادر على أن يظهر بشخصية غير شخصيته الحقيقية، ويخفي شخصيته الحقيقية، ويظهر بصورة مغايرة للواقع، فلو فعل ذلك بقصد الرياء وكسب السمعة، وبنوايا سيئة فقد أساء الفعل وأشرك، وحبط عمله عند الله.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«يؤتى يوم القيامة بالرجل قد عمل أعمال الخير كالجبال ـ أو قال كجبال تهامة ـ وله خطيئة واحدة، فيقال: عملتها ليقال عنك. . وذاك ثوابك، وهذه خطيئتك، أدخلوه بها إلى جهنم»**(١).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«ليست الصَّلاة قيامك وقعودك، إنما الصَّلاة إخلاصك، وأن تريد بها الله وحده»**(٢).

يطلب الملك بالصَّلاة:

وكان عبد الله بن الزبير، أيام استيلائه على الحرمين يحشد التأييد لنفسه، ويحاول استمالة الوجوه إليه، ويطلب البيعة من هذا وذاك، ويستقطب مشاهير الأمة لإسناد حركته، ودعم قضيته، وكان قد قام في وجه الأمويين واستقل بمكة، واعتصم فيها فتوصل إلى امرأة عبد الله بن عمر ـ وهي أخت

---

(١) (٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/٢٦٢.

المختار بن أبي عبيـد الثقفي ـ في أن تكلم بعلها عبد الله، أن يبايعه، فكلمته في ذلك، وذكرت صلاته وقيامه، وصيامه . . فقال لها: أما رأيتِ البغلاتِ الشهب التي كنا نراها تحت معاوية بالحجر إذا قدم مكة؟ قالت: بلى. قال: فإياها يطلب ابن الزبير بصومه وصلاته. قال الشاعر:

صلّىٰ وصـام لأمـر كـان يـطلبـه   حتىٰ حَـواهُ فلا صلّىٰ ولا صـاما

وكان أحد العباد يؤدي صلاته جماعة في الصف الأول كل يوم، واستمر على ذلك ثلاثين عاماً، ولكنـه ـ في بعض الأيام ـ تـأخر في الحضـور قليلاً، فاحتلَّ مكـانَه مُصَـلٍ آخر فـاضطرّ لأداء الفـريضة في الصف المتـأخر، ولمـا انتهت الصـلاة نـظر إليـه المصلون فـرأوه متـأخـراً عن الصف الأول، فشعـر بالخجل والضيق من كونه في صفوف متأخرة.

وهنا تبادر إلى ذهنـه أن صلواته المـاضية خـلال السنوات الثـلاثين التي انصـرمت، كانت كلهـا ملوثة بـالريـاء، وأنه كـان يميل في نفسـه إلى أن يراه الناس متقدماً في الصف الأول، ما الـذي يجعله الآن يخجل من الـوقوف في الصفوف المتأخرة؟ أهي صلاة وعبادة؟ أم هي مقامات ودرجات دنيوية؟ . .

اكتشف الآن أنه كان ـ منذ ثلاثين عاماً ـ مـرائياً، أشـرك في نية الصَّـلاة غيرَ الله فما كان منه إلاَّ أن أعاد صلواته عن السنوات الثلاثين الماضيـة قضاءً، لأنه أدرك سوء عمله، فتداركه قبل فوات الأوان[1] .

يـريد الله تعـالىٰ منا حسن العمـل لا كثرتـه، يقـول تعـالىٰ : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عمـلاً﴾[2] ولم يقل : أيكم أكثـر عملاً، ذلـك أن الإعتبار بنـوع العمل، من حيث امتلاكـه لشرائط الصحـة والقبول، ومـدىٰ كونـه خالصـاً لله تعالىٰ، وليس بالكثرة، فالكثرة وحدها لا تنفع في شيء .

والعمل لو كان مقروناً بالرياء، عمل سيِّء وإن كان كثيـراً، والريـاء في حـد ذاته ـ مـرض من أمراض النفس، أجـرانا الله وإيـاكم منه، وهـو زيغ عن الفطرة السليمة الأصيلة، وقد نهىٰ القرآن الكريم في أكثر من مـورد، سـبق

(١) السيد عبد الحسين دستغيب (القلب السليم) : ٢/٩٠ .

(٢) سورة المُلك ؛ الآية : ٢ .

وذكرنا بعضها، منها قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذىٰ كالذي ينفق مالَه رئاءَ الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كَسَبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾[1] .

يشبه الله عزّ وجلّ عمل أهل الرياء، بالصخرة التي عليها تراب، هطلت عليها أمطار الرحمة التي يفترض أن تروي الأرض، فتخرج النبت. . وتعود بالنفع على عباد الله جميعاً . . ولكن هذه الأمطار اصطدمت بصخرة صماء صلبة، فازاحت عنها التراب، وتركتها جرداء ملساء، فلا هي استفادت من هذا الخير ولا تركت المطر يروّي بذور النبات .

كذلك حال المرائي، أتىٰ بفعل الخير، ولكن رياءه فيه أتىٰ على أجره، فلا استفاد في دنياه ولا في آخرته، لم يبق له إلاّ العناء **﴿خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾** .

والمرائي حال ريائه لا مكان للإيمان في قلبه، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ **﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾** .

عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام ، أنه قال لعبّاد بن كثير :

«ويلك يا عبّاد، إياك والرياء فإنه من عمل لغير الله، وكله الله إلى من عمل له»[2] .

وعن الإمام الباقر عليه السلام : **«الإبقاء على العمل أشدّ من العمل»** قيل : وما الإبقاء على العمل؟

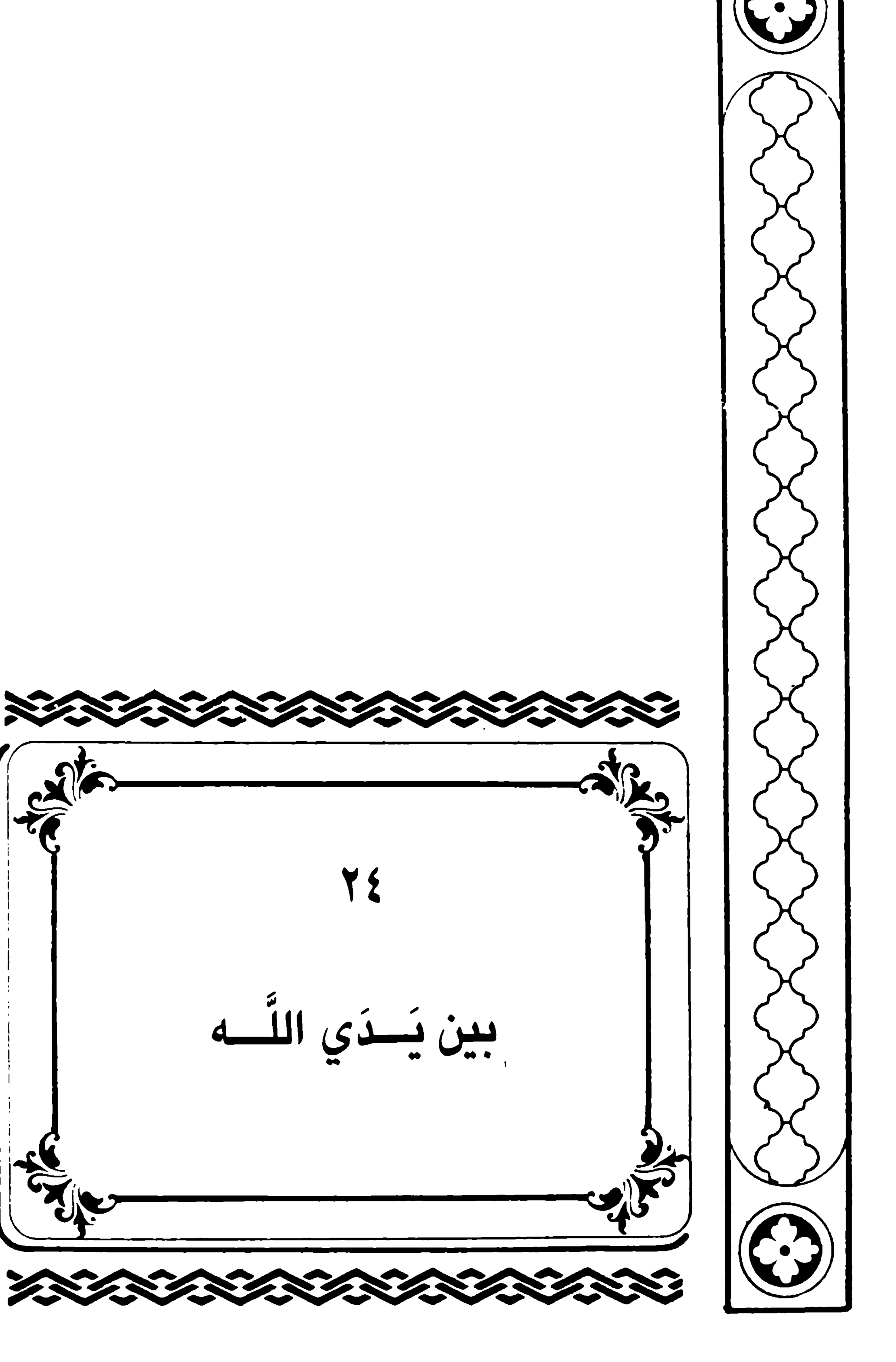
قال عليه السلام : **«يصلُ الرجلُ بصِلَةٍ، وينفق لله وحده لا شريك له، فتُكتب له سِراً ثم يذكرها فتكتب له علانية، ثم يذكرها فتمحىٰ وتكتب له رياءً»**[3] .

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٦٤ .

(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر باب الرياء .

(٣) المصدر السابق .



٢٤

بين يَـدَي اللَّــه

كما في علم النفس، طرقٌ شتىٰ لعلاج أمراض النفس، كذلك في بحوث الدين، علاج نفسي لكثير من الأمراض التي تعتري النفس، وتقض المضجع، وتوخز الضمير .

والعلاج الديني، أُسلوب توجيه، وإرشاد، وتربية وتعليم، وتزكية للنفس. . لا بد فيه من معرفة الفرد لنفسه أولاً، ثم لدينه وربّه .

ويقوم العلاج على القيم والمبادئ الروحية والأخلاقية .

والمراد بهذا العلاج، تحرير الفرد من إحساسه بالذنب والخطيئة التي تهدد طمأنينته وأمنه النفسي، والأخذ بيده للخروج من ظلمات النفس الملوّثة بالمعاصي والذنوب والخطايا .

ويتمثل هذا العلاج في الإتصال (النفسي) بالله عزّ وجلّ، القوّةِ المهيمنةِ على الكون، والتوجه إلى السماء بالوقوف بين يدي الله سبحانه عن طريق الدعاء، والتوبة، والإنابة، والإقرار بالذنب، ومحاسبة النفس، وإظهار الندم الواقعي فيها. . وبذلك يجد نفسه قد انسَلَّ من بين مخالب هذه الخطايا التي كانت تحيط به .

والقرآن الكريم يؤكد : إن من الذنوب والسيئات ما يحيط بالنفس، ويغلق دونها أبواب الرحمة والانفراج، كما يحيط قطاع الطريق بالمسافر، ولا تدع هذه الذنوب أن تفلت النفس من آثارها ونتائجها فتمنع وصول النور إليها .

﴿بلىٰ من كسبَ سيئةً وأحاطت بـه خطيئتـه فأُولئـك أصحاب النـار هم فيها خالدون﴾[1] .

والعـلاج الوحيـد في هذه الحـالة أن يتـوجـه إلى القـوة المهيمنـة على الكون كله، إلى الله جل وعلا بالتـوبة والإستنـابة، عنـدئذ يجـد المخرج، وتتحـرر النفس من شوائبها وأمراضها، ويخرج المرء إلى روح الله ورحمته .

ويمر العلاج الديني بمراحل عدّة حتى يصـل المؤمن بعدهـا إلى نتيجة ملموسة محسوسة وهذه المراحل تكون كالتالي :

١ ـ الاعتراف والإقرار بالذنب :

وقـد قيل (الاعتـراف بالخـطأ فضيلة) وإن كان ثمـةَ من يشك في كـون الاعتراف بالخطأ مع الناس فضيلة، فهو مـع الله تعالىٰ من أفضـل الفضائـل، ويدلّ على سمو النفس وعلوّها، وهو يتضمن شكـوىٰ النفس إلى بارئها، طلباً للخلاص والغفران، وفيه إفضاء بما في النفس إلى الله تعالىٰ.

والاعتراف يزيل مشاعر الخطيئـة والإثم، ويخفف من عذاب الضميـر، ويطهّر النفس المضطربة ويعيد إليها طمأنينتها .

ولسنا ـ نحن العبيد الخاطئون ـ بدعاً في إقرارنا بذنوبنا، واعترافنـا على أنفسنـا، بـل أول من فعـل ذلـك أبـونـا آدم، وأمّنـا حـوّاء، قـال تعـالىٰ على لسانهما :

﴿قـالا ربنـا ظلمنـا أنفسنـا وإن لم تغفـر لنـا وتـرحمنـا لنكـوننَّ من الخاسرين﴾[2] .

ولئن كان المسيحي يقرُّ على نفسه، ويعترف بذنبه بين يدي عبد مذنب مثله، فنحن نعتـرف على أنفسنـا بين يـدي رب العـزة سبحـانـه، والاعتـراف بالذنب يبقىٰ سراً بيننا وبين الله لا يطلع عليه أحد .

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٨١ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٢٣ .

إن الذنوب والخطايا أوزارٌ وأثقالٌ تُثقِل كاهلَ النفس، وتعصرها، والإقرار بها عند الله تعالىٰ يزيح هذه الأثقال، ويريح النفس، ويدعها حرّة طليقة، تسمو إلى الله عزّ وجلّ في هدوءٍ وراحة، لتستقر بين يديه، وفي رحاب رحمته الواسعة، ومغفرته الكريمة.

وتسبق الإقرار والاعتراف، حالة التهيؤ لذلك، والاستعداد النفسي للإقرار بالذنب لا بدّ فيها من محاسبة النفس أولاً، ومحاكمتها ذاتياً..

والمحاسبة لا تعني لوم النفس فحسب بل هي بمعنىٰ نقد الذات، نقداً ينتج عنه الإطمئنان والراحة والاستقرار، وهو ما كان يفعله الأنبياء والأوصياء والأولياء وعباد الله الصالحون.. والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصىٰ، كانوا يفعلون ذلك، ربما لمحاسبة أنفسهم، وربما لتعليم الآخرين وتربيتهم على هذه الطريقة، يوحون إليهم (بالنقد الذاتي).

كما أن محاسبة النفس ووضعها تحت المراقبة، والإرصاد لها، من أهم العوامل الوقائية التي تمنع زيغها وسقوطها في المهالك، ومن ثمَّ تهيئتها للمثول بين يدي الله.

والمحاسبة في كثير من الأحيان تشكل الوقاية من الزلة قبل الوقوع فيها وقد قيل (الوقاية خير من العلاج) كما ورد في الحديث الشريف: **«حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبُوا، وزِنوا قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر»**[1].

وروي عن أبي الحسن الماضي عليه السلام: **«ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل صالحاً ازداد لله شكراً وإن عمل سيئاً استغفر الله وتاب»**[2].

ويبدو من هذا القول المأثور أن المحاسبة هي بمعنى النظر والتأمل في ما أتىٰ به الإنسان من قول وعمل، صالحاً كان أو سيئاً، عليه أن يتوقف نهاية كل يوم قليلاً ليتأمل ماذا فعل في يومه هذا، فإن كان خيراً صالحاً فرح به وشكر الله تعالىٰ أن وفقه للخير والعمل الصالح.. وإن كان شراً وسوءاً ـ والعياذ

---

(١) ـ(٢) كتاب (محاسبة النفس) لعلي بن موسىٰ بن جعفر بن محمد بن طاووس: ١٣.

بالله ـ لام نفسه وحاكمها على ذلك، وتاب وأناب إلى الله تعالىٰ، وعاهد الله أن لا يعاود الكرّة إلى مثل هذه الأعمال، وبهذا الشكل يكون قد أنهىٰ يومه على خير وجه، ونام قرير العين مطمئن البال، توطّدت علاقته بالله عزّ وجلّ، وتعمّق ايمانه به.

روي عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام قال:

«لا يكون العبد مؤمناً حتى يحاسب نفسه أشدَّ من محاسبة الشريك شريكه والسيد عبدَه...»[1].

وروي عن الصَّادق عليه السلام:

«ما من يوم يأتي على ابن آدم إلاَّ قال ذلك اليوم: يابن آدم، أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فافعل بي خيراً، واعمل فيَّ خيراً، أشهد لك يوم القيامة فإنك لن تراني بعدها أبداً»[2].

إننا نعتقد أن أعمالنا يراها الله عزّ وجلّ ويطّلع عليها، ويثبّتها الملكان الموكلان بالإنسان في صحيفة أعماله **﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾**[3].

﴿ما يلفظ من قول إلاَّ لديه رقيب عتيد﴾[4].

بل أكثر من ذلك، إن الأعمال (أعمال العباد) تعرض كلَّ يوم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيراها ويطّلع عليها، فإن كانت حسنة فرح بها، وإن كانت سيئة ساءه ذلك، فالرقابة دائمةٌ علينا، وإننا لا نخلو من عين الله في كل حال، إذن لا بد من محاسبة النفس محاسبة دقيقة وملاحظة الأقوال والأفعال ملاحظةً جادّة.

﴿وقل اعملوا فسيرىٰ الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[5].

---

(١) (٢) محاسبة النفس لعلي بن موسىٰ بن طاووس: ١٣.
(٣) سورة غافر؛ الآية: ١٩.
(٤) سورة ق؛ الآية: ١٨.
(٥) سورة التوبة؛ الآية: ١٠٥.

وروي عن أبي سعيد الخدري : إن عماراً قال: يا رسول الله وددتُ أنكَ عمرت فينا عمر نوح عليه السلام فقال صلى الله عليه وآله وسلم : **«يا عمّار: حياتي خير لكم، ووفاتي ليسَ بشرٍّ لكم أما في حياتي فتحدِثون وأستغفر الله لكم، وأما بعد وفاتي فاتقوا الله وأحسنوا الصَّلاة عليَّ وعلى أهل بيتي، فإنكم تعرضون عليَّ بأسمائكم وأسماء آبائكم وقبائلكم فإن يكن خيراً حمدت الله، وإن يكن سوءاً أستغفر الله لذنوبكم»** .

فقال المنافقون والشُكاك والذين في قلوبهم مرض : يزعم أن الأعمال تُعرض عليه بعد وفاته، إن هذا لهو الإفك، فأنزل الله **﴿وقل اعملوا. . .﴾** . فقيل له صلى الله عليه وآله وسلم : ومن المؤمنون؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : **هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة منهم** عليهم السلام [1] .

من هنا، ورد الاستحباب، أن يستغفر المرء بهذا الاستغفار آخر كل خميس :

(أستغفر الله الذي لا إلٰه إلاَّ هو الحي القيوم وأتوب إليه، توبة عبد خاشعٍ خاضعٍ مسكينٍ مستكينٍ مستجير، لا يستطيع لنفسه صرفاً ولا عدلاً ولا نفعاً ولا ضراً ولا حياة ولا موتاً ولا نشوراً، وصلّى الله على محمد وعترته الطيبين الطاهرين الأبرار وسلم تسليماً كثيراً)[2] .

وعن الكليني بإسناده قال: كان علي عليه السلام إذا أمسىٰ قال : **(مرحباً بالليل الجديد والكاتب الشهيد، اكتبا، بسم الله)** ثم يذكر الله عزّ وجلّ[3] .

إن الحزم والتعقل يحتمان على الإنسان أن يقيّد نفسه بالمحاسبة، ويملكها بالمغالبة، وإن من سعادة النفس أن ينتدب المرء لمحاسبتها، ويطالبها بما أتت به في يومها، ويتحرىٰ الدقة في المحاسبة، ليطمئن أنه نآى بنفسه عن مواطن الزلل والشقاء .

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : **«قيّدوا أنفسكم بمحاسبتها واملكوها بمخالفتها،**

---

(١)ـ(٢) محاسبة النفس لعلي بن طاووس : ٢٢ .
(٣) محاسبة النفس لعلي بن طاووس : ٢٢ .

تأمنوا من الرعب، وتدركوا عند الرغب»[١] .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : **«الكيّس من دان نفسه»**[٢] .

وقال أبو عبد الله الصّادق عليه السلام : **«إذا آويت إلى فراشك فانظر ما سلكت في بطنك، وما كسبت في يومك، واذكر أنك ميت، وأن لك معاداً»**[٣] .

وعن أبي الحسن الماضي عليه السلام : **«ليس منا من لم يحاسب نفسه كل يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه»**[٤] .

وفي دعاء الصباح والمساء من أدعية الصحيفة السجادية، قال زين العابدين عليه السلام :

(. . . وهذا يوم حادث جديد، وهو علينا شاهد عتيد، إن أحسَنّا ودّعنا بحمد، وإن أسأنا فارقنا بذمّ، اللَّهُمَّ صلِّ على محمد وآله، وارزقنا حسن مصاحبته، واعصمنا من سوء مفارقته، بارتكاب جريرة، أو اقتراف صغيرة أو كبيرة، وأجزل لنا فيه من الحسنات، وأخْلِنَا فيه من السيئات) [٥] .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بينما هو مستظِلٌّ بظلِّ شجرة، في يومٍ شديد الحرّ، إذ جاء رجل مُنزع الثياب، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء، يكوي ظهره مرة وبطنه مرة وجبهته مرة، ويقول : يا نفس ذوقي، فما عند الله أعظم مما صنعت بك، ورسول الله ينظر إليه ما يصنع، ثم إن الرجل لبس ثيابه ثم أقبل، فأومأ إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيده، ودعاه فقال له : يا عبد الله، لقد رأيتك صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من الناس صنعه، فما حملك على ما صنعت؟

فقال الرجل : حملني على ذلك مخافة الله، فقلت لنفسي : يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعت بك فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لقد خفتَ

---

(١) ـ (٢) محاسبة النفس لتقي الدين العاملي : ٥ .

(٣) بحار الأنوار للمجلسي : ١٩٠/٧٦ .

(٤) محاسبة النفس لتقي الدين العاملي : ٥ .

(٥) الصحيفة السجادية، دعاء الصباح والمساء .

ربك حقٌّ مخافته، وإن ربك لَيُباهي بك أهل السماء .

ثم قال لأصحابه : يا معشر من حضر، أُدنوا من صاحبكم حتىٰ يدعوَ لكم، فدنوا منه فقال : (اللَّهُمَّ اجمع أمرنا على الهدىٰ، واجعل التقوىٰ زادنا، والجنةَ مآبنا)[1] .

إن بعض الناس يرىٰ مثل هذه القضايا تخصّ كبار السنّ، ممن صاروا على حافة الموت، عليهم أن ينظروا لأنفسهم، ويحاسبوها استعداداً للرحيل، أما الشاب الذي لا زال يستقبل الحياة فلا تعنيه هذه النصائح من قريب أو بعيد، ويظل سادراً في هواه وغيِّهِ غافلاً عن أن الموت قد لا يمهله حتى يبلغ سن الشيخوخة، وأن الأجل قد يكون له بالمرصاد، وأن الشباب الذي يترصد لنفسه بالمغالبة والمحاسبة، لهو من خيرة الشباب المؤمن الصالح . . وإن التسويف والمماطلة في الاستعداد للموت، معناه التمادي في الغي والغفلة والإعراض عن الواقع والحقيقة وهو بالتالي، نوع من أنواع الانحراف النفسي الذي يحتاج معه إلى العلاج .

يقول شاعر :

المرء مرتهن بسوف وليتني   وهلاكه بالليت والتسويف

إن تأخير محاسبة النفس، قد يلوّثها بشكل لا يستطيع معه إصلاحها، والتفكر لها حتى في السنين المتأخرة من حياته. فمن أدمن السيئات وارتكاب المحارم، واجتراح الموبقات، ولم يحاول إيقاف فورة النفس في حدود معينة في أيام الصبا والشباب، تعسَّر عليه ذلك بعد تلك المرحلة .

يقول شاعر :

وما أقبح التفريط في زمن الصبا   فكيف به والشيب للرأس شامل

إن النصائح والإرشادات الدينية، والنصوص الشرعية المختلفة، لم تصدر لفئة معينة دون فئة أُخرىٰ، بل هي للجميع للشباب والشيوخ والرجال

---

(١) محاسبة النفس لتقي الدين العاملي : ٥ .

والنساء، وقد كانت كوكبة من الشباب تحيط برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانوا أكثر التصاقاً به، وكان هو أشدَّ اهتماماً بهم ، فكان التركيز على هؤلاء الفتية في التوجيه والإرشاد أكثر من غيرهم. . . ثمة نصائح وإرشادات وتعاليم خصَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بها مجموعة من أهل بيته وأصحابه وجلّهم من الشباب، من ذلك ما خاطب به أبا ذر الغفاري رضوان الله عليه، قائلاً:

«يا أبا ذر، إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري ما اسمك غداً»(1) .

وسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قالت :

يا رسول الله هل يُحشرَ مع الشهداء أَحَدٌ ؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«نعم، من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرّة، لأن ذكر الموت يوجب التفاني عن دار الغرور، ويميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوّي القلب بمواعد الله. . .»**(2) .

٢ ـ التوبة :

بعد التمهيد للتوبة بالمحاسبة والإقرار نبدأ بسلوك طريق المغفرة، وغسل أدران الماضي عن النفس. . نبدأ بالتوبة والاستغفار، والعودة إلى الله تعالىٰ، لقد اعددنا قائمة بالسيئات والخطايا التي اجترحناها لعرضها على الرب الرحيم، والاعتذار منها بين يدي الله .

والتوبة تعني الأمل الكبير بالله عزّ وجلّ، إنها تجعل العبد يشعر بالتفاؤل والراحة النفسية بعد عناء شديد من الإحساس بالذنب، تجعله يعود إلى ذاته فيتقبلها بعد أن كان رفضها وحقّرها .

وطبيعي أن يكون ابن آدم خطّاء (وخير الخطّائين التوابون) .

---

(١) محاسبة النفس، تقي الدين العاملي : ٦٣ .

(٢) محاسبة النفس، تقي الدين العاملي : ٧٢ .

إن التوبة تعني الاعتذار لله عزّ وجلّ ممّا بَدَرَ منا من الأخطاء والمعاصي، ولا شك أن الله تعالىٰ يقبل أعذارنا، ولا يخيب آمالنا، ولا يردّنا عن بابه خاسرين. . كيف وقد أدّبنا وعلّمنا أن لا نردَّ عذراً لمعتذر، وأن نقبل الإقالة، وأن نتخلّق بالإغضاء عن ذنوب الناس، والتغافل عن إساءاتهم تجاهنا.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«من لم يقبل من متنصّلٍ صادقاً كان أو كاذباً، لم يَرِدْ عليَّ الحوض»**[1].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: **«تجافوا لذوي الهيآت عن زلّاتِهِم»**[2].

وعنه أيضاً: **«إن الله يحبُّ أن يعفىٰ عن زلةِ السري»**[3].

إن أصحاب النفوس الكبيرة، والأخلاق العالية، هم الذين يتصفون بهذه الصفة (الإغضاء عن الإساءة) والتنازل عن حقوقهم في الإنتقام والردّ بالمثل.

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾[4].

﴿وذا ما غضبوا هم يغفرون﴾[5].

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام: **«العفو زكاة الظفر»**.

وإذا كان الله عزّ وجلّ أحبَّ منا اغتفار الإساءات، والإعراض عن أخطاء الناس فهو أولىٰ من عباده بهذا الخُلُقِ الرفيع، والصفة العالية، إن الإنسان خطّاء بفطرته، ميّال إلى الزيغ، متعثر، لا يمكن أن يسلم من كيد الشيطان، ولا من حبائل النفس الأمّارة بالسوء يتهاوىٰ في كل آن، ولا بد له من عون، ولا يستغني عمن يأخذ بيده إذا هوىٰ. . وهو بحاجة إلى وسيلة تُنجده وتنقذه من المهالك والسقطات التي يتعرض لها في كل وقت لذا فتح الله له باب الاستغفار والتوبة على مصراعيه، وأذن له في الدعاء والإنابة، وأفهمه

---

(١) ـ(٣) ربيع الأبرار للزمخشري: ١/٧٢٦.

(٤) سورة آل عمران؛ الآية: ١٣٤.

(٥) سورة الشورىٰ؛ الآية: ٣٧.

أن لا ييأس من رحمة الله ومغفرته، فالله عزّ وجلّ:

﴿غفارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾[1].

﴿وإنه لغفورٌ رحيم﴾[2].

﴿وهو الذي يتقبّل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾[3].

وإنه ﴿يحبُّ التوابين ويحبّ المتطهرين﴾[4].

وإنه تعالىٰ يريد اقناع المذنبين بقبول توبتهم بكل أسلوب، وبكل وسيلة، من خلال آي الذكر الحكيم.

إن ملفَ التوبة والاستغفار في القرآن ملفٌ ضخم كبير، استخدم فيه الباري عز وجلّ أساليب مختلفة لطمأنة النفوس الزائغة المريضة، بتوفر العلاج الحاسم والدواء الناجع لأمراضهم النفسية التي تسببت الذنوب والمعاصي فيها، فتارة يوجهُ الخطابَ المباشر للمؤمنين ويعرض عليهم التوبة، ويدعوهم إليها بأسلوب قرآني بديع، وبلغة متينة، لا تدع مجالاً للشك في قبول التوبة.

﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً عسىٰ ربُكم أن يكفر عنكم سيئاتكم...﴾[5].

وتارة أخرىٰ يطمئن أُولئك الذين بالغوا في الذنب، وأسرفوا في الخطيئة، بأنه تعالىٰ سيغفر لهم ويتوب عليهم، وانّ عليهم أن لا يقنطوا من رحمة الله، ولا يقطعوا الأمل به سبحانه، ولا ييأسوا من برد عفوه وحلاوة غفرانه، فيخاطب العباد جميعاً على لسان نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن

---

(١) سورة طه؛ الآية: ٢٠.

(٢) سورة الأعراف؛ الآية: ١٦٧.

(٣) سورة الشورىٰ؛ الآية: ٢٥.

(٤) سورة البقرة؛ الآية: ٢٢٢.

(٥) سورة التحريم؛ الآية: ٨.

الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾[1] .

والمتتبع لآي الذكر الحكيم، قد لا يجد صفحة في القرآن خاليةً من آيات المغفرة ووعود التوبة، حتىٰ إن بعضهم أفردَ كتاباً شاملاً لآيات الرحمة والغفران في القرآن، ناهيك عما ورد من ذلك في الأحاديث الشريفة والأخبار والروايات التي لا تحصىٰ كثرة، ولا تُعَدُّ وفرةً، ففي حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«**يدا الله مبسوطتان لمسيء الليل ليتوب بالنهار، ولمسيء النهار ليتوب بالليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»[2] .

وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إني أذنبتُ ذنباً. قال صلى الله عليه وآله وسلم : استغفر ربك، قال : وإني أتوب ثم أعود، قال: «**كلما أذنبتَ فتُبْ واستغفر ربك حتىٰ يكون الشيطان هو الحسير**» [3] .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**» [4] .

وروي أن حبيب بن الحارث قال له: إني مقرافٌ للذنوب! قال صلى الله عليه وآله وسلم «فَتُب إلى الله يا حبيب» قال : إني أتوب ثم أعود! فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «**كلما أذنبتَ فتب**» حتىٰ قال: «**عفو الله أكبر من ذنوبك يا حبيب**» [5] .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : «**المؤمن مثل السنبلة، يستقيم أحياناً ويميل أحياناً**» [6] .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : «**إن المؤمنَ ليذنب الذنبَ فيُدخِله الجنة!**» فقالوا : يا نبي الله، كيف يدخله الجنة؟ .

---

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٥٣ .

(٢) ربيع الأبرار : ١/٧٢٦.

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري : ١/٧٢٦ .

(٤) محاسبة النفس لابن طاووس، باب التوبة .

(٥)-(٦)ربيع الأبرار للزمخشري : ١/٧٢٦ .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«يكون نصبَ عينيه، تائباً عنه، مستغفراً منه حتىٰ يدخل الجنة»** [1] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : **«التائب حبيب الرّحمٰن»** [2] .

وعن أبي عبد الله الصَّادق عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«طوبىٰ لمن وجد في صحيفة عمله يوم القيامة تحت كلِّ ذنبٍ: استغفر الله» [3] .

يقـول شــاعر :

وقــد كــانت تحــدثـني ذنــوبـي ... بــأني من عـذابــك غيــرُ نــاجي
ولــكـنــي وإن أحــدثــتُ شــراً ... لـعفــوِك بـعــدَ ذاكَ الشــرِّ راجـي

سئِل أعرابي عن التـوبة فقـال: إن الله أفرحُ بتـوبة العبـد، من المُضِلِّ الواجد، والظمآن الوارد، والعقيم الوالد[4] .

وعن سعيد بن جبير في قـوله تعـالىٰ : **﴿إنه كـان للأوابين غفـوراً﴾**[5] قال: الأواب: التواب، يذنب الذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب [6] .

وعن علي أميـر المؤمنين عليه السلام : **«لا خير في الـدنيا إلاَّ لأحـد رجلين: محسنٌ يزداد كل يوم إحساناً، ومسيءٌ يتدارك بالتوبة»** [7] .

وعن ابن المسيب يـرفعه : **«إذا تـاب العبد إلى الله، فتـاب عليـه أنسى الحفظة ما عَلِمُوا وقال للأرض ولجوارحه: اكتمي عليه مساوِئه، ولا تُـظهري عليه أبداً»**[8] .

يقـول شــاعــر :

---

(١) ربيع الأبرار للزمخشري : ١/٧٢٦ .
(٢) ـ(٣) محاسبة النفس لابن طاووس، باب التوبة .
(٤) ربيع الأبرار : ١/٧٣٧ .
(٥) سورة الإسراء ؛ الآية : ٢٥ .
(٦) ربيع الأبرار : ١/٣٧٨.
(٧) ربيع الأبرار : ١/٧٣٨ .

أنا المذنبُ الخطّاء والعفو واسِعٌ ولو لم يكن ذنبٌ لمَا عُرِفَ العفوُ

وسأل رجل أحدَ الزهاد فقال : إني عصيتُ اللّهَ، أفتراه يقبلني؟

فقال : ويحك، إنه يدعو المدبرين عنه، فكيف لا يقبل المقبلين إليه[1] !

وكان رجل يُقال له (الجحاف بن حكيم) أغار على قوم من بني تغلب في وادٍ لهم ليلاً فقتلهم شرَّ قتلة، قتل الأطفال والنساء، وبقر بطون الحوامل منهن، وقطع أثداء النساء . . كل ذلك بسبب شعر قاله بعضهم ذكره بسوء فيه، فغضب لذلك وفعل ما فعل . . ثم ندم على ذلك، وتألّه، وخرج إلى الحج مع مشيخةٍ ممن شهدوا معه الوقعة، وقد لبسوا الصوف، وأحرموا، وأبّروا أنوفهم ،ومشوا إلى مكة، فجعلوا يطوفون بالبيت، ويقولون: اللّهمَّ اغفر لنا وما نراك تفعل !! .

فسمعهم بعض الصحابة، فقال: يا هؤلاء، قنوطكم من رحمة الله أعظم من إخراجكم[2].

إن الله عزّ وجلّ أكرم مما تتصوره عقول البشر، وإنه تعالىٰ لا يمكن أن يرفض نادماً سعىٰ إليه، وكُلُّهُ أملٌ ورجاء أن يتقبله ويعفو عنه .

سمع جبرائيل عليه السلام إبراهيمَ الخليل على نبينا وآله وعليه الصَّلاة والسَّلام، يقول : (يا كريم العفو) فقال له: أوَ تدري يا إبراهيمَ ما كَرَمُ عفوه؟ قال: لا يا جبرائيل، قال : إن عفا عن السيئة كتبها حسنة[3] .

رأى بعضهم أبا نواس بعد موته في المنام، فأحب أن يعرف ما آل إليه أمرُه عند الله، فقال له: ما فعل بك ؟ فقال: غفر لي ببيتين قلتهما قبيل وفاتي !! قال: ما هما؟ قال: قُلت:

من أنا عند اللّه حتىٰ إذا أذنبتُ لا يغفر لي ذنبي
العفو يُرجىٰ من بني آدمٍ فكيف لا أرجوه من ربي[4]؟

---

(١) -(٣) ربيع الأبرار للزمخشري : ١/ ٧٥٠ .

(٤) الكنىٰ والألقاب للمحدث القمي ج ١ ترجمة أبي نؤاس ص ١٧٠ .

إن الذنوب تُحدِثُ في النفس ضيقاً، وكثيراً ما تُسبب في حدوث الاضطراب والقلق، وتشويش البال، وقد يستولي الهمّ على قلب الإنسان، ويهجم عليه الحزن لما اقترفت يداه وما عمل من معاصٍ.

وربما تشكل هذه الحالة ظاهرة إيجابية تنتهي بالمرء إلى الاستغفار والندم ومراجعة السلوك الخاطىء الذي اتسم به في ما مضىٰ، والقرآن الكريم يعرض علينا واقعة تاريخية من حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الأجلّاء الذين كانت سيرتهم منهجاً وعظة نستفيد منها لتقويم سلوكنا، وتهذيب نفوسنا.

هذه القضية تتجسد فيها الحالة التي نحن بصددها؛ ارتكاب الخطأ، ثم الندم على ذلك إلى حد ضيق النفس، وتراكم الهموم على القلب، ثم التوبة النصوح والخروج من الأزمة بطهارة القلب ونزاهة النفس وعميق الإيمان.

بدأت الواقعة بالشكل الآتي: في غزوة تبوك، خرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه للجهاد في سبيل الله، ومحاربة العدو الكافر، ولكن الظروف المحيطة آنذاك كانت صعبة للغاية، فقد أصابتهم عُسرةٌ وشدة، وقلّ زادهم كثيراً، ولم تتوفر المؤونة الكافية، حتى بلغ بهم الجوع حداً لا يُطاق بحيث كان الرجل لا يحصل في اليوم إلّا على ثمرة واحدة، وجرعة ماءٍ واحدة..

وحدث أن تخلف ثلاثة من الأصحاب عن الالتحاق بركب المجاهدين، وهم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية، ولم يكن تخلّفهم عن الرسول وأصحابه عن نفاق أو توانٍ، بل كان أحدهم تخلف بسبب رعاية ضيعة له، والآخر منعه أهله من الخروج، والثالث آثر الراحة والسكون.

ويبقىٰ التخلف عن الجهاد من غير عذر مشروع إثماً عظيماً ومعصيةً كبيرة مهما كانت الأسباب، فلا تقوم عذراً للتخلف..

ولحق هؤلاء ندم شديدٌ على تخلفهم، وضاقت نفوسهم، وأصابهم قلق واضطراب، وكادت الحسرة تقتلهم، خاصة وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين معه، قاطعوهم بعد عودتهم من تبوك، ولم ينفعهم الإعتذار وإظهار الأسف،

فلم يكلمهم النبي، وهجرهم الناس، حتىٰ النساء والصبيان واشتركت نساؤهم في المقاطعة، فلم يسمحن لهم بمقاربتهنّ، حتى ضاقت عليهم المدينة، فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ولا يكلمونهم . .

قال تعالىٰ عنهم : **﴿وعلىٰ الثلاثة الذي خُلِّفوا حتىٰ إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾**(1) .

دامت معهم هذه الحالة خمسين يوماً يتضرعون إلى الله تعالىٰ ، ويتوبون إليه، وبلغ بهم الندم أن تهاجروا فيما بينهم أيضاً. . حتى تداركتهم رحمة ورأفة من الله عزّ وجلّ، فتاب عليهم . وقد كان تأخير قبول التوبة لاستصلاحهم، واستصلاح غيرهم، لئلا يعودوا إلى مثله(2) .

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام : إن رجلاً قال بحضرته أستغفر الله، فقال له الإمام عليه السلام :

«ثكلتك أُمك، أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستةِ معانٍ :

أولها : الندم على ما مضىٰ .

والثاني : العزم على ترك العود إليه أبداً .

والثالث : أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقىٰ الله أملَسَ ليس عليك تبعة .

والرابع : أن تعمد إلى كل فريضةٍ عليك ضيّعتها فتؤدي حقها .

والخامس : أن تعمد إلى اللحم الذي نبتَ على السحت فتذيبه بالأحزان حتىٰ تُلصِقَ الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد .

---

(1) سورة التوبة ؛ الآية : ١١٨ .

(2) تفسير مجمع البيان للطبرسي ، تفسير سورة التوبة .

والسادس : أن تذيق الجسمَ أَلَمَ الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية .

فعند ذلك تقول: أستغفر الله»[1].

٣ ـ الاستبصـــار :

وهي المرحلة الثالثة، فإذا أقرَّ المرء على نفسـه، واعترف بمـا عنده من السيئات والخطايا، ثم تاب منها واستغفر، وسأل الله الغفران لما بدر منه، فإن ذلـك يؤدي به إلى إدراك وفهم أسبـاب شقائـه النفسي، ومشكلاتـه الروحيـة، والدوافع التي أدّت به إلى اقتراف الذنوب والمعاصي .

وفهم الإنســان لنفسه، وطبيعتـه الإنسانيـة، وإدراك ما في نفسه من خيـر وشر، وتقبّل المفاهيم الجديدة، والمثل الدينية العليا. . كل ذلـك يكرس في نفسه معرفة الله عزّ وجلّ ويعزز في داخله الإيمان بالله تعـالىٰ . . وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مجموعة من الأقوال بهذا الخصوص :

«من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[2].

«العارف من عرف نفسه فأعتقها ونزّهها»[3] .

«أعظم الجهل جهل الإنسان أمرَ نفسِهِ»[4] .

«أعظم الحكمة معرفة الإنسان نفسَه»[5] .

«أفضل العقل معرفة المرء بنفسه، فمن عرف نفسه عَقَـل، ومن جهلها ضلَّ»[6] .

إن فهم النفس وإدراكهـا من أعـظم أشكـال الاستبصـار، فـإذا تمَّ هـذا الاستبصار، أو قل : هذه البصيرة للنفس، فإن المرء ينـطلق ويرقىٰ بمستـوىٰ نفسه إلى تقبّل الذات، وتقبّل الآخـرين، وسوف يمتلك القـدرة على ترويض نفسه، وتحمّل مسؤوليات هذه الحيـاة، من تضحية، وخـدمة للنـاس، واتخاذ أهـداف واقعية مشـروعة في الحيـاة، كـالقـدرة على الصمـود، وعلى العمـل

---

(١) نهج البلاغة : شرح محمد عبده الجزء الأخير، باب الكلمات القصار ص : ٩٧ .

(٢)ـ(٦) تفسير الميزان للطباطبائي : ١٧٣/٦ .

والإنتاج، والوقوف إلى جانب الله في كل حال . .

إن الإنسان حين يجتاز مرحلة الإقرار والتوبة والاستبصار بنجاح، فإن معنىٰ ذلك أنه قضىٰ على شياطين نفسه، واغلق الأبواب دونهم، ومن استطاع أن يفعل ذلك، فإنه يستطيع أن ينظر إلى ملكوت السمٰوات قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السّمٰوات والأرض»** [1]

أي أنه حين يتم له تطهير نفسه من أدرانها: من الرغبات المحرمة، والشهوات الممنوعة، والهوىٰ والأخلاق السيئة. . يكون بذلك أقرب إلى الله عزّ وجلّ، بشفافية في النفس وفراسة في العقل، وإدراك للواقع .

قال تعالىٰ : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً. . .﴾ [2] .

إن اللذة التي يشعر بها المستبصر المهتدي ما فوقها لذّة، لا يمكن أن يعرفها إلاَّ المتخلي عن الذنوب، التائب منها، العائد إلى الله تعالىٰ، فهو وحده الذي يدرك هذه اللذة، فيمتلىء وجدانه اطمئناناً وراحة، ويهدأ باله، وتستريح نفسه من عناء الأوزار وثقلها، يشعر وكأنه انطلق من قيد، وانفلت لتوّه من الأغلال .

٤ ـ الدعاء :

ولعل الجامع لمفهوم المراحل الثلاث الآنفة الذكر هو : الدعاء، وللدعاء برنامج حافل في الإسلام، وبخاصة عند أهل البيت الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين، فقد أرشدوا الأُمة، ووجّهوا الناس وعلّموهم، انتهاج المراحل الثلاث عن طريق الدعاء .

والنفوس التي تزعزعها حوادث الأيام، النفوس التي يصعقها الشيطان، لا بدَّ لها من مَصلٍ لتستقر وتطمئن. . وخير وسيلة يعيد بها الإنسان الطمأنينة

---

(١) جامع السعادات محمد مهدي النراقي : ١/١١ .

(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٩ .

إلى نفسه الشاردة، هو ذكر الله العظيم ﴿ألاَ بذكر اللَّهِ تطمئن القلوب﴾[1] .

هذه حقيقة يقررها القرآن الكريم، ويؤيدها العقل، لأن التائه الضال يبحث دائماً عن ركن شديد يأوي إليه، وذكر الله عزّ وجلّ وتلاوة آياته العزيزة والدعاء، كلها تشكل الركن الشديد والجانب الوثيق الذي ينشده التائه، والحصن الحصين الذي يأوي إليه الخائف، فتستقر نفسه ويطمئن قلبه .

ومن منطلق كون الإسلام دين الإنسانية، فهو لا يدع شأناً من شؤون الحياة إلاّ ويبرمج له وينظمه، سواء على المستوىٰ الفردي أو الاجتماعي . . ويواكب حياةَ المؤمن بمناهجه، لكي تبقىٰ آمنة مطمئنة مستقرة، ملاحظاً في ذلك الطبيعة البشرية، والفطرة الإنسانية، فيسايرها، ويرافقها لكي يمنع عنها تأثيرات القوىٰ الشريرة . . ولتكون بمأمن من آثارها السيئة، مثل القلق، والوحشة، والاضطراب . .

والدعاء يعتبر من الوظائف الروحية في الإسلام، التي تسعىٰ لتقوية العلائق بالله العظيم لتصفو النفس من المشاكل . . بل هو من أهم الوظائف الروحية في هذا الدين العظيم .

ولا يمكن اعتباره مجرد عبادة، إنما هو استمداد من القوي العزيز لحلّ أزمات الحياة، والتغلب على مشاكل الدهر، إنه أملٌ يحيي القلب، ويبعث على الحيويّة والنشاط .

والدعاء يشكل لائحة بأهمّ مفاهيم الإسلام، وأصوله ومعتقداته، والمؤمن الذي يلتزم تلاوة الأدعية، ويمارس قراءتها دائماً ، يكون ـ عادةً ـ مثقفاً بثقافات إسلامية متنوعة .

وقد ترك الأئمة الطاهرون من أهل البيت عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ بعد القرآن والرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثروة ضخمة من الأدعية والأذكار، وخلّفوا تراثاً عظيماً من المعارف والعلوم، من خلال هذه الأدعية، واتخذوا من الدعاء أساساً في علاج النفوس الحائرة، وتقويمها، وشرح الصدور، والتنفيس عن الكربات . .

---

(١) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

ولكن المشكلة تكمن في أن الناس قلّما يتوجهون إلى هذا المنهج لاستصلاح نفوسهم، وناذراً ما تجد من ينهل من هذا المعين العذب لحل مشكلاته وأزماته الروحية .

وقد كان للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ، قسط وافر، ومجهود كبير في مجال تهذيب النفوس وتقويمها، وتربيتها من خلال الأدعية العظيمة المأثورة عنه، والمثبتة في الصحيفة السجادية وغيره من كتب الأدعية والتراث .

(فقد استطاع هذا الإمام العظيم، بما أوتي من بلاغةٍ فريدة، وقدرةٍ فائقة علىٰ أساليب التعبير العربي، وذهنية ربانية تتفتق عن أروع المعاني، وأدقها في تصوير صلة الإنسان بربه، ووجده بخالقه وتعلقه بمبدئه ومعاده، وتجسيد ما يعبر عنه ذلك من قيم خلقية وحقوق وواجبات، أقول : قد استطاع الإمام عليٍ بن الحسين، بما أوتي من هذه المواهب، أن ينشر من خلال الدعاء، جواً روحياً في المجتمع الإسلامي، يساهم في تثبيت الإنسان المسلم، عندما تعصف به المغريات وشدِّهُ إلى ربه حينما تجرّه الأرض إليها، وتأكيد ما نشأ عليه من قيم روحية . . لكي يظلَّ أميناً عليها في عصر الغنىٰ والثروة، كما كان أميناً عليها وهو يشدُّ حجر المجاعة على بطنِهِ)[1] .

ولنلق نظرة على القرآن الكريم ـ أولاً ـ لنرىٰ الاهتمام البالغ الذي أولاه الباري عزّ وجلّ بالدعاء والتركيز على أثره الفعال في العلاج النفسي، وتهدئة القلوب والضمائر .

ففي القرآن منهج متكامل للدعاء، يحتوي على الأساليب المتينة، والمحتويات العظيمة، والدقّة في اختيار الأدعية التي ينبغي أن يتعلمها المؤمن ويرددها . . ومقاطعَ من أدعية الأنبياء عليهم السلام وغير ذلك من الملاحظات التي قد نشير إليها على عجل . . .

فقد ورد الأمر بالدعاء، والتأكيد عليه، وصرح القرآن بضمان الإستجابة

---

(١) الشيهد محمد باقر الصدر مقدمة الصحيفة السجادية .

من قبل الله عزّ وجلّ لتشجيع الناس وحثهم على ممارسته والإكثار منه .

قال تعالىٰ : ﴿**وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم**﴾[1] .

ويأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسوق الناس باتجاه الله عن طريق الدعاء :

«**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيبُ دعوةَ الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشُدون**»[2] .

ويعتبر الدعاء تذكراً متبادلاً بين الخالق والمخلوق، وعلاقة وثيقة بين العبد وربّه، فالعبد الذي لا يغفل عن ذكر الله بالدعاء، يذكر الله بالرحمة والمغفرة، وكشف الكربات وحلّ الأزمات. . .

﴿**فاذكروني أذكركم. . .**﴾[3] .

﴿**واذكر رَبَّكَ إذا نسيت . . .**﴾[4] .

﴿**واذكر ربك كثيراً وسبِّح بالعشيّ والإبكار**﴾[5] .

﴿**فإذا قضيتم الصَّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم**﴾[6] .

كل ذلك إشارة إلى أن الدعاء غذاء روحي، ومهدّىء يبعد الوساوس عن النفوس، ويزيح عنها قهر الحوادث باتصالها بخالق الكون، وربِ السموات والأرض، ولولا دعاء الإنسان، ومناجاته مع الله عزّ وجلّ، لانقطعت الصلة بينه وبين السماء، فالذي لا يدعو، ولا يناجي الله سبحانه، يكون قد أعرض عن الله، وجزاؤه : إعراضُ الله عنه .

﴿**قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم . . .**﴾[7] .

---

(١) سورة غافر ؛ الآية : ٦٠ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٦ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٥٢ .

(٤) سورة الكهف ؛ الآية : ٢٤ .

(٥) سورة آل عمران ؛ الآية : ٤١ .

(٦) سورة النساء ؛ الآية : ١٠٣ .

(٧) سورة الفرقان ؛ الآية : ٧٧ .

ومعنىٰ ذلك أنه يبقى من غير أمَلٍ ، لا يجد ملجأً يأوي إليه، أو قوةً يستند إليها، وتظل نفسه تائهة قلقة تتعلق بأسباب واهية لا تغني عن الله شيئاً .

يحكي لنا القرآن الكريم عن النبي يونس على نبينا وآله وعليه الصَّلاة والسَّلام، حين صار في بطن الحوت، وأطبقت عليه ظلماتٌ ثلاث : ظلمة الليل، وظلمة قاع البحر، وظلمة بطن الحوت، لم يجد أية قوةٍ قادرةً على انقاذه وإسعافه من هذه الورطة، سوىٰ الاتصال بالله سبحانه، بالدعاء والتضرع إليه، وقد كان اليأس من الفرج والنجاة في تلك الساعات الحَرجة القاسية يعتصر قلبه، ويضيق عليه، ووجد الأبواب كلها مغلقة دونه، سوىٰ باب واحد، وهو باب الله تعالىٰ .

يقول القرآن الكريم عنه : إنه لو لم يكن على ارتباط وثيق ـ في تلك الأزمة الشديدة ـ مع الله سبحانه لكان محكوماً عليه باللبث في مكانه إلى يوم القيامة، ولكن الأمر الذي عجل له بالخلاص والنجاة، هو دعاؤه واتصاله بالله عزّ وجلّ .

﴿فلولا أنه كان من المسبحين لَلَبِثَ في بطنه إلى يوم يبعَثون﴾[١] .

وما من نبيٍّ من أنبياء الله، إلاّ وتسلّح بالدعاء في كل أحواله، خاصة للثبات والصمود في وجه الملمّات والمصاعب، وفي حالات الشدّة والعسر والضيق، وفي ساعات الخوف والاضطراب وهجوم الأحزان على النفس . . .

نقرأ في القرآن الكريم نماذج من أدعيتهم التي كانوا يرددونها في الشدائد، ويستمدون العون من الله تعالىٰ من خلالها، ويستلهمون القوة والعزم منها .

﴿وأيوب إذ نادى ربّه أني مَسَّنيَ الضرُّ وأنت أرحم الراحمين﴾[٢].

﴿فدعا ربَّه أني مغلوبٌ فانتصر﴾[٣] .

---

(١) سورة الصافات ؛ الآية : ١٤٤ .

(٢) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٨٣ .

(٣) سورة القمر ؛ الآية : ١٠ .

﴿وزكريّا إذ نادىٰ ربّه ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خيرُ الوارثين﴾[1] .

﴿. . إنهم كانوا يسارعون في الخيراتِ ويدعوننا رَغَباً وَرَهَباً وكانوا لنا خاشعين﴾[2] .

وهكذا . . تجد القرآن حافلاً بأدعية الأنبياء .

وفي القرآن منهج خاص بالدعاء، لا يمكن أن يستغني عنه المؤمن في حياته، لأنه العلاج الأنجع لمشاكله وآلامه .

وقد كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين، دور كبير في تعليم الأمة أساليب الدعاء، وطرائقه، وآدابه، ومحتوياته، ومضامينه، وترويضهم على ممارسته في كل حال، بشكل لا ينقطع معه المؤمن عن الدعاء أبداً

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد»** [3]

وعن جابر (رض) يرفعه : **«لقد بارك الله للرجل في حاجةٍ أكثر الدعاء فيها، أُعطيها أو مُنِعَها»**[4] .

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام : **«ادفعوا أمواجَ البلاء بالدعاء»**[5] .

وعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : **«وإذا سألت فاسأل اللَّهَ، وإذا استعنت فاستعن بالله»**[6] .

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : **«سلاح المؤمن الدعاء، وهو عماد الدين ونور السَّمٰوات والأرض»**[7] .

وعنه عليه السلام أيضاً : **«جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذن لك فيه من مسألته، فما شئتَ استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرتَ شآبيب**

---

(١) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٨٩ .

(٢) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٩٠ .

(٣)ـ(٦) ربيع الأبرار للزمخشري : ٢٠٨/٢ .

(٧) ربيع الأبرار للزمخشري : ٢١٧/٢ .

رحمته، فلا يقنِطَنَّكَ إبطاء إجابته، فإن العطيةَ على قدرِ النيّة، وربما أُخِّرَت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيءَ فلا تُؤتاه، وأُوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، أو صُرفَ عنك بما هو خير لك .

فلربَّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أُوتيته»[1] .

واعتَمَر عليٌّ ﷺ ، فرأى رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول :

(يا من لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ ، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاحُ الملحين، أذقني بردَ عفوك، وحلاوة مغفرتك) .

فاستحسن الإمام ﷺ هذه العبارات، وهذه الصياغة المتينة، لألفاظٍ عذبةٍ رائعةٍ في هذا الدعاء .

فقال له ﷺ : **«والذي نفسي بيده لو قلتها وعليك مِلء السَّمٰوات والأرضين من الذنوب لَغُفِرَ لك»**[2] .

وقيل : ما قُرِعَت أبوابُ السماء بمثل مفاتيح الدعاء .

وصلّى رجل إلى جنب أحد الزهاد، فلما أتمَّ صلاته بادر بالقيام، فجذب الزاهد ثوبه وقال له : أما لَكَ إلى الله حاجة؟ .

وهكذا نجد الدعاء في المنهج الإسلامي خير وسيلة وأحسن سبب لدفع الملمّات والشدائد مهما ثَقُلت، وهو السبيل الأمثل لراحة النفس، وسكون الخاطر. . ولقد وجدنا رسول الله ﷺ ، يقدم الدعاء على غيره في كل محنة وشدّة، ويتخذه وسيلة لدَرْء الأخطار ودفع المزعجات. . . بل حتى مع استقرار الحياة، واستتباب الأمن والدعة، كان لا ينفكّ من الدعاء. . خاصة في مظانّ استجابته كليالي القدر، وفي عرفات، وغير ذلك من مواطن الدعاء والإنابة .

---

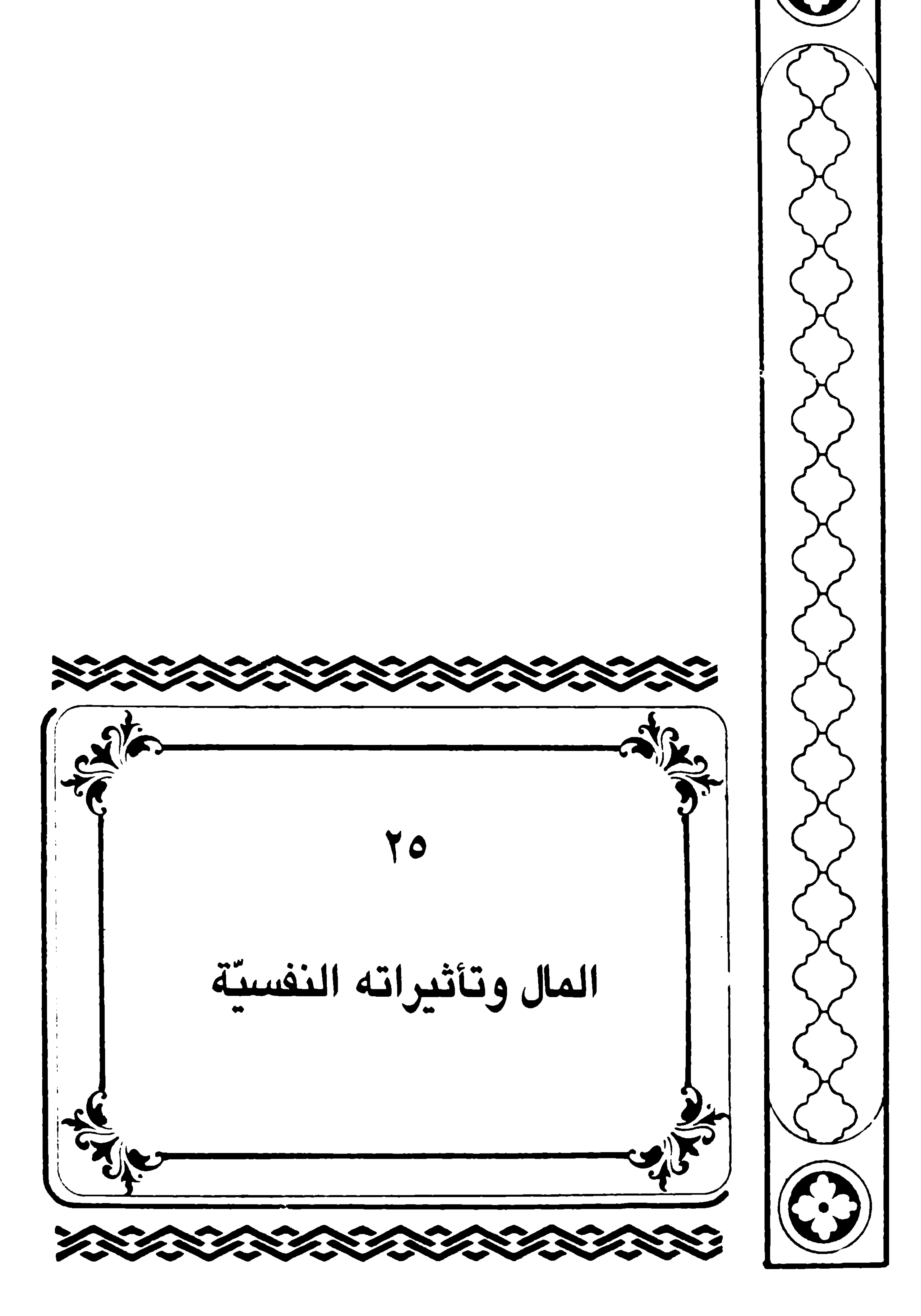
(١) نهج البلاغة .

(٢) ربيع الأبرار : ٢/٢١٧ .

وسار الأئمة الطاهرون عليهم السلام على هذا النهج، والتزموا بالدعاء، كمنهج في الحياة وسلوك دائم.. فكانت لهم مدارس ومناهج في هذا المجال.

وكان (دعاء كميل) و(دعاء الصباح) و(دعاء أبي حمزة) و(دعاء الحسين يوم عرفة) وغيرها من النماذج القيمة للأدعية المرويّة عنهم عليهم السلام، من أعظم الآثار الخالدة عنهم.

وقد ثبت بالتجربة لكثير من الناس، أن هذه الأدعية لها أثر فعّال عظيم في انفراج الأزمات وإزاحة الكُرَبِ عن النفوس.



٢٥

المال وتأثيراته النفسيّة

إن المال يشكل عاملاً مهماً في إثارة كوامن النفس، ولا يمكن لأحد أن يُنكِرَ استجابة النفوس لإغرائـه، والانفعال به، فالنفس مجبولة على حب المال منذ أيام الصبا والطفولة .

إن الإنسان يتعلق بالمال ويحبّه بدافع غريزي، ويحب الاقتنـاء بطريقـة لاشعورية، ويـود أن يضيف ما لا يملك إلى مـا يملك، ويزداد اقتنـاء. . وتنمو هذه الغريزة في نفسه كلما نما عقله، وتكبر معه كلما كبرت سِنّه. . ولقد أشار رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى هـذا المعنىٰ في قولـه : **«إذا شـاب ابن آدم شبّت فيـه خصلتان : الحرص وطول الأمل»** .

ففي الصغـر ينحصر حبـه للمال في امتـلاك اللعب والدمىٰ، والحـرص على الأشياء الصغيرة التافهة. . ويـطمع إلى مـا في يد غيـره من الأطفال وإن كان يمتلك مثلها. . وربما دخل في منـازعات وخصـومات مـع أقرانه ليحقق مكاسب صغيرة. . حتىٰ إذا بلغ سنَّ الرشد، وأدرك معنىٰ المال، كبر فيه حب المال، وأحبَّ الإمتلاك لمجـرد الامتلاك، وإن كـان مستغنياً عن المـال، إنما هي الغريزة، ولا بد من اشباعها .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغىٰ وادياً ثـالثاً ولا يملأ جوف ابنِ آدمَ إلاّ التراب»**[1] .

---

(١) صحيح مسلم حديث ١١٦ ويذكر البخـاري هذا الحـديث أيضاً علىٰ أنـه كان آيـة في القرآن الكريم .

ولقد صرح القرآن الكريم بهذا الحب الفطري للمال، في أكثر من مورد، منها قوله تعالىٰ : ﴿**وتحبّون المال حُباً جماً**﴾[1] .

وقوله : ﴿**وإنه لحبِّ الخير لشديد**﴾[2] .

والمراد بالخير هنا : المال، كما ورد في قوله تعالىٰ : ﴿**إن ترك خيراً الوصيةُ للوالدين**﴾[3] مما يوحي أن المال ليس شراً على كل حال.. بل ربما كان خيراً، كما لو عاد بالنفع على صاحبه وعلى الآخرين، واستُثمِرَ استثماراً حسناً بشكل يرضي الله تعالىٰ .

وليس كل طلب للمال مذموم، بل ربما كان بعض السعي للحصول على المال واقتنائه حسناً محموداً .

ولما كان للمال هذه المكانة الراسخة في النفس، كان لا بدَّ له من تأثير كبير على السلوك البشري، والصفات النفسية في حياة الإنسان، وكان لا بد أيضاً، من أن يتخذ حبُّ المال أشكالاً مختلفة في أخلاق الناس، وأن يكون المال محوراً في مجال الأفعال وردود الأفعال، والمثيرات والاستجابات النفسية.. وعلى هذا الأساس كان الشحّ والجود، وعلوّ النفس وصغرها، والغضب، والحسد، وما إلى ذلك من أنماط السلوك . . .

وإنني ـ من خلال هذا البحث ـ أحاول أن أطرح وجهة النظر الإسلامية في المال والثروة، وأعرض بعض الصور النفسية التي تتأثر بالمال أو تؤثر فيه .

١ ـ الغنى المشروع :

ربما يعتقد البعض أن الإسلام يرفض الغنىٰ، ويفضّل أن يكون المؤمن فقيراً، لما في الغنىٰ من مشاكل نفسية واجتماعية، كالبطر، والتكبر، والافتتان، وربما يدعم هؤلاء رأيهم هذا بنصوص وأخبار وروايات شرعية

---

(١) سورة الفجر ؛ الآية : ٢٠ .

(٢) سورة العاديات ؛ الآية : ٨ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٠ .

يستفاد منها هذا المنحىٰ في التفكير. ولكن الواقع يخالف هذا المذهب. فقد وردت نصوص كثيرة تدل على مدح المال، وتحث على اجتلاب الغنىٰ، والعمل والاكتساب، لتحقيق وتوفير الثروة المشروعة . .

فالنصوص الواردة في الحثّ على الحج، وإيتاء الزكاة والخمس، والتصدق، والهبة، والعطاء، والإحسان والإنعام، والإطعام، ومطلق الإنفاق في سبيل الله، وغيرها من الصالحات التي لا تتمُّ إلاّ بالمال. . كلها تحمل في طيّاتها مدحاً غير مباشر للمال، وتشجيعاً على الامتلاك والإثراء .

ولم يكتف الشرع بذلك، بل وردت نصوص بالمدح المباشر للمال فسماه القرآن خيراً، كما مرّ في الآية (١٨٠) من سورة البقرة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«نعم المال الصالح للرجل الصالح»**[١] .

وعن علي عليه السلام : **«من مات تَعباً في كسب الحلال، مات واللّهُ عنه راضٍ»**[٢] .

وذكر رجلٌ ـ عند الإمام الصَّادق عليه السلام ـ الأغنياءَ، ووقع فيهم، فقال أبو عبد الله : **(اسكت! فإن الغنيَّ إذا كان وصولاً لِرَحِمِهِ، باراً بإخوانه، أضعف الله له الأجر ضعفين، لأن الله تعالىٰ يقول: وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زُلفىٰ إلاّ من آمن وعملَ صالحاً فأولئك لهم جزاء الضِعفِ بما عَمِلوا وهم في الغرفات آمنون»**[٣] .

إذن : فالمال المشروع، والكسب الحلال لتحصيله شيءٌ حسن، والغنيُّ ربما ضوعف له الأجر. . ولو مات المرء في سبيل الحصول على الثروة المشروعة مات مرضياً عنه، مُثاباً على عمله .

وفي خبر آخر، أن رجلاً قال للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : يابن رسول الله، إننا نحبُّ الدنيا، ونحبُّ أن نؤتاها .

---

(١) السيد عبد الله شبر، الأخلاق : ٢١٧ .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٤/١١٥ .

(٣) تفسير الميزان : ٣٩٢/٦، سورة سبأ ؛ الآية : ٣٧ .

فقال ﷺ : وتصنع بها ماذا؟

قال : أعود بها على عيالي، وأصِل رَحِمي، وأحجّ وأعتمر، وأنفق في سبيل الله .

فقال ﷺ : إنها الآخرة، وليست الدنيا ! .

إن المال لو كان من مورد حلال مشروع، وأُريدَ به الإنفاق المشروع فهو الخير كل الخير، وبعبارة أُخرىٰ : يعتبر المال وسيلة، شأنه شأن أي وسيلة أُخرىٰ، لا يكون مذموماً في نفسه، ولكن لو اتُخِذَت هذه الوسيلة للوصول إلى غايات غير مشروعة، وتسببت في الإنحطاط النفسي والخلقي، فبئست الوسيلة، وأما لو كانت طريقاً للوصول إلى أهداف حسنة، وغايات نبيلة، مرضية عند الله تعالىٰ، فنعمت الوسيلة .

٢ ـ الافراط في حب المال :

إن النفس بميولها وتوجهاتها، هي التي تتحكم في المال، وفي اتخاذه وسيلة خيرٍ أو شر، فقد تكون النفس قويَّة صلبة عالية تجاه إغراء المال، عازفة ـ لسبب أو لآخر ـ عن فتنتهِ، فيتصرف الإنسان تصرفاً سليماً في تحصيل المال، وفي صرفه .

وقد تكون النفس ضعيفة أمام الثروة، فينعكس ذلك على تصرفاته في جمع المال وانفاقه . . ولو كان هناك ذم في نصوص الشرع للمال، فالذم ليس لعين المال، ليس للمال باعتباره مالاً، إنما الذم الحقيقي للسلوك النفسي، لزيغ النفس عن الحق، واستغلال المال استغلالاً بشعاً، لاتخاذه وسيلة لتحقيق الأغراض الدنيئة، والنوايا الخبيثة، للبخل به .

لا يمكن أن ننكر أن للمال إغراءً بالغاً، وتأثيراً كبيراً في نفوس الناس تتوارىٰ أمامه الأخلاق والقيم والمبادىء، فقد قال تعالىٰ :

﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾[١] .

---

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٨ .

ولكن رغم ذلك، لا يمكن أن يُعابَ المال بذاته، ولا الغنىٰ بذاته، إنما العيب واقع على النفوس المتّسمة بالحب المفرط للمال، والتعلق الشديد به، بحيث تزيغ عن الإستقامة في الحياة، وعن المعايير والموازين الإسلامية .

قال تعالىٰ : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلهِكُم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . . .﴾[1] .

إن الإفراط في حب المال هو المعيب لدىٰ الشخص، لأنه سيضطر إلى ركوب المآثم، والنزوع إلى الشر، والسير في مسالك السوء والرذيلة .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «حب المال والشرف يُنبِتان النفاق، كما ينبتُ الماء البقل»[2] .

ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، يريد الحب المفرط الشديد، ولا يريد مطلق الحب للمال والشرف، لأن من ذلك ما هو من الإيمان، والأخلاق الحسنة ولكن الإفراط فيه، بحيث ينسى المرء الفضائل والمبادىء والقيم، ويكون كلُّ همِّهِ الإثراء على حساب الدين والأخلاق، وتحقيق المكانة والسمعة بين الناس بالمال . . هو الخطر الأكبر، إذ لا بد للشخص ـ والحال هذه ـ من ان يتخطّىٰ الحواجز الدينية والأخلاقية، والأُصول والقواعد الشرعية إلى الخديعة، والنفاق، والتلون، والكذب، وغيرها من الأُخلاق السيئة، والانحرافات النفسية ! .

ولقد أدّىٰ حب المال المفرط ـ في بعض الأحيان ـ إلى اتخاذ المواقف الخطيرة . . وإلى إشعال نيران الفتن والحروب . . وإلى إضلال الناس وإغوائهم . . وإهلاك أُمم . . .

كل ذلك حاصل بالفعل تاريخياً، ويحصل في كل آن، والباعث لذلك غالباً هو التهافت والتهالك على المال بحرصٍ وجشع .

---

(١) سورة المنافقون ؛ الآية : ٩ .

(٢) ربيع الأبرار : ٤/١٤٩ .

هاهنا دراهم كثيرة :

ذكر ابن أبي الحديد عن وهب بن جرير قال : قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير : إن لكما فضلاً وصحبة، فأخبراني عن مسيركما هذا وقتالكما؟

أهو شيء أمركما به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أم رأي رأيتماه[١]؟ .

فأما طلحة، فسكت، وجعل ينكتُ في الأرض .

وأما الزبير، فقال: ويحك، حُدِّثنا أن هٰهنا دراهم كثيرة، فجئنا لنأخذ منها[٢]!!

لقد قامت حرب شرسة طاحنة، ذهبت بأرواح الآلاف من الناس.. كان السبب فيها المال، والحب المفرط له .

حديث بأربعمائة ألف درهم :

وربما أدىٰ حب المال إلى تزييف الحقائق، والتلاعب بالنصوص الشرعية والتلفيق والتزوير على الله ورسوله، كما حصل مع سَمُرة بن جندب حين طلب منه معاوية بن أبي سفيان، أن يتلاعب بالدين ويُحرف الكَلِمَ عن مواضعه، ويغيّر الصورة الواقعية لأسباب النزول .

فقد روي أن معاوية بذل لسَمُرة بن جندب مائة ألف درهم ، ليروي أن آية﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهِدُ الله على ما في قلبه وهو أَلَدُّ الخصام، وإذا تولّىٰ سعىٰ في الأرض ليفسِدَ فيها ويُهلكَ الحرث والنَسل والله لا يحب الفساد**﴾[٣] نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام ، وأن آية ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة اللّهِ واللّهُ رؤوفٌ بالعباد**﴾[٤] نزلت في قاتله عبد الرّحمٰن بن ملجم لعنه الله، وقد ذكر جلُّ المفسرين أن

---

(١) يسألهما عن خروجهما لحرب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل .

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد، المجلد الثالث : طبع دار مكتبة الحياة ـ بيروت ص ٣٥٨ .

(٣)ـ(٤) سورة البقرة ؛ الآيات : ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٧ .

الآية الثانية نزلت في علي عليه السلام وذلك ليلة مبيته في فراش رسول الله ليلة الهجرة .

توقف سَمُرة أول الأمر، وامتنع من الإستجابة لطلب الخليفة ولم تستهوِهِ المائة ألف درهم، ورفض ذلك، فضاعف له معاوية البذل وجعله مائتي ألف درهم، ولكن سَمُرة واجهه بالرفض أيضاً، فبذل له ثلاثمائة ألف، فلم يقبل أيضاً، فجعلها أربعمائة ألف درهم.. فلم يقو على رفضها، فقبلها، واستطاعت هذه الدراهم من أن تكتسح من طريقها إلى قلب الرجل كل القيم والأخلاق والذمم، واستجاب أخيراً لمطلب معاوية ووضع له ما أراد!! وهكذا تفعل الدراهم بالنفوس[1] .

الواقفية :

ومما يروىٰ بهذا الصدد أيضاً : إن السبب الذي دعا قوماً من شيعة الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام إلى القول بالوقف[2]، أن بعض أصحابه كان قد اجتمع عندهم من الأموال الشيء الكثير، ولم يكن بمقدورهم أن يسلموا هذه الأموال إلى الإمام للظروف التي كان يعيشها آنذاك وهو محبوس في سجون هارون العباسي.. وبقيت الحال كذلك حتى استشهد موسىٰ بن جعفر مسموماً في حبسه فأعمت الأموال بصائرهم فاستولوا عليها وأنشأوا فكرة الواقفية، وكان على رأس هؤلاء (علي بن حمزة البطائني) و (زياد بن مروان القندي) و (عثمان بن عيسىٰ الرواسي) وكان عند الأول : ثلاثون ألف دينار، وعند الثاني : سبعون ألف دينار، وعند الثالث : ثلاثون ألفاً أيضاً، وكان عليهم أن يسلموا هذه الأموال للإمام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام ، وقد طالبهم الرضا، فبعث إليهم أن احملوا إليَّ ما قبلكم من المال، وما كان اجتمع لأبي عندكم .

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد المجلد الأول ص ٧٨٩ .

(٢) الواقفية جماعة كانت تقول بإمامة الأئمة من أهل البيت حتى الإمام السابع موسىٰ بن جعفر عليه السلام ، وتوقفوا عنده ولم يقولوا بإمامة ولده الإمام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام ، زعماً منهم أن موسىٰ بن جعفر لم يمت بل رفعه الله إليه كما فعل بعيسىٰ بن مريم عليه السلام ثم اضمحلت الفكرة وزالت العقيدة فاليوم لا أثر لهم .

فأما علي بن حمزة فأنكر ولم يعترف بما عنده، وكذلك زياد القندي! وأما عثمان فإنه كتب إليه: إن أباك صلوات الله عليه لم يمت وهو حي قائم! ومن ذكر أنه مات فهو مبطل! . . وهكذا استهوتهم الدنيا وطمعوا فيها، ومالوا إلى حطامها. . واستمالوا قوماً فبذلوا لهم شيئاً مما اختانوه من هذه الأموال فاستجاب لهم البعض لضعف دينه، ولفرط حبه للمال. . ورفض البعض الآخر ممن عصمه دينه وتقواه .

فقد روي عن يونس بن عبد الرحمٰن، قال : لما مات موسىٰ بن جعفر عليه السلام جحدَ موتَه قومٌ طمعاً في الأموال، فدعوت الناس إلى الإمام من بعده (علي بن موسىٰ) عليه السلام ، وأنكرت على هؤلاء الجاحدين، فبعث إلي زياد بن مروان القندي وعلي بن حمزة البطائني، وقالا لي : ما يدعوك إلى هذا؟ إن كنت تريد المال أغنيناك، وضمنا لي عشرة آلاف دينار، وقالا لي : كُفَّ عن هذا، فأبيتُ وقلت لهما : إنا روينا عن الصادقين عليهم السلام ، أنهم قالوا : (إذا ظهرت البدع فعلىٰ العالم أن يُظهرَ علمَه، فإن لم يفعل سُلِبَ نورَ الإيمان) وما كنت لأدع الجهاد في أمر الله على كل حال، فغاضباني وأضمرا لي العداوة[1] .

وبذلك كان مذهب جديد، ومروق عن الدين الصحيح، وإغواء لكثير من الناس. . كل ذلك بسبب التهافت على حطام الدنيا، والحب الزائد للمال، حتى السقوط في الضلال .

ولا شكَّ أن المال الحرام يترك آثاره السيئة على النفس ويقودها نحو الانحطاط والخسّة، ويحطّ من قدرها، فاللقمة الحرام كالسمّ القاتل لها أثر وضعي سلبي على النفس تزعزع أركان المروءة وتأتي على المبادىء السامية لدىٰ المرء فتقضي عليها بحيث يُصبح لا همَّ له في الحياة إلاَّ المال الحرام، يلهث وراءه، ويستولي عليه حلالاً كان أو حراماً، ثم لا يسدُّ جوعتَه إلى المال إلاَّ الموت، ولا يملأ عينه إلاَّ التراب .

فكم سمعنا ورأينا أُناساً كان يُضرَبُ المثل بإيمانهم وأخلاقهم وعفّة

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي : ٤٨، ص ٢٥٠ فما بعدها .

نفوسهم.. استهوتهم الأموال، وأفرطوا في حبّها.. مكنتهم الظروف من التصرف في أموالٍ غيرِ مشروعة، وواتتهم الفرص فصارت في أيديهم أموال وثروات لا يملكون أي حق فيها.. ووجدوا أنفسهم فجأة يتقلبون في الغنىٰ والثراء، وكانوا من قبل لا يملكون قوت يومهم! فذابوا فيها، وأسقطوا كل القيم والاعتبارات من حياتهم، وصار همّهم الوحيد الزيادة في المال، والإكثار منه، دون رعاية لأصول الأخلاق، وقواعد الشرع.. فبنوا، وأسسوا، واستملكوا، وخاضوا في التجارة، وتضاعفت الأموال وكثرت، ولكنهم لم يزدادوا إلّا خسةً وضعةً وابتعاداً عن الله.

أذكر منهم (شريك بن عبد الله بن سنان النخعي القاضي) المتوفى سنة ١٧٥ هجرية، كان يُعرف بالزهد والتديّن.. عرض عليه المهدي العباسي تولي القضاء عدة مرّات وكان شريك يرفض ذلك حيطة لدينه..

ذكر المسعودي أنه دخل يوماً على المهدي العباسي، فخيّره بين ثلاثة أُمور يقبل واحداً منها: إما أن يعمل قاضياً لديه، أو يعلم أولاده، أو يأكل عنده وجبة طعام، ولم تكن نفس شريك تستريح لكل هذه العروض ولكنه وجد نفسه مضطراً لقبول أهون الثلاثة، فوافق على أن يأكل عنده أكلة.

فأمر المهدي طباخه أن يهيِّىء ألوان الطعام اللذيذ، كالمخ المعقود بالعسل وأنواع الحلوىٰ.. وجلس شريك على المائدة يأكل، واستطابت نفسه الأطايب، فلما فرغ من طعامه، نظر إليه قيم المائدة وقال: (ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً).

يقول الفضل بن الربيع: فوالله لقد رأيت شريكاً بعد ذلك، يجالس العباسيين، ويعلم أولادهم، وعمل قاضياً لديهم[1].

هكذا تركت اللقيمات آثارها في نفس الرجل، وسلبت منه لباس التقوىٰ وجعلته ينقاد للظالمين ويسايرهم.

---

(١) وقائع الأيام للشيخ عباس القمي حوادث الأول من ذي القعدة.

٣ ـ دوافع حبّ المال :

لو تسألنا عن العلة الحقيقية وراء حب الناس للمال، والدافع وراء هذا التعلق النفسي الشديد بالمال، والإنشداد إليه؟ لأجبنا : إن الدافع في الحقيقة دافعان :

الأول : ما أسلفنا عنه الحديث من أن النفس البشرية مجبولة على حب المال، واقتنائه فطرياً، ويعتبر حب المال غريزة تسكن النفس كحب البقاء وحب الولد، وغير ذلك من الغرائز التي أودعها الله في النفس.

يقول القرآن الكريم : **﴿زُيِّنَ للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضةِ والخيل المسوَّمةِ والأنعام والحرث . . .﴾**[1] .

ولا يستبعد أن يكون الفعل المجهول (زُين) في الآية راجع إلى الله سبحانه فهو الذي فطر هذه النفس، وأودع فيها ما أودع من الغرائز والشهوات وذلك لتستقيم الحياة، ولتسير شؤون الخلق سيراً طبيعياً، إذ لولا هذه الشهوات ـ كما يسميها القرآن ـ لتوقف الجميع عن الحركة والعمل، ولتوقفت الحياة، وفي ذلك حكمة بالغة، ومصلحة جليلة لا تخفىٰ على كل ذي لب . فالعلة الأُولىٰ، علة غريزية، يشترك فيها جلُّ بني البشر .

قال الحسن المجتبىٰ عليه السلام لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام : يا أبه، أما ترىٰ حب الناس للدنيا؟ فقال عليه السلام : هم أولادها، أفَيُلام المرء على حبّ والدته[2] .

ولا يستثنىٰ من هذه الحالة أحدٌ إلاَّ بدافع أقوىٰ، يطغىٰ على الدافع الأول كأن يبلغ الزهد بأحد درجةً ينتزع بها من قلبه حبَّ المال، والتهالك عليه، أو يهيمن عليه من حبِّ الله والآخرة، ما يشغله عن سفاسف الدنيا، ويصرفه عن حبّ المال . وإليك مثال ذلك :

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٤ .

(٢) ربيع الأبرار ١ / ٤٥ .

ذكر الشعبي قال: دخلت الرحبة في الكوفة ـ وأنا غلام ـ في غلمان فإذا بعلي بن أبي طالب عليه السلام، قائماً بين صبرتين[١] من ذهب وفضة ومعه مخفقة، وهو يطرد الناس بها، ثم يرجع إلى المال فيقسّمه بين الناس، حتى لم يبق منه شيء، ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلاً ولا كثيراً. فرجعت إلى أبي، فقلت له: لقد رأيت اليوم خيرَ الناس، قال: من هو يا بنيّ؟ قلت: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، رأيته يصنع كذا، وقصصت عليه فبكىٰ، وقال: يا بني، نَعَم، رأيت خير الناس[٢].

وروىٰ محمد بن فضيل، عن هارون، عن زاذان، قال: انطلقت مع قنبر غلام علي عليه السلام، فإذا هو يقول للإمام: يا أمير المؤمنين قُم فقد خبأت لك خبيئاً، قال: ما هو ويحك؟.

قال: قم معي. فقام أمير المؤمنين معه، وانطلق به إلى بيته، فإذا بغرارة مملوءةٍ من جامات، ذهباً وفضة.

فقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك لا تترك شيئاً إلّا قسّمته، فادّخرت لك هذا من بيت المال!.

فقال علي عليه السلام: ويحك يا قنبر! لقد أحببت أن تُدخِلَ بيتي ناراً عظيمة؟ ثم سلّ سيفه وضربَ الغرارة ضربات كثيرة، فانتثرت من بين إناء مقطوع نصفه، وآخر ثلثه، ونحو ذلك، ثم دعا بالناس فقال: اقسموه بالحصص، ثم قام إلى بيت المال، فقسَّم ما وجد فيه، ثم رأى في البيت إبَراً ومسالّ، فقال: ولتقسموا هذا أيضاً، فقالوا: لا حاجة لنا فيه، فضحك عليه السلام، وقال: ليؤخَذَنَّ شرُّهُ مع خيرهِ[٣].

وروي أيضاً أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، قال للإمام عليه السلام: يا أمير المؤمنين لو أمرت لي بمعونة أو نفقة! فوالله ما لي نفقة إلّا أن أبيع دابتي.

---

(١) الصُبرة: بالضم، ما جمع من الطعام أو غيره بلا كيل ولا وزن.
(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد طبع دار مكتبة الحياة بيروت المجلد الأول ص ٤١٤.
(٣) المصدر السابق.

فقال ﷺ : لا والله، ما أجد لك شيئاً إلاّ أن تأمر عمّك فيسرق فيعطيك[1] .

وصرّح ﷺ ، في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصاري رضوان الله عليه، بإعراضه عن الدنيا وزخرفها، وزهده فيها، فقال ﷺ :

« . . . ألا وإن إمامكم قد اكتفىٰ من دنياه بطِمرَيه، ومن طُعمِهِ بقرصيه . . . فوالله ما كنزتُ من دنياكم تِبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طِمراً، ولا حُزتُ من أرضكم شبراً»[2] .

أجل، هيمنت صلابة الإيمان، وقوة التقوىٰ على نفس الإمام ﷺ فغلبت حب المال، واستُثنيَ من بين الناس عن هذه الغريزة . . وقليل من هم على هذه الشاكلة . . فيكون بإمكانهم التغلب على هذه الجبلّة بالرياضة والتصبّر .

الثاني : والدافع الآخر يتمثل في خوف الفقر . . فالبعض من الناس يحرص على المال وازدياده، لئلا يقع في الفقر، والكثير من الناس يخشىٰ أن يفقد المال، فيتعرّض للعَوَز والحاجة، بمعنىٰ أن إفراطه في حبّ المال ـ في بعض الأحيان ـ احترازي احتياطي، ناشىء عن الخوف من المستقبل، إنه يحذر أن تبتليه الأيام بالحاجة المذلة للآخرين . . والتي لا طاقة له بها . فلو وَثق من عدم نضوب المادة عنه، واطمئنَّ إلى تأمين اقتصادي مضمون بشكل أو بآخر، فإنه لا يحرص الحرصَ الكثير على المال . .

من هنا وضعت قوانين الضمان الاجتماعي، لتطمئن النفوس إلى مستقبل آمن، ولإزالة الخوف من الفقر عن هذه النفوس. فالإنسان بطبعه يخاف الفقر، وقد يرتكب المرء ما لا يحمد عقباه لدفع الفقر عن نفسه . . وقد يؤدي خوف الفقر في بعض الأحيان إلى القتل، وزهق الأرواح .

والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنىٰ، حين يعرض صوراً من حياة

---

(١) المصدر السابق .

(٢) شرح نهج البلاغة: الأصل ٢٨٨ .

الجاهلية، حين كان الرجل منهم يفضل أن يقتل أولاده، على أن يعيش معهم حياة العَوَز، ويؤثر أن يتحمّل محنة قتل فلذة الكبد، على محنة الفقر والحاجة . . وينهاهم الله عن ارتكاب مثل هذه الحماقات . . ويؤكد لهم أن الأرزاق بيد الله، وأن الله تعالىٰ يتكفل بأرزاقهم فكيف بأرزاق أبنائهم :

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية املاقٍ نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطْأً كبيراً﴾[1] .

فلا ينبغي أن يخاف فقر المستقبل، وإن كثرة الأولاد لا تكون بحال من الأحوال عاملاً في افتقار المرء، وإن الإيمان بالله وبكونه هو الرزاق والمعطي والمغني . . يقتضي أن يكل المرء أموره إليه تعالىٰ، ولا يقدم على مثل هذا الشطط الفاحش، والسيئة الكبيرة .

ربما كان لهم بعض الحق في خوفهم من الفقر، ولكن لم يكن لهم أي حق في القتل بسبب هذا الخوف، لأن النفوس ـ كما أسلفنا ـ تخاف أن تُمتهن بالفقر وتُذل، فالفقر أبو المشاكل، وأصل المعاناة .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«إنما يخشىٰ المؤمنُ الفقرَ مخافة الآفات على دينه»**[2] .

وفي حديث لقمانَ لولده: (يا بني، قد أكلتُ الحنظل، وذقت الصبر، فلم أر شيئاً أمرَّ من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس كيما لا ينتقصوك . . .)[3] . فمن سيئاته أيضاً امتهان الناس للفقير، وعدم الاعتناء به، وبذلك كان دافعاً قوياً للحب المفرط للمال .

٤ ـ ذمّ الفقــر :

ومع الفقر يعجز الإنسان عن أداء مسؤولياته وواجباته تجاه النفس والبيت والأسرة والحياة كلها . . وتبقىٰ النفس محرومة من كثير من مشتهياتها، ومتطلباتها، لأن الفقر يحتجر إشباع الحاجات الأساسية بنحو عام، ويؤدي إلى

---

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ٣١ .
(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ١٤٢/٤ .
(٣) ربيع الأبرار : ١٤٤/٤ .

التوتر والصراع مع النفس وإلى نتائج أُخرىٰ مريرة، ناجمة أصلاً، عن عدم إشباع الدوافع الشخصية والأسرية والعامّة.

لذا نجد من خلال النصوص الشرعية، كمّاً لا بأس به من الأحاديث والأخبار تلوّح بسلبية الفقر.

فللإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام ـ في هذا المجال ـ اهتمام خاص نابع من التزامه بالمسؤولية الشرعية والأخلاقية تجاه الأمة، فقد كان أشدّ شيء عليه أن يرى بعض المسلمين فقراء معوزين، تعتصرهم الحاجة الملحّة إلى ضرورات الحياة، في الوقت الذي يرىٰ فيه آخرين يرفلون بالنعمة الموفورة والخير الكثير، ويتنعمون بوفرة المال، ومن غير حِلّه في بعض الأحيان.

قال عليه‌السلام: «**الفقر الموت الأكبر**»[١].

وعنه أيضاً: «**كاد الفقر أن يكون كفراً**»[٢].

وعنه عليه‌السلام أيضاً: «**لو كان الفقر رجلاً لقتلته**»[٢].

ويحدّد عليه‌السلام أربع سِماتٍ تطبع شخصية الفقير في قوله:

«**من ابتُلي بالفقر فقد ابتُلي بأربع خصال: بالضعف في يقينه، والنقصان في عقله، والرقة في دينه، وقلة الحياء في وجهه**»[٣].

وهي كما ترىٰ تشكل أعراضاً مَرَضيّة بالغة الخطورة، تصيب النفوس في أعماقها، إذ إن الضعف في اليقين، والرقة في الدين ناتجان عن الالتهاء الدائم بطلب الرزق والقوت، والنظر لما في أيدي الآخرين والتلهف إلى لقمة العيش، يصيب النفس بالوهن، ويضعف الإيمان، ويضعضع أركان اليقين بالله تعالىٰ.

وأما نقصان العقل وقِلة الحياء، فإفرازان لكثرة التسوّل والسؤال والركض وراء هذا وذاك لتحصيل المال، وسدّ الجوعة، واشباع الحاجات

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/١٤٩.

(٢) نهج البلاغة باب (الكلمات القصار).

(٣) دراسات في علم النفس الإسلامي: ٢/٢٢٦.

إذ كيف يمكن للمرء أن يجمع بين الحياء الكامل وحفظ ماء الوجه من جهة، وبين سؤال الناس وطلب المعونة منهم ؟

ومما يؤيد هذا الواقع، شعر الأعرابي الذي وقف على باب الإمام الحسن عليه السلام، معبراً عن رزيته بالفقر قائلاً :

لم يبقَ لي شيءٌ يُباع بدرهمٍ   يكفيك رؤيةُ منظري عن مخبري
إلاّ بقيةَ ماء وجهٍ صنتُه   من أن يباع وقد وجدتك مشتري

فالأعرابي بسجيته وفطرته يرىٰ أنه لا بد من التضحية بماء الوجه، للحصول على الصدقة المعنوية، ولكنه لا يرىٰ أهلية وقابلية لبذل ماء الوجه في أكثر الناس، ثمّ لمّا وجد هذه الكفاءة في الحسن المجتبىٰ عليه السلام، لم يأب من الوقوف عنده يسأله ويسكب ماء وجهه بين يديه فقال البيتين .

ولكنّ سمو نفسِ الحسن، وعلوّ همته، وشموخه في شخصيته الإسلامية النبيلة منعته أن يرىٰ ذلَّ السؤال في وجه الأعرابي . . فكان أن أعطاه ما أراد، وأجزل له العطاء، وأجابه قائلاً :

عاجلتنا فأتاك وابلُ بِرِّنا   طلاً ولو أمهلتنا لم تَخسُرِ
فخذ القليلَ وكنْ كأنّكَ لم تبع   ما صنتَه وكأننا لم نشترِ

ومجمل القول: إن الفقر مذموم في بعض الأحيان، وممدوحٌ في أحيان أُخرىٰ . . فلو صار عاملاً لإذلال النفس، وامتهان الشخصية فهو مذموم لا شك .

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام، لابنه محمد بن الحنفية :

«يا بني : إني أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصةٌ للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت» (1) .

وأما لو كان مقروناً بالصبر والإستقامة، وسبباً لصقل المواهب، وتنمية الطاقات، وعاملاً للتفوق والنجاح، كما يحصل للكثير من الفقراء . . فإنه لا

---

(1) ربيع الأبرار : ٤/ ١٥٠ .

شك محمودٌ، بل لا بدَّ منه في حياة بعض الناس! .

روي: «**أحبُّ الناس إلى الله الفقراء، وكان أحبّ خلقه إليه الأنبياء فابتلاهم بالفقر**»[1]، وقد سمعنا ورأينا كثيراً من الناس، صقل الحرمان مواهبهم، وأطلق عنانها، وعملوا في سبيل رفعه وسدّه على تحصيل العلم، واستعمال الفكر، حتىٰ فاقوا أقرانهم. . وتجاوزوا المصاعب والعثرات إلى السمو والرفعة، فنالوا مقامات محمودة ودرجات كريمة يحسدون عليها، ويشار إليهم من بين الناس. . كل ذلك نتيجة لما كانوا فيه من فقر وحرمان.

٥ ـ السؤال من الناس :

وأخشى ما يخشاه الإسلام على الفقير، أن يكون سؤولاً، يريق ماء وجهه هنا وهناك، ولهذا وذاك، فالفقر في حدّ ذاته محنة، فلو صار الفقير كثير السؤال من الناس، زاد في الطين بلّة، وتضاعفت محنته، باذلال نفسه، وامتهان كرامتها وعزّتها وهو عمل مخالف تماماً للمبادىء الإسلامية التي تريد للمسلم أن يكون عزيزاً كريماً مرفوع الرأس بين الناس ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم. . .**﴾[2] ولو أكثر الفقير السؤال اعتاده، وهانت عليه نفسه، حتى يبلغ به الحال إلى حدٍ يكون معه بغيضاً عند الله، وعند الناس.

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «**إذا كان يوم القيامة نادىٰ منادٍ: ألاَ لِيَقُم بغضاء الله، فلا يقوم إلاّ سؤّال المساجد**»[3].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«**من فتح على نفسه باب مسألةٍ من غير فاقة نزلت به، أو عيالٍ لا يطيقهم، فتح الله عليه باب فاقةٍ من حيث لا يحتسب**»[4].

يضيّق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دائرة السؤال، ولا يبيح ذلك إلاّ مع الفاقة (وهي

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/١٥١ .

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري: ٢/٦٣٩ .

(٤) ربيع الأبرار للزمخشري: ٢/٦٢٣ .

الفقر الشديد) ويقرر صلى الله عليه وآله وسلم أن السؤال من غير ضرورة ملحّة، يوقع المرء في فاقة حقيقية، لم يكن يحسب لها أي حساب، فكأن ذلك عقوبة له من الله عزّ وجلّ على إذلال نفسه بغير سبب وجيه .

وواضحٌ أن الذي يسألُ ويعطيٰ، فقد أعطىٰ وأخذ، أعطىٰ من حيائه وماء وجهه وكرامته، وأخذ تافهاً يسيراً مهما كان كثيراً .

يقول شاعر :

إذا أعطيتني بسؤال وجهي ... فقد أعطيتني وأخذت مني

ويقول آخر :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله ... بدلاً وإن نال الغنىٰ بسؤال

وإذا النوال مع السؤال وزنته ... رجح السؤال وخفَّ كلُّ نوال

فالشاعر يؤيد فكرة أن العطاء مقابل السؤال قليل حقير، وإن كان كثيراً لأن المال مهما عظمَ لا يوازي الحياء المبذول، والكرامة المهدورة .

وقد روي عن سيدنا أمير المؤمنين عليه الصَّلاة والسَّلام : إن سائلاً جاءه فلما بادر بالسؤال قال له الإمام عليه السلام : (اكتبها على الأرض باصبعك) لئلا يرىٰ ذل السؤال في وجهه .

ولو امتنع الفقير عن سؤال الناس، حفاظاً على عزّته وكرامته وشرفه . . كان عمله عند الله مقدّراً ثميناً، ولا بدَّ أن الله تعالىٰ يغنيه من فضله ورحمته، فقد روي عن ثوبان مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«**من يتقبّل لي واحدة، أتقبّل له الجنة؟**» فقلت: أنا، فقال: «**لا تسأل الناس شيئاً**» فامتنع ثوبان عن السؤال بتاتاً، فكان إذا سقط سوطه لا يأمر أحداً يناوله، وينزل هو فيأخذه احترازاً عن أي سؤال[1] .

والإنسان بفطرته يدرك ذلَّ السؤال، ويستنكف منه، ويأتي الإسلام ليؤكد هذه الفطرة، والإحساس النفسي، في مجموعة من التوجيهات والتعليمات القيمة التربويّة، وقد كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وعترته

(١) ربيع الأبرار : ٢/٦٢٣ .

الطاهرين مثالاً لدعم هذه القاعدة النفسيّة .

في (بحار الأنوار) روي عن إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب، قال: كنّا عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، وعنده المعلّى بن خُنيس إذ دخل عليه رجل من أهل خراسان، فقال: يابن رسول الله ، أنا من مواليكم أهل البيت، وبيني وبينكم شقة بعيدة، وقد قلَّ ذات يدي، ولا أقدر أن أتوجّه إلى أهلي، إلاَّ أن تعينني .

قال: فنظر أبو عبد الله عليه السلام ، يميناً وشمالاً وقال :

ألا تسمعون ما يقول أخوكم؟ إنما المعروف ابتداءً فأما ما أعطيت بعدما سأل فإنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه .

ثم قال: فيبيت ليلته متأرّقاً متململاً بين اليأس والرجاء، لا يدري أين يتوجه بحاجته، فيعزم على القصد إليك. . . فأتاك وقلبه يجبُّ [1] وفرائصه ترتعد، وقد نزل الدم في وجهه، وبعد هذا لا يدري أينصرف عنك بكآبة الردّ، أم بسرور النُجح؟ فإن أعطيته فقد وصلته، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، وبعثني بالحق نبيّاً، لَما يتجشّم من مسألته إياك، أعظم مما ناله من معروفك) .

فجمعوا للخراساني خمسة آلاف درهم ودفعوها إليه[2] .

وهذا الخبر وغيره من الأخبار والروايات تُنبيء عن مدىٰ اهتمام الأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام ، بمشروع القضاء على الفقر، وقلع جذوره من أوساط المجتمع، فقد عملوا بمثابرة وجدّ في سبيل تحقيق هذا الهدف السامي وعملوا كثيراً في طريق إغناء الناس، وإزاحة كابوس الفقر عن صدورهم وقلّما تجد مثل هذا الاهتمام عند غيرهم .

روي أن عروة بن الزبير بن العوّام سأل أخاه مصعباً حاجةً فلم يقضها له، فقال: علم الله أن لكل قومٍ شيخاً يفزعون إليه، وإنّا نفزع منك[3] .

---

(١) الوجيب : اضطراب القلب وشدة ضربانه .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي المجلد الخاص بالإمام الصّادق باب كرمه وعطاياه .

(٣) ربيع الأبرار : ٢/٦٣٣ .

وإن كان لا بدّ من سؤال، حين تلحّ الحاجة، وتقتضي الضرورة، وتُكرِهُ الفاقة على السؤال، فليكن السؤال من الشرفاء والكرماء، ومن معادن الخير الذين يُؤمَل منهم العطاء دون امتنان، ويستبعد منهم الردُّ والمنع، لا من الوضيع الخسيس الذي نال الغنىٰ لتوّه فأبطره وأسكره.

قال علي عليه السلام: **«فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلِها»**[1].

وفي الحديث القدسي: **«إن كنتَ لا بدَّ تسأل عبادي، فَسَلْ معادنَ الخير ترجع مغبوطاً مسروراً، ولا تسل معادن الشرِّ ترجع ملوماً محسوراً»**[2].

وعن الصادق عليه السلام: **«إذا طلبت الجود فعليكَ بمعادنه، فإن للجود معادن.. ولا أصل لا بمعدن طيب»**[3].

ثمة حالات استثنائية قهرية، تحمل الفقير على السؤال، كما سلف في حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، مما يضطر معها إلى الوقوف منكسر النفس بين يدي المسؤول، وهي أشدّ الحالات على ذي النفس الأبيّة، يتقدم فيها خطوة، ويتأخر خطوات، لعرض حاجته على الناس، فالتشريع الإسلامي ـ في هذه الحالة ـ يقف إلى جانب السائل، ويحثُّ المسؤول على عدم الردّ، ولكن يوجه السائل بحيث يسأل معادن الخير، وذوي النفوس الكبيرة الكريمة، ممن يتوسم فيهم الكفاءة والأهلية لعرض الحاجة عليهم، وينهاه عن سؤال الأراذل، وفقراء النفوس، والمعروفين باللؤم والخسّة، فقد ورد في خبر (لا تسأل من يفِرّ من أن تسأله) وروي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال:

«إني لأسارع إلى حاجة عدوي خوفاً من أن أردَّه فيستغني عني»[4].

ما أروع الإمام، يعمّ بخيره الجميع، إنه كالشمس، تشرق على البرّ والفاجر يسارع في إسعاف المحتاجين، وإن كانوا أعداء!.

---

(١) نهج البلاغة: الجزء الرابع: ١٥.

(٢) كلمة الله للشهيد السيد حسن الشيرازي.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي: ٧٨/٢٠٢

(٤) ربيع الأبرار: ٢/٦٢٩.

ورُوي عن ابن عباس، قال : (ما رأيت رجلاً أَسْعَفْتُهُ بحاجة إلاَّ أضاء ما بيني وبينه، ولا رأيت رجلاً رددته، إلاَّ أظلم ما بيني وبينه)[1] .

وسأل رجل أعرابياً عمّن يمكن الرجوع إليه في طلب المعونة، فقال: (عليك فلاناً، فإنه لا ينظر في قفا محرومٍ قط)[2] كناية عن أنه لا يردّ أحداً ممنوعاً من قضاء حاجته .

وروي عن عطاء بن ميسرة الخراساني، قوله: (الحوائج عند الشبّان أسهل منها عند الشيوخ، ألم تسمع قول يوسف : «**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم**» وقول يعقوب «**سوف أستغفر لكم ربّي**»[3] يشير إلى أن يوسف الصديق عليه السلام ـ وهو شاب ـ استجاب وَلانَ لأخوته سريعاً وقبل عذرهم، ولكن يعقوبَ عليه السلام ـ الشيخ ـ تباطأ وتمهل في قبول أعذارهم، ولم يستجب لهم سريعاً فقال : سوف استغفر لكم .

ونحن إذ نوافق عطاءً في أصل الموضوع، نتوقف عند مثاله، ونعترض عليه، فقد وردت الأخبار في تفسير هذه الآيات من سورة يوسف أن يعقوب عليه السلام ، إنما أخر أولاده انتظاراً لِسَحَر الجمعة ففيه تستجاب الدعوة. . ولم يفعل ذلك تباطؤاً في الإستجابة وقبول العذر، والله أعلم.

وفي الحديث: (**اعتمد لحوائجك الصباح الوجوه، فإن حُسْنَ الصورة أول نعمةٍ تتلقّاك من الرجل**)[4] .

ولما كان الشرع الحنيف ينهىٰ عن سؤال اللؤماء، فإنه ـ في الوقت نفسه ـ يحثُّ المقتدرين والأغنياء على عدم الردّ والمنع، ويشجع على العطاء والبذل .

قيل للحسن المجتبىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام : لأي شيء نراك لا تَردُّ سائلاً، وإن كنت على فاقة؟ .

فقال عليه السلام : (أنا لله سائل، وفيه راغب، وأنا أستحي أن أكون سائلاً

---

(١) - (٣) ربيع الأبرار : ٢/٦٣٦ .
(٤) ربيع الأبرار : ٢/٦٣٩ .

وأرُدُّ سائلاً، وإن الله تعالىٰ عوّدني عـادة: أن يفيض عليَّ بِنعَمِهِ، وعـودته: أن أفيض بنعمه على الناس، فأخشىٰ إن قطعت العادة، أن يمنعني العادة) وأنشد يقول:

إذا مـا أتـاني سـائـلٌ قلت مـرحبـاً ... بـمن فـضـلُهُ فـرضٌ علـيَّ مـعـجّـلُ
ومن فضله فضـلٌ على كـل فـاضـل ... وأفضـل أيـام الفتىٰ حينَ يُسـأل[1]

إنـه عليه السلام لا يعرف المنع، ولا يعرف قـول (لا) في وجـه السـائـل لأن السؤّالَ يحملون إليـه هديـة الله ونعمته حين يتـوجهون بمسـائلهم وحـاجـاتهم إليه.

قال الفرزدق عن علي بن الحسين عليه السلام:

مـا قـال (لا) قط إلاَّ فـي تَـشَـهُّـدِهِ ... لـولا الـتَـشَـهُّـدُ كـانـتْ لاؤُهُ نَـعَـمُ

ونقِلَ عن بعضهم أنه قال: أقِلّوا عند مسألة الحوائج من قـول (لا) فإنـه ليس في الجنّةِ لا.

وفي الأثر: من عَظُمت عليه نعمة الله، عَظُمت عليه مؤونة الناس.

وقـال شاعـر:

لـيس فـي كـل وهـلةٍ وأوانٍ ... تتهيـأ صنـائـع الإحـسـان
فـإذا أمـكنـت فبـادر إلـيـهـا ... حـذراً مـن تـعـذّرِ الإمـكـان

وعن الإمام أمير المؤمنين عليـه الصَّلاة والسَّـلام، في وصية لكميـل بن زياد:

(يا كميل، مُر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة كـل نائم فـوالذي وسِـعَ سمعه الأصـوات، ما من أحـد أودعَ قلباً سـروراً إلاَّ وخلق الله له من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبةٌ جرىٰ إليها كـالماء في انحداره حتى يطردها عنه، كما تُطرَدُ غريبةُ الإبل)[2].

---

(١) نور الأبصار للشبلنجي: ١٧٧.
(٢) نهج البلاغة: ٤/٦٥.

وروي عن الصَّادق عليه السلام: **(إن لله وجوهاً في خلقه، خلقهم لقضاء حوائج عباده، يرون الجود مجداً، والإفضال مغنماً، والله يحب مكارم الأخلاق)**[1].

وعنه عليه السلام: **(ما أنعم الله على عبد نعمةً فلم يحتمل مؤونة الناس إلاّ عرّض تلك النعمة للزوال)**[2].

إن الناس يختلفون باختلاف نفوسهم، في العطاء أو المنع، فمنهم من يستبشر بالسائل، ويفرح لقدومه، ويعتبر استقرار الحاجات عنده نعمةً وفضلاً من الله عليه، كما مرَّ عن الحسن بن علي عليه السلام.

ومنهم من يقطّب في وجه السائل، ويغلب عليه المنع، ولا يرتاح لأرباب الحاجات.. وذلك كله راجع إلى النفس ومدى تأثرها بالمبادىء والأخلاق والإرشادات الإسلامية، فالتوجيهات الإسلامية التي نقلت عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والطاهرين من أهل بيته، تؤثر كثيراً في تربية نفس المؤمن وتوجيهها الوجهة الصحيحة، وحملها على الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة..

يصفُ شاعرٌ رجلاً تعوّد العطاء حتى صار ملكة عنده:

ضَحوكٌ لِسؤّالِهِ قَطوبٌ إذا لم يُسَلْ
كأن (نَعَم) نَحلةٌ تَمُجُّ بِفيهِ العَسَلْ

وكان الصادق عليه السلام يقول: **(اللَّهُمَّ ارزقني مواساة من قتّرتَ عليه رزقك، بما وسَّعت علي من فضلك)**[3].

٦ ـ لا يرجوَنَّ أحدكم إلَّا ربَّه:

ويواصل الشرع الحنيف رسم المناهج والطرائق التي تُسهِم في رفع المعنويات، وتسمو بالنفوس، وتهذّب المجتمع، وتوجه عامة الناس إلى جادة الصلاح والصواب.. ولكنه يولي طبقة الفقراء عناية خاصة لأنها الطبقة

---

(١) (٢) ربيع الأبرار للزمخشري: ٣/٦٦٢.
(٣) ربيع الأبرار: ٣/٦٧٤.

المحرومة التي يعوزها الاهتمام والرعاية، فيعوض نقصهم المادي بالدعم المعنوي.. فيأمرهم بالصبر، والتحلي بعزة النفس، والتعفف... وينهاهم عن الإبتذال والهوان، ويؤكد في أكثر من مورد من القرآن الكريم، أن الغنىٰ قدَرٌ مقدور وقضاء من الله تعالى، إن شاء أغنىٰ، وإن شاء أفقر، وأنه تعالى لا يدع عزيزَ النفس، عفيفَ الطبع، يضيع في ظلمات الفقر، بل سيعينُه ويغنيه من فضله.

﴿وإن خفتُم عَيلةً فسوفَ يغنيكم الله من فضله﴾[1].

﴿... أن يكونوا فقراء يغنِهِم الله من فضله والله واسع عليم﴾[2].

﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[3].

﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾[4].

وتؤكد الأحاديث والروايات هذا المفهوم، وتنبه على أهمية التعفف لدىٰ الفقيرِ، والتصبر والتجمل في محنته، وتنهاه عن أن يبيع آخرته بدنياه، ولا تمنعه من ذلّ السؤال فحسب، بل تنهاه عن اظهار فقره، والإعلان عنه أمام الناس، وتحثّه علىٰ الطلب والسؤال من الله تعالىٰ لا غير، وأن لا يرجو إلاّ ربَّه **(ألَا لا يرجونَّ أحدكم إلاَّ ربَّه)**[5].

روي عن لقمان الحكيم، أنه اجتمع بولده يوماً يعظه وينصحه، فقال له فيما قال: (يا بني قد أكلت الحنظل، وذقت الصبر، فلم أر شيئاً أمرَّ من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس، كيما لا ينتقصوك، ولكن سل الله، فمن الذي سأل الله فلم يُعطه؟ أو دعاه فلم يجبه؟ أو تضرَّع إليه فلم يكشف ما به؟)[6].

---

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ٢٨ .

(٢) سورة النور ؛ الآية : ٣٢ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٢١٢ .

(٤) سورة الذاريات ؛ الآية : ٢٢ .

(٥) من وصايا علي عليه السلام ، نهج البلاغة .

(٦) ربيع الأبرار للزمخشري ٤/١٤٤ .

وعن التعفف، يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : **«إن من أُمتي من لا يستطيع أن يأتي مسجدَه من العري، يحجزه إيمانه أن يسأل، منهم أويس القرني، وفرات بن حيان»**[1] .

فالحاجات تطلب بالرجاء من الله تعالىٰ، لا بالسؤال والتذلل إلى الناس وإن الذي يقدر أن يصرف عينه عمّا في أيدي الناس، لهو أكثر سخاء من الذي يبذل ماله، وينفق ما عنده .

وقد تكون النفس كبيرة إلى حدٍّ أنّ صاحبها يستر فقرَه، ويظهر الغنىٰ، حتى لا يقول عنه أحد إنه فقير، ويعتمد اعتماداً كلياً على الله .

يقول القرآن الكريم : **﴿يحسَبُهُمُ الجاهلُ أغنياء من التعفّف﴾**[2] .

وهو من يحبه الله، فقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«إن الله يحبُّ عبده المؤمنَ الفقيرَ المتعففَ أبا العيال»**[3] .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : **«إن الله يحبُّ الحييَّ المتعفف، ويبغض السائل المُلحف»**[4] .

وعندما تكون العفة هي سمة الفقير، لا يملك إلَّا أن يتوجّه إلى الله، ويستعين به، ويعتمد عليه، ويمتنع عن النظر إلى ما في أيدي الآخرين. . عندها يتمتع بالقناعة والانقطاع إلى الله، المُفضِل المُنعم المعطي الرزاق الكريم قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«يا معاشر الفقراء، اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلَّا فلا»**[5] .

وقال الإمام الباقر عليه السلام : **(إيّاك أن تطمع بصرك إلى من هو فوقك** وكفى بما قال لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم **﴿ولا تعجبك أموالُهم ولا أولادهم﴾** وقال: **﴿ولا تمدَّنَ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾** فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنما كان قوتُه الشعير، وحلواه

---

(١) ربيع الأبرار : ٢/٦٢٧ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٧٣ .

(٣) ـ(٤)ميزان الحكمة : ٦/٣٦٠ .

(٥) السيد عبد الله شبر، الأخلاق : ٢٢١ .

التمر، ووقوده السَعَفَ إذا وَجَد)[1] .

وربما وجد الغني في نفسه بعض الغرور، فينتظر من المحتاج أن يتذلل بين يديه، لينال منه بعض الحظوة والخير، ولكن عزّة النفس لدىٰ الفقير، ورجاءه بالله تعالىٰ يمنعانه أن يتصاغر في مثل هذه المواطن، فيربأ بنفسه عن الذلة والمهانة، ويستمر عاقداً الأمل بالله، راجياً منه سبحانه، مستغنياً عن الغني الضعيف، راجياً الغنيَّ العزيز .

روي عن سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي) أنه دخل المسجد الحرام، وجلس بجوار الكعبة، وفي المسجد جمعٌ من الناس ثم قال لِسالم بن عبد الله : ارفع حوائجك، وكأنه كان يعجبه أن يُسأل أمام الناس في بيت الله الحرام، ولكن سالماً بن عبد الله أبت نفسه أن يسأل سليمان، فقال له : والله لا أسأل في بيتِ اللّهِ غيرَ الله[2] .

وأنشد أعرابيٌّ :

أبا هاني لا تسأل الناس والتمس ... بكفَيك فضلَ اللّهِ واللّهُ واسع
فلو تسأل الناسَ الترابَ لأوشكوا ... إذا قيلَ هاتوا أن يملّوا ويمنعوا

ويكاد الشاعر أن يأخذ المعنىٰ من الآية الكريمة :

﴿قل لو أنتم تملكون خزائِنَ رحمةِ ربّي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾[3] .

ولما كان من واجب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأئمة الهدى، أن يوجّهوا الناس في طلب الحاجات إلى الله تعالىٰ، ويحملونهم على الإستعانةِ به تعالىٰ في كل الأحوال، كان صلى الله عليه وآله وسلم ربما منع العطاء ليحثّ على الدعاء، والتوجه بالسؤال إلى الله سبحانه .

روي أن رجلاً جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يطلب معونة، فقال له : (ما أصبح

---

(١) السيد عبد الله شبر، الأخلاق : ٢٢١ .
(٢) ربيع الأبرار : ٢/٦٣٧ .
(٣) سورة الإسراء ؛ الآية : ١٠٠ .

عند آل محمد غير هذا المُدّ، فنسأل الله) فرجع الرجل إلى امرأته، فحدثها بما سمع من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت: نعْمَ المردود إليه : فتوجَّهَ بالسؤال والدعاء إليه تعالىٰ، ليدفع ضرّه، ويكشف فقره، فردَّ الله نِعَمَهُ إليه أوفرَ مما كانت .

فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحمد الله وأثنىٰ عليه، وأمر الناس أن يسألوا الله، ويرغبوا إليه، وقرأ ﴿**ومن يتّقِ الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾[1] .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

«**سلوا الله حوائجكم حتىٰ في شسع النعل فإن الله إذا لم ييسره لكم لم يتيسَّر**»[2] .

٧ ـ الحثّ على العمل والإكتساب :

إن الإسلام يحارب الفقر أساساً، ويتخذ وسائل الحيطة لدفعه عن المجتمع، لأنه يريد الحفاظ على كرامة المسلم، ولا يريده فقيراً معوزاً يُستَهان بالتصدق عليه، وَمدِّ يَدِ العون من الآخرين إليه .

ولئن وردت بعض النصُوص حول كيفية السؤال، ولمن ينبغي أن يوجِّه الفقير سؤاله، وحول الحثّ على البذل والتصدق . . . فذلك كله مراعاة للواقع الذي يعيشه بعض الفقراء والمحتاجين الذين لا يخلو منهم أي مجتمع في أي مكان ولا تعني تلك النصوص أن الإسلام يشجّع على الفقر، ويحبّذه بين الناس. . . كلّا إن الشرع يحاول جاهداً أن يدرأ هذا الخطر عن الأُمة، ولا يرضىٰ أن يرىٰ بعضهم ممتحناً بالفقر . .

ومن هنا حثَّ على العمل والإكتساب والإتجار، ونهى عن التهاون والتكاسل في ذلك، والشواهد على ذلك كثيرة .

إن الإسلام يفرض على الفقير حكماً شرعياً أن يدفع الفقر عن نفسه لو

---

(١) سورة الطلاق ؛ الآية : ٢، ربيع الأبرار : ٢/٦٤٤ .

(٢) ربيع الأبرار : ٢/٦٥٣ .

استطاع ذلك، يفرض عليه أن يستغني عن الناس، ويحرّم عليه السؤال مع القدرة على الاستغناء، وقد حذّره حتى من دعائه للطلب من الله مع إمكان الاستغناء، كما لو كانت ظروف الإكتساب والعمل مهيأة له. . أو كان يملك أسباب الغنىٰ بالقوة أو بالفعل .

فالغنىٰ أفضل من الفقر في أغلب الأحوال. . والغنيُّ المؤمن أوفر حَظاً عند الله من الفقير المؤمن، لأن الثاني يعجز عن أداء كثيرٍ مما يقوىٰ عليه الأول. . ولأن الغنيَّ يمكنه بغناه أن يؤسس دُنياً طيبة، وآخرة عامرة، ويمكنه أن يعود على عياله وأهله وأرحامه وأصدقائه بالخير. . يمكنه أن يسدَّ ثغرات الحاجة في حياة المجتمع. . وينفق في سبيل الله، وفي موارد الخير. وطبيعي أن الإنفاق في سبيل الله، والتصدق على الفقراء، وسائر أعمال الخير لا تتم إلّا أن يكون المرء غنياً، قادراً على العطاء يفعل ما يعجز عن فعله الفقير .

يقول الشاعر :

ذريني للغنىٰ أسعىٰ فإني   رأيت الناسَ شرَّهم الفقير

يقصد الفقير الذي يكون عالة على المجتمع، ويرضىٰ بالذل والهوان لنفسه، ويمتهن التسكع والإستجداء، ولا يحفظ لنفسه كرامتها وعزّتها، ولا يصونها عن التبذل والهتك .

لهذه الأسباب مجتمعةً، جاءت تعاليم الإسلام تحثّ على العمل والإكتساب، ولأن العمل قوة الإنتاج الكبرىٰ، فُرِضَ على المؤمن ليحيا كريماً في هذه الدنيا، لا يجوع فيها ولا يعرىٰ، أو تجرفه القوىٰ والتيارات، أو يفسده الفراغ، أو تفسده طراوة الدعة. . .

من هنا كان لقادة الإسلام، مواقف وآراء واضحة، تؤيد العمل وتشجع على الإكتساب .

روي أنه أصابت أنصارياً حاجة، فأخبر رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ائتني بما في منزلك، ولا تحقّر شيئاً، فأتاه بحَلْسٍ وقدح، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : من يشتريها؟ فقال رجل: هما عليَّ بدرهم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : من يزيد؟

فقال رجل : هما عليَّ بدرهمين .

فقال: هما لك .

ثم قال للأنصاري: ابتع بأحدهما طعاماً لأهلك، وابتع بالآخر فأساً، فأتى بالفأس، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : من عنده نصاب لهذا الفأس؟

فقال بعض أصحابه: عندي يا رسول الله .

فأخذه رسول الله، فأثبته في يده وقال: إذهب واحتطب ولا تحقّرن شوكاً، ولا رطباً ولا يابساً خمس عشرة ليلة .

فأتاه بعد ذلك وقد حسنت حالته، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

«هذا خير لك من أن تجيء يوم القيامة، وفي وجهك كدوح الصدقة»[1] .

وروي عن أُم الدرداء قالت: قال لي أبو الدرداء: لا تسألي أحداً شيئاً. قلت: فإن احتجت فما أصنع؟ قال: تتبعي الحصادين فانظري ما يسقط منهم فخذيه فاخبطيه ثم اطحنيه ثم اعجنيه ثم كليه ولا تسألي أحداً شيئاً[2] .

وذكروا أن أعرابياً لمست ابنتُه كفّه فألفتها خشناء، فقالت:

هذه كفُّ أبي خشّنها ضربُ مسحاةٍ ونقلٌ بالزبيل

فأجابها :

ويلكِ لا تستنكري مسَّ يدي ليس من كدَّ لعزٍّ بذليل

إنما الذلةُ أن يمشي الفتىٰ ساحبَ الذيلِ إلى باب البخيل

وكان الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، يشجّع على الإكتساب والتجارة والعمل، وينهىٰ عن التقاعس والتهاون في الحصول على الرزق الحلال فقد ورد في البحار (المجلد الخاص بالإمام) أنه قال :

«لا خير فيمن لا يحبُّ جمع المال من حلال، فيكفُّ به وجهَه ويقضي

---

(١) ربيع الأبرار : ٢/٦٢٤ .

(٢) ربيع الأبرار : ٢/٦٢٦ .

به دَينه»[1] .

ويصف المؤمن بـأنه (**من طـاب مسكنـه، وحسُنت خليقتُـهُ، ووضحت سريرته، وأنفق الفضل من مـاله، وأمسـك الفضل من كـلامه، وكفّ النـاسَ شره وأنصف الناس من نفسه**)[2] وأنىٰ يطيب مسكنه إلاّ بالمال والغنىٰ؟

ويـوصي ﷺ بالإجمـال في الـطلب، وينـادي بـالحكمـة في الإنفـاق فيقول : (**إن السرف يورث الفقر، وإن القصد يورث الغنىٰ**) [3] .

ولم يكن الإمام ﷺ يرىٰ بأساً في أن يمارس الكسب والعمل والتجارة بنفسه، ليكون قدوة للآخرين، وليوجه أنظار الناس إلى أهمية العمـل والإتجار إن أمكن ذلك .

وأي عيب في العمل؟ ألم يكن رسول الله ﷺ يعمل بيده؟ واعتبـر العملَ عبادة، وأعطىٰ اليد العـاملة المؤمنة أمـاناً من النـار! ونبَّه ﷺ على قيمة الوقت واستثماره للعمل الدؤوب النافع، في قوله :

«**لـو قامت القيـامة وفي يـد أحدكم فسيلة فليغـرسها، وإن استـطاع ألاّ تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها**»[4] .

كناية عن العمل المتواصل، والكد الدؤوب .

وأمير المؤمنين عليه الصَّلاة والسَّلام، ألم يضرب بالمسحـاة في أرضه؟ وعمـل في أرض يهودي مـزارعاً؟ وكـان يحمـل التمـر والبلح لأهله في ثـوبـه ويقول :

لا يُنقصُ الكـامـلَ من كـمـالـه   مـا جـرَّ من نفـع عـلى عيـالـه

وأما الإمام الصادق فإنه يريد العمل لأسبـاب شتىٰ، فهو يـريده ليستغني عن الناس، وليفضل له فضل فينفقه في سبيل الله، وليشجع الناس عليه.

يقول عبد الأعلىٰ، مولىٰ آل سام : استقبلت أبا عبد الله في بعض طرق

---

(١)ـ(٢) الإمام الصادق والواقع المعاش : ١١٧ .
(٣) الإمام الصادق والواقع المعاش : ١١٧ .
(٤) ربيع الأبرار : ٢/٦٢٤ .

المدينة في يوم صائف شديد الحرّ، فقلت: جعلت فداك، حالك عند الله عزّ وجلّ، وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم؟ .

فقال: يا عبد الأعلىٰ، خَرجت لطلب الرزق، لأستغني عن مثلك[1] .
ولعله يريد (بكلمة مثلك) عموم الناس، إنه يريد أن يكون مستغنياً عما في أيدي (مثله) من الناس. . وربما أراده هو بذاته، وأمثاله ممن يخوض فيما لا يعنيه، ويعترض حتى على مثل الإمام الصادق! .

وعن إسماعيل بن جابر، قال: أتيت أبا عبد الله عليه السلام ، وإذا هو في حائط له بيده مسحاة، وهو يفتح بها الماء، وعليه قميص شبه الكرابيس، كأنه مخيط عليه من ضيقه . . .

وقد أعطىٰ مرة بعض أصحابه ألفاً وسبعمائة دينار، وقال له اتّجر لي بها، ثم قال: أما إنه ليس لي رغبةٌ في ربحها، وإن كان الربح مرغوباً فيه ولكنني أحببت أن يراني الله عزّ وجلّ متعرضاً لفوائده .

قال: فربحت له فيها مائة دينار ثم لقيته فقلت له: قد ربحت لك فيها مائة دينار، قال: ففرح أبو عبد الله بذلك فرحاً شديداً، ثم قال: أثبتها في رأس مالي، ثم تبرع بها لفقير من أصحابه[2] .

ولا بأس أن يجد العامل في عمله بعض مشقّة، فما هي إلاّ زيادة في الفضيلة، كما كان الصّادق عليه السلام ، يتأذىٰ ـ أحياناً ـ في طلب المعيشة .

عن أبي عمر الشيباني قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام ، وبيده مسحاة وعليه إزار غليظ، يعمل في حائط له، والعرق يتصبب عن ظهره، فقلت: جُعلت فداك، أعطني أكفك .

فقال لي : إني أحب أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة[3]!

وسأله بعض أصحابه أن يدعو الله له، لئلا يجعل رزقه على أيدي العباد

---

(١) (٣)الإمام الصادق والواقع المعاش : ١١٧ .

فأجابه الإمام عليه السلام : **(أبىٰ الله عليك ذلك، آلىٰ الله إلاَّ أن يجعل رزقه على أيدي العباد، بعضهم من بعض، ولكن أُدع الله أن يجعل رزقك على أيدي خيار خلقه، فإنه من السعادة، ولا يجعله على أيدي شرار خلقه فإنه من الشقاوة)**[1] .

ولئن كان الإمام عليه السلام يَرغَب ويُرغِّب في الإتجار والإكتساب فإنه كان يؤكد على الربح الطيب الحلال المشروع، ويعترض بشدّة على ممارسة السبل الملتوية الرخيصة في العمل. . ويحارب استغلال الناس والطمع والجشع، وكان يعلم أصحابه، ليختاروا القنوات المشروعة السليمة والسبل القويمة في اكتساب الرزق .

روي أنه دعا مولىً له، يُقال له (مصادف) فأعطاه ألف دينار وقال له: تجهّز حتىٰ تخرج إلى مصر، فإن عيالي قد كثروا .

قال: فتجهَّز بمتاع، وخرج مع التجار إلى مصر، فلما دنوا منها، استقبلتهم قافلة خارجة من مصر، فسألوهم عن المتاع الذي معهم، ما حاله في المدينة؟ وكان متاع العامة، فأخبروهم أنه ليس بمصر منه شيء! وتحالفوا وتعاقدوا على أن لا ينقصوهم من ربح دينارٍ ديناراً، فلما قبضوا أموالهم انصرفوا إلى المدينة. فدخل مصادف على أبي عبد الله عليه السلام ، ومعه كيسان، في كل واحد ألف دينار، فقال: جُعلت فداك، هذا رأس المال، وهذا الآخر ربح .

فقال عليه السلام : إن هذا الربح كثير! فما صنعتم في المتاع؟

فحدثه كيف صنعوا، وكيف تحالفوا .

فقال عليه السلام : سبحان الله، تحلفون على قوم مسلمين ألا تبيعوهم إلاَّ بربح الدينار ديناراً؟ ثم أخذ أحد الكيسين وقال: هذا رأس مالي، ولا حاجة لي في هذا الربح .

ثم قال: يا مصادف، مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال[2]! .

---

(١) الإمام الصادق والواقع المعاش : ١١٨ .
(٢) المصدر السابق .

فالعمل لاكتساب المعاش وسيلة من وسائل العيش الكريم، ووقاية من الإبتلاء بالفقر، وليس وسيلة لاستغلال الناس، وأكل أموالهم بالباطل.

ولا تتّسع هذه العجالة لذكر الأخبار والأحاديث والروايات الكثيرة التي تشجع على العمل، وتضاعف عزيمة المرء لاكتساب الرزق الطيب الطاهر الحلال، ليأكل من كدّ يمينه ويواصل التحرك المستمر لكسب العيش.

ولا يخفىٰ أن الاستقرار النفسي غالباً ما يكون مرهوناً بالاستقرار الاقتصادي للفرد، فكثير من الناس يعاني من اضطرابات نفسية، ومشاكل روحية بسبب الانتكاسات الاقتصادية . .

ولو استطاع أن يحقق الكسب المشروع بالعمل والإتجار، واستغنىٰ بذلك، لنفىٰ عن حياته المشاكل النفسية .

٨ ـ غنىٰ النفس :

وربما يُقال: إن الغنىٰ الحقيقي، ليس في وفرة المال وكثرته، بل هو في النفس، فقد يكون المرء فقيراً، خلواً من المال، ولكنه يحمل بين جوانحه نفساً كريمة تجود بما تملك حتى في ساعة العسرة والضيق .

قد يكون غنياً تتابعت عليه نعم الله تعالىٰ، ولكنه لئيم النفس خسيسها، لا تجود يده بشيء، فالغنىٰ غنىٰ النفس، لا غنىٰ الأموال، والنفس هي التي تجود أو لا تجود، حسبما جبلت عليه.

كان معن بن زائدة (وهو من الأجواد الذين يضرب بهم المثل) من خواص يزيد بن عمر بن هبيرة، وكان ابن هبيرة والياً من قِبَلِ (مروان الحمار) آخر سلاطين بني أُمية، على الكوفة والبصرة، فلما سقطت الدولة الأموية، وقامت على أنقاضها دولة بني العباس، أخذ السفاح ابن هبيرة وولده وقتلهما، فخاف معن على نفسه، والتجأ إلى الفرار والتخفي، وتوارىٰ عن أعين الناس، حتى كانت أيام المنصور العباسي، فضاقت نفسه من الاستتار، وعزم على الخروج من مخبئه، ولكنه كان يحذر أن يُعرف فيؤخذ، فعرّض وجهه للشمس حتى تغيّر لونه، وخفّف لحيته وعارضيه، ولبس جبة صوف،

وغيّر من هيئته وشكله، وخرج متنكراً على جملٍ متوجهاً إلى البادية.

يقـول معن: فتبعني غـلام أسـود، متقلد سيفـاً، حتىٰ إذا غبتُ عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه، وقبض علي.

فقلت: ما شأنك؟

قال: أنت بُغية الخليفة (يعني المنصور).

فقلت له: ومن أنا حتىٰ يطلبني الخليفة؟

فقال: أنت معن بن زائدة.

قلت: يا هذا، اتق الله! وأين أنا من معن؟

فقال: دع عنك هذا، فأنا والله أعرفُ بك.

فقلت له: فإن كانت القصة كما تقول، فهذا جوهرٌ حملته معي، قيمته أضعاف ما بذله المنصور لمن جاء بي، فخذه ولا تسفك دمي.

فقال: هاته، فأخرجته إليه، فنظر إليه ساعة وقال: صدقت في قيمته ولستُ قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك.

فقلت: قـل.

فقال: إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني: هل وهبتَ مالك كلّه قط؟

قلت: لا.

قال: فنصفه؟

قلت: لا. قال: فثلثه؟

قلت: لا. حتىٰ بلغ العشر، فاستحييتُ وقلت: أظنّ أني قد فعلت هذا.

فقال: وما ذاك بعظيم، ولم تفعل شيئاً، أنا والله راجل[1] ورزقي من

(١) راجل: ضد الفارس.

المنصور عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألف دينار، وقد وهبته لنفسك، ولجودك المأثور بين الناس! ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك، ولتحقّر بعدَ هذا كل شيء تفعله، ولا تتوقف عن مكرمةٍ، ثم رمىٰ بالجوهر إليّ، وخلّى خُطام الجمل وانصرف.

فقلت : يا هذا قد فضحتني! وَلَسَفكُ دمي أهون علي مما فعلت، فخذ ما دفعته إليك، فإني عنه في غنى.

فضحك ثم قال: أردت أن تكذبني في مقامي هذا!؟ فوالله لا آخذه، ولا آخذ لمعروف ثمناً أبداً، ومضىٰ.

يقول معن : فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت، وبذلت لمن يجيء به ما شاء، فما عرفت له خبراً، وكأن الأرض ابتلعته[1].

ويعرض الشاعر صورة عن غنىٰ النفس، ونزعة الجود والعطاء فيها، في هذين البيتين :

يقول في العسر: إن أيسرتُ ثانيةً	أقصرتُ عن بعض ما أعطي وما أهَبُ
حتى إذا عاد أيام اليسار له	رأيت أمواله في الناس تُنْتَهَبُ

فهو ينفق وينفق، حتى إذا صفرت يداه يراجع نفسه فيلومها، ويعزم على أن لا يبالغ في الإنفاق، لو قُدِّر له الغنى مستقبلاً، ولكنه حين يستغني يغلبه طبعه الكريم، وسجيته السمحاء، وتأبىٰ نفسه إلاّ العطاء والإنفاق.

قال بعضهم: الكريم يكرم وإن افتقر، كالأسد يُهاب وإن كان رابضاً واللئيم لا يكرم وإن أيسَرَ، كالكلب يخسأ وإن طُوِّق وحُلّي.

لأن كليهما يعكس صورة نفسيته وذاته وطبعه، بغضِّ النظر عن وفرة المال لديه أو عدم وفرته.

يقول شاعر :

وإني امروٌ لا تستقرّ دراهمي	على الكفّ إلاّ عابرات سبيل

---

(1) قصص العرب : 252/1 ، وقائع الأيام للمحدث القمي : حوادث 17 ذي القعدة.

ويقـول آخـر :

فتىً تـرهب الأمـوال من ظـلِّ كفِـهِ   كمـا يـرهب الشيـطان من ليلة القـدر

قال رجل غنيّ لآخر فقير: اقبل مني هذا الثوب .

قال : إن كنتَ غنياً قبلته منك، قال: أنا غني، قال: كم تملك؟

قال : ألفين، قال : أيسرّك أن تكون أربعة آلاف ؟

قال : نعم، قال : فأنت فقير، لا أقبله منك ! .

أي أنت فقير النفس، لأن غنيّ النفس لا يفكر في زيادة ماله، لما تعوّده من إنفاق وبذل، يفيض بماله على الناس، فكيف ـ والحال هـذه ـ يزداد مـاله ويتضاعف؟ أما وأنت تفكر في إكثار مالك ومضاعفته، فمعنىٰ ذلـك أنك فقيـر في نفسك غنيّ بمالك .

وغنىٰ النفس يعني الاستغنـاء بالله تعـالىٰ وحده، سـواء كان المـرء غنياً بماله، أو لم يكن كذلك، فالمرء حين يعـرض عما في أيـدي الناس، ويـرىٰ نفسه فقيراً إلى رب العباد، يصبح كريم النفس، كثير الخيـر، لأنه يجـد نفسه ينفق من معين لا ينضب، ومن كنز لا ينفد .

يقـول تعـالىٰ : **﴿ومـا أنفقتم من شيء فهـو يـخلفـه وهـو خيـر الرازقين﴾**[1] .

وورد في القول المأثور : (من استغنىٰ بالله افتقر إليه الناس) .

وفي حديث يرفعه أنس : يقول الله عزّ وجلّ : «**يابن آدم، أَقِبل إليّ أملأ قلبك غنىً، وأنزع الفقـر من بين عينيك، وأكف عليـك ضيعتك، فـلا تصبح إلاّ غنياً، ولا تمسي إلاّ غنياً، وإن توليت عني نزعت الغنىٰ من قلبك وأنسيت عليك ضيعتك فلا تصبح إلاّ فقيراً، ولا تمسي إلاّ فقيراً**»[2]

وبـاع عبد الله بن عتبـة بن مسعـود أرضـاً بثمـانين ألفـاً، فقيـل لـه: لـو

---

(١) سورة سبأ ؛ الآية : ٣٩ .

(٢) ربيع الأبرار : ٤/١٣٥ .

اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً، قال: بل أجعله ذخراً لي عند الله، وأجعل اللَّهَ ذخراً لولدي، وقسمه بين ذوي الحاجة[1].

إن دناءة النفس، وخساسة الطبع تغلب الإنسان حتىٰ مع الغنىٰ وتظهر عليه سواء كان فقيراً، أو كان يملك ما يملك، فلو كانت النفس تافهة اتّسَمت سيرته بها في كل حال، يؤيد ذلك ما روي عن (ربيعة بن ثابت الرقيّ)[2] أنه امتدح رجلاً من بني العباس يُقال له: العباس بن محمد بن علي بقصيدة لم يُسبَق إليها في سبكها ومعانيها، يقول في بعض أبياتها:

لو قيل للعباس يابن محمدٍ	قل: لا، تكون مخلداً ما قالها
ما إن أعدُّ من المكارم خصلةً	إلَّا وجدتك عمّها أو خالها
وإذا الملوك تسايرت في بلدةٍ	كانوا كواكبها وكنت هلالها
إن المكارم لم تزل معقولةً	حتى حللت براحتيك عِقالها

فبعث إليه العباس العباسي (بدينارين!!) وكان الشاعر يقدّر في شعره ألفين، فلما نظر إلى الدينارين كاد يجنّ غضباً، وقال للرسول: خذ الدينارين فهما لك على أن تردَّ إليَّ الرقعة التي عليها شعري من حيث لا يعرف العباسي بذلك، فاستجاب الرسول لطلبه، فأخذها ربيعة وكتب في ظهرها:

مدحتك مدحة السيف المحلّى	لتجري في الكرام كما جريتُ
فهبها مدحةً ذهبت ضياعاً	كذبتُ عليك فيها وافتريتُ

ثم دفعها للرسول وقال: ضعها في الموضع الذي أخذتها منه، ففعل، وأعاد الرقعة إلى مكانها، فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها، فلما قرأ الأبيات غضب، وقام من فوره وركب إلى الخليفة (الرشيد) وكان أثيراً عنده يبجله ويقدمه، وكان قد همَّ أن يخطب إليه ابنته، فلما دخل عليه والغضب بادٍ عليه، بادره الرشيد قائلاً: ما شأنك؟

قال: هجاني ربيعة الرقيّ.

---

(1) ربيع الأبرار: ٣/٦٨٢.

(2) من الشعراء المكثرين المجيدين، ولكن خمل ذكره لكونه بعد عن العراق وولد ونشأ في الرقة، ولم يخالط الشعراء مات سنة ١٩٨ هـ.

فأحضره الخليفة، وقال له : أتهجو عمي، وهو آثر الخلق عندي؟ لقد هممت أن أضرب عنقك .

فقال ربيعة: والله يا أمير المؤمنين لقد امتدحته بقصيدة ما قال أحد من الشعراء مثلها في أحد من الخلفاء، ولقد بالغت في الثناء، وأكثرت من الوصف، فإن رأيت أن تأمر باحضارها وتنظر فيها .

فلما سمع الخليفة ذلك سكن غضبه واشتاق أن ينظر إلى القصيدة فأمر العباس باحضارها، فتلكأ عليه. . فقال الرشيد : سألتك بحقي عليك إلاّ أمرت بإحضارها، فأُحضرت، فلما قرأها الرشيد أعجبته كثيراً واستحسنها، واستجادها وقال: لقد صدق ربيعةُ وبرًّ، فوالله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها .

ثم التفت إلى العباس فقال: كم أصبتَه عليها؟

فسكت العبَّاس وتغيَّر لونه، وغصَّ بريقِهِ .

فقال ربيعة : أثابني عليها بدينارين يا أمير المؤمنين! !

فتوهّم هارون أنه قال ذلك من الموجدة عليه، فقال: بحياتي يا رقيّ، كم أثابك؟

فقال : وحياتك يا أمير المؤمنين، ما أثابني إلاّ بدينارين! .

فغضب الرشيد غضباً شديداً، ونظر في وجه العباس وقال: سوءةً لك أية حال قعدت بك عن إثابتِهِ؟ أَقِلَّةُ مال؟ فوالله لقد مولتك جهدي. أم انقطاع المادة عنك؟ فوالله ما انقطعت. أم أصلك؟ فهو الأصل الذي لا يدانيه شيء (إشارة إلى نسبه العباسي) .

أم نفسك؟ لا ذنب لي! بل نفسك والله فعلت بك ذلك، حتىٰ فضحت أجدادك وفضحتني، وفضحت نفسك .

فنكسَ العباسي رأسه ولم ينطق، وَفَتَر هارون عما كان قد همَّ به من تزويج ابنته، وطرده، وأعطىٰ ربيعة ثلاثين ألف درهم[1] .

---

(١) قصص العرب : ٢/٣٠٥ .

أجل. . إنها دناءة متأصلة في نفس الرجل، إنه مجبول على فقر النفس وتفاهتها وصغرها. . فلا يقوىٰ على مخالفتها. . أو لا يريد ذلك، رغم ما يمتلك من وفير المال، ورغم إتصال المادة به. . وما يحظى به من مكانة في البلاط العباسي، ولا سيما الخليفة!

وليس كل الناس بهذه الصفة، بل بعضهم بخلاف ذلك، يتسم بكبر النفس وعلوّ الهمّة، من ذلك ما روي عن عمارة بن حمزة ما ينبىء عن شرف النفس وغناها، فقد قيل إنه دخل يوماً على المنصور العباسي، فلما استقرَّ به المقام في مكان بجنب الخليفة، قام رجل وقال: أنا مظلوم.

قال المنصور: من ظلمك؟

قال: ظلمني عمارة بن حمزة، غصبني ضيعتي.

فقال المنصور: يا عمارة، قُم فاقعد مع خصمك.

فقال: ما هو لي بخصم. . إن كانت الضيعة له، فلا أنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له! ولا أقوم من مقام شرّفني به الخليفة ورفعني، وأقعدُ في أدنىٰ منه لأجل ضيعة[1].

وتحدّث السفاح وزوجته يوماً في نزاهة نفس عمارة بن حمزة، وكبرها، فقالت له: ادعُ به، وأنا أهبُ له سبحتي هذه، فإن ثمنها خمسون ألف دينار! فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزِهِ النفس.

فوجّه إليه فحضر، فحادثته ساعة، ثم رمت إليه بالسبحة، وقالت: هي لك فجعلها عمارة بين يديه، ثم قام وتركها، فقالت: لعلّه نسيها، فبعثت إليه بها مع خادم، فلما جاء الخادم قال له: هي لك. فرجع الخادم فقال: قد وَهَبها لي فأعطت أُم سلمة (زوج المنصور) للخادم ألف دينار واستعادتها منه[2].

---

(١) المستطرف في كل فنٍّ مستظرف: ١/٢٩٨.
(٢) المستطرف: ١/٢٩٨.

وهكذا وجدنا أن الغنىٰ والفقر، صفتان مستقرتـان في النفس، لا يمكن النظر إليها إلاَّ من قناة النفس، فلا الكريم يستطيـع أن يتخلّى عن كرمـه وغنىٰ نفسِـهِ وإن كان معـدماً لا يملك شيئـاً من حطام الـدنيا. . ولا اللئيم يقـوىٰ أن يفكَّ هذا الغلَّ عن نفسه، وإن كـان متمولاً ذا ثَـراء، لأنه مـطبوع عليـه. . إلاَّ بمجاهدة النفس مجاهدة مستمرة، ومخالفتها مخالفة دؤوبة. . عليـه أن يتصنّع الكرم والجود، ويغالب بهما نفسيته وطبعه، ويجنّبها أن تسلك مسالـك البخل واللؤم .

٩ ـ البُـخْـل :

من هنـا جاءت الآيـات القرآنيـة، محذِّرة من البخـل، ومصوّرة نتـائجه تصويراً عجيباً، لا يكاد المرء يقرأ منها حتّى يهتز منها كيانه ويقشعر بدنه .

قال تعالىٰ : **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشـرهم بعـذاب أليم يـوم يحمىٰ عليهـا في نـار جهنّم فتكـوىٰ بهـا جبـاهُهُم وجنوبُهُم وظُهورُهُم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾**[(١)] .

ويعتبر الذين بخلوا وامتنعوا عن الإنفاق طـالحين سيئين، ويعِدُهم شـرّاً سيلحقهم ندم بالغ على منعهم الإنفاق وبخلهم بالمال . .

قـال تعالىٰ : **﴿وأنفقوا مما رزقنـاكم من قبل أن يـأتي أحدكم المـوتُ فيقولَ ربِّ لولا أخرتني إلى أجلٍ قريبٍ فأصَّدق وأكن من الصالحين﴾**[(٢)] .

فهـوالآن شقي طالـح يستمهل الله أجـلاً قريبـاً لينفق ويخرج بـذلك من عداد الطالحين إلى عداد الصالحين. ولكن هيهات له ذلك . .

﴿ولن يؤخر اللَّهُ نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾[(٣)] .

ويعدُّ القرآنُ العطاء طهارة للمال وتزكيـة للنفس، لأن الإنفاق في سبيـل الله عبادة تنفي عن النفس أدرانها .

---

(١) سورة التوبة ؛ الآيتان : ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) سورة المنافقين ؛ الآية : ١٠ .

(٣) سورة المنافقين ؛ الآية : ١١ .

﴿خُذ من أموالهم صدقةً تُطَهِّرُهُم بها وتزكّيهم. . .﴾(1).

وتبقىٰ الحياة مع البخل مشوبة بالكدر.. وتبقىٰ النفوس ملوثة تنزع إلى الشر إذا ما بخل المرء بالمال واستأثر به.. وسوف لن يجد البخيل راحة ولن يكسب نفعاً من ماله، وتكتنف حياته الشدائد والمحن، ويعيش ضيقاً وعُسراً ذلك بما بخل بالمال ومنع العطاء.

يقول تعالىٰ: **﴿وأما من بخل واستغنىٰ وكذَّب بالحسنىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرىٰ﴾**(2).

ويقول عزّ من قائل: **﴿ولا يحسبَنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سَيُطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾**(3).

ويعزو هؤلاء البخلاء والمانعون، من المفرطين في حب المال، وعُبّادِهِ، حرمان المحرومين، وجوعِ الجائعين، ومسكنة المساكين، إلى الله سبحانه، ويلقون الهجينة على رَبِّهم، بخلًا وعناداً، وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. فلا تكفيهم خطيئة المنع، بل يلقون بالتبعة على الله!! يقول عنهم القرآن:

﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم اللَّهُ قال الذين كفروا للذين آمنوا أَنُطعِمُ من لو يشاء الله أطعمه، إنْ أنتم إلاَّ في ضلالٍ مبين﴾(4).

وأي ضلال أبين من هذا المقال؟ يقولون: لو كانت الأرزاق مقدَّرة من قبل الله، نازلة من عنده سبحانه، فلماذا يكون علينا أن نشركهم في أموالنا ونطعمهم من طعامنا؟ لو أراد الله تعالىٰ لأغناهم كما أغنانا، وأعطاهم كما أعطانا، وبهذا القول جمعوا بين البخل وبين الافتئات على الله تعالىٰ حين نسبوا إليه سبحانه قطع الأرزاق عن هؤلاء المحرومين.

---

(1) سورة التوبة؛ الآية: ١٠٣.
(2) سورة الليل؛ الآيات: ٨ ـ ١٠.
(3) سورة آل عمران؛ الآية: ١٨٠.
(4) سورة ياسين؛ الآية: ٤٧.

وقد علموا أن الله تعالىٰ قد جعل في أموالهم حصصاً وحقوقاً لهؤلاء المحتاجين، وأنه تعالىٰ أجرىٰ أرزاق البعض على أيدي البعض الآخر، وأن الأموال لم تكن بحال من الأحوال لهم خاصة، بل هم مستخلفون عليها، ومؤتمنون عليها بنص القرآن.. ولكنهم ظلموا المحرومين والجائعين والمساكين، وأهل الحاجة فغصبوا الحقوق، وسرقوا الأرزاق، وأسرفوا في المعايش، وجاوزوا الحدود وقارفوا الذنوب، وإنْ هم إلاَّ في ضلال مبين .

يقول الشاعر يصف بعضهم مخاطباً له :

لـو أنّ دارَكَ أنبتَت لـك وأحتَشَتْ	إبَـراً يـضيقُ بهـا فِنـاء الـمـنـزلِ
وأتـاكَ يـوسُفُ يَستعيـركَ إبـرةً	لـيخيطَ قـدَّ قميصـهِ لَـم تـفـعَـلِ

ولعل الشاعر أخذ هذا المعنىٰ من الآية الكريمة، حيث يقول تعالىٰ عن أنانية بعض النفوس وشحّها :

﴿قل لو أنتم تملكون خزائِنَ رحمةِ ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً﴾[1] .

يروىٰ عن أبي الفضل المعروف بابن القطا: إنه قعد يوماً يأكل مع زوجته ـ وكان بخيلا ـ فقال لها : اكشفي عن رأسك، ففعلت، فقرأ سورة الإخلاص، فقالت : ما الخَبر؟

قال : بلغني أنه إذا كشفت المرأة رأسها لم تحضر الملائكة، وإذا قُرِئَت سورة الإخلاص هربت الشياطين.. وأنا أكره الزحمة على المائدة!! .

قال شاعر آخر :

رأى الصيفَ منقوشاً على باب داره	فصحّفَه (ضيفاً) فقام إلى السيفِ
فقلنا له خيراً؟ فظنَّ بأنّنا	نقول له : (خبزاً) فمات من الخوفِ

يقال: الجواد يأكل مالَه، والبخيل يأكلُهُ مالُه! .

استأذن أحمد بن جعفر البرمكي على صديق له، كان يعرف بالبخل،

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ١٠٠ .

فقيل له : هو محموم. فقال : كلوا بين يديه حتى يعرق .

عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«إيـاكم والشحّ فـإن الشـحّ أهلك من كـان قبلكم»**[1] .

ومن عجيب أمـر البخيل أنـه يبخل خـوف الفقر، ويكنـز المـال خشيـة الإملاق ويمتنع عن الإنفاق لئلا يقع في الفاقة، وبذلك يعيش كل حياته فقيـراً مرّة في الواقع، ومرة بالبخل. . حتى إذا هلك ترك الأموال لغيـره، ولم يستفد هو منها شيئاً أبداً .

يقـول أميـر المؤمنين عليه السلام : **«عجبتُ للبخيـل، يستعجـل الفقـر الـذي هـربَ منه ويفـوته الغنىٰ الـذي إيّـاه طلب، فيعيش في الـدنيـا عيشَ الفقـراء، ويحاسَب في الآخرة حساب الأغنياء»**[2] .

ويقول عليه السلام أيضاً : **«البخل أحد الفقرين»**[3] .

قال الشيخ محمد عبده المصري في شرح هذا الكلام (الفقر: ما قصـر بك عن درك حاجتك، والبخيل تكـون له الحـاجة فـلا يقضيها، ويكـون عليه الحق فلا يؤديه فحاله حال الفقراء يحتمـل ما يحتملون، فقـد استعجل الفقـر وهو يهرب منه بجمع المال) .

وللإمام أمير المؤمنين عليه السلام سجل خاص عن البخل والبخـلاء، يتحدث عن نتائجه السيئة كثيراً. . ويصوره بصور مختلفة، ويحاول عليه السلام ، بقوة تعبيره أن يشجع البخيل على الإقـلاع عن هذه الصفـة المذمـومة، والعـادة الكريهـة المهلكة ويعكس الحالة النفسية المتردية التي يعيشها البخيل بين النـاس، وما يعانيه هو والآخرون من نتائج هذه الخصلة السيئة . .

وإليك مجموعة من أقواله عليه السلام بهذا الخصوص :

قال عليه السلام : **«البخل عار»**[4] .

---

(١) جامع السعادات للنراقي (باب البخل) .
(٢) نهج البلاغة : ١١٤٥ .
(٣) الحياة للحكيمي : ٦/٥٩ .
(٤) نهج البلاغة : ١٠٨٩ .

«البخيل خازن لورثته»[1] .

«لا غربة كالشحّ»[2] .

«لا سوءة أسوأ من الشحّ»[3] .

«البخلُ جلباب المسكنة»[4] .

«لا مروءة مع الشحّ»[5] .

ولا تقتصر كلماته ؏ على هذه بل له بخصوص البخل والشحّ كلام كثير يحذرّ من عبادة المال والتلذذ باكتنازه، ويعتبر ذلك أصل المساوىء وأنه ينمّ عن سوء ظنٍ بالمعبود الخالق الرازق. . وجاءت تحذيراته ؏ معللةً كاشفة عن النفسية المنحطة التي يتّصف بها البخيل، مما يحتاج معها إلى المبادرة لإصلاح نفسه، وتقويم ذاته، قبل أن يهوي في نار جهنم، ولات حين مندم .

وليعلم البخيل أن شحه بالمال لا يؤثر سلباً على نفسه فحسب، بل إن آثار البخل ومساوئه تنسحب علىٰ الآخرين أيضاً، فَرَبُّ الأُسرة ـ مثلاً ـ لو اتصف بالبخل، فإن ذلك يؤثر على نفسية أفراد أُسرته جميعاً، فتتفشّى فيهم هذه الخصلة، ويجبلون عليها. . وربّما تمنّوا موته لأنهم شقوا ببخله. . وربما تسبب البخل في مشاكل أُسرية واجتماعية كثيرة .

يقول أمير المؤمنين ؏ : **«. . وإذا بخل الغنيُّ بمعروفه، باع الفقير آخرته بدنياه»**[6] .

ويقول ؏ : **«. . ولا تُدخِلَنَّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن**

---

(١) غرر الحكم : ٣١ .

(٢) غرر الحكم : ٣٤٧ .

(٣) غرر الحكم : ٣٤٨ .

(٤) الحياة للحكيمي : ٥٨/٦ .

(٥) غرر الحكم : ٣٤٥ .

(٦) نهج البلاغة : ١٢٦١ .

الفضل ويعدك الفقر»[1] .

وقد تجد بين الناس من تجود نفسه بالمال، ولكنه يبخل بالطعام ولعلك لا تجد تفسيراً لهـذا التصرف، وهـذه النفسية الشـاذة. . . ولكنه واقـع حصل ويحصل قديماً وحديثاً، ولعل ذلك ناتـج عن أُسلوب التعامـل التربـوي الذي تلقّاه هؤلاء في صغرهم .

فقد ذكروا عن (الأمين) الخليفة العباسي المخلوع أنـه كان ـ على رغم ما زعموه من سخائه ـ بخيلاً بالطعام[2] .

وكـذلك كـان معاويـة بن أبي سفيان، يقـول عنه أميـر المؤمنين عليه السلام : **«رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد. . . »**[3] .

ويـروي ابن أبي الحديـد عنه في شـرح نهج البـلاغة: إنـه كان جـواداً بالمال والصلات، بخيلاً على الطعام، ويُقال: إنه رأىٰ أعـرابياً على طعـامه، وبين يديه خروف أمعن الأعرابي في تقطيعه وأكله، فقال له معـاوية : مـا ذنبه إليك؟ أنَطَحَكَ أبوه؟

فقال الأعرابي : وما حُنُوّكَ عليه؟ أأَرضعتك أُمُّهُ[4]؟ .

ويروى عن الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم : **«مـا آمن بي من بـات شبعـانـاً وجـاره جائع»**[5] .

وربما جاء المرء بالطعام، وبخل بالمال. . وكل ذلك شحّ وتقتيـر منهيّ عنه في شرع الإسلام .

ومن الخلفاء الذين وُصفوا بالبخل أيضاً (هشام بن عبد الملك) فقد كان معروفاً به، وتناقلت كتب كثيرة أخبار بخله ولؤمـه، رغم ما كـان قد جمـع من أمـوال لا حدَّ لهـا ولا حصر، فقـد خرج مـرةً حاجـاً فحُمِلَت معه ثيـابـه على

---

(١) الحياة للحكيمي : ٦١/٦ .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري : ٧١٩/٣ .

(٣) شرح النهج للحديدي : ج ١ ص ٧٧٦، طبع دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الكافي : ٦٦٨/٢ .

ستمائة جمل، ودخل المدينة بها[1]. وترك بعد موته اثني عشر ألف قميص وَشْي، وعشرة آلاف تكة حرير، وترك أيضاً: أحد عشر ألف دينار[2] ولكنه ـ رغم ذلك ـ اتصف ببخل شديد، حتىٰ عابه عليه أهله من بني مروان، وكانوا يقولون له: أتطمع بالخلافة وأنت بخيل جبان[3]؟ .

وذكر ابن جرير قال: بعث معي مولىً لهشام، كان على بعض ضياعه بطيرين ظريفين، فدخلت عليه وهو جالس على سرير في عرصة الدار . فقال: أرسلهما في الدار. قال: فأرسلتهما، فنظر إليهما، فقلت: يا أمير المؤمنين جائزتي؟ قال: ويلك وما جائزة طيرين؟ قلت: أي شيء كان .

قال : خذ أحدهما .

فغدوت في الدار عليهما، فقال: مالك؟

قلت: أختار خيرهما. قال : أتختار أيضاً خيرهما وتدع شرهما لي، دعهما ونحن نعطيك أربعين درهماً أو خمسين درهماً[4] (وفي مروج الذهب أعطاه درهمين) .

ومنهم أيضاً : المنصور الدوانيقي، وأخباره في البخل كثيرة . .

وفد (المؤمّل) ـ وهو شاعر كوفي مخضرم ـ على المهدي العباسي ابن المنصور وكان والياً على الريّ أيام خلافة أبيه، فامتدحه بقصيدة، فأمر له بعشرين ألف درهم، فاتصل الخبر بالمنصور، فكتب إليه يعذله ويقول: إنما كان من حق الشاعر إذا وقف ببابك سنة، أربعة آلاف درهم ! .

وكتب إلى بعض رجاله بإلقاء القبض على الشاعر وإنفاذه إليه، فقيل له : سافر إلى مدينة السلام، فأنفذ المنصور قائداً من قواده إلى حيث يتواجد (المؤمّل) فوقف له على الطريق يتصفح وجوه الناس رجلاً رجلاً ممن يمرّ به

---

(١) العقد الفريد : ٢١٢/٤ .

(٢) خفايا أموية للسيد محمد القزويني ص ١٧٨ .

(٣) تاريخ الطبري : ٥١٧/٥ .

(٤) خفايا أموية للسيد محمد القزويني : ١٨٢ .

حتىٰ ظفر به، وأتىٰ به المنصور وأدخله عليه .

يقول المؤمّل : دخلت عليه وسلمت عليه سلام مروَّع، وكاد قلبي ينصدع منه خوفاً وريبة. فردَّ علي السَّلام، وقال : أتيتَ غلاماً غِرّاً كريماً فخدعته!؟

قلت : إنما أتيتُ مَلِكاً كريماً فَمدحته، فوصلني وبرّني، ثم أنشدته شعري .

فقال المنصور : أحسنت، ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم .

ثم قال : أين المال ؟ .

قلت: هوذا، فقال : يا ربيع، أعطه منه أربعة آلاف درهم وخذ الباقي .

قال المؤمل : فأخذ مني ستة عشر ألفاً، فآليت على نفسي ألاَّ أدخل العراق وللمنصور بها ولاية[1] .

ولا يسعنا في هذه العجالة أن نحصي أخبار البخل والبخلاء، ولكن التاريخ كان لهم بالمرصاد، تتبع أخبارهم ودوّنها، ونشر معايبهم، وفضح أساليبهم. . وهكذا شأن الأيام، تدّخر أخبار الناس، لتعرضها على الأجيال من بعدهم ليعتبروا منها، ويتعظوا بها.

١٠ ـ وجهة النظر الإسلامية في الثروة :

للإسلام وجهة نظر دقيقة في المال، ومفهوم خاص يختلف عن المفاهيم الأرضية الأُخرىٰ، وله في هذه الوسيلة الحيوية في حياة الإنسان رأي خاص ولعلي أشرت إلى بعض الآراء الإسلامية عن المال في ما سبق من الحديث .

وأودّ أن أعرض ـ هنا ـ بشكل إجمالي بعض المفاهيم الإسلامية الأُخرىٰ، عن المال وكيفية استعماله، وإن كان ذلك خارجاً ـ بعض الشيء ـ عن موضوع الكتاب، ولكن رأيت أن أكمل الحديث عما يتعلق بالمال في

---

(١) قصص العرب : ٢/٢٨٧ .

هذا الفصل لتتم به الفائدة .

١ ـ الملكية المطلقة والمحدودة :

إذا كانت الرأسمالية تنظر إلى المال لدىٰ الفرد على أنه ملكية شخصية مطلقة، لا يحق لأحد التدخل في أشكال تصرف الفرد المالك للمال فيه، فهو وحده يحق له أن يتصرف به كيف يشاء . . فإن الإسلام لا يقرّ ذلك، لأن المال الذي بين يديه ليس ملكاً مطلقاً له، بل هو أمين عليه مستخلف فيه كما أسلفنا، وسوف يحاسَب ويُسأل عن كيفية تصرفه في ذلك المال .

والذي يقرأ حول النظام الرأسمالي، ويتفحص الأُسس الفعلية، والمنطلقات الفكرية التي يقوم عليها . . ويقارن كل ذلك بالنظام الإسلامي من حيث تشريعه الاجتماعي والاقتصادي . . لا يحتاج إلى ذكاء كثير وفطنة بالغة ليستنتج التعارض الواضح بين النظامين، ومن موارد الاختلاف ما أسلفنا من حرية التصرف في المال (الحرية المطلقة) في النظام الرأسمالي و (المقيدة) في النظام الإسلامي .

فإذا كان الفرد في النظام الرأسمالي له مطلق الحرية في أن يتصرف بالمال الذي يملك وبالشكل الذي يرتضيه، ولو كان في ذلك إسراف وتضييع للمال وإفساد له فإن النظام الإسلامي، يحدد الأُطُر التي ينبغي على الفرد التقيّد بها في تصرفه في الثروة التي بين يديه، فلو خرج عن تلك الأُطُر المرسومة له حُجِرَ عليه، باعتباره سفيهاً لا يُحسن التصرف .

وحسن التصرف له أهمية بالغة في الإسلام، نوّه بذلك القرآن الكريم على لسان النبي موسىٰ عليه السلام ، مخاطباً (قارون) رمز الفساد والطغيان المالي حيث قال سبحانه وتعالىٰ : **﴿وابتَغِ فيما آتاكَ اللّه الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبكَ من الدنيا وأحْسِن كما أَحْسَنَ اللّه إليك ولا تَبغِ الفساد في الأرض إنّ الله لا يحب المفسدين﴾**[١] .

---

(١) سورة القصص ؛ الآية : ٧٧ .

فالإطار العام هو التعامل مع المال بشكل حسن، والإنفاق منه للدنيا والدين، دون فسادٍ أو إفساد، ومن يقرأ في باب (الحجر على السفيه) في الفقه الإسلامي يجد المجتمع الإسلامي ـ ممثّلاً بالحاكم الشرعي ـ له الحق المشروع في انتزاع المال من يد السفيه، على أن يحفظ له الحد المعقول من العيش اللائق بالإنسان .

والسفيه ـ كما يعرفه ويحدده الفقهاء ـ هو الذي يتصرف في ماله بخلاف ما يقتضيه العرف والشرع، حتىٰ وإن أنفق كل ماله في بناء المساجد وغيرها، هاملاً واجباته التكافلية نحو العائلة والمجتمع . .

فهذا يعتبر سفيهاً مسرفاً يجب الحجر عليه .

٢ ـ عدم المشاركة :

ينفي النظام الرأسمالي : أن يكون لصاحب المال شريك فيه، سواء كان ذلك الأفراد أو الدولة، بينما يؤكد الإسلام أن للمستخلف على المال شركاء لهم حقوق في ماله يجب أن يؤديها إليهم، ومن يتعمّد رفضها، ورفض تأديتها، مثل الزكاة الواجبة، يعتبر مخالفاً لقوانين الإسلام، كذلك الحقوق المفروضة للمعوزين ﴿**وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**﴾[1] ، ﴿**وآت ذا القربىٰ حقه والمسكين وابن السبيل**﴾[2] وليس لصاحب المال أن يوصي بأكثر من الثلث، لصرفه في مصالحِهِ الخاصة ورغباته، أما الثلثان الباقيان فليس له أي حق فيهما بعد موته، بل يقسّمان تركةً حسب ما ورد في آيات المواريث من سورة النساء .

وهكذا نجد أن أحكام الصدقات، ومساعدة ابن السبيل، وحقوق ذوي القربىٰ من آل البيت عليهم السلام ، وكفاية الفقراء والكفارات والزكوات وغيرها. . . تؤكد هذه المشاركة الجماعية في المال الخاص، وهو ما يتميز به الإسلام عن باقي المبادىء والأفكار .

---

(١) سورة القصص ؛ الآية : ٧٧ .

(٢) سورة الذاريات ؛ الآية : ١٩ .

٣ ـ التصرّف المطلق : ويضع الإسلام العقبات في طريق التصرف المطلق في المال، ولا يسمح بأي شكل من الأشكال أن يتصرف صاحب المال في ماله بشكل مطلق.. بل هناك موانع في طريق التصرف الغير المشروع، وثمة خطوط حمراء لا يحق له تجاوزها .

والإسلام يحدد الإطار العام الذي ينبغي أن تتم ضمنه العملية الإستثمارية والإنتاجية، ويجعل تنمية المال مقيّدة في حدود لا يجوز تجاوزها، ويمنع الفرد من تنمية ماله بطرق محرمةٍ معينة .

منها على سبيل المثال: القمار بأنواعه، والربا باعتباره صورة من صور الظلم والاستغلال لجهد الناس، وهو أجر بغير عمل، وكذلك الغبن الفاحش، والاحتكار والتدليس في البيع، والمتاجرة بما لا يُستفاد منه عادةً، وإعادة تأجير الإجارة من غير إحداث أي تغيير... وهذه كلها وسائل لا يعترض عليها النظام الرأسمالي، بل إنّ معظم النشاط الاقتصادي الرأسمالي في مجال الاستثمار والانتاج، يقوم على هذه الوسائل المحرمة في الشرع الإسلامي، لأن الرأسمالية تؤكد على حرية الاستثمار وحرية وسائله وكذلك الإنتاج بشكل مطلق .

من هنا نجد أن المؤسسات الربوية، والاحتكارية، في الأنظمة الرأسمالية، مؤسسات مشروعة، يحميها القانون، وكذلك دور القمار وعلب الليل، وتجارة الخمور وانتاجها والمقامرة بالأوراق المالية، والإحتكار الصناعي، واستضعاف الآخرين، وهدر حقوقهم في سبيل استغناء فئة معينة، كل هذه الوسائل تعتبر من حيث الرؤية الرأسمالية: وسائل مشروعة للكسب والإنتاج، ولا يرىٰ فيها من بأس . بينما يخالفها الإسلام، ويحاربها جميعاً، وهدفه الأول هو تحقيق الفائدة العامة التي يتمتع بها عامة الناس، ومن ضمنهم المستثمر .

إذن : ليس لصاحب المال الحق المطلق في التصرف بماله، إنما هناك إطار عام لا يجوز أن يتخطاه بحال من الأحوال يتمثل بالاستثمار المشروع الذي يبيحه الإسلام .

ولا يخفىٰ ما في الأنظمة المالية التي تسلك طريقاً مخالفاً للإسلام، من آثار سلبية على النفسية البشرية، وخير دليل على ذلك: الحياة الجافة التي يعيشها غير المسلمين والتي تقوم على الأسس المادية البحتة، والحسابات الدنيوية فحسب، وحتى العلاقات الاجتماعية والأسرية تسيرها الأموال، ولامكان للمعنويات والأخلاقيات عندهم إلاَّ قليلاً . .

ولو استبدَّ حب المال، وكان هو الحاكم المطلق في مجتمع ما، يلهث الناس وراءه ولا يعرفون غيره . . لضاعت القيم، وماتت المبادىء، وانهارت الأخلاق وانحطّت النفوس .

١١ ـ السَخاء :

إن كلاً من (السخاء والقصد) وما يقابلهما من (البخل والسرف) يتصلان بسلوك الإنسان النابع من نفسيته، والشخصية السوية، أو قل : الإنسان المتصف بالسلوك السويّ، هو الذي يتنازل عن ذاته ويتجه إلى الآخرين، والسخاء من هذا النوع، صفةٌ تُخرِجُ المرء من دائرة ذاته إلى الاتجاه نحو الآخرين، فتفيض من ممتلكات ذاتها على الناس، فهو سمحٌ كريم، يجود بما عنده على الناس. . . وبذلك يكون محموداً بين الناس، سعيداً عند الله .

ومهما نقل في السخاء والتكرم، فلن نبلغ ما أدلى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أقوال عظيمة شريفة بهذا الخصوص، فقد اعتبر الكرم من أخلاق الله تعالىٰ، وأخلاق أنبيائه وأوليائه .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«السخاء خلق الله الأعظم»**(١) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : **«إن ربكم حيِيّ كريم»**(٢) .

وقال أيضاً : **«إن الله أكرم الكرماء»**(٣) .

وقال أيضاً : **«ما جَبَلَ اللّهُ ولياً له إلاّ على السخاء»**(٤) .

---

(١) ميزان الحكمة : المجلد الرابع، باب السخاء ص : ٤١٨ نقلاً عن ميزان الحكمة .

(٢) ـ(٣) ميزان الحكمة : المجلد الثامن، باب الكرم ص : ٣٦٤ .

(٤) ميزان الحكمة : المجلد الرابع، باب السخاء ص : ٤١٨ نقلاً عن ميزان الحكمة .

وقال علي ﵇ : **«الجواد في الدنيا محمود وفي الآخرة مسعود»**[1] .

وعنه ﵇ : **«الكريم عند الله محبورٌ مثابٌ وعند الناس محبوب مهاب»**[2] .

والسخاء صفة تنبع من النفوس الهميمة العالية، التي تستبشر بالبذل وتفرح بالعطاء والإنفاق، ويظهر ذلك على وجوههم، هشاشةً وبشاشةً ويتمتع الكرماء بطيبةٍ وصفاء لا يخفيان على أحد .

قال علي أمير المؤمنين ﵇ : **«الكرم نتيجة علوّ الهمّةِ»**[3] .

وقال ﵇ : **«يُستدل على كلام الرجل بحسنِ بشره وبذل برِّهِ»**[4] .

وعنه ﵇ : **«السخاء خلق الأنبياء»**[5] .

ومن منطلق كون السخاء صفة نفسية نابعة من نفس كريمةٍ طاهرة نقية محبة للخير والصلاح، فلا بد أن تتجاوب النفوس مع هذه النفس، وتتأثر بها، ويكون لها مردود حسن لهذا الخلق السويّ والصفة المثالية. . ولا بد من نتائج إيجابية تترتب على السخاء والجود في نفوس الآخرين، وهو ما نلاحظه من حب الناس للكريم، وتعاطفهم معه في قضاياه، وميلهم إليه، وتفضيلهم له على غيره في موارد الاختيار .

فقد سُئِل بعضهم: بمَ سدت قومك؟ .

فقال : أكرمت إليهم، واسعفت حاجاتهم، وقمت على شؤونهم كالأب الرؤوف على أولاده .

وعن هذه الآثار والنتائج الإيجابية النفسية المتبادلة بين السخي وبين الناس، يقول أمير المؤمنين ﵇ :

---

(١) ميزان الحكمة: المجلد الثاني : ١٨٦ .

(٢) ميزان الحكمة : المجلد الثامن : ٣٦٦ .

(٣)-(٤)ميزان الحكمة : المجلد الثامن : ٣٦٢ .

(٥) ميزان الحكمة : المجلد الرابع : ٤١٨ .

١ ـ **«السخاء يزرع المحبة»**[١] .

٢ ـ **«السخاء يثمر الصفاء»**[٢] .

٣ ـ **«السخاء يُكسب المحبّة ويزين الأخلاق»**[٣] .

٤ ـ **«السخاء يمحّص الذنوب ويجلب محبة القلوب»**[٤] .

٥ ـ **«عليكم بالسخاء وحسن الخلق فإنهما يزيدان الرزق ويجلبان المحبة»**[٥] .

٦ ـ **«السخاء مستر العيوب»**[٦] .

٧ ـ **«غطاء العيوب : السخاء والعفاف»**[٧] .

٨ ـ **«غطّوا معايبكم بالسخاء فإنه ستر العيوب»**[٨] .

٩ ـ **كثرة السخاء تكثر الأولياء وتستصلح الأعداء»**[٩] .

وكما أن السخاء يثمر النتائج الحسنة في الدنيا، كذلك هو في الآخرة، يعطىٰ السخيّ فوق حقه، ويخصه الله بلطفه .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة»**[١٠].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعدي بن حاتم الطائي : **«دُفِعَ عن أبيك العذاب الشديد لسخاء نفسه»**[١١].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : **«شاب سخيٌّ حسن الخلق أحبُّ إلى الله تعالىٰ من شيخ بخيل عابدٍ سيِّء الخلق»**[١٢].

وروي أن جماعة من الأسرى جيء بهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأمر من يضرب أعناقهم. . ثم أمر بإفراد واحد منهم لا يقتله! فقال الرجل : لِمَ أفردتني من أصحابي والجناية واحدة؟ .

---

(١) ـ(٥) ميزان الحكمة : المجلد الرابع، باب السخاء ص ٤٢٠ .

(٦) ـ(١٢) ميزان الحكمة : المجلد الرابع، باب السخاء ص ٤٢٠ .

فقال له: إن الله تبارك وتعالىٰ أوحىٰ إلي : إنك سخي قومك ولا أقتلك .

فقال الرجل : فإني أشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله، وأنك محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [1] .

وقد لا يكون الإنسان سخياً بطبعه وذاته، وفي هذه الحالة، عليه أن يتصنع السخاء، ويحتذي بالأسخياء جهده، ويحاول أن يعمل عملهم، ويسير بسيرتهم، ليتطبع بهذا الطبع العظيم، ويتخلق بهذا الخلق السامي .

ولو تيقّن الإنسان أن ما يبذله وينفقه على الآخرين لأجل الله، سيعود عليه بأضعاف ذلك، ولو وثق أن الله عزّ وجلّ يعوّض المال الذاهب في السخاء بأكثر منه في الدنيا والآخرة، لهان عليه البذل والعطاء، ولَسهُل عليه أن يتخلق بالسخاء والجود.

قال صلى الله عليه وآله وسلم : **«من أيقن الخلف سخت نفسه بالنفقة»**[2] .

وعن الصادق عليه السلام : **«من صدّق بالخلف جاد بالعطيّة»**[3].

وربما لاحظ الكثير منا أن السخي الباذل، يوسع الله عليه أكثر من غيره، ويفتح له أبواب الرزق، ويعينه على سخائه وكرمه، ولا يدعه يفتقر بسبب ما أنفق في سبيل الله .

قال الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام : **«السخي الحسن الخلق في كنف الله لا يتخلىٰ الله عنه حتى يدخله الجنة وما بعث الله نبياً إلاَّ سخياً وما زال أبي يوصيني بالسخاء وحسن الخلق حتى مضىٰ»**[4] .

يأخذ الله بيد الكريم السخي، يقيله عثراته ويسعفه في الشدائد والملمات .

وتاريخ الإسلام يزخر بأمثلة كثيرة عن الأسخياء والأجواد، ممن علت

---

(١) ميزان الحكمة : المجلد الرابع، باب السخاء ص ٤٢٠ .

(٢)-(٣) تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي : ٣٩٢/١٦ .

(٤) الإمام موسىٰ بن جعفر : للدخيل (الأقوال والحكم) .

نفوسهم وعظمت هممهم فأنفقوا وبالغوا في الإنفاق حتىٰ خلّدهم التاريخ وكتب أسماءهم في العظماء.. وراحوا مثلاً في الجود والعطاء.

وربما سأل سائل عن سرّ هذه الكثرة من أهل الجود والسخاء في تاريخ المسلمين، وبخاصة بين العرب.. بشكل يندر وجوده في مجتمعات أخرىٰ؟

والجواب يتلخص في أن العرب قوم كرماء بالطبع، وأسخياء بالفطرة حتى قبل ظهور الإسلام فيما بينهم. فقد عرفوا ببسط اليد منذ العصور القديمة كانوا يرون الجود فضيلة، والبخل رذيلة يُعاب عليها المرء، ويذكر المتصف بأحدهما في حياته وبعد موته، فالجواد يبقىٰ جوده مفخرة لبنيه وذريته بعده، والبخيل يبقى سُبّة في أهله وذويه بعده.. وأرى نفسي في غنىً عن ذكر أمثلة ذلك من التاريخ لكثرة هذه الأمثلة والشواهد، ووفرتها، وتواترها منهم (هاشم) جدُّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، الذي طعم قومه في سنة جدب وهشم لهم الثريد، حتى لُقِب بهاشم.. وهذا حاتم طي زيّن التاريخ بقصص جوده وكرمه.

ثم جاء الإسلام، وصبغ السخاء بصبغة دينية روحية.. واعتبره عملاً معنوياً يقرّب إلى الله، فوق كونه خلقاً اجتماعياً عالياً، ووردت النصوص الشرعية المتواترة الكثيرة التي تقيم السخاء، وتمدح الجود وتشجع على الكرم، وتمنح الأجواد مكانة خاصة، ودرجة عالية..

فكان أن توافق الدين مع نداء الفطرة في قوم تأسست حياتهم ـ أصلاً ـ على القيم والمبادىء.. فاعتبروا البخل والشح ومنع العطاء وصمات عار تناقض هذه المبادىء والقيم، فعافتها نفوسهم.. وكرهوا البخل والبخلاء، وتعلقت نفوسهم بالبذل والجود، وأحبوا الكرم.. وهو عين ما أراده الإسلام وحثّ عليه.. وجرت خصلة الكرم في دماء البعض منهم، وتوارث الأبناء والأحفاد صفات آبائهم حتى اليوم.. بخلاف غيرهم من الشعوب والأمم.

وثمة أقوام يعتبرون السخاء سخفاً، والجود جهلاً، والكرم حمقاً أجارنا الله منهم، وأبعدنا عنهم، تأصل فيهم البخل، وجرىٰ الفقر في دمائهم، حتىٰ فخروا به، وادعاه الجميع حتى الأغنياء منهم.

ولقد اخترت في هذا الفصل نموذجاً واحداً من معادن الكرم، لأجعله زينة هذا الفصل واختم به الحديث . .

إنه سيد من سادات أهل البيت عليهم السلام ، ممن أشاد مجداً شامخاً ببذله وعطائه، وبنىٰ صرحاً سامياً من السؤدد والتلاد العظيم ولم يقتصر سخاؤه على ماله، بل جاد بنفسه وحياته في سبيل الله أيضاً . . وراح شهيداً وكُتب اسمُهُ في سجل الخالدين . . وهذه ميزة الكرم تجعل المرء معطاءً لا يبخل بشيء، حتى بحياته حفاظاً على مبادئه وقيمه، وكثيراً ما يقدّم القرآن انفاق المال على انفاق النفس، لأن الذي يعجز عن انفاق المال لا يقوىٰ ـ بطبيعة الحال ـ على بذل نفسه .

إنه (الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) عليهم الصَّلاة والسَّلام[1] .

عرف عنه الجود الكثير، والعطاء المتواصل، وقد وقع اختياري عليه، لأن شخصيته مجهولة لدىٰ كثيرٍ من الناس، ولم ينل حظه من التعريف به، والإشادة بحياته الكريمة، أحببتُ أن أنوّه بذكره هنا من خلال الحديث عن الكرم والكرماء .

كان رضوان الله عليه أعجوبة دهره في البذل والانفاق، والتنازل عن الذات لصالح المحتاجين والمعوزين والعافين .

روىٰ الأصفهاني في (مقاتل الطالبيين) عن الحسين بن هذيل، قال: بعتُ للحسين بن علي حائطاً بأربعين ألف دينار، فلما صارت الأموال إليه

---

(١) كنيته : أبو عبد الله، وأمه زينب بنت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وكان يُقال لها ولزوجها علي بن الحسن : الزوج الصالح، لعبادتهما، وهما أبناء عم ، قتل المنصور الدوانيقي أباها وأخاها وعمومتها وبنيهم وزوجها، فكانت تلبس المسوح، ولا تجعل بين جسدها وبينها شعاراً حتى لحقت بربها . .

ثار الحسين المعروف (بشهيد فخ) أيام الهادي العباسي، لما ناله وأهله من الظلم والجور وقتل شهيداً رضوان الله عليه. تجد أخباره في (مقاتل الطالبيين) لأبي الفرج الأصفهاني .

جلس على باب داره، وجعل ينثرها على الفقراء والمحتاجين، فما دخل إلى أهله منها شيء أبداً، وكان يعطيني كفاً كفاً، فأذهب به إلى فقراء المدينة(١) .

وروىٰ أيضاً عن يحيىٰ بن سليمان، قال: اشتُري للحسين بن علي صاحب فخ، ثوبان، فكسا خادمه أبا حمزة ثوباً منهما، وارتدىٰ هو بثوب، فبينا هو في طريقه إلى المسجد إذ استوقفه سائل وسأله، فقال: اعطِهِ يا أبا حمزة ثوبك، فقال أبو حمزة: أمشي بغير رداء؟ فلم يزل يأمره أن يعطي ثوبه للسائل حتى أعطاه. . ولكن السائل ظل يمشي وراءه حتىٰ أتىٰ منزله، فنزع الحسين ثوبه أيضاً وقال له : ائتزر برداء أبي حمزة وارتَدِ بهذا! .

يقول أبو حمزة : فتبعته فاشتريت الثوبين منه بدينارين، وأتيتُ الحسين بهما. فقال: بكم اشتريتهما؟ قلت : بدينارين .

فأرسل إلى السائل يدعوه ليعيد عليه الثوبين، فقلت له : امرأتي طالق إن رددتهما عليه أو دعوته، فحين حلفت تركه(٢) .

ومن لطيف ما يروىٰ عنه: عن هاشم بن قريش، قال: أتىٰ رجل الحسين بن علي صاحب فخ، فسأله، فقال الحسين : ما عندي شيء أعطيكه ولكن اقعد حتى يجيء أخي الحسن ـ وكان الحسن مكفوفاً ـ فإذا جاء فقم فخُذ حماره ! .

فلم يكن أسرع ان جاء الحسن، فنزل عن حماره، فقاده غلامه إلى مجلس الحسين فلما استَقَرَّ بِهِ المكان أشار الحسين إلى السائل أن قم فخذ الحمار، فجاء إليه ليأخذه فمنعه الغلام، فأشار إليه الحسين، وأمر الغلام أن يدفع الحمار للرجل، فمضىٰ الرجل بالحمار، وقعد الحسن عنده، فتحدّث ما شاء الله، ثم قام وقال : يا غلام، قدِّم الحمار. فقال الغلام : جُعِلت فداك أمرني أخوك أن أدفعه إلى سائل فدفعته إليه .

فأدار الحسن وجهه إلى أخيه الحسين وقال: جُعلت فداك، أَعَرْتَ أم

---

(١) مقاتل الطالبيين : ٤٣٩ .

(٢) مقاتل الطالبيين : ٤٣٩ .

وَهَبت؟ ثم استدرك قائلاً : بل والله لا أرىٰ مثلك يعير، يا غلام قُدني[١] .

ويروىٰ أيضاً عن جوده وبذل يده، أنه جاءه رجل فسأله، فلم يكن عنده شيء يعطيه، فأقعده، وبعث إلى أهل داره قائلاً لهم: من أراد أن يغسل ثيابه فليخرجها، فأخرجوا ثيابهم ليغسلوها، فلما اجتمعت، قال للرجل : خذها[٢] .

وحين لامه بعض خدمه على مبالغته في الإنفاق، قال له : (يا فلان، إن لنا رباً يعرف الحسنات، وإني لأخاف أن لا يقبل مني، لأن الذهب والفضة والتراب عندي بمنزلة واحدة)[٣] .

وربما اعترض البعض على هذا الأُسلوب في الإنفاق، واستهلاك المال، ويعتبر ذلك مخالفاً لما أمر به الله سبحانه وتعالىٰ من القصد، وعدم السرف، حيث قال عزّ من قائل :

﴿ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾[٤] .

وقد نهىٰ الباري عن الإسراف والتبذير في كثير من موارد الذكر الحكيم، وعدَّ ذلك ميلاً عن الطريق الأمثل، باتجاه التطرف في الإنفاق، وإتلاف المال.

والحقيقة : ليس الأمر حيث يذهب هؤلاء المعترضون ، إذ إن السخاء والإنفاق على أهل الحاجة والفقراء. . قد يبدو وكأنه مضادٌ لِسِمَةِ الاقتصاد في البذل، والتعامل مع الثروة بشكل معقول، إلاّ أن التأمّل والنظر بدقة يقودنا إلى استخلاص أن السرف الذي هو بخلاف القصد، يختلف عن الجود والكرم، اختلافاً كبيراً.

فالسرف عبارة عن الإنفاق المقترن بالأنانية، وحب الذات، وتبذير الثروة في غير حاجة، معناه: الإنفاق على النفس، والإكثار منه، إشباعاً

---

(١) -(٣) مقاتل الطالبيين : ٤٤٠ .

(٤) سورة الإسراء ؛ الآية : ٢٩ .

للشهوات والأطماع والأهواء، دون التوجه إلى الآخرين.. كما كان يفعل بعض الخلفاء من بني أمية وبني العباس وأمثالهم، ممن كان يتصرف بأموال المسلمين، دون رضاهم، ويبذرها في سبيل رغباته المحرمة، ويسرف في البذخ على حساب الفقراء والمساكين ومَن لم يكن يجد قوت يومه من عامة الناس هذا هو الإسراف والتبذير، فلا يصح أن يعد ذلك منهم كرماً وجوداً.

قال أمير المؤمنين عليه الصَّلاة والسَّلام: «**ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة، ويكرمُهُ في الناس، ويهينُهُ عند الله، ولم يضع امرؤٌ ماله في غير حقّهِ، ولا عند غير أهله، إلاّ حَرَمَهُ اللَّهُ شكرهم...**»[1].

إن التصرف في المال بشكل أناني تبذير وهدر له، وهو منهيٌّ عنه في الشرع الحنيف.

أما لو كان المال يستهلك في إغاثة الملهوفين، وإعانة المعوزين، وسدِّ الثغرات في حياة ذوي الحاجة.. إن كان يُصان به العرض والشرف.. فإنه ليس سرفاً ولا تبذيراً، ولو كان الكرم سرفاً، لما كان محموداً، ولما اتصف به كل أولياء الله، من الأنبياء والأئمة والصالحين، كما مرَّ في النصوص السابقة.

فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كان يعطي ـ كما روي عنه ـ عطاء من لا يخاف الفقر!.

روي عن أنس: إن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأعطاه غنماً ملأت بين جبلين فأتىٰ قومه، فقال: يا قومِ أسلِموا، فوالله محمداً ليعطي عطاء إن لا يخاف الفقر[2]!.

وهذا الحسن والحسين عليهما السلام، ضرب بهما المثل في عطائهما وجودهما وكذلك عبد الله بن جعفر، وغيرهم ممن زينوا تاريخ المسلمين

---

(١) نهج البلاغة: النص ١٢٦.

(٢) حياة الحيوان للدميري: ٢/١٢٢.

بأمثلة سخائهم وكرمهم .

عن الحسن البصري قال: إن الحسين بن علي ، ذهب ذات يوم مع أصحابه إلى بستانه، وكان في ذلك البستان غلام للحسين، يُقال له : صافي ، فلما قرب من البستان رأى الغلام قاعداً يأكل الخبز، فجلس الحسين عنه بعض النخل، بحيث لا يراه الغلام فنظر إليه وهو يرفع الرغيف، فيرمي نصفه إلى كلب كان عنده، ويأكل نصفه.

فتعجب الحسين من فعل الغلام، فلما فرغ من أكله، أقبل إليه الحسين وقال: يا صافي ، فقام الغلام فزعاً وقال : يا سيدي وسيد المؤمنين إلى يوم القيامة، إني ما رأيتك فاعف عني .

فقال الحسين : إني رأيتك ترمي نصف الرغيف إلى الكلب وتأكل نصفه، فما معنى ذلك ؟ .

فقال الغلام : إن هذا الكلب نظر إليّ وأنا آكل، فاستحييت من ربي ، وهو كلبك يحرس بستانك، وأنا عبدك نأكل رزقك معاً .

فبكى الحسين ، وقال : إن كان كذلك، فأنت عتيق لله تعالى ووهبت لك البستان، ووهبت لك ألفي دينار .

فقال الغلام: إن اعتقتني، ووهبتني بستانك، فإني أقوم عليه، وقد سبَّلتُهُ لأصحابك وشيعتك[1] .

وهكذا يكون السخاء في حد ذاته فضيلة، وشعوراً بالمسؤولية، ويمثل سمواً في النفس، وعلواً في الهمّة، وزيادة في الشرف، ونبلاً من الشخص. . ولو صار مقروناً بالإيمان والتُقى، فلا توازيه فضيلة، ولا يماثله عمل .

---

(١) المجالس السنيّة للسيد محسن الأمين : ١/٢٦، وذُكر نظير هذا الخبر في كتاب قصص العرب : ١/٢٢٣، ونسبه إلى عبد الله بن جعفر .

خاتمة

الحمد لله رب العالمين حيث أعانني ووفقني لإتمام هذا العمل المتواضع، وأرجو أن يقع موقع القبول من الله تعالىٰ، والرضا من الناس .

وربما كان في هذا الكتاب ما لا ينبغي أن يكون، أو لم يكن فيه ما كان ينبغي أن يكون، أو لعلي تخطيت الصواب عن غير قصد. .

لذلك كله أرجو أن يصفح عني قرّاؤه من أهل الفضل والأدب والعلم، وأن ينبهوني إلى مواطن الزلل والتقصير .

وإن كان لي شيءٌ من الأجر والثواب عند الله تعالىٰ، على عملي هذا فإني أهديه لوالدَيَّ الكريمين اللذين غرسا في نفسي الإيمانَ بالله والحبَّ للنبي وآله الأطهار .

ربِّ اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً واجزهما بالإحسان إحساناً وبالسيئات غفرانا .

«ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين»[1] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلىٰ اللّه على محمَّد وآله الطيبين الطاهرين .

رمضان /١٤١٦ هجـ

السيّد عبد الحسين القزويني

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٦ .

مصـــادر الكتــاب

١ ـ **القـرآن الكريـم** .

٢ ـ **نهج البلاغة** ـ من خطب سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

٣ ـ **غرر الحكم** ـ للآمدي .

٤ ـ **بحار الأنوار** ـ للعلامة المجلسي .

٥ ـ **تحف العقول** ـ لابن شعبة .

٦ ـ **دراسات في علم النفس الإسلامي** .

٧ ـ **علم النفس والحياة** ـ للدكتور محمد نجاتي .

٨ ـ **تفسير الميزان** ـ للطباطبائي .

٩ ـ **التحليـل والصحة النفسيـة** ـ إبراهيم عبـد الله والـدكتـور محمـد مصـطفىٰ زيدان .

١٠ ـ **تفسير مجمع البـيـــان** ـ للطبرسي .

١١ ـ **جامع السعادات** ـ للنراقي .

١٢ ـ **قصص العرب** ـ لمجموعة مؤلفين .

١٣ ـ **حياة زين العابدين** ـ للدخيّل .

١٤ ـ **الكشكول** ـ للشيخ البهائي .

١٥ ـ **شجرة طوبىٰ** ـ للمحدث المازندراني .

١٦ ـ **في النفس والمجتمع** ـ لمحمد قطب .

١٧ ـ **ربيع الأبرار** ـ للزمخشري .

١٨ ـ **ميزان الحكمة** ـ للري شهري .

١٩ ـ **الإمام الصادق والمذاهب الأربعة** ـ أسد حيدر .

٢٠ ـ **المناقب** ـ لابن شهر أشوب .
٢١ ـ **شرح نهج البلاغة** ـ لابن أبي الحديد .
٢٢ ـ **الإمام الصادق** ـ للمظفري .
٢٣ ـ **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ـ لمحمد فريد بگ المحامي .
٢٤ ـ **حياة الحيوان** ـ للدميري .
٢٥ ـ **إرشاد القلوب** ـ للديلمي .
٢٦ ـ **الأخلاق** ـ للسيد عبد الله شبر .
٢٧ ـ **العلاج النفسي الحديث قوة للإنسان** ـ الدكتور عبد الستار إبراهيم .
٢٨ ـ **الأخلاق** ـ محمد تقي الفلسفي .
٢٩ ـ **سفينة البحار** ـ للمحدث القمي .
٣٠ ـ **مقاتل الطالبيين** ـ لأبي الفرج الأصفهاني .
٣١ ـ **وقائع الأيام** ـ للشيخ عباس القمي .
٣٢ ـ **الكافي** ـ للكليني .
٣٣ ـ **المستطرف في كل فن مستظرف** ـ للأبهيشي .
٣٤ ـ أئمتنا ـ للدخيّل .
٣٥ ـ **جامع الأخبار** ـ للسبزواري .
٣٦ ـ **الإستيعاب** ـ لابن عبد البرّ .
٣٧ ـ **الكنىٰ والألقاب** ـ للمحدث القمي .
٣٨ ـ **معاوية** ـ لعباس محمود العقاد .
٣٩ ـ **نساء النبي** ـ لبنت الشاطىء .
٤٠ ـ **صحيح مسلم** .
٤١ ـ **الأذكياء** ـ لابن الجوزي .
٤٢ ـ **معراج السعادة** .
٤٣ ـ **تفسير القرطبي** .
٤٤ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة** ـ لابن حجر .
٤٥ ـ **العقد الفريد** ـ لابن عبد ربه الأندلسي .
٤٦ ـ **أسد الغابة** ـ لابن الأثير .
٤٧ ـ **التفسير الكبير** ـ للفخر الرازي .

٤٨ ـ **دار السلام** ـ للعلامة النوري .
٤٩ ـ **تفسير الأحلام** ـ لعصام الدين محمد علي .
٥٠ ـ **الثاقب في المناقب** ـ لابن حمزة .
٥١ ـ **عيون أخبار الرضا** ـ الصدوق .
٥٢ ـ **أدب الطف** ـ للسيد جواد شبر .
٥٣ ـ **الشوقيات** ـ ديوان أحمد شوقي .
٥٤ ـ **التهذيب** ـ للطوسي .
٥٥ ـ **أصول الكافي** ـ للكليني .
٥٦ ـ **القلب السليم** ـ السيد عبد الحسين دستغيب .
٥٧ ـ **محاسبة النفس** ـ لعلي بن موسى . . بن طاووس .
٥٨ ـ **محاسبة النفس** ـ لتقي الدين العاملي .
٥٩ ـ **كلمة الله** ـ للسيد حسن الشيرازي .
٦٠ ـ **نور الأبصار** ـ للشبلنجي .
٦١ ـ **الإمام الصادق والواقع المعاش** ـ للسيد عبد الحسين القزويني .
٦٢ ـ **الحياة** ـ للحكيمي .
٦٣ ـ **خفايا أموية** ـ للسيد محمد القزويني .
٦٤ ـ **المجالس السنيّة** ـ للسيد محسن الأمين.

الفهرس